منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات آدمي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS
Paradigme

صدَر للمؤلف

الكتابات الطبية

المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-للأطباء والطلبة

دليل المرَبّي في التثقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986

سلسلة كتب التثقيف الصحي –الدار العربية– تونس 1984

تاريخ الطب للأطفال –دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المرّيخ: دار الرأي -تونس 1982

دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي -تونس سنة 1986

الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996

هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001

من الخراب إلى التأسيس –المركز المغاربي –لندن 2003

عن أية ديمقراطية تتحدثون؟ - *دار الأهالي –دمشق* 2004

حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان – *دار الأهالي دمشق* -2006

إنها الثورة يا مولاي – الدار المتوسطية – تونس 2011

اختراع الديمقراطية – التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014

ننتصر أو ننتصر –من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية – تونس 2014

المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية –الدوحة 2022

الكتابات الفكرية والأدبية

في سجن العقل -أقواس – تونس 1990

حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان – القاهرة 1996

الإنسان الحرام – قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان--دمشق 2003

الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983

الرحلة-طبعة دار الأهالي –دمشق 2002-، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015

شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018

بالفرنسية

- **L’arrache corps** : Essai sur l’expérimentation humaine en médecine - Edit alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L’atelier - Paris 2009
- **L’invention d’une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir** ? Éd paradigmes - Tunis 2019

الموقع على الانترنت

www.Moncefmarzouki.com

إلى حرّة، هناء، هالة، آمنة
وكل الأطفال المشاغبين

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الاحرام والوصول

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: الغريب

الكتاب السادس: الملحمة

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم هذه الطبعة لكتاب الرحلة

صيف 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طب سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانيات والتي سيتم عزلي منها نهائيا سنة 2000.
قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة.
الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ تلك مواضيعُ أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.
المواضيع الطبية؟ بأي معطيات وقد تمّ حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أرأسه؟
لم يبق إلا الكتابة الأدبية، فهي ليست بحاجة لمعطيات ثم هي ستُنسيني لحظةً هموم السياسة وتروّح عن النفس كربها. لمَ لا أكتب للتسلية وتغيير الجوّ... رواية من الخيال العلمي؟
يقال إذا عُرف السبب بطل العجب والسبب في قضية الحال نهَم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنتُه إبان المراهقة.
أول إشكالية: أي عقدة لروايتي؟
لتكن عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمّرها البشر وانقرضوا.
فكرة مبتدئين استُنفذت لاستخدامها ألف مرة ومرة.
إذن لأجعل المستكشفين يسقطون بالصدفة على النصّ الذي سأترك، يعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنَت هذا الكوكب وأسباب انقراضها.
تطوّرٌ إيجابي لكن غير كافٍ لرواية تمشي بذِكرها الركبان.
ماذا لو جعلتُ من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مِهنتُهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم المولعين بتكديس العوالم المنقرضة؟ (كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهربة لتزيين حدائقهم وصالوناتهم الفاخرة)
لأجعلهم يجدون في نصي الذي عثروا عليه بالصدفة كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عَبَرتُ، وربما حتى لبعثي حيا أرزق من جديد.
هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟
المشكلة من البداية أن هؤلاء التجار-العلماء بأمسّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعذبوا في النموذج الأصلي.
من أين لي جمع المعطيات الضرورية عن العالَم الذي سيتكلّف روّاد الفضاء اللامتناهي بإعادة خلقه وأغلبُها مبعثرة في فوضى رهيبة داخل ذاكرتي. تَصوّر مكتبة تكدّست فيها على مر السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها.
الأهم من هذا. بديهي أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة، يجب أن أكون بِنفسي فاهما قوانين هذا العالم والحالُ أنني لا أزداد بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.
هكذا تراجع الطموح الأخرق تدريجيا لينحصر الاهتمام في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكلت قصة حياتي التي سميتها الرحلة.
هكذا تمّ التخلي نهائيا في هذه الطبعة عن آخر بقايا مشروع رواية الخيال العلمي ليتحول النص لشيء مختلف تماما.
هل النص إذن سيرة ذاتية؟
الجوابُ نَعم ولا.
من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدةٌ من تجربتي الشخصية، أن مشاعر وأفكار الراوي هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟
إلا أن مِن تقاليد كتابات السيرة الذاتية تحديد المكان والزمان للأحداث التي يرويها الكاتب، مع احترام تسلسلها الزمني، وكل هذا غائب تماما في النص.
خاصّيةٌ قارّةٌ أخرى لكتابات السيَر الذاتية تَجاهلها النص: ادعاؤها أنها تروي الأحداث كما حصلَت فعلا وهو ما لا أدّعيه مطلقا.

أذكر حقّا أنني كنت عاكفا على لوحي في الكُتّاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعبث برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأتُ أتعلمها فصرخ في وجهي المؤدِّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر جيّدا أن والدتي قالت لي يوما ضاحكة إنني كِدت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضَعف بصري ووضع نظارات على أنفي... وأن والدي غضب غضبا شديدا لمّا علم بالقصة. مَن هذا الدعّي الذي تجاسر على الاعتقاد بأن ابنه يمكن أن يكون متخلفا ذهنيا! لكن هل نصحها المعلم بأخذي لتعلّم رعي الخرفان عند أخوالي أورعي البعير عند أعمامي كما أروي في النص؟

أليس هذا حال كل السيَر الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدْر من الواقع ومن الخيال.

نقطة اختلاف إضافية مع السيرة الذاتية.

خاصية النص التركيز على مقاطع محدودة من صيرورتي مع اغفال جزء كبير من أحداث مغيّبة التزاما بالقاعدة أن ما نروي عن أنفسنا وما نقرأ عن الأخرين هو دوما الجزء الظاهر على السطح من جبل الجليد.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية ذات قيمة بعد التخلي عن طموح تصدرها قائمة روائع أدب الخيال العلمي؟

حقا توجد فيه جلّ العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت اسطورة مقدسة أو قصة بوليسية.

كما هو الحال في كل رواية، الراوي مزيج من الأنا ومن شخص خيالي ومن ثم التغيير المتواصل لضمير الفاعل. هو رجل مرهق يجلس في خريف حياته لذاكرته يستخرج منها كل ما حفلت به من ملفات حول ما رأى وما جرّب وما فكّر فيه وما تخيّل طيلة الحياة.

لرسم صور أبطال النص غرفت حقا من طبائع بعض من عرفتُ وعاشرتُ من البشر، لكنني غرفت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطالِ كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعتني بطابع لا يمحى.

خاصية أخرى وفضل للرواية أنها تسمح بتوسيع مجال السرد إلى الأقصى إذ لم يعرف للسيرة الذاتية على ما تحفل به عادة من أكاذيب ومغالطات التبحر في وصف خروج الراوي من الرحم ودخوله القبر.

كما هو الحال في كل رواية تحترم نفسها وقارئها ثمة في النص -بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرفَ من مصاعب-خاتمة بل وسعيدة أيضا.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف النص رواية.

القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أن الراوي يحكي في الصنف الأول قصة حياته وفي الصنف الثاني قصة شخص ثانٍ، ولو أنه عادة شخصه تحت أقنعة أخرى.

وفي الشكلين من النادر أن يطرح الكاتب مغزى الحياة كقضية أساسية أو أن يكون هاجسه البحث في الأسئلة الكبرى التي يثيرها وجود البطل وبقية بشر القصة.

إنها إشكالياتٌ إما غائبة تماما أو يقع التعرض لها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة الجادة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من وظائف الدين (أي الشكل الأدبي والشعبي للفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتنظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقتير شديد.

حتى دستويفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية كان يحترم هذه القاعدة.

العكس تماما هو ما يفعله أو -بالنسبة للبعض-ما يرتكبه النص.

هومن البداية الى النهاية في مواجهة مع ما سماها دستويفسكي الأسئلة اللعينة والتي أخرجها إيليا أبو ماضي أجمل صيغة في طلاسمه الشهيرة، أي طبيعة هذا العالم وسبب وجوده ووجودنا.

فالعقدة في النص وخاتمتها السعيدة ليست اكتشاف المجرم كما هو الأمر في الرواية البوليسية أو تحقيق الخلاص الفردي أو الجماعي في الأسطورة، وانما اكتشاف اللغز الكبير لوجود الراوي، الشيء الذي يمكنه من مواساة نفسه الموجوعة بأن حياته مثل موته لم تكن عبثا.

هل الرحلة إذن أطروحة فلسفية؟ الردّ مجددا نعم ولا.

بداهة لا يمكن وضع النص في خانة الفلسفة لأنه حافظَ كما رأينا على أهم عناصر الرواية في جزء منه وفي جزء آخر على بعض مكونات السيرة الذاتية. لكنه بما لا يدع مجالا للشكّ رؤيا تتشكل تدريجيا سعيا للإجابة عن أسئلة من صميم الفكر الفلسفي والديني.

يصبح السؤال – وربما التهمة المبطنة-أي نصّ هذا الذي يجمع بين ميادين بمثل اختلاف السيرة الذاتية والرواية والاطروحة الفلسفية؟

لنذكّر أن الحدود بين ميادين الفكر وداخل كل ميدان مصطنعة وخاصة مؤقتة، فالكاتب كالمفكر كالفنان لا يتوقف عن البحث عن صيغ وأساليب ومضامين جديدة.

ليكن أن هذا النص، شكلا ومضمونا، جزء من هذا الحراك الفكري الذي بدونه لا جديد تحت الشمس في أي ميدان.

في آخر المطاف، أي أهمية أن يكون النص سيرة ذاتية أو رواية أو أطروحة فلسفية، وهو كل هذه الأشكال الأدبية في نفس الوقت؟

أليس المهمّ بالنسبة للكاتب المتعة التي يجدها في كتابة نصوصه والأهمّ -دوما بالنسبة إليه -أن يجد قارئه نفس المتعة في قراءتها؟

أليس آخرُ ما يهمّ المشاهد أمام بناية أثرية أو عمارة جديدة معرفة إلى أيّ مدرسة هندسية وفنية تنتمي، كل ما يهمّه مدى تثيره فيه من مشاعر الاعجاب بجمالها وأدراك قدرتها على الاضطلاع بالوظائف المنتظرة منها؟

صورة أخرى قد تعين أكثر على توضيح القصد.

ليتصوّر القارئ نفسه يتجوّل في متحف خصّص رواقا لأعمال الرسّام فان جوج Van Gogh وأنه توقّف طويلا أمام لوحات شهيرة مثل "حقول القمح " و "المزهرية" و" باقة الورود" و" صورة مدام جيتو" و" على باب الأبدية" و "السجناء" و" فلاحون يأكلون البطاطس" و" الأذن المقطوعة" ... الخ.

سينتبه سريعا أن هذه اللوحات المتفرقة الموضوعة جنبا لجنب والتي تبدو متنافرة المواضيع تروي في الحقيقة قصة حياة الفنان ...ومن خلالها تروي قصة الانسان.

إنها منهجية الكتابة والخيار رسم "لوحات حياتية " تختزل أهم مراحل الرحلة متجاهلة أحداث لم يكن لها أهمية أو لم ينتبه الكاتب لأهميتها.

كل الأمل أن يتجوّل القارئ بين هذه "اللوحات" المرسومة بالحروف وأن يتوقف طويلا أمام البعض منها وهو يتأملها كمن يتأمل وجهه في أصفى مرآة.

خاصية أخيرة لهذا النص الصعب التصنيف.

هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن. منذ تلك الفترة وكتابة "الرّحلة" لم تتوقف إلى اليوم.

كنتُ أغتنم-حتى وانا في الحكم، كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين-للاختلاء بالنص أحيانا للرابعة صباحا، ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ.

نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم عليّ بأربع سنوات سجن غيابا، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبعات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية [1]

أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والكتابُ في المطبعة.

لا شكّ أيضا ان سهولة الإضافة والحذف والتصفيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهّل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملي "الأيام " لا أدوات للمستكتب إلا الورق والقلم والمحبرة.

السبب الأساسي أن الحياة بتجاربها المتلاحقة لا زالت متواصلة ومن ثمّ ضرورة مواكبة النص لموضوعه ...مما يعني أن "الرحلة " في شكلها الأخير هي ما سيتوفر للقراء صبيحة وضع الكاتب رحله نهائيا.

كل أملي أن يكتشف القارئ أن رحلتي هذه في التفاصيل والمتغيّرات رحلةُ ذات وفي العموميات والثوابت رحلتُه ورحلة كل ذات.

**

[1] الموقع: www.moncefmarzouki.com

الكتاب الأول
الإحرام والوصول

جِئتُ لا أَعلَمُ مِن أَين وَلَكِنّي أَتَيتُ

وَلَقَد أَبصَرتُ قُدّامي طَريقاً فَمَشَيتُ

وَسَأَبقى ماشِياً إِن شِئتُ هَذا أَم أَبَيتُ

كَيفَ جِئتُ كَيفَ أَبصَرتُ طَريقي

لَستُ أَدري

إيليا أبو ماضي

مقدّمة الكتاب الأول

"اللّهم أتمم هذه الرّحلة على خير."
همس الرجل بالجملة ساهماً، ثمّ تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل.
كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء.
أذكر أنّني توقّفت عن كتابة الوصفة، أنّني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:
غدوت مع الأحياء مذ حان مولدي　　إلى اليوم ما ننفكّ في دأب سفرا
وقوله:
أنا باللّيالي والحوادث أخبر　　سفر يجدّ بنا وجسر يعبر
وقوله
وهوّنَ ما نلقى من البؤس أننا　　بنو سفر أو عابرون على جسر

لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ لرهين المحبسين وإنما كانت صلاته صدى لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار، تشارَكَ فيها الأميون مع الفلاسفة وأكثر من شاعر:
''هيا لندع غمّ غد يا صاح (عمر الخيام)
ولنغتنم العمر ببشر وهناء
إن نمض غدا فنحن في رحلتنا
والعائش بالألوف في الدرب سواء''

الحياة رحلة!
لم لا؟ ألا أننزل من بين فخذي امرأة كمسافر ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال العلمي؟
ألا نخترق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟
أليس صحيحا أن الحياة استكشاف ما يحتويه العالم من ظواهر وأشياء وكائنات ومنها الذات، وأوفرنا حظا من ينهي حياته مالئا جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عائدا لصمت العدم بمعنويات السائح الذي اغتنم كل الفرص ولم تغشّه وكالة الأسفار؟
كل هذا صحيح، لكن ثمة شيء في الصورة لا يستسيغه فكري.
هناك طبيعة عالم الرحلة. فيه حقا ما يُستكشف بالجسد، لكن جلّ استكشافي له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن، لا غير.
رحلة الحياة أيضا استكشاف الذات لذاتها، وهذه ليست سفرة في مكان وزمان وإنما غوص بالفكر والخيال والذاكرة في الأعماق المجهولة التي يطفو الأنا الواعي على سطحها.
إجمالا رحلة الحياة تجارب حسية شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه وليس فقط مشيا على طريق يربط بين نقطة وصول اسمها الولادة ونقطة نهاية اسمها الموت.
اعتراض آخر: في رحلة الحياة، الطريق ليس المسار الذي نشقه بمحض إرادتنا نحو هدف نحن من حدّدناه لأنّ أغلب تحركاتنا عليه كتشرّد ورقة خريف تطوّح بها الريح في كل اتجاه... ومع هذا ثمة من يعتقد أن ورقة الخريف هذه هي التي ترسم مسار الريح.
في تشبيه مختلف فيه كثير من التشاؤم نحن نرتحل في الدنيا كالبحارة على سطح المحيط الأهوج وفي الظروف التي وصفها ويلز: سجناء باخرة تتلاعب بها العاصفة، داخلها يتقاتل الركاب، مآلها يوما لا مفرّ منه الارتطام على صخور جزيرة مجهولة حيث ينتظرها الهمج لسرقة ما لم يسرق، لذبح من لم يذبح.
ما المتبقّي إذن من شرعية استعمال صورة كهذه؟
لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها، خاصّة تلك التي تشبّه الحياة بمحنة وامتحان أو بعبث كما قال آدمي عرف باسم المسعدي "شرّ ما فيه أنه لا يدرك أنه عبث".

أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب وأخطر الظروف بدلا من تصوّره منفى ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم ربما لم نقترفه؟
ثم من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل العالم والآدميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعون العالم في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة وكأنهم رفعوا كلهم شعار الشاعر:

سافر تجد عوضا عمن تفارقه	*واتعب فإن لذيذ العيش في التعب (الشافعي)*
إني رأيت وقوف الماء يفسده	*إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب*
والشمس لو وقفت في الجو دائمة	*لملّها الناس من عرب ومن عجم*
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست	*والسهم لولا فراق القوس لم يصب*
والتبر كالترب ملقى في معادنه	*والعود في أرضه نوع من الحطب*

ضرورة السفر أذن واضحة وكذلك أسبابه المتعدّدة.
أول حافز لتدافع الآدميين نحو الأفق خوف أن يؤكلوا أو الطمع في أكل لم توفّره لهم عين المكان.
هكذا ضرب الأوائل في الأرض ذات العرض والطول آلاف السنين جريا وراء طريدة أو هربا من صياد. واقع لم يتغير كثيرا، وكل ما تغيّر أشكال الصيادين والطرائد، ومن ثم ارتحالي ردحا من الزمان هربا من رجال غلاظ سمّمت حياتهم وسمّموا حياتي جريا وراء أمان توفّره أراضٍ لا تعرفني ولا أعرفها.
ثمة أيضا الفضول.
تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الروّاد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا البحر جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء هذه الجبال بحر لا يعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات الخانقة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال! يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلاه الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف أيّ آلهة علّمتهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتدّ آلاف الكيلومترات بناه قوم لا يضاهيهم بشر في التوحّش والتحضّر! يقال إن هناك وراء هذا السور أو تلك الجبال الشامخة بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب.
للرحيل وازع آخر هو الحجّ لأماكن اصطفاها الآدميون وشددت الرحال إليها كالكثيرين، الهاجس لقاء من ضرب لنا فيها موعدا لا يخلف...ربما أيضا لالتقاط الأنفاس فيها لحظة وهي الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقل طيلة الحجّ.
لا غرابة أن اقضّي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.
هكذا تدافعت مع المتدافعين، حاجّا، مستكشفا، فارّا، متشرّدا، سائحا أشدّ الرحال لكلّ فجّ عميق اسمع عنه همّي أن أملأ عيني من العالم كما يملأ الجائع بطنه من الطعام أو التاجر الجشع جيبه من المال.
عاجلا أو آجلا ترتطم بالتحدي الأول: اتساع الفضاء وبالتحدي الثاني: ضيق الزمان الذي خُصّص لنا لاستكشافه.
عالم لا تستنفذه رحلة بطول الأبدية ولا يمنحك إلا قبسا من الزمان!

تتقدّم القراءة كنوع من الحلّ، كسفر بالوكالة والآخر من يحقق لك ما لم تمكّنك الظروف الظالمة من إنجازه.
من المؤكد أن الظاهرة –وأقصد تحديدا القراءة الطوعية-تنطلق باكرا يوم ننتبه إلى أن العالم لا يتوقف عند حدود بيتنا أو قريتنا أو بلادنا، أن مركزه ليس ذاتنا. تأتينا آنذاك رغبة عارمة في الخروج لرحابه الواسعة، عادةً عبر قصص الرحلات، أسهلِ وأقصرِ الطرق إليه ونحن في كل مراحل العمر.
أليست بديلا عن السفرة التي لم تسعفنا الظروف للقيام بها والراوي لرحلته هو من تكلف كل مشاقها، موفِرا علينا مصاعب الرمضاء والجليد وكل ما عانى من أخطار الطريق، لا ندري هل يجب أن نشكره لأنه هو الذي تكلف مشاق وأخطار الطريق أو أن نحسده لأنه هو الذي...تكلّف مشاق الطريق وأخطاره.
داخل ملفاتي المتراكمة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر امتطى مطهّم النصوص.
هكذا ارتحلت مع بحارة حتشبسوت نستكشف بلاد كوش وبونت... مع حنون نستكشف الشواطئ الغربية إفريقيا...مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميّمما وجهه نحو الشرق...مع ابن جبير إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام...مع الشيخ الأكبر والشريف الادريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن جزي وابن الخطيب وهم يتلمّسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي

حمل على مرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.
هكذا ارتحلت مع المجريطي إلى بغداد والبصرة أنقّب عن رسائل اخوان الصفا أعود بها أثمن غنيمة ...مع ابن فضلان أتأمّل معه مشدوها أراضٍ بردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف...مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة...مع ابن البيطار من مالقة إلى دمشق عبر القيروان منقبا في أسرار النبات...مع البيروني ابحث معه عبر ربوع الهند في معتقدات آدميها المقبولة منها والمرذولة... مع التجاني أقارن بين ما رآه من قابس وتوزر ونفزاوة وبين ما أعرف عن ربوع ذرعتها منذ باكر الطفولة.
هكذا ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان...مع ياو بحثا عن جزر هو-تشيو الخمس...مع هوان-شن-تاي ركضا وراء جزيرة الحقيقة...مع شنغ-هي في سفراته السبع نحو شواطئ الجنوب والغرب...
مع كولومب شعاري شعاره: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا...مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرة صفراء اسمها العنبر سمّاها الأوائل دمعة الآلهة.
هكذا ارتحلت مع بحارة نانتيكوت في أخطر وأبعد وأصعب بعثات الصيد، نجري وراء الحوت المسكين، نخرجه داميا من الأمواج نقطع أطنانا من لحمه، نغلّي شحمه في قدور شيطانية، نعود ببقاياه، نتقاسم أقذر الأرباح.
هكذا ارتحلت على متن السفينة "البيجل" راقبت ما يخطه بعصبية رجل اسمه "داروين" ...مع بيري وامندوسن ونوبلي وشاكلتون أستكشفت القطبين.
هكذا ارتحلت مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس كان هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات ومعتقدات" البدائيين" والمتوحشين" هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بعد، أم هل هي حالة "التطور" الذي توقّف عندهم واكتمل عند المستكشف الهمام وقومه الذين موّلوا رحلته.
آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء ...قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا النساء ... نساء قبائل التبوء تتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نسائنا من تجهيز القوافل والضرب في الأرض ذات الطول والعرض ...يا للخسارة، كم ضيّعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلّى إلا عبر عيون الرجال.

يواصل العالم، مهما سافرت بالجسد أو بالقراءة، تحدّيك باتساعه الأخرق وتعقيده المخيف. يتنامى يوما بعد يوم شعورا يشبه الإحساس بالغبن.
كم من بحيرات نار ونور لم أصلها لأملأ العينين منها وهي تتلاطم في أشداق البراكين!
كم من أعاصير وصحارٍ وجبال وغابات وسهول لم يكحّل جمالها عينيّ!
كم من كائنات مدهشة جانبتها وجانبتني لا التفت إليها ولا تعيرني أدنى اهتمام!
كم من آثار كدسها الآدميون على طول الطريق لا علم لي حتى بوجودها!
كم من جزيرة ساحرة تختبئ في أعماق المحيط لم ألجأ إليها ولم أغادرها مودّعا ببكاء السكان ومن يبتلعه الموج يحسب في عداد الأموات!
وأيضا كم من روائع مرّت أمامي تهبني عطائها ولا أنتبه لها!
كم من رسائل رماني بها العالم لم أفهم لها معنى أو حتى لم أنتبه لها أصلا!
تسلّم يوما أنك لم ترتحل إلا على الزبد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.
ومع هذا... يا للحصاد! يا للوليمة...يا للوليمة والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى ، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر!...يا للوليمة والعالم روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسل عن عطر النساء!...يا للوليمة والعالم طعم التين والتمر والزيتون ، الخبز الساخن للجوع والماء الزلال للعطش !..يا للوليمة والعالم خرير ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعد، الرقيق للناي ، نداء عشق حسّون اعتلى شجر التوت ، ضحك النسوة والأطفال ،غناء هامس لجدّة تغزل، آذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!
عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها، وأعمال الفنان الأعظم على ذمتهم، مجانا، في كل لحظة. إنها النماذج التي يقلدها منذ غابر الزمان أنبغ الرسامين... قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من

خلف السحاب، من لجّة الظلام، يختفي في خضم البحر، يخرج منه غير مبلّل... هضاب متموجة من الصحاري الصفر والبيض... أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد... نهر جبار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمل... بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور...ورقة خريف ركبت ظهر الريح جاءتها شهوة السفر... سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصالها مع الثلج، أو بالخضرة المرصعة بكل ألوان الزهور أيام موعدها مع الربيع، وبصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشبق... جبال متكبرة توّجت قممها بالسحاب وبالثلج... أدغال كثيفة تتصبب عرقا تحت سماء بلون الرماد... بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا موجه من ساطع النور... سماء تتلألأ بجواهرها ليلا.

أيضا كم من كائنات تتبارى في الغرابة والاعجاز تزحف على البطن، تطير في السماء، تغوص في أعماق الماء، تمشي على طرفين وعلى أربعة، وكلها تتنافس في الطرافة والإعجاز.

آه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن لأتفحّص أجنحة كل أنواع الفراش.

كأنّ الخطوط والبقع والنقط والأشكال والألوان مادّة خام تمّ مزجها بكيفية مدروسة تلقائية لتجود بما لا يحصى من روائع الفنّ. اعجاز الصنع وعجز الكلام عن وصف المصنوع. جناح الفراش دون شك أروع أقسام متحف الله.

كل يوم جديد والرحلة وليمة الفكر والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغرا واللامتناهي كبرا واللامتناهي تعقيدا.

أنت دوما أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرار تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكأنّ صاحبها يلاعبنا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.

كل هذه الأحاسيس والمشاعر التي جرّبت! كل هذه الأفكار التي تلاطمت داخل ذهني أمام حركة لا تتوقف أبدا تغيّر، تضيف، تحسّن، تعيد باستمرار خلق ما خلقت...كل هذا التعجّب والاعجاب والذات تنتقل من مفاجأة لمفاجأة، تتقلّب بين الرهبة والخشوع، بين الحيرة واليقين...من المهد إلى اللحد، من يدي ربما حتى قبل وبعد.

نعم، يا للحصاد الذي تعجز عن وصفه أكمل لغة طوّعها أفصح لسان لأنبغ مفكّر أو شاعر.

تأتيني يوما رغبة التدوين للرحلة، لكن لأي رحلة؟ بمفهوم التجاني في سفرة الألف يوم بين حاضرتين أم الرحلة بمفهوم المعرّي أي سفرة الحياة بأكملها في عالم الرعب والانبهار هذا؟

ألم أجعل شعاري في الحياة: "عَلَى قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ "؟ ليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق.

أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرّد تخيّل ما يتطلب مشروع كهذا.

من أين للسرد أن يجدّد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفذه وصف؟

من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سفّه كل ما قيل فيه من أقوال؟

أسارع لرمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفلّت ظروف الحياة بوأده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.

تفتعل الفكرة الامتثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح مدجّجة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.

لم لا المحافظة لأحفادي على قصة سيذهب بها النسيان وقد يجد فيها ولو واحد منهم ما يسهّل عليه اختراق الأوقات الصعبة؟

ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحّالة الماضي ما أبعد عنّي أخطارا كثيرة ووفّر عليّ كم من مشقات؟

نعم لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟

وأيضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤرّق المفكرين منذ القدم حتى ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟

أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بذكرها الركبان وتتناقلها الأجيال؟

أليست أفشل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر.

ربما آن الأوان لتنظيم ذاكرة امتلأت وبدأت تفيض بصور مفككة، لعلّ صورة أوضح له تنبثق وذلك لاستعمالي الخاص لا غير؟

يتواصل الشدّ والجذب بين الرغبة والرهبة.

يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجال بذرائع أخرى.
ألم يحن الوقت للتوقف عن محاولة تغيير عالم لا يكره شيئا قدر محاولة تغييره؟
لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزف طاقاتي طوال كل هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لزيارة الوداع قبل آخر منعرجات الطريق، لتصالح الذات مع ذاتها ... للتطهُّر؟
هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟
ربّما حصل الأمر لتجدّد طموح الانتصار على الفناء بالحرف، للذّة رفع تحدّ أخرق ألقيته على نفسي، لتزايد حدة الشّعور باقتراب الآجال المحتومة وضرورة استجماع شتات ذات مهدّدة بالتفكّك، أو لسبب تحرّكه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.
متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير!
يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحّص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حدب وصوب وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

"بنيتُ على الرمل (أدولف ستاف)
لكنّ كل شيء انهار
بنيتُ على الصخر
لكنّ كل شيء انهار
واليوم على دخان المدفئة
سأبني."

اليوم 600 14 من الرحلة

**

أنرتحل في عالم، في عالمين، في عوالم؟

التدوين نعم، لكن مرة أخرى لأي رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة ...أو التي نعيشها ونحن نغطّ في النوم؟
كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نسافرها كل ليلة كلنا دون استثناء.
ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا ذكريات ملموسة نعود بها نثبت أننا لا نكذب عندما نروي بعض الغرائب التي شاهدناها فيه !؟
لتفادي تهرّبهم من الصعوبة، سيبدأ النص هو الذي يطمح ليكون جامعا لكل مستويات الرحيل، بتفحّص الإشكالية الضخمة.
نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع أو نطرد؟! لماذا نبقى إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!
وفي أقدم الملفات، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البطيء لشقيق راقد جنبه يرفض الردّ على كل استفزاز ويعرض عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه ليتأكّد أنّه ما زال حيّا، والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟
يضحك الكل من سؤاله وتتملّص حتى ‘‘ما’’ من الردّ عليه. لما تفضّل يوما ‘‘با’’ بالردّ، تفاقمت حيرته واندلعت فيه أولى المخاوف وأعمقها. ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحدّث عنها في الأماكن المجهولة؟ ماذا لو ضلتّ الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير التي رضي بها ورضيت به؟
يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شفاّف متين تربط ‘‘ما’’ طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجينة العالم العجيب؟
لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الخطر.
وفي أقدم الملفات أيضا ينذرني شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الآمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتؤدّة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومنّي المشاكسة. أشعر به-من هو؟ - قد غيّر اللّهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطق الإلزام. يسقط الرأس-المرة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرة كأنّني أرفع صخرة إلى عنان السماء. إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنهى لا تكلّف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبّر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرّأس أخيرا على الصدر لا يجد رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النّور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيّا الأمّ ابتسامة مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تنفع في صدّ الكوابيس.
يسلّم هذا الطفل كما يسلّم الكهل الذي سيصبح، أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى ‘‘الفضاء’’ الغريب، وإن منعتها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها. محكوم علينا أن نغادر ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تماما. محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ...وذلك إلى آخر منعطفات الطريق.
توقّف عند بعض الخصائص المميزة للرحلة الغريبة التي سنسمّيها ببعض التبسيط رحلة الليل.
بداية لها استعداداتها الخاصة ولها طقوسها كما هو الحال مع رحلة النهار. أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأ آمنا تستودعه-بكل ثقة-جسدا فقد تأهبه للكرّ والفرّ دفاعا عن وجود مهدّد على الدوام. من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن ‘‘الفضاء’’ الغريب أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا. حقّا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيّادون في "الواقع’’ لا تحسّبا لما سيلقونه من أعداء على الضفة الأخرى.
ثمة ضرورة التخفّف من صدى هموم هذا ‘‘الواقع’’ والأمر ليس دوما بالسهولة التي نودُّ.
يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهور في آخر هزيع من الليل، تذرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الآدميين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.
تعطّل المصعد الذي يرفعنا عادة دون جهد إلى الأعال المجهولة. مصعد؟ تغزوني -صورة أكثر حداثة.
تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداءة الأحوال النفسية وراكب نافد الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبي.

يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق الصاروخ:
- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟
- كلّ المؤشرات في الأحمر.
- استحضار الصور البلسمية.
ذراعان رقيقان يلتفان حولي ...شعر كالحرير يداعب خدّي...تنفّس بطيء يبعث فيّ هدوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.
- تقرير فرق الإطفاء؟
- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.
- استحضروا صور الطفلة.
تتسلّل تفاحة أو تفيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلّق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعانقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المتشنّج. تتحرّك شفتاه بحثا عن الراحة المفتوحة لقبلة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح.
تأتي الرجل المتزايدَ الارتخاء قشعريرة برد لذيذة فيحكم حوله الغطاء.
- التقرير.
- انطفاء أغلب المؤشّرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بؤر توتّر.
- استحضار آخر وسائلنا.
يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت.
تستسلم الذوات الأربع أخيرا للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسّط الأجساد الحيّة، تبعث فيها وتمتصُّ منها ببالغ الحذر شيئا ليس للّغة مصطلح عنه ولا للقصّة حاليا فكرة عن طبيعته.
يدير الرجل أخيرا ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.
يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:
- الآن كل شيء على ما يرام.
- إقلاع...
محاولة وصف هذا الذي "نحطّ" عليه وما نعيش فيه من تجارب.

أغرب ما فيه أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغيّر من سفرة لأخرى. تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرّة ثانية بأربعة شموس وأحيانا بنصف بشمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد. كأنّ هذا الذي ترحّل إليه ليلا مصنوع من ضباب الفجر، من سحاب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادّة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشاجال وماكريت.
الفن! صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهرّب من فضاء الحلم أيضا فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.
ثمة أيضا غرابة المسافر الذي يضع رحله في مثل هذا الفضاء. قال واحد من أنبه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لاوتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لاوتسو؟ "
السؤال داخل السؤال ماذا لو كان الحالم -أكان لاوتسو أو الفراشة-هو نفسه حلم يحلمه حالم قد يكون هذا الذي تسميه بعض الرؤى الله ...حالم يحلمنا نحن جميعا مما يجعل منا مخلوقات حلم تحلم بدورها مخلوقاتها
المهمّ أنّ الذات، أصبحت "الآن" و "هنا" شكلا لا شكل له ...شكلا تخفّف من خصائص الشكل... فكرة مبهمة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلا غير الذي هي عليه الآن...شكلا ضاعت ملامحه الأصلية.
يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الابهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.
اللهم إلاّ!
ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل تواعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسّر خروجها من بين جحافل الأغراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرفتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إليّ باستغراب وأنا أتوجه

إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوفا ومعتذرا وهي لا ترتمي بين ذر اعيّ؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقني بحيرة كأنها تعتصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي ترتاد؟
في الفضاء العجيب القاعدة أنّه لا شيء غير أشلاء قصص لا يربط بينها رابط.
الذات الآن وسط بعض المتاجر الضخمة وسط حشود من... الدمى. تحدّق في دمية تلبس حلّة العرس ثم تغمزني وهي تبتسم. تصرخ فيّ دمية أخرى مخضّبة الشفتين بالأحمر القاني أن أغتنم موسم التخفيضات. أي تخفيضات؟ هل أنا أيضا دمية كهذه الدمى؟ تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاقيع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوّي في أرجاء العدم. الديكور الآن نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتذر عن فيضان المرحاض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق-يا سيدي-ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زرّ مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق فيه. جريدة اليوم جريدة البارحة وقبل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطّة ليحيّيه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار. وجه معوّج لآدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي. النرويج! أين يوجد هذا البلد؟ تتعالى من اللاّمحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء ثبّت في أشداق الحوت. يصرخ فيّ البحر أن أرهب غضبا غير محدّد السبب. ترعبني قهقهة تتصاعد من حنجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك. تحضر الذات مجدّدا أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ ذات كائن ما أرفض، أرفض، أرفض. كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض اللعين؟ يأتي الردّ صمتا ساخرا ومهدّدا من مصدر قريب بعيد، معروف مجهول: ما تتطلّبه المهمّة من مرّات. المهمّة! أي مهمّة؟ لتذهب المهمّة إلى ألف جحيم. يحرّك الرجل الماشي رجلين من حجر ثبّتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجلّل وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلَقيْن في الفراغ. يتّجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أواصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر. يشعر الطفل أن لا مهرب له من براثنه. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تنتصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفها متجّها للهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكها في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا فإنه هو القتيل. يتّسع ربع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: يا إلهي، كم أنت موجوع يا طفلي الصغير. يقطّب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا. ينزاح الثقل من الرجلين. يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشي طليقا، أنه يركض خببا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء. كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا. يتراجع الوالدان بعد أن أعادا ولادة من ولدا. تتعطّل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟
كم من آدمي دخل فراشه ونهض منه وهو كالمستجير من النار بالرمضاء ومن الرمضاء بالنار.

اللعنة! أين كنت؟ على الضفة الأخرى لهذا العالم أم في عالم مختلف؟ في هذه الحالة، أين يوجد؟ خارج ذهني أم داخله؟ وفي هذه الحالة، ما معنى أن أسافر داخل ذهني ليلا ولا أسافر داخله نهارا؟ ربما لا أسافر حتى إبان اليقظة إلا في ذهني. ربما لا وجود للعالم إلا كمعطى من معطيات أذهاننا؟
كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة لأخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم يمشي فيه كل واحد منا على طريق لا يشبه طريق أحد آخر...عالم خاص بكل مسافر...عالم يتلاشى بالسرعة التي ظهر بها.
رواية رحلة كهذه لن تكون إذا اصررت عليها إلا أشلاء جمل في نص مبعثر عن شبح ليس له شكل قارّ أو طبيعة ثابتة يعيش أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط ولا تعني شيئا.
القارئ المجهول: هل لديك على الأقلّ نظرية طريفة بخصوص طبيعة هذا الفضاء ولا تحدثني رجاء عن مخاوف وشهوات تفوح بنتنها ولا عن رسائل مشفّرة تبعث بها الآلهة.
تكديس مزيد من مثل هذه السخافات! مستحيل. لكن أمام إلحاحك -الذي تتحمل وحدك مسؤوليته -سأستعرض بعض الأفكار ولا تقل لي أنها أسخف من التي تهجّمت عليها.

بداهة نحن لا نستطيع مواصلة السير إذا طال الغياب عن" الفضاء" الغريب. ماذا لو جعلنا منه إذن "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بدّ من العودة إليه كل ليلة للراحة وأشغال الصيانة الضرورية. تصوّر أياد خفية تستلم الذات حال دخولنا الغيبوبة لتفرك هنا أوساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الرحيل والعودة للصراع.
فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا" الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه يتمُّ فيها-كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الظواهر والكائنات لنجد كل صباح عالما جديدا معافى من تجدُّد العطب جاهزا لأحسن استعمال؟
تقول ولماذا يحرّم علينا التمتع بمنظر المنظف لتشجيعه وربما لبعض الاقتراحات؟ يا عبيط لأن المنظف الكوني لا يريد مزعجين يتدخلون كل لحظة في العملية ويضيعون وقته بشهواتهم الغبية. حجة لن تقبلها إلا النساء وهن أحسن من يعرفن ازعاج الرجال عند دخول المطبخ للتدخل فيما لا يعنيهم.
ثمة فكرة أخرى تجعل اليقظة قاعة الانتظار والمنام العالم الذي نعيش فيه أهم أحداث الرحلة ونحقق فيه هدفها الخفيّ.
أخر الامكانيات وبعدها نغلق ملفّا يتجاوز بداهة قدرات الفكر والخيال. لنقل إننا نعيش جزءا من الرحلة ككائنات حسية في فضاء الوضوح والنور... وككائنات جدُّ مختلفة تعيش أحداثا وقصصا من طبيعة أخرى في فضاء الإبهام.
هنا يُطرح السؤال: هل نرتحل في عالم واحد بوجهين مختلفين أم في عالمين مختلفين وربما في أكثر من عالم؟
سأعتبر-دون أدنى حجة مقنعة أو برهان متين -أن ما نسميه "العالم" عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسّر لي إدراكه بما توفرّت عليه من زمن. أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء حصلت في عالم آخر أو على الضفة الأخرى لهذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي –أتصوره-بشيء من الشماتة-منهمكا في الكتابة لقرّاء من الأشباح، شاكيا مثلي من مصاعب مهمّة عبثية لم يكلّفه بها أحد.
اللهمّ إلا... !!!
نعم هناك تصور ممكن لهذا الذي نرتحل داخله لا نتحرك قيد أنملة، لكن قد يكون من المستحسن عدم استباق الاحداث والأفكار.

**

عن انطلاق الرحلة وهل الأمر بقرار حرّ أم ارتطام الصدف بالصدف؟

استحضارنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوفّر إلا على أقل قدر ممكن من المعطيات ومع هذا يحاول اكتشاف تصميم البناية المجهولة مما يضطره لتجنيد الخيال وحتى لتصور قطع لم توجد يوما لكنها تملأ الثغرات المزعجة.

وفي ملفّ أمكن ترميمه بالحقيقي والمزيف من الذكريات، يتوجه الطفل لأمه:

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المتشبث بما يطفو من القشّ:

- لا أحبّ شيئا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- ‘‘ما’’ حدثيني عنه، متى عرفته أوّل مرّة، كيف أصبحت له ابنا وأصبح لي أبا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش على الدوام:

- ذهب شيخ قريتنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب للأطفال ثمّ... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

يتحرّك الشيخ ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكّانها. يصل إلى الجامع الأعظم فيسأل الكثيرين ولا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته. العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با". الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. كأنّ الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحقّ في نسيانه على شدّة استخفافه بالمواعيد. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتّى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا. هو لم يكن يتمرّن على السلاح أو بصدد نقله من مخبإ إلى آخر، ولم يكن على الطريق هاربا. نعم، كان الرّجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته... حاضرا بين يدي القدر. ومع ذلك ترى هل تردّد الشيخ؟ ربما انتبه للوقاحة التي تنضح بها كل قسمات الشاب الغريب. هل أرهبته جرأة كانت تطبع حركات الطّالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى ألدّ أعدائه؟ أم هل اختاره-رغم حدّة طبع واضحة-لأنّه كان وسيما؟ يأخذ العم إبراهيم قراره باختياره هو لا غير وحسنا فعل.

ماذا؟ كأن الرجل الذي سأسميه ‘‘با’’ يتردّد أم أتوهّم؟ وإنّني الآن كالطفل الذي يلعب بإخافة نفسه وهو واثق أنّه لا خشية عليه من لعب كهذا. يحتدم أول نقاش بيننا من وراء أستار زمن تداخلت مستوياته واتجاهاته.

- ستذهب مع الشيخ، وإلا كيف أكون؟

- أنا أعيش مع الفلاّحين! أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا الذي أشرِّف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...

- قلنا: كفى.

- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنا مؤدّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!

- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.

- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستتشرف بانتسابك له؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعنة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده؟ هو يغالب تلك العنجهية البدوية الغريزية وذلك الاحتقار التاريخي لأهله، ركاب الخيل والإبل، تجاه الماشين وراء أذناب البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.

من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لآدمي مثل "با".

ها هو الرجل الذي سيشغل حيزا كبيرا من قصتي، أخيرا مؤدّبا لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلّم في الجامع الأعظم وكلّه سخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكّت تضحك منه، جاهلا أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر منا باستمرار.

ها هو وجها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب. لا ترقص طربا أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللاّممكن ممكنا. أيرضى الشاب المتعجرف بفلاّحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنّوبيا أنّها أتت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنّها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنّها لو عرفته لقالت فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء، هو الذي كان يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلا: المغنية كوكب الشرق، وكلمات الأغنية لأمير الشعراء، والمستمع عبدكم المتواضع. ادخلوا جحوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسيتكم من نرجسية رجل حفّظني باكرا قصيدة تفوح بكبرياء سخيف:

قومي استولوا على الدهر فتى ومشوا فوق رؤوس الحقب (مهيار الديلمي)

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أبٌ مثل أبي

قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبي

وجمعت المجد من أطرافه سؤدد الفرس ودين العرب

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيّد "أين في الناس"، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

للحقيقة هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعا ولا نراه عيبا إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الآدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرّد وباقي فضائلهم التعيسة. كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غشّ، تماما كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم. كان مبالغا في عيوبه ومبالغا في خصاله إلى أن تتقارب فتنمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان ... صراحته سلاطة لسان... احتقاره نارا حارقة، وعنفه لا يطاق. كان غروره، كذكائه، كوسامته، كأناقته، كجرأته، كفصاحته، كوقاحته، شيئا خارجا عن المألوف. كان لا يحبّ شيئا أكثر من تكديس الأصدقاء وزيادة عدد الأعداء، شعاره قول الشاعر الأندلسي:

عداتي لهم فضل عليّ ومنّة فلا أذهب الرحمن عنّي الأعاديا

همُ بحثوا في زلّتي فاجتنبتها وهمُ نافسوني فاكتسبت المعاليا.

لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. لكن لنترك المسكين وشأنه، فسنعود له أكثر من مرّة في النص، ولنلتفت للطرف الثاني الذي لا بدّ منه لهذه البداية المحيّرة.

هل تردّدت وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض لتكون له خادمة بلا أجرة وتوفّر له مع بقية الخدمات متعة عابرة؟

يعاودني قلـق فيه هزل وجدّ لما أعرفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟ هل أذاب أخيرا ربعُ ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها ذكاء حادّا بهره ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن الذّكاء عند النّساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبّئه لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلّم؟ ربما فعل فرفضت تصديقه. الأرجح أنها صدقت، وقررت مع ذلك أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ذلك.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلاّ ما أراده كائن لا مردّ لإرادته أملى نصي ونصك وكل النصوص، بل كل سطر وحرف وكل فاصلة، وعهد لممثل اسمه "القدر" بقراءتها على الدمى لتتحرك وفق المخطط المرسوم من الأزل. من أين لها أن ترفض أمرا ضمنيا سطره لها الله ممثلا في هذا الغريب الذي حكم عليه هو الآخر من أين يدري ولا يدري أبا لأطفالها. في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النّازلة من أعلى شلاّل الزّمان اتجاها أوصلها إلى شفتيها بالرّغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى النهاية. كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث. أتصوّرها منكبّة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتغلّب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألاّ يصل بتاتا، لكنّ ذلك لم يحصل... كان بوسعه أن يولد مشوّها، لكن ذلك لم يحصل...كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء اللّعينة ذلك الصيف المشئوم، لكن ذلك لم يحصل...كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصّيف الآخر المشئوم، لكن ذلك لم يحصل... إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيشفى وسيثب على رجليه مجددا كالعفريت الذي أحبّ.

كانت " ما " تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا " مكتوب" أو مسطّر منذ الأزل في دفتر الأقدار. أما في رؤياي فالأمر العكس تماما. أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدحرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ الاعتقاد أن بوسعها التوجه أي لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق الشلال لتختفي فيه، أن يدفعها الريح خارج السيل. معنى هذا أنه لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما لأننا كلنا نتاج صدف لا تحصى ولا تعدّ.

توقّف عند واحد من تقاطعات طريق يعرف له لا بداية ولا نهاية ولا كم من مرّة كان بوسع الأحداث أن تأخذ لها عكس الوجهة التي اتخذت.

ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي أولد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القصص اتخذت الاتجاه الذي حدّده بوعي وبدون وعي؟

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التسابيح والقرآن من أمم
وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار، تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

ها أكبر المجرمين يقتربون من بابه، يحومون حوله، والفناء يتهدّد ألف ذات وذات، فتمسك كم قصةً على وشك الولادة النفس ترقّبا وهلعا. ينصرف القتلة وقد خدعهم أروع عنكبوت ولدته أروع قصة. لكن أي دليل لي على أنّ الخيانة لم تحدث؟ أن العنكبوت لم تتحرّك تلك اللّحظة سهوا أو عمدا؟ وأنّ القتلة فهموا أنّ الغار ليس مهجورا؟

ترى أي مجرى كانت قصة الأمة، ومن ثم قصتي وقصة الملايين، تتخذ لو أنجب المصطفى بدل البنات ولدا عاش... أو ولدين... أو ثلاثة؟ أي مسار كانت تتخذه لو خسر غزاة الصحاري معركة واحدة ضدّ أجدادي الآخرين: سادة الجبال المتكبرة؟ كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب. كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا. كان بوسع تلك الجدّة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهاقا وكربا؟ ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجدّة؟ أهناك قصة موازية لـ"ما" تنتقل فيها من رجل إلى رجل بعد أن هجرت "با" الرجل الطيب الذي قصر حياته على تربية خمسة أطفال رمتهم في عنقه وهربت لتدير ماخورا كما وقع الأمر في قصة من أشهر قصص الأدب الأمريكي؟ ترى كيف أنا "الآن" في مثل هذه القصة؟ وما الذي فعلته بعد اكتشاف الحقيقة الرهيبة؟ ربما قتلت "ما "بيدي العاريتين؟

ماذا لو كان لي – دوما في إطار الرؤيا التي تتبلور بصعوبة في ذهني – ألف أنا وكل واحد يعيش هذه اللحظة قصته؟ أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال بعضها.

تختار السائحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس. تضع حقيبة اليد على الطاولة، تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب "الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستنقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية. تفتح عينيها على الأقصى، تحدّق باندهاش في النادل الأسمر المقترب منها بكل حذر. يلحظ الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم المورّدين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبيا وافرا من السوط وهو-لسبب يجهله-متّهم دوما، دون بقية العبيد الآخرين، بإضمار التمرّد وحتى بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعوّد عليه من الازدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائيا نحو شعرها كأنّ فيها حنينا غريزيا لهذه الجدائل الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفوا يا دكتورة، هل ضايقك هذا العبد السامي في شيء؟

- لا أبدا، أبدا.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا...لكنك لم تأكلي منها شيئا!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفتيها. تجمع حوائجها لائذة بالفرار وفي عينيها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفالدي". يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر باني إمبراطورية أورو-أفريقآسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطان وبركات الربة فريكا. يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

ربما ثمة قصة مناقضة تماما، وعلينا اكتشاف نقطة تقاطع استراتيجي تفتح لها المسار. مثلا تلك التي يكتشف فيها باني امبراطورية أورو-أفريقآسيا أنه لم يبن شيئا والقصة كلها جزء من حلم جميل... أو التي يفيق فيها مذعورا من كابوس يرى فيه شعبه يتواصل ويتجدّد على أنقاض خرائب هائلة ودمار واسع وإجرام منقطع النظير كان هو سببه. الكابوس داخل الكابوس وقوف الشباب في عاصمته الأبدية مهلّلين لزعيم أسود يدعو لوقف الحرب بين الشعوب والحضارات. ربما جاءته أزمة قلبية وهو يكتشف أنه كان هو ال " ما تحت الإنسان "، طبقا للقانون الأزلي القاضي أنك لا تكره أكثر من الكائن الذي بداخلك، تعكسه وترميه على الآخرين.

لا، لا، غبي خطير كهذا المجرم ليس بحاجة للتواصل حيا وقد أظهر كم هو عدوّ للحياة. لننصب له كمينا قاتلا في قصة قد تكون تمت في مستويات مجهولة لدينا من عالم ننزلق على سطحه كقطرة الماء على سطح المحيط.

يتعالى الصراخ من ممرضة عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تتدافع زميلاتها لتتسمّرن مذهولات أمام المشهد البشع.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم يتسوّر الحائط لائذا بالفرار!

يدوّي عويل يصمُّ الآذان من الممرضة المكلفة بالملاك المذبوح.

يصرخ فيها المفتش:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبيّة. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة على اسم قط القسم.... هتلر، آه يا صغيري!

تتقيّأ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع الضحوك المفضّل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تبنّي اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يمت كان من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص!

في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدّا من ضفّة النجاة!

يمكن الآن للقصة الثانية أن تتقدم.

يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشاب الأسمر المتعجرف:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئا! إنها أشهى المرطبات المثلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسيادَنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوما مع زوجها وطفلتيها. حذار.

طفلتان! تفاحة وتفيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟

ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سببا، قاصدا النافورة الشهيرة التي تتوسّط الساحة الأشهر، ثمّ يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحدّق فيه فاغرة فاها.

هراء كل هذا... طبعا في عالم صنعته رؤى غير متقنة. أما في رؤياي فهناك بدايات مبهمة لما لا يحصى من القصص الممكنة التي نجا بعضها ليشق طريقه غير المعروف وغير المعترف به في فضاءات لا قبل لنا بتصوّرها.

لنسلّم-دون قدرة إثبات الأمر-أن البداية بدايات لا عدّ لها ولا حصر، منها التي أصبحت نصا، ومنها التي بقيت أفكارا مبهمة ومشاريع لم تتحقق... أو تحققت في مستويات مجهولة من عالم هو دوما أغرب من أغرب صورنا عنه.

المهم أن ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكارثة مناخية أخرى وحالة الطقس على الصين في مقطع من مقاطع التاريخ وتردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار بجبل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا ، ونجاح الاستعمار بفرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من الأحداث الأخرى- أغلبها لا علم لي به-ربما كانت قد تثير فيّ موجة عارمة من الضحك العارم أو موجة من الاستنكار الساخط.

الثابت أنني انبثقت من تسلسل أحداث لم تكن يوما لا مبرمجة ولا ضرورية ولا قابلة للتوقّع بل وبحظوظ شبه معدومة لتوجدني أصلا.

هل القاعدة التي لا تقبل استثناء أن كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالصدف ولا شيء مقدّر أو مكتوب إلا اللامقدّر واللاّمكتوب ؟! هكذا يبدو ... لكن كم من بديهيات يتضح يوما أنها لم تكن بالبداهة التي اعتقدنا.

**

أو كيف يملأ الآدمي بخياله الخصب بياض سجلات الذاكرة عن ظروف الاحرام والوصول

يواصل الطفل جمع ما يستطيع من الأحجار بانتظار زمن التفكير في شكل الهيكل الذي سيبني يوم تقارب رحلته نهايتها.
- "ما"، أين كنت قبل ولادتي
- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.
- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟
سؤال ليس بغريب من طفل تميز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك ألا تفعل شيئا لفعلته على عجل.
- "ما"، أنت لا تقولين لي شيئا أبدا! ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟
من أين لفاقد الشيء أن يعطيه، ولفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر ثم ّهناك أشياء لا تقولها أم لابنها.
لا خيار للنص، إذن، لإكمال ملفاته، غير القفز على ذاكرة الطفل والاستنجاد بمعلومات رجل يعتقد أنه يعرف كيف تبدأ الرحلة.
نعم كيف بدأت رحلتك ورحلتي ورحلتنا جميعا؟
من الوثائق المنقوشة في الذاكرة، أن الأمور تنطلق عندما يأخذ مجهول ببثّ أفكار عن ضرورة تواصل البشرية، عن دورك الهام في العملية، وكيف أنّ القادم الجديد سيحقّق ما رفضته لك الأقدار الظالمة.
ثمة الآن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج ويترك وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل. أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علّها تؤدّي إلى اختفائه أو حثّه على البحث عن قنطرة أخرى يعبر عليها. أصرخ فيه ألا يجرّب معي من الآن حيله، وأنني غير مهتم بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أمّ جميلة فخورة. هل تدخّل لديها لتقنعني؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا؟
تنهار يوما كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفا ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهّما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة. تتسارع دقّات قلبيْ النائميْن. تبحث اليد عن يد الآخر، ترتسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي المتأهب للمغامرة الكبرى من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح الفكرة فعلا...الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من العدم للوجود.
تبتسم الممرضة وهي تمدّني بنتيجة الفحص. تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة. الإنذار الأوّل، الوعد الأوّل.ترتسم الابتسامة على محيا المارة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متثاقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب تترصّد نظرات الغيرة. عالم متجدّد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطّحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهث الراكض. عالم لا همّ له إلاّ الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.
حلا لبعضهم تصوّر أن آدميِّي العصور القادمة لن يصدّقوا حمل الإناث الجنين في أرحامهن طوال "العصور المظلمة"، أن الأجنة كانت تتطور داخلهن كالورم شهورا طويلة، أن الخلاص كان موجعا، بل وأن جهابذة البحاثة سيكتبون أطروحات معقدة لنفي الإشاعة. في انتظار أن يكتشفوا وسائل أرقى لوصولك، لا أحد فينا-وخاصة أنا-يشعر بالتقزّز من تناميك داخل الأحشاء الدافئة بالحب والشوق.
عن معجزة المعجزات القيل والقال ولا أحد يعرف اليقين.
كمّ هائل من الأسئلة. أصحيح أنّك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنّه هو الذي يقودك من الحلم إلى اليقظة. أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه ...أنّك تمسك بلجام من تركب بقفّاز من حرير، توجّهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي واعية غير واعية، متبرّمة سعيدة؟
مثلي لا يكتفي بالقيل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني. ربما تستفرد بك. ربما تفتح لك ذاكرتها. المرأة المتهورة! قد تنكص على الأعقاب. سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق مع الشريك الآخر. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي آذان صاغية. تكلّم لأسجّل لقرائي كيف انطلق الطريق.
أمام صمتك ...الفكر والخيال.
هذا أنت! سوائل لزجة. كرة ككرة التنّس! سمكة! ضفدعة! بدأت تأخذ شكلا مقبولا.
كأننا أمام بمهندس عبقري ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة، يعطي ما يلزم من أوامر: اصنعوا، قيسوا شذبوا، لا تغفلوا، قفوا واصلوا، هنا جدّدوا، آخر اللمسات هناك. لا أخطر من خطأ الأيادي الماهرة في عزف نوطه يتيمة أو رسم

حرف واحد، فما بالك إن نسيت أو أخطأت قراءة جزء كامل من وصفة الصنع.... تبثّ في فكري المشوّش أنه لا خوف فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلّم المهنة وما عليّ إلا أن أتركه وشأنه لأهتمّ بشؤوني. والآن هلاّ أرضيت فضولي. كيف هي أحاسيس ما قبل الأحاسيس، مشاعر ما قبل المشاعر، أفكار ما قبل الأفكار؟ هذا كل ما لديك من تصريحات؟ خيبت آمالي، انتظر، سترى عاقبة عقوق الوالد. على فكرة كم مرة سأقول لك: لا تضع إصبعك في فمك. ماذا؟ يكفي من نصائحي البائرة وما عليّ لمداواة عصبيتي إلا الاهتمام بنصيبي من الاعداد. وهل تركت لي أمك شيئا أعدّه وهي تفلسني بكل ما تشتري. ثم ماذا أستطيع تقديمه والعالم نفسه من يجّهز لك الديكور الذي سيستقبل سيادتك. صقل الشمس لتبدو كأنّها لم ترم أحدا بأشعتها قبلك. تلميع القمر. نفض الغبار عن الأشجار. طلي قبّة السماء وتلوين البراري بأحلى الألوان. غسل البحر من كل الأدران. إعداد مكان خاصّ بك وقد غصّت الساحة بالمسافرين.

داخل الكهف السحري، تواصل تجميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

اكتمل التمثال. استقامت السمفونية والقصيدة. وضع الفنان الأعظم توقيعه على اللوحة.

لم يبق عليك وقد أخذت أخطر القرارات غير أن تصلي:

أماه أنت التي تحملينى في أحشائك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حقّ أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حق أن أحيا

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهوائي لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تدخل القصة فصلا جديدا.

يقال أنّ المعجزات التي يتمخّض عنها دوما هذا العالم السحري، قد تجعل الواحد منا يحضر يوما مراسم وصوله، أو بالأحرى وصول نسخة طبق الأصل منه. لكنني لم آت زمان أحفادي وأحفاد أحفادي، بل وصلت متخلّفا عن زمني نفسه بما يزخر من إمكانيات لتسجيل الحدث العظيم. لذلك اكتفيت بعينيّ وبشغاف الفؤاد لمتابعة وصولك، لا أعرف ما أفعل بجسم يحتّل فضاء لم يبرمج للزوار والفضوليين أمثالي.

تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمّة الأيادي الخفّية. تسترق آلة وضعت على البطن المكوّر دقّات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط خبط عشواء. تتعثّر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الآلام ومن جبهتي ومن كل الجباه. تعضُّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق الأبيض وأعضّ على نواجذي لأمنع الصّراخ الذي في داخلي، فتهتزّ لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنّك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسئول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصرّا على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزا... أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاظم كلما اقتربت الساعة؟

هل تتلكّأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه وشكل التجسّد... ماذا لو نزلت سلحفاة تبرز من حفرة مطمورة في عمق رمل شاطئ مترامي الأطراف حيث باضتها أمها ونسيتها لا خيار لها-وقد حفزها الرعب البكر-غير الركض متقطعة الأنفاس نحو الموج الحاضن من طيور كاسرة تتربص للظفر بلحم طريّ. لا تصل الماء حيث النجاة من مخالب السماء إلا وينغلق عليها المحيط بأنيابه التي لا تحصى، باتساعه الأخرق، بأخطاره التي لا يتصورها عقل سويّ... وما عليها إلا تدبّر أمرها...نعم إنها إحدى بدايات الحياة وبعدها تتدلّل وتتشكى أنت الذي سيجد طاقما كاملا في انتظاره لا يريد شيئا غير خدمته ورضاه... آه، حتى مثل هذه الضمانة لا تكفي. هل هالك ما في أعماق ذاكرة "ما" وأنت تتجوّل في قصّتها والقصص التي انغلقت عليها قصّتها هذه؟ هل انفجر في وعيك العويل المتعالي من كل مسافر وقد أطبقت عليه أشداق الحياة؟ هل اقتنعت أنّك لن تأتي بجديد، أنّك ستتراكم فوق من تراكموا، أنّك ستضيف للفشل فشلا. هل قرّرت أن الصفقة لا تستأهل تضحيات بهذا الحجم؟ ربما معك حق لأن أخطر من عدم الوصول...الوصول. أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول: قف، لا تخط خطوة أخرى، اذهب، لا تأتيا، لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي ستُدفَّع.

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكا. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخا مشوّها.

آه، وازنت بين الربح والخسارة وقرّرت أن تعود من حيث أتيت..يا مجنون، الضريبة مهما غلتْ لا شيء بالمقارنة مع ما ستجني...ألم تفهم أن هديّة الميلاد عالم بأسره لا أكثر من هذا ولا أقلّ؟ ...عالم خُلق للجميع وخُلق لك وحدك ...عالم سحري فيه كل الممكن ، كل الامكانيات وما لا تجرؤ على تخيّله ...عالم باهر الجمال يريدك أن تُبهر بالجمال لتضيف لجماله جمالا... عالم هائل التعقيد والاتساع ليترك لك كل المجال للاستكشاف ... عالم ملتحف بالأسرار ليستفز فيك الشوق لهتك الأسرار... عالم حقّا مشبّع بالصعوبات لينمّي فيك الصمود وحبّ رفع التحدّي... عالم حقا معلّم صارم لكن كم صبور مع كل مبتدئ ... عالم وان بدا بالغ القسوة ، أيضا بالغ الحنان والرفق...عالم وإن بدا بالغ البخل لا اكرم منه حين يفيض عطاء... عالم مترع باللذات يكافئك اين تستحق وأحيانا اين لا تستحق... عالم يترك لك الحرية لتعيد تشكيله على هواك...عالم قديم أنت جديده... إنها الهدية التي تنتظرك...إنها الهديّة التي تنتظر أن تكون بها جديرا

تقطع عليّ حواري الصامت معك أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصبّب "ما" عرقا. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها: إنني لميتة.

لوجه الله، افعلوا شيئا. أطفئوا هذه الأضواء، إنها تؤذي عينيه حتى وهو وراء الباب المهيب. اصمتوا أو اهمسوا فأصواتكم كدوّي ألف مدفع.

اللعنة، ألم يكن بوسعك أن تتفتّح كوردة الربيع، أن تأتينا دون كلّ هذا الهول. لكنّك ثمين والثمين دوما باهظ التكاليف. آه، التكاليف! ماذا سنفعل لو ركبت رأسك أو تغلّب عليك الجبن بالملابس التي اختارتها لك "ما" وكأنّها تعدّك لمعرض أزياء؟ تريد أن يضحكوا مني وقد كدّست في خزانتك ما استطعت من مصاصات خوفا من ليالي شتاء سأرمى فيها خارج الفراش للبحث عنها في صيدليات الحراسة. ثم ماذا عن تشوّق اللعب إليك وهي تنتظر بفارغ الصبر يديك البضّتين وأصابعك المرتبكة ولا أحد يدري من يلعب بمن؟

هل بمثل هذه الحجج أقنعتك بالمواصلة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقّات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة. تتحرك أخيرا نحو باب الكهف السحري مدفوعا بقوة لا تقاوم ومجذوبا بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين العوالم. أستحثّك مبتهلا مشجعًا ناسيا قراري بأن أتشمّت فيك في أوّل مناسبة.

تطلق الأم الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك-في نفس اللّحظة-باب الزمان على مصراعيه.

تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيذة، قطفت من غصن أقدس شجرة. في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش داخل أفخم القصور.... وبينما مشيّعو الجنازات في ذهاب، تواصل القابلة الأزلية استقبال أفواج القادمين.

انظر لتفتّح الوردة وستراه...انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر للحمل حال خروجه من الرحم وستراه. انظر للمولود الجديد وستراه...كم غريب ألا أحد يركع ويسجد و' 'هو لا غير" الذي أمامنا يتجلّى.

الصرخة الأولى. مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية؟ ليدّعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة. ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ هل أرعبك أنّك ملقى بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبة؟ أداهمك الوعي أنك لن تكون نذيرا وإنما أغلب الظن قربانا؟ ربّما رفعت عقيرتك لتنذر وترهب. كم مضحك أن تتوجّه بالتهديد لعالم مدجّج بالسلاح، وأنت الأعزل من كلّ سلاح! صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة أيها النهم الذي لا يشبع أبدا؟ ربما الأمر مجرّد لفت انتباه تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى صرختك الأولى هذه، فالمؤكّد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتمازج فيها صراخ كائنات لا تحصى بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلاّلات، بصفير الريح... والكل يسجّل حضوره ويهدّد، أو يحتج صارخا بالمتعة وبالألم. على كل حال لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعني وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا في عالم الانبهار والرعب... وكن على أشدّ الحذر.

أفتح القوسين هنا للفت انتباه القارئ المجهول إلى أن النص يفخر بكشف سرّ السؤال الذي دوّخ العلماء والفلاسفة والشعراء على مرّ العصور؟ ابشروا جميعا فالنصّ يعرف الردّ، بل الصحيح الذي لا يجادل فيه غبيّان. نعم وبكل تأكيد، نحن نأتي من امرأة، لا من فمها ولا من سرّتها وإنما من فتحة بين فخذيها. صحيح أن لا أحد يعرف من أين جاءت المرأة التي ولدت المرأة التي ولدت أول حلقة السلسلة. ربما فيكم من يعرف السرّ ويرفض البوح به خوفا من الضرب بالأحذية؟

الاكتشاف الهائل الثاني الذي نفخر بإزالة الستار عنه لأول مرة هو أننا لا نخرج كهولا مكتملي الأوصاف بالشارب والحذاء وربطة العنق إن كنا ذكورا، وبفستان و "ماكياج" وحقيبة يد إن كنا إناثا. كلا ثم كلا، اعلم يا آدمي أنك تصل عاريا، ضعيفا مثيرا للضحك بل وللشفقة. يجب أن أقول لك-وهذا مع كامل احترامي-أنك تصل أيضا في مظهر أقل ما يقال عنه أنه مخيّب للآمال. آه، يا تفاحة. كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبيّة قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. للأسف لم يكن هناك أيّ هالة من نور حول رأسك الأصلع. في الواقع لم ينقصك إلاّ ذيل طويل أسود لأجول بك أسواق المدينة، والدفّ بيميني، أجرّك لترقصي في الحلقات فأربح شيئا قليلا من النفقات المرتقبة لتربيتك. هنا عليّ الاعتراف بأنني تسرّعت وفي استعراض إمكانية رفض تسلّم الطرد وإرجاعه إلى الباعث. لم أكن أعلم آنذاك أنّني سأراك، بعد ليلة تسكع في الشوارع المقفرة، تضعين على وجه القردة العجوز قناع الملاك المنتظر. قرد، إله أم ملاك. المهمّ ألا تكون شيطانا، يكفي ما في هذا العالم من شياطين. كن الرهان الرابح لهذا الذي يرمي-منذ بداية الملحمة العظمى-بكل رضيع، كالمقامر اليائس، يرمي آخر فلس له على طاولة القمار.

اللعينة! لا أحد يعرف كيف تشتغل ولا من ورائها ...كل ما نحن متأكدون منه أنها هي التي تحدّد لك مكان الوصول وزمانه...هي التي تقرر ميزانيتك منه وهل ستموت طفلا أم في أرذل العمر... هي التي تختار ما القصص التي ستتابع ... هي التي ستمنحك الصحة أو أخبث الأمراض... هي التي ستضع على ذمتك أحسن الأدلة أو أسوأهم. هي التي ستأخذك على أضمن مقاطع الطريق أو تدفع بك من هاوية لأخرى.

المولود الجديد بين ذراعيّ لأوّل مرّة. يسترعي انتباهي صغر رأسه. تعبر فكري صورة خاطفة لمكتبة ما زالت رفوفها فارغة، لكنها ستمتلئ-لسوء الحظ-بملفات كان على أغلبها أن تذهب مباشرة لسلة المهملات. هل الرفوف فارغة حقا أم تفيض بملفات تجربة الحياة على مرّ ملايين السنين؟

تطلب القابلة مني-وهي تصرخ ضاحكة-أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسمة نافذة الصبر لاحتضانه. أمدّك لأمك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلّك من فرط انشغالي بتفحّصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبتلي بها البعض لأن الأيادي الخفّية أخطأت في شيء ما. برافو، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كلّ الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لآخر سيوجّه دفّة رحلتي في اتّجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أوان الندم. ثم جذل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كلّ هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ آه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمة من يوسّعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليات المخيفة؟ هل آخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجرّه إليه مشيا وركضا؟ سأدعوه لمطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدث عمّا ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتذكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى...كلّ ما أحتاج للنصّ. تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعلّلا بحجج واهية فطردوني يبتسمون. أذكر أنّ النوم كان مضطربا، أنني أفقت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن آخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأوّل.

أذكر أنّني وضعته بكثير من الرقّة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنّني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقي عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة ربما هو بصدد فسخ الملفات التي تعنيني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقى منتبها لأخطار السياقة وأنّني افتعلت سببا للتوقّف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذته بين ذراعيّ لأفاجئ بعينين بالغتي الاتّساع تسمّرتا على عينيّ المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنّه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوّة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخّل في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجرّب فلا أكثر ابتذالا من المعجزات

- مرحبا.

لا أحظى بردّ وأكاد أغضب لقلة الأدب.
- قلت: مرحبا.
كأنّي بصمته تكثّف بل مع شيء خفيف من التقريع ونكهة من التهكم.
كل الأجوبة مضمنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الموجع... ومع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين... لم أعرف منهم من أتى مسلما معانقا ومصافحا...لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام... لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهرّبة من عوالم ما قبل العالم يقايض بها شيئا ثمينا... وهذا الآدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشذُّ عن القاعدة.
مواصلة العبث.

عفوا، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الالحاح السمج؟ أنا ألحُّ ! أدردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديدا. مرحى، من شابه أباه فما ظلم. على الأقل طمئنّي. هل هذا حقا أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟، هل هذا أوّل لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل تواعدنا على تجديد اللّقاء الآن وهنا؟ باختصار هل أنت حقا مولود جديد أم انّك والد كل قديم وكل جديد؟
يحدّق فيّ الكائن الغريب مواصلا تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكا: واصل تحديك السافر لأبيك، سأنطّقك في نصي بما أريد وما أنا بأمسِ الحاجة لسماعه.
ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وبين قصصها وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قبس من شعور قد يكون جُرِّب في عالم آخر. محكوم عليك أن تدخل هذا العالم غير محمّل بآلام قديمة وعادات لا فائدة منها ... أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة... أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تمسّها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لتواصل قصة القصص.

**

الافاقة أو لمّا يتبلور الآدمي فجأة في عالم الغرابة والغموض

قيل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن بداية الرحلة.
من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق!
لتمثل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية..مثلا تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل من الأغراب ليسوا أقلّ ضياعا.
تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "نعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاد صبر:" الرجاء من الراحلين التوجه حالا لقاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعبأ بذهولك أو يبدو مستعدّا للردّ على أولى الأسئلة. فجأة تسلّم عليك امرأة بحرارة مهنئة بحسن القدوم. يدفعك غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُقحم في صفوف متراصة تدفع بعضها البعض قدما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل العرمرم ولا فعل أهمّ من البقاء طافيا على سطحه.
ثمة أيضا صورة الإفاقة.
تستيقظ أنت البحّار شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دويّ الموج، على صفع الريح. لكنك لا زلت ملتحما بالعالم لا حدود واضحة بينك وبين الزورق والسماء والبحر.
ثم تنفصل شيئا فشيئا عن كل هذا لتجد نفسك واحدا ووحيدا وسط العاصفة في عرض المحيط.
أفضل الصور جماليا لكنها صعبة القبول لأكثر من سبب.
بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم اليقظة.
لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخبط داخله أو يتخبط داخلي، فيقظة ما بعد النوم تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف للمستيقظ، مألوف لنفسه. أضف لهذا أننا نفيق من " فضاء " دخلناه أكثر من مرة ونخرج منه سالمين كل صباح. ممّا نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل الرحلة؟
كل الصور عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية لكنني سأواصل استعمال التي أفضّل ليس لي أحسن منها.
مما بقي منقوشا في أقدم الملفات أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرُّم بحدود غير مفهومة. لا أكرهَ عندي إلى اليوم من النوم في فراش مغلق الطرف ولو في أبرد غرفة. لا بدّ أن تجد أصابع الرجلين المنفذ الذي افتقدته يوم كان الجسم الصغير ملفوفا في قماط مشدود محكم الغلق على عادة الذين نزلت بينهم. وأنني كنت لا أكفُّ عن الصراخ في أوج تجدد المغص. آه، أيها المسكين؛ محكوم عليك أن تأتي الوجود جائعا، أن تجرّب منه كل أصناف المسغبة وأن تغادره وأنت على أشدِّ الجوع...على جوعك الأوّل.
يدرك العالم المنكبُّ فوقك أنّك ما زلت هشا غضا قابلا لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفّق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ. يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلا. يتجدّد مغص الفراغ وكأن لهذه الأحاسيس المزعجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشبع. تشعر أنّه لم يعد لك من طاقة على تحمُّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى مغارة النوم لتبرأ من هول الوصول. أنظر لبني سفر وقد وصلوا لتوّهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقوه كأنّهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة. المشكلة أنه لا نكوص من الآن على الأعقاب. أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا وثب داخلها وقد فاجأه البرق والرعد. عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا وشدّك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئنّ إلى ما أتيته إلا إذا كنت واثقا أنّ ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى تشاء.
أنت دوما داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطى بمنتهى البطء والحذر. ما أغرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!
تنتظم التجارب وتتّضح بعض العلاقات المتواترة ومع هذا تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادّة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أهوج مرح، يداهمك بكلِّ حيويته، من كلِّ المسام، كأنه النهر وأنت الإسفنج.
ثم تدرك يوما أنك شيء مختلف عما يثير فيك هذه الحالات، أنك مصدر بعض الحالات والأحداث. شيئا فشيئا تتضح الحدود وتنفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها شكل الكائن الأول...الذي كان المغارة السحرية... والقنطرة...وهو الآن مدير التشريفات، الحارس والخادم الأمين... قريبا المرآة التي تعكس لك أوّل صورك.
يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الآدميين تفهم تلقائيا منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.
تشعُّ الملامح بالنور وهو منكبّ عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامة، وتفهم تلقائيا معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود للصراخ فتصدر منه كم من إشارات أنْ تريّثْ بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوما على نفس الشكل لتنقش أولى صور كائن عجيب، يتحرّك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرّك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلاّ برفق فيه خشية الإيذاء... وكل الوجود مرتبط بوجوده.
تتعلّم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدِّد. ثمة إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. لا تلبث أن تدخل الاكتشاف الهائل الآخر بأنك تستطيع أن تصرخ كل الأبدية، والشيء المنقذ من الورطة التي تتخبط فيها مُصِر على غيابه المرعب.
قد يكون أهمَّ انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه-بكل كرم-ما هو بأمس الحاجة إليه، أو تمنع هذا المطلوب الضروري لمواصلة الوجود إن لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم، وآنذاك لا بدّ من التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكّل باكرا في أعمق أعماق الذات، في أحاسيسها وصورها الأولى، دعامة الأساطير والأديان وما تفرّع منها وضدها من فلسفات.
ما أغرب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لرضّع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!
يجب الآن إخراج هذا الرضيع من وضع متلقِّي المعلومات السلبي إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات. ويجب أن نفعل ذلك سريعا لكثرة ما يحتاج ولأن كل لحظة من الزمن هدية ملكية لا تضيّع عبثا.
يتطلب الأمر أن يكتسب الآدمي خاصية جديدة ولا حرج أن تكون بالغة الإزعاج للآخرين: الفضول.
تضحك "ما" إلى أن يتملكها السعال. تستعيد بسرعة وقارها.
- أنت طفل مبكّر في كل شيء، لكن ليس إلى درجة أن تولد متأهبا للمشي والركض. طبعا كنت تحبو ككل رضيع.
- هل كنت أطوف في كل الأرجاء؟ هل كنت تجدينني بسهولة؟
- بسهولة، لا. لكنني كنت أجدك دوما في مكان أقل توقُّعا من الآخر. كل من عرفوك آنذاك أطلقوا عليك نفس الاسم: الفأر.
الفأر! إنه نفس الاسم الذي سيطلقه الطفل على ابنته يوم يكتسب هو الآخر لقب "با"، ونفس الاسم الذي ستطلقه البنت على بنتها يوم تكتسب لقب "ما".
ثمة معلومات ناقصة في ذاكرة الطفل، لكنها متوفرة في ذاكرته وقد أصبح الجدّ.
تفلت مني الصرخة:
- حذار، البنت، البنت!
تضحك تفاحة:
- تظنني كنت سأدوس على يدها.
- لو فعلت لخنقتك.
لا تنتبه حرّة للخناقة الضاحكة، مواصلة زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجناها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنا نسميه "قوانتنامو"
- "با"، ستجنِّني هذه الطفلة.
- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.
- تقصد بمنتهى التهريج وكأنها اللعبة التي جادت بها الأقدار.
- كفى وقاحة لا تقلقي سأجد ما ألهي به الطفلة، والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.
تنسحب تفاحة مسلّطة عليّ نظرة فيها إشفاق وشكّ في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البعبع".
يحدِّق فيّ الكائن الغريب باحتراز لا يخفيه من غريب جديد. لا بدّ من رسائل طمأنة لأحظى بالثقة الغالية.
- ها قد أخرجتك من "قوانتانامو". أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم.
تجلس رضيعة التسعة أشهر على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق فيّ مطولا. يلمع في عينيها المتسعتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب. ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنطلق كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه

المكتبة. تنتصب على ساقين مرتجفتين. تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

ترفع قامتها، أو قل تتسلّقها من جديد، إلى حيث يمكن مواجهة بريق شيء يلمع. يتبيّن أن الشيء يستعصي على المسك والجذب. تدير الرضيعة وجهها بحثا عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف الأربعة أمتار مربعة من عالم سيرهبها يوما اتساعه.

يفترُّ ثغرها عن ابتسامة أول صبح لأول عالم. أنفجر ضاحكا ومعلقا على فم ليس فيه إلا ناب واحدة.

تعود أدراجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلّبه ببالغ التركيز.

تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيها الصراخ الضاحك بالتوقف.

تغيّر الرضيعة اتجاهها وتقصدني مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرّف عليه.

تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوّق العالم؛ فاللّسان-بعد العينين-أهمّ أدوات الاستكشاف.

إبّان الإفاقة يتشكّل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها... كجملة من المظاهر الموضوعة حولنا وأمامنا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة.

ربما هكذا تتفاعل مع العالم الكائنات التي تسميها اللغة الحيوانات والنباتات.

تنتبه حرّة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص.

ترمي الرضيعة براحتيها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها مترنحة لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني. ستتعلمين سريعا أن الاستكشاف أيضا اكتشاف الموانع داخل فضاء محمّل بكل الأخطار.

تلاحظ البنت تغيّر النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي بصعوبة على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية. تسلّط عليّ نظرتها الثاقبة. كأنها لم تر فيها هذه المرّة منعا وتقريعا فيشتد الخبط. آه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت! هذا شيء اسمه الثلاجة. يستحيل عليك فتحه وأنت في هذا العمر ولا بد من الانتباه حتى لا نجدك يوما مجمدة داخلها. الحلّ إرجاعك ل " جوانتانامو" لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاق الجري وراءك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومرة أخرى من جرّ نباتات أمك على الأرض. ستحتجّين لحظة متشبثة بالقضبان الخشبية تمارسين عليّ الضغط والابتزاز ببكاء فيه كثير من التكلف. سريعا ستجلسين لمواصلة أبحاثك المعمقة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة. لا، لن أحبسك وقد جئت لأبصرك في أولى مراحل الغزو وأهمها. كوني بنتا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتي بانتظار أن أدوّن بعض الملاحظات والخواطر على حاسوبي النقّال.

ماذا؟ تريدين النقر. لكنك لا تعرفين الكلام فما بالك بالكتابة. آه، من قال لي هذا؟ كل شيء في هذا العالم ممكن. على كل حال، هل لك في هذا العمر ما يستحق التدوين؟ ماذا؟ هل لي أنا شيء يستحقه؟ يا بنت، "بلاش قلة أدب"! طيب، اكتبي تقريرا ضافيا عن تفاصيل الإفاقة، وكيف كانت بداية تجربة الآدمي في العالم، كيف يرى الأشياء والكائنات، ما رأيه في الغرائب والعجائب التي تحاصره، كيف تنتظم كل هذه المظاهر في ذهنه، وما معناها بالنسبة إليك. تعرفين ما أريد. خذي راحتك، أمامنا متسع من الوقت قبل رجوع أمك. أرجو تعاونا أكثر مما أظهرت هي يوم طلبت منها نفس الخدمة.

تنقر الرضيعة بحماس: تاءللسغلءغغل نائشلئغشبئفبشف تلالغشبغفئبشفئب...

ما هذا؟ طيّب، واصلي.

يا بنت، لا أفهم هذه اللغة، ولا أظن أحدا من قراء "الرحلة" قادر على فهمها حتى ولو تكلموا كلهم بها يوما.

بيصشيبيسبيضسسضض. نتلغبفلبفئبتاغلغانتلاتخالسبفبيخىالافتىغ7فققققق

يا بنت، النقر على مفاتيح الحاسوب يكون عادة بالأنامل لا بالقبضتين.

ؤيشؤشؤسشءؤؤسشؤثيثيضضنةنتهاعاعالعللغللغاللغبفقق6ف8ع9حه.

فهمت. سبق فلسفي سأحسد عليه طويلا. حقا إنها معلومات مهمة. سأستعملها لاحقا. وفي الانتظار، الرجاء إيقاف الاعتداء على هذا الحاسوب المسكين. آه، تريدين طبع اكتشافاتك المذهلة لتبقى للأجيال الصاعدة. لم لا؟ اللعنة على هذه الطابعة الغبية. لا تتعطل إلا عندما احتاجها. قد تكون غير مرتبطة بالحاسوب. يجب أن أبحث عن السلك في هذا التشابك الفوضوي المخيف حول قدميّ. انتظري، سنعود للاستجواب لاحقا. آه، يا ظهري!

تصرخ تفاحة ضاحكة: ماذا تفعلان تحت الطاولة؟

تفعلان! ألتفت خلفي لأكتشف حرّة ورائي، وهي على أطرافها الأربعة تحدّق في شخص مجهول يفعل أشياء مجهولة في مكان مجهول أفاقت فيه؛ لا تعلم لأي سبب.

- "با"، البنت تكبر بسرعة رهيبة. هل فكّرت بالقصص التي ستطلبها منك قريبا. تذكّر أن تفيحة حذّرتك في آخر عشاء لنا من إعادة استعمال القصص التي كنت ترويها لنا. هي خاصة بنا ولا نرضى بها حتى لأطفالنا.

- تفاحة، انتبهي لهذه البنت فهي فضولية أكثر حتى منك أنت لما كنت في عمرها.

- أعتقد أنها ستمشي قبل بلوغ سنتها الأولى وآنذاك: يا ويلي من هذه الفأرة!

تتنهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:

- يوم وقفت على رجليك وأنت لم تبلغ سنتك الأولى زغردت ثم قلت: يا ويلي من هذا الفأر.

إنه يوم أغرّ حقا، فلماذا لا يؤرخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتنطلق الزغاريد وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟ كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجّعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف بك أرضي؛ إنّها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل، ولا خشية أن تكون أنت بالذات القشّة التي تقصم ظهر بعير كهذا.ها أنت تحرّك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلبا لا تعلم أنه يطفو منذ القدم على أنهار من النّار. تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ثم ينزاح عنك الخوف تدريجيا فهمت أن المشي فقدان توازن ثم تداركه. يوم تتأكد من فهمك لقواعد المشي، يرفع الحاجز في وجهك كما يرفع في وجه نهر حبيس انهار أمام دفعه السدّ.

**

وأن هدية المولود الجديد عالم بأسره لا أكثر من هذا ولا أقلّ

لو تابعنا الطفل وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهقنا وهو لا يكفّ عن الركض والرقص والنطّ والتسلّق والهرولة كأنه يبحث دون كلل عن شيء أو عن أحد. لو دخلنا وعيه وسجّلنا ما يمرّ به من مشاعر، لأرهقنا وصف ما يمرّ به من حالات.
إنها المرحلة التي يضع فيها القادم الجديد الحجر في الفم ليختبر صلابته، يرفعه إلى الأنف ليتأكّد أنْ ليس له رائحة، يرميه إلى فوق ليشعر بمقاومته للرمي... التي يتحسّس فيها الأواني والأدوات ليعرف ما تثيره من أحاسيس لا يخشى لمسها حتى وهي تلتهب نارا... التي يجرّب فيها الكتابة بالفرشاة والأكل بالقلم ليقبل أن للأشياء استعمالا واحدا لا غير...المرحلة التي يخطِّط فيها لصبغ صخرة بباب الدار بالأحمر فتنهاه الأمُّ برفق، لكنه لا يتراجع عن مشروعه إلا لعدم توفره على الأصباغ الكافية لتلوين كل أحجار الطريق.
إجمالا هو في حالة دائمة من الفضول الجارف لكل ما يحفّ به من مظاهر وكائنات وأشياء وأماكن.
بخصوص استكشاف المكان الأول الذي أفاق فيه، ثمة في ألبوم الذكريات بحث متواصل في أركان غرفة يتيمة تقع بجانب غرفة الجدِّ تسكنها المنفيّة مع طفليها، تطلُّ على نخلات عجاف تتوسط ساحة الحوش. لنفتح القوسين هنا للتذكير ببعض القواعد العامة المتعلقة بالمكان الأول.
إنه الذي نقضي فيه الزمن البكر، لذلك له مكانة خاصة في قلوبنا تجعلنا نعود إليه دوما إن لم يكن بجسدنا فبذاكرة خيال أو بخيال ذاكرة لا تحافظ إلا على أجمل خصائصه، وكيف أنه كان دعة وراحة وطمأنينة وخدمات مضمونة، وخادمة مطيعة تحت الذمّة يمكننا إرهاقها بكل أصناف الدلال. هو مجرّد امتداد للرحم يتصرف وفق نفس القانون. يقبل بك زمنا ثم تتقلص عضلاته فتلفظك خارجه. الويل، كل الويل، لو تمسكت بالبقاء فيه، لأن مآلك نفس الذي كان ينتظرك لو تشبثت بجدران الكهف السحري: الموت تعفُّنا. كل الأماكن التي تتلقفنا بعد طردنا من الملجأ الأول تتصرف وفق نفس السيناريو، لاعبة نفس الوظيفة: الحماية المؤقتة والإعداد للجزء الآتي من الطريق الخطر.
بخصوص الأشياء الأولى التي تتزاحم داخل نقطة لانطلاق هذه، ثمة الحصير والبطاطين على الأرض، والقربة على الحائط، والقلة أمام الباب، وكانون الشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الواطئة التي فوقها قصعة الأكل... كل هذا مصفّف بنظافة وعناية النساء بتزيين أبسط وأفقر البيوت.
بخصوص الكائنات الأولى التي تمّ رصدها، ثمة العنزة والدجاجة والديك والقط والحمار والجمل. سنرفض أي حديث عن الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج خاصة أيام جني التمر حتى لا نشرفه بالتواجد في كتابنا والإشهار له بالمجّان. كذاك الأمر عن نوع ثالث من الكائنات لا مبرّر مقنع لوجودها وهي تثير في "ما" هلعا شديدا. إنها الأفاعي التي من بين عاداتها المقيتة، الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طيات البطاطين لتلسعنا وليس فقط كالذباب لمجرّد الإزعاج.
ينتبه الطفل سريعا لوجود مبهم يقع وراء حيطان الحوش، ولا بدّ أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرفها وعليه أن يكتشف ماذا يجري بالضبط داخل الحيشان المغلقة الموجودة ووراء الزقاق وأين هو الغوط الذي يقصده الجدّ ُكل صباح بمسحاته القصيرة، يأخذ معه حماره عنتر غير قابل به على ظهره. نعم يجب أن يخرج وفي أسرع وقت ليلحق بهما. لكن عبر اي طريق وكيف مغافلة "ما" وهي تصرُّ على حبسه في الغرفة بدعوى أنه ما زال صغيرا؟
تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدّة غير معهودة فيها:
- ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح! ألا ترى أن هذا رمل خبيث، يريد بنا الشرّ؟ أدخل الغرفة بسرعة. لا تخرج إلى أن أسمح لك.
يفلت الطفل هاربا لوسط الحوش، راقصا، صارخا في وجه الريح، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثم ّكيف يضيّع فرصة تأمُّل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟
هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السّماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالى بعصبيّة متزايدة كأن إلها يقدح ولآّعة تعاكسه، أو كأنّ عفريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.
تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفّي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط في مثل هذه العاصفة. تعبره لحظة فكرة رهيبة، هي أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال-خاصة هو-من حماقات. تركض الأم وراء طفلها وقد اكتشفته وراء النخلة يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوّة للغرفة، تحميه من نوبة جنون الريح.
- هل تشعر بحرقة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرني.
- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟
- جدّي سيجدني. هو أحسن من يقتفي الآثار.
تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح: ممنوع، ممنوع، كفى الآن.
هذه المرة لن يخرج لتسلّق قمة الهضبة التي تسميها لغة أهله "العِرق" ولن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمه تعده أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكثبان؟ يغمض الطفل عينيه ليرى أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائلُ، الغزاةُ الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع. تأتي الكهل وهو يتفحّص مشاعره أنها إعجاب وغيرة ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.
كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة، تبثّ عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن تائهون في هذه الصحراء، لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.
تختبئ الأم وطفلها من غضب الريح في الغرفة الصغيرة، والرمل يصفع الباب الخشبي كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده.
- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.
بوابة جهنّم! ... أروع لوحات الله خاصة والليل يرخي عليها سدوله يلفّها بالمهابة والجلال...نقطة الخلاف الوحيدة مع "ما" إلى يوم مماتها.
لمغالبة عصبيتها لا تجد من خيار أسوأ من رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.
- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيّام ميّتة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق. وهل حدثتك عن ‟با" لما كاد يهلك وقد ضاع بين كثبان الرمل!
وفي ملفّ آخر يؤكد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكشّر عن الأنياب: لمّا هبّت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نصطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولمّا بدأت الشمس ترميني بأشعتها كالصيّاد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدلّني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. وعند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرنّك-يا بني-من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها لحظة تقطّب الجبين... ويل أيضا لمن لا يرفع تحديها.
نعم لا أجمل من الصحراء حتى في عزّ الظهيرة أيام الربيع عندما تتحول الأراضي القاحلة بين عشية وضحاها إلى مروج خضراء مرصعة بأروع أنواع الزهور. إنها إحدى معجزات الخَلق والبراعمُ المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهُرا وأحيانا سنينَ وصول الغيث.
تواصل الأم حديثها الهامس مشبّعا بالرجاء والقلق:
- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفّف من أحزاني؟
كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جئنا أصلا لغير متعة الضياع!
زأرت العاصفة أم لم تزأر يجب أن يخرج لأحبّ أماكن الواحة.
- أريد أن أذهب للعين حالا... حالا... الآن... الآن أريد السباحة.
- نعم ستذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدني أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.
- وهل يجب أن أقبّل الماء كما تفعلين عندما تلثمين الخبز قبل أكله؟
يتعمق ربع الابتسامة. تنفجر ‟ما‟ ضاحكة إلى أن تسعل:
- حقا أنت‟ حلّوف‟ كبير، لا يفوتك شيء. ليس عليك أن تقبّل الماء، أكرمه فقط بعدم تبذيره. انظر ما يتكلفه جدُك حمد وعنتر من عنت ليكون هناك دوما في القربة والجرة ما تشرب.
تهمس ‟ح‟ في أذن حبيب قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدف على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

- كفاك تأمُّل هذا الشلاّل.
ترفع من صوتها، تهزُّ الحالم اليقظان من كتفيه:
- تعال؛ داهمنا الليل.
- لن أتحرّك من هنا حتى...
- حتى ماذا؟
- حتى ينتهي تدفُّق هذا الماء. لا أصدِّق أنه سيسيل دون توقف...اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه
تضحك "ح" إلى أن ينهمر الماء من عينين بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.
- لن تموت من العطش فترة الانتظار ...جوعا بالتأكيد. تعال الآن.
أحدّثها عن طقس مارسته "ما" دون علمي سنينا إلى أن كشفت السرّ أخت لها كل طيبتها:" كانت، رحمها الله، تأخذ القدح وأنت تنهض كعادتك راكضا نحو الباب لتنثر الماء في ظهرك قبل أن تختفي. كم كانت تخشى أن تنتبه لما تفعل فتسخر منها. لحسن الحظ، لست من النوع الذي ينظر وراءه.
في البيت، يعود نفس الموضوع لمزيد من المشادّات الضاحكة.
- كم مرة ردّدت لك: لا تتركي الحنفية تسيل هكذا. هل تتصورين ما تتكلفه حمير المدينة لملْء صهريج هذه العمارة؟
كيف لا تتشنّج أعصاب الرجل، وهو الذي استبطن من نظرات أمه أن تبذير الماء كتبذير الخبز الذي تسمّيه "النعمة". حرام.
- أخرج إلى الشرفة أنظف الصحون بالمطر؟
- نلحسها ونوفّر ماء المطر للشجر وللحمام.
تتنهد "ح":
- آه، لو أفهم يوما العلاقة الغريبة التي...!
العلاقة الغريبة ! طبيعي، وهل ثمة شيء أغرب من الماء أو أعجب منه؟
هل النوتات التي تنطلق من البيانو والقيثارة غير محاولة لتقليد موسيقاه! ...أليس صاحب أروع الأصوات وهو زمجرة الشلال، رقرقة الجدول الشادي، خرير نافورة وسط الدار، صرير الثلج تحت الأقدام، نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم... يقولون أنه بلا طعم ولا أطيب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون أنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان...يقولون أنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء...ويقولون أنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشمّ...مصدر الأحاسيس الأشدّ عمقا ...الأبقى في الذاكرة منذ بدأت تسبح فيه داخل الرحم... الذي خلق الله منه كل شيء حيّ...رمزنا للقداسة هو الذي يستحم فيه الحجاج وبه يعمّد الأطفال...معلّمنا لمفهوم تدفق الزمان وهو النبع والنهر والبحر...قدوتنا ونموذجنا لكل مكارم الأخلاق....

وشاهدت كيف النهر يبذل ماءه	*فلا يبتغي شكرا ولا يدّعي فضلا (إيليا أبو ماضي)*
وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا	*وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا*
تجيء إليه الطير عطشى فترتوي	*وإن وردته الإبل لم يزجر الابلا*
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه	*فلا إثم ذا يمحى ولا طهر ذا يبلى*
أنظر إلى الماء إن البذل شيمته	*يأتي الحقول فيرويها ويحييها*
فما تعكّر إلا وهو منحبس	*والنفس كالماء تحكيه ويحكيها*

تعود الأم لدورها تدلّ وتحذّر من أخطار الوحش الرقيق.
- يا بني، لا تغتنم فرصة القيلولة للّعب، يجب أن تقدّر خطورة الحرّ الشديد عليك في عزّ الظهيرة. ثمة من مات بضربة شمس، لا تخرج حاسر الرأس أبدا، إلخ.
لكن من سمع يوما نصائح دليل؟
- يا بني، لا تنظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك.
هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فقط، وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.
يشيح الطفل برأسه حتى لا ينكّسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه.
-" ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار رده وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. يمدُّ يده بحذر نحو صيده ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلُّ أن يريق على الجمرة الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الآفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك: لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سبّبت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران. قد يكون جرّب يومها أعمق مخاوف الآدمي، وقبله داوى أطفال كبروا خوفهم من ذهاب الشمس إلى غير رجعة بكم من قرابين وصلوات تبتهل لعودة واهبة النور كل فجر واعد. ما من شكّ أن الذين أخذوا ما يلزم من الاحتياط- إضافة لما يجب لحضرة الشمس من أضرحة وأدعية- هم بناة ماتشوبيتشام. لا أحد يعرف بالضبط كيف كانت تربط الشمس إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوتد عند الغروب. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بثبات الشمس على الشروق بعد كل غروب، وبعدم لياذها بالفرار رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات. حقا ما أحكم بناة أعظم مدن القمم وفيها الطريقة المثلى لحلّ أكبر مشاكل الرحلة. تصوّر كل ما كنا نجنيه لو استطعنا أن نوثق إلى صخرة مقدسة إبليس وعزرائيل، ناهيك عن العبيثة، التي سيأتي الحديث عنها لاحقا. بالطبع نيتي غير نيتهم، والقصد ليس إطلاقهم على ألدّ أعدائي بين الفينة والأخرى، وإنما كفّ شرّهم عن الآدمية المسكينة والتشمت بهم دوريا، وأنا أدعو أصدقائي لحفلات رميهم بالحجارة والبزر. المشكل لو أكتشف بقية البشر سرّ عقل كل ما لا يريدون. تخيّل تبعات شيء كهذا. لنطلق إذن سراح إبليس وعزرائيل والقدر والعبيثة، وإلا كيف تكون الحياة مغامرة المغامرات، لنكون فيها نحن أبطال الأبطال.

قد يكون أحسن تعريف للصحراء أنها جهنّم في عزّ الظهيرة الجنّة عندما يأتي المساء. الظلام أخيرا بعد طول الترجّي ونفاذ آخر مخزون الصبر:

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

عقود ستمرّ على الطفل وهو من دهشة لأخرى، من حيرة لحيرة أعمق، من إجابات خاطئة عن أسئلة سيئة الطرح إلى معطيات قليلة متفرقة لا تكفي أبدا لرسم الصورة الجامعة-التي سيسمّيها كهلا الرؤيا-أو لنسج روايته، هو، لملحمة الآدمي في العالم وملحمة العالم في الآدمي.

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفينا ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها فقط! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار... بغض أمه للصحراء وهيام أبيه بها. يختار باكرا صفه لجانب أبيه ضدّ أمه... للمرّة الأولى والأخيرة.

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّذ قدحها في شمس الأب والجد:

- لا أجمل من غروبها وشروقها حتى هنا... آه، وهي على وشك البروز! لكن... لماذا تنقلب فيما بعد إلى...

تصمت "ما" لحظة، تصيخ السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع ثغاء الجدي المولود الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!

- هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعا ويتشاركون فيها.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحفظا بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفينا. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكمّلوا نقش "بخنوقها"؟ هل كان سحرا تختفي داخله فلا يراها أحد؟

تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.

- ‘‘ما’’ أريد أن تروي لي أطّططططول قصّة في الدنيا، أنا أحبّ القصص لكنك...
- نعم، نعم، لكنني لا أروي لك الكثير منها، لست مثل جدّتك التي...
- لا، لا، تعرفين لكنك لا تريدين...
تضحك ‘‘ما’’ بحرج.
- صحيح أنني لا أحبّ القصص... قد يكون لأن جلّها للتخويف أو لتزيين الواقع.
هل نطقت ‘‘ما’’ حقا هذه بهذه الجملة أم أن النصّ يقوّلها ما لم تقل في إطار إعادة صياغته للأحداث وتزيينه هو للواقع؟ ربما قالت شيئا من هذا القبيل علق بذهن الطفل وأعادت ذاكرة الخيال صياغته بعد عقود. ربما هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لقصص الآدميين فوضعها على لسان أحكم من عرف منهم.
هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من العالم السحري ولتقل ‘‘ما’’ ما تشاء.
- أنا و"با" وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبّينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.
- قد يأتي متأخرا هذه الليلة.
- لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.
- أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهرني إذا حلا لك النوم.
قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي اللّيالي التي يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه الوحشة والسحنة المكشّرة التي يتخذها عندما يتسربل بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد السماء حتى تتراجع الكوابيس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف الّلصوص والعشاق.
هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص والعشاق وبقية الكائنات، وأنه لولاه لدارت الأرض على نفسها بثلاثة أضعاف سرعتها فإذا بسطحها مسرح أبدي للريح الصرصر والعاصفة الهوجاء، ولا قدرة لكائن حيّ على البقاء.
أيضا من مشاكل الطفل، في هذه الليلة القدسية، الصلة التي تبدو وثيقة بين هذا القمر وبين الهلال.
- "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
تحاول الأم التصحيح:
- هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه "القمر".
- لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه جرم آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال للشمس.
تبتسم ‘‘ما"، تداري حرجا. أيكون للشمس هلال لم يتفطن له إلا طفلها؟
-" ما " كم عمر القمر.
تصمت "ما" والردّ لن يجده الطفل إلا عند أحد أكبر أصدقائه من الشعراء
كم عمر القمر؟ (إيسا)
ثلاث عشرة سنة.
تقريبا
- "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟
- لنفس السبب الذي لا يوجد إلا طفل واحد مثلك، كل ثمين يا حبيبي فريد.
- "ما"، من ماذا صنع الله القمر والشمس؟ لا، لا تقولي، أنا أعرف، أنا أعرف. القمر مصنوع من الفضّة كالتي حول معصمك، أما الشمس فهي من ذهب قرطيك. أليس كذلك؟ أليس كذلك؟
- فكرة مثيرة، لكن صدّقني، يا بني، لا أدري.
- سأقول لبا’’ عندما يرجع أنني اكتشفت مما صنع الشمس والقمر. سيكون متّفقا معي فيما أقول.
- أخشى يا بني أنه سيكون عليك أنت أن تتفق مع كل ما يقول هو.
آه على فكرة. أكنّا نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلّم؟ من علّم الآدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعترف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟ من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟
موضوع آخر سيأتي وقت نقاشه. المهمّ الآن كل الاحتمالات التي يمكن عرضها على "ما" دون إثارة ضحكها، وغدا على "با" لإثارة إعجابه.
أولى النظريات تلك التي تؤكد له أن القمر كوّة كبيرة قد تمكّن جسمه النحيل يوما من التسلّل عبرها إلى ما وراء ستار الظلام. ثمة أيضا إمكانية أن يكون بالون عيد الكائنات الجبارة التي تسكن النجوم. وفي نوبة من الإبداع الفني، يجعله الطفل فانوسا

يمسك به الكائن العطوف الذي تصلي له أمّه، يهش به على العفاريت التي تملأ أحلامه، وبغيابه تعود الأشباح المخيفة التي تملأ ساحة الحوش، تترصّد به وراء أشجار النخيل.
هو سيحافظ يوم يكبر على صورة الفانوس ليحوّر-بكيفية جذرية-وظيفته في اللوحة الجديدة بعد أن أصبح العالم في ذهن الكهل اليائس المرهق محتشدا كونيا رميت على سطحه الكائنات الآثمة لقضاء عقوبة اسمها "الحياة". يصبح مصباح اللّيل عين حارس المحتشد الأعور، ذلك المدعوّ في قصص قومه "إبليس".
رغبة معرفة طبيعة القمر الحقيقية لم تكن هاجس هذا الطفل وحده، وإنما هاجس الأطفال على مرّ العصور. لذلك رصدوا حركاته، تجسّسوا على كلّ طريق يتبعه، واكبوا تغيّر ألوانه وأشكاله، ثم رسموا بين النجوم طريقا واتّبعوه إلى أن حطّوا الركاب على سطحه ليتنفسوا الصعداء وهم يشاهدون بأمّ أعينهم واحدا منهم يقذف القدم وراء القدم فلا يترنّح البدر ولا ينفجر كالبالون الذي رشق فيه مسمار.
يعود الطفل للكلام يغالب تثاؤب المشرف على الرحيل للضفة الأخرى من العالم. تضع الأم اصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.
-أنصت لأي شيء؟
-للصمت... لكل هذا الصمت.
الصمت الذي سيحلم به الكهل وهو على طول الطريق محاصر، مهدّد، معتدى عليه بكل مما يصدره الآدميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرّع وشخير وتسابب وهتاف... أنت بين أحضانها بمأمن أيضا من أشيائهم ويا لبشاعة ما تصدر هي الأخرى من أصوات... كأنّ بقية الكائنات التي تسكنها لا تتجاسر على رفع عقيرتها و وقارها الفطري، وقد التحفت ببرقع الظلام والنجوم ، يثني عن كل صراخ بذئ وعن كل جدل عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ ذوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا...في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، يتضوّع الجوّ إيحاء ووحيا لمن يعرف التقاط الإشارات... ليتصل ما انقطع لا مكان إلا هي فلا الغابة الخانقة للأنفاس، لا السهل ، لا الجبل ولا البحر بقادرين على اعتصار ما تعتصره من مشاعر بالغة القدم بالغة العمق... هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبهى صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: تذكّرت من أنا، تذكرت من نحن، أعرف ماذا نفعل كلنا هنا!... محكوم على الصحراء وعلى الصحراء وحدها إنجاب الأنبياء.
يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو. لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوّي انفجار شموس أين منه دويّ ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سوئه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج.
ليلتي هذه عروس من الزنج عليها قلائد من جمان (المعري)
ينتبه طفل وهو يغالب موجات النعاس لبريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت. يرفع رأسه مجيلا بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته ل '' ما''. يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.
سؤال آخر يرهق به ذهنا مشغولا في آن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظا: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها-في ظلمة الليل-عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟ إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقوبا في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه ''ما'' الله. ألا تردّد دوما أنه نور يوجد في السماء؟ كان واثقا أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالسا على عرشه. آه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبدا!
كم استفزّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تناجيه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولا جارفا! كم صورا مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تتضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صوره في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مردّدة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكّد من الأمر إلا بالرحيل إلى حيث يوجد. ما الحلّ

وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلّم، يوضع على سلّم، يوضع بدوره على سلّم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسّع الثقوب الصغيرة لمرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع.
الحلّ بالطبع: فانوس الليل عند اكتماله.
حانت لحظة ‟الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العبثية. يبدأ الطفل التسلّق وكل درجة يعتليها تزيده خفة وجذلا إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيرا وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدّد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولا التمعّن في ملامح وجه مشرق بالنور.
يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر-وهو جالس على ركبتيه-بأنفاسه الهادئة على عنقه.
- ماذا تريد مني، يا صغيري؟
كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أب يريده عاد من الغربة ولا يجب أن يعود إليها أبدا، وعن أمّ يجب أن تكون أقل حزنا، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصافير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مسحاة جديدة للجدّ، وعن جحشة جميلة يزوجها عنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلللللللّ أسئلته ليفهم كلللللللّ شيء. تتّسع ابتسامة الكائن المهيب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تتشبع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.
يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.
-‟ ما"، لقد كلّمت الله وقلت له ...
ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.
- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إيّاك!
تضع ‟ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟
يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأوّل مرّة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلّغها.
- "ما"، لكنه قال لي...
- يا بني قلت لك كفى.
ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه.
تنحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:
- الشمس في الموعد.
- اتركيني، أعرف عنها كل شيء.
- قلت لك: انظر، معها مفاجأة أخرى.
يفرك الطفل عينيه. يأخذ كل وقته للتثاؤب. يتسمّر أمام حالة يتخذها العالم الطاووس عندما يقرّر أن يفتن أنظار من دعاهم إلى مأدبة الحياة. بداهة لم يدّخر الداعي المجهول أي جهد ولم يتراجع أمام حجم النفقات لتزيين دار الضيافة. أليبهرنا بغناه وحسه الفني المرهف؟ أم ليعوّضنا عما سنلقى في دار ضيافته هذه؟ أم لسبب آخر لا ترقى له أفكارنا وصورنا الصبيانية؟
يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، ألجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلوّن ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحوّل إلى بحر قان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصفّى لم يتجمّد بعد في سبائكه. تستغرق ‟ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله يبتسم. تفرغ الأمّ من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:
- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.
يتسمّر الطفل أمام معجزة جديدة، والقمر في طرف من السماء، والشمس تواجهه في الطرف الآخر. كيف يمكن لشيء كهذا أن يحدث وهو الذي استبطن باكرا أن لفانوس النّهار نصف الزمان، ولفانوس اللّيل نصفه الآخر، أنهما لا يلتقيان أبدا في نفس السماء. يجيل البصر بين الشيئين، لا يكاد يصدّق عينيه. ثم ينفجر صارخا راقصا، داهمته فرحة صاخبة لن يفهم سببها إلا وهو كهل يسترجع وينظم ذكرياته، دامع العينين منقبض الحلق. ورغم أن اللغة تؤنّث الشمس وتذكّر القمر، فإن الطفل كان على أتمّ الثقة أن فانوس النهار لا يكون إلا ذكرا والأنثى هي القمر، وإلا كيف يفسّر ما في بدر الدجى من رقّة وما في الشمس من حدة وعنف.

على كل حال، ألا تؤنّث لهجة القرية فانوس الليل فتسميه ‘‘القمرة" (القاف منطوقة على طريقة البدو). هو نسج لنفسه قصّة، البدر فيها الزوجة الهادئة والشمس بعلها الصاخب، وتجافيهما الدّائم فصل من سرّ لا بدّ أن يسبر يوما أغواره. يجنح به خياله لتصوّر أسباب الجفاء. أي كارثة دهت سيّدة الليل لكي تصبح بمثل هذه الدّعة الشاحبة والهدوء الحزين؟ هل نور الضحى عرق الشمس ونور الظلمات دموع "القمرة"؟ هل أعرض عنها بعلها السماوي مفضّلا زوجة أخرى لأنها أغضبته يوما لسبب تافه؟ قد تكون أتت من الآثام ما دعاه لهجرها؟ لا، لا. إنه هو المخطئ بالضرورة. ها قد عذّبه الندم على فعلته الشنيعة فأتاها هذا الصباح يطلب الصلح والعفو.

نعم كنت طفل آدميين افترقا على الأرض، وكان لي في السماء أب وأم على نفس الجفاء لا يتلاقيان-هما أيضا-إلا نادرا.

**

انتباه الذات للزمان وأنه نغم العالم ايقاعه رقص الفصول

يكتشف الطفل باكرا أن لليوم تقسيما لا يتغيّر، فالنهار للّعب والليل للنوم، والموانع القاهرة لأي تغيير تأتي من الداخل ومن الخارج... ثم أن للأيام-وإن تشابهت-نكهة مختلفة. الغريب في هذه الأيام الهامة أنها تأتي بمواعيد يعرفها الكلّ بل حتى هو. أي دهشة كانت تصيبه لو أقيم السوق الأسبوعي عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس.

سوق القرية! المكان الذي سيطبع ذاكرة الطفل إلى الأبد وهو يختزل آنذاك كل ما في عالمه من روائح وألوان وخصب وبهجة الحياة... المكان الذي سيختزل في ذاكرة الكهل كل ما في عالمه من قحط وشقاء هو الذي شهد آدميا-أسرف عليه الدهر بالقهر والفقر-يعرض بين الحمير والغنم أطفاله الثلاثة للبيع.

ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب تسارع لإعداد عصيدة السكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي تحبّ أكثر منه. ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجيئها تحلّ أسعد ليالي الأطفال وأشقّ أيام الكبار، والكل فرح راض بما أمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بنيّ، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكّدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكّد. على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحبّ هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبّع ذلك اليوم بروائح الحبور والحبّ والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر بأيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه هذا الطفل أن العالم لا يثبت على حالة وأن عليه مواجهة مشاكل القرّ بعد أن عانى من مشاكل الحرّ.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجهّم. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

-" ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بنيّ.

- ما معنى فصول؟

- إنها...كبرى التغيّرات التي يعرفها الطقس... أي الجوّ... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغيّر؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

تقول "ما" للطفل، تغريه بالطريق:

- نعم هناك بعيدا نحو الشمال توجد أرض مباركة كم ستحبّ الاختفاء داخل أعشابها العالية، يمشي المرء فيها أياما بين حقول البرتقال والزيتون والعنب إلى أن ينتهي به المطاف إلى البحر. آه البحر الذي كنت أذهب إليه طفلة مع جدّتك وخالاتك لغسل الصوف بداية كل خريف! يا إلهي، كم ينقصني هو الآخر! نسيت أنّك ولدت هناك حتى وإن كبرت هنا؟

في ملف من ملفّات مستقبله القريب سنرى الطفل منتبها للفرق الهائل بين الصحراء والسهل وكيف أن الله فرش على أرض الأخوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشّحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.

سنراه يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل. ثم سنراه يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين. ثم سنراه منتبها لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكوّرة شفافة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد التأني يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها، في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. آه، العشب! ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ محاذرا ألاّ يستعمل يديه برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليبصق بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر. أخيرا سيأتيه ألذّ إرهاق فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنصوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق

والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم تتسارع فيه الخوارق والمعجزات: سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقاه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض. كالعادة الأسئلة: أين يفرّ السحاب، هل من وسيلة ليجلس فوقه يأمره بحمله إلى حيث يريد، هل ثمة جن وعفاريت تركض وراءه تريد به شرّا؟ شيئا فشيئا سنرى الهدوء يتسلّل إليه فتثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية امرأتين تتحركان بقلق متزايد بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

سيكون ذلك اليوم معلما في الذاكرة شبيها بأيام اللقاء الأول مع النهر والبحر والجبل وكل مرة تنطلق صرخة الانبهار من المحب المفتون بجمال حبيب لا يفنى له جمال.

تواصل الأم حديثا لا أحبّ منه وهي تتغنى بأرض طفولتها وحريتها: نعم يا حبيبي هناك في أرض جدّتك منى وجدّك محمّد يوجد فصلان لا تعرفهما هذه الأرض القاحلة. ما أحلى الخريف فيها واللهب يشتعل في دوالي العنب. ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيضاء.

يشرد بصرها، تحلم بالأرض التي نفيت منها، والزوج مصرّ على ألا تنتظر رجوعه إلا تحت مراقبة الأهل ولو سكنوا على مشارف الجحيم.

- "ما"، إذا كان هناك فصلان آخران فلماذا لا يأتيان لزيارتنا؟

- هذه أرض سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف، مبتليا إياها بلهب جهنّم أغلب الوقت وبليالي الصقيع ما بقي من الزمان.

تطأطأ الأم رأسها، تخفي ما بها من كآبة عابرة. يبادرها الطفل بأول سؤال يخطر بباله لا يطيق صمتها.

-"ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول ...أو ستة أو سبعة ...ما اسمها؟

تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

- ممكن، لكنني لا أعرف إلا أربعة أرض جدّتك منى.

-"ما" لكن لماذا اربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظا من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه ...الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته ... سحر الأرقام وسطوتها.

يغيّر الطفل وجهة الحديث.

- "ما"، أيهم الأول؟ أيهم المفضّل عند الله؟ أنا متأكّد أنه الفصل الذي خلق فيه كلللللللّ شيء.

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلا تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجمل طبعا...الربيع.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخلق مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ-نافد الصبر-بعصاه وببعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتنصرف متأفّفة متوعّدة برجوع قريب. ثم يمرّر خرقا لامع البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان، ليسمح لي بالتعبير مجدّدا عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارا طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التموين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوفّر على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الفنّان الأعظم أن يظهر مزيدا من الكرم أي مزيدا من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتّى نتسارع كلّ صباح للنافذة لنصرخ مرّة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغبيّة التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنّه سيكون يوما بطعم القرع.

تقول وأنت على ألف حق كفى دلالا يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحليّ والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه لتتدافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحذر. تخرج أوّل فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعها أوّل نحلة يدلّ اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أوّل نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أوّل عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقيّة الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع ايسا "

حتى ظلّي
مفعم حيوية
آن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبثّه الحشائش والأزهار من رسائل الحبّ. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنّها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنّها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاد صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها-عبر مختلف الفضاءات-بصورة أنف عبّأ فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتمّمان صفقة لا تريداني-ظلما-طرفا فيها.

آه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطير ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لّذة الجماع.

نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحّبا بالصيف ومهنئا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتثاقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلا؛ إنه راجع، فلا أحد يطيق له فراقا.

يطرد القادم الجديد بفظاظة ما بقي متردّدا من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلاّ من شمس كأنها قدّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرّة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيرا ذراعيه فيدخله الطفل سعيدا بلقاء موج عاد مضيافا بعد طول التمنّع. تتّخذ حركة الكائنات حدّة غير معهودة وكأنّه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالآدميين من شبق. يعرّي الصيف الأجساد أو يفتعل تغطيتها لأنه هو-لا الربيع-موسم الإغراء والحبّ. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانه الكائنات ترحّب وتتمنّى له طول المقام. تتصاعد روائح الريحان والفلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شكّ أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- "ما"، أنا متأكّد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزلية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقا بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكدّ.

يجمع الصيف حوائجه متأففا من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الخريف مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتثل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تدثّرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدّد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة لنخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيها دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصيّاد رصاصة الموت. تمتلئ السّماء بأشلاء بقاياها وببقايا أشلائها. تتحرّك نباتات بأغصانها المحمّلة ورودا حمراء كأنّها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتزايد التمايل والتثّني. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صفيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردّد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبّة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلّم الأبكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الآذان؟ من يحرّك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الرّيح؟

لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

يصرخ الطفل: "ما"، المطر، المطر، المطر!

حتى يتواصل فيك انتباهه، اخرج للعاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنّك أنت الذي دوّت الطبول تدعوه للترحيب بالرعد. افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمّل-عبر ومضات البرق الخاطفة-ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تشكل نهر من نور يقسّم فجأة سقف السماء إلى جزئين. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور والنّار. اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلّل بين الثياب والجلد. تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألذّ قشعريرة. أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى. هناك في أعمق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم. شيئا فشيئا تتباعد الومضات، تضعف الزمجرة، يتباطأ اللّهث والصفير. تستعيد الكائنات الهيفاء وقارها. تنتصب من جديد ترنو شاخصة إلى الأعال. تكفّ أذرع الإخطبوط النباتي عن صراع مع حيّ غير مرئي. يعود حفيف الأوراق همسا لا يكاد يسمع. تستعيد الملامح العابسة إشراقها المألوف. تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء لتقول إن فانوس النهار لم يعبأ كثيرا بهذا اللّغط. تعود السّماء لصمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملأت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التعالي. تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد. تسترجع الكائنات المتحرّكة رغبتها المحمومة في الحركة. تطلق عقيرتها بالصراخ لتعوّض ما فاتها لمّا فرض عليها دويّ الطبول أن تخرس إجلالا لقوى ممنوع حتى الهمس في حضرتها. يتسلّق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج. إنه قوس النصر مرفوع بلا أعمدة، يمشي تحته الآدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد. ثمّ يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبّورة السماء؛ لا تريده-لسبب مجهول-علما ثابتا كالشمس والقمر.

نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطل الكلام:

- ‘‘ما’’، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّبا ومهنئا بحسن الوصول.

يضرب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلكأ حبّات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم الأزلية على طاقيته تشدها بقوّة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفقدة بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاسي كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتخمة أسرفت في العطاء. أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفء. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.

نعم، ما من شكّ أن الشتاء أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب.

حتى لا يتعطل الكلام، يبادر الطفل أمه بأول سؤال يتدافع على لسانه:

-’’ ما’’، طبعا الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستفزّ يوما فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر. حتى فيفالدي وبوسان تفادا اتخاذ أي موقف، الأول مكتف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحملين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.

إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه، فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّا في أذن الربيع: أنت الأوّل وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الصيف: اصطفيتك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد الفصول وثلاثتهم وراءك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم وراءك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة مفرغة تكرّر نفسها بثبات عبثي مملّ، وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة نهاية أن تكون بداية لمشروع عنيد بالغ القدم على الدوام جديد.

**

القافلة وكيف توفّر للمرتحل الحماية وهي في نفس الوقت أكبر أخطار الرحلة

تورّق الذاكرة الملفّات المخصصة لأول من نعرف من الآدميين، فتتدافع صور كائنات حسية وأشباح، بشر يريدون بنا خيرا وآخرون يريدون بنا شرّا، أقارب وغرباء.

بخصوص الأقارب ثمة مقولة كان "با" يردّدها ولا أحد يعرف إلى أي مدى كانت تنمّ عن قناعة، أم كانت تترجم لغضبه المتواصل على الآدميين:

"الأقارب كالعقارب فاجتنبها.

فكم عمّ أتاك الهمّ منه

وكم خال من الخيرات خالي".

حكم مجحف وهو لا يمكن أن يشمل الجدّ والجدّة فما بالك الأم والأب.

أقدم الصور الصفراء للألبوم لرجل طويل، نحيف، حفر الزمان في وجهه من تجاعيد الألم أعمقها وأعقدها شكلا، يمشي دوما مرفوع الرأس، واثق الخطى، يحفّ به وقار هادئ، حاملا مسحاته القصيرة المحدودبة وكأنّه يحمل سيفا، عائدا من "الغوط" حيث أمضى يومه في تعهّد نخلات عجاف.

يا ما سمعت "ما" تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلا قادما من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف نام تحت حائط المنزل والبرد على أشدّه، وكيف عاتبته على فعلته لمّا اكتشفته عند بروز الشمس مقرورا يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنّه خاف إرعابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أبا لشخص يصل البيت في آخر هزيع من اللّيل، يطرق الباب بمنتهى القوّة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبّلوا كتفه الأيمن ويحمدوا اللّه على عودته سالما. ثم يأمر "ما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكّؤها.

كيف لا يواصل الكهل محبّة الطفل لجدّه وهو الوحيد الذي مدحه بقصيدة عصماء لا يقدّر أدبنا المسكين عمق خسارته بفقدانها، إذ لم يبق منها إلا البيت اليتيم الذي حفظته ذاكرة الأخوات والعمات الكسولات:

المنصف زي الشهد في القرجومه (الحلق)

يعلّيه ما علّى السماء ونجومه

كان يواجه دوما كل ما تتفتّق عنه مخيّلة الطفل من أنواع الشقاوة بابتسامة تقول واصل ولا تهمّك اوامر الزجر. لكن الأمر بالصمت كان صارما لا يقبل جدلا وهو يجلس لترتيل جمل من كتاب أصفر رثّ من النوع الذي تخفيه "ما". هكذا تعلّمت- وأنا لم أتجاوز الرابعة-أن عليّ أن أصمت حين تحضر القراءة. أذكر أنني كنت أغافله وهو يبدأ حركاته الغريبة وقوفا وركوعا وسجودا وجلوسا لأفتح كتابه هذا أورّق الصفحات ببطء، ثم أبدأ الترتيل بلغة لم يسمعها من قبل جن أو إنس، ولن يفكّ يوما رموزها عالم لسانيات، وكلّي أمل أن تتواصل حركات الشيخ إلى ما لا نهاية حتّى أواصل لعبتي. كم كنت أحبّ مرافقته في أوّل هزيع من اللّيل، خاصة في تلك الفترة الرّائعة من السنة المسماة رمضان، إلى حيث يلتقي الشيوخ لمواصلة الترتيل والأطفال لمواصلة اللعب. وفي ساحة ضريح جدّ الأجداد الذي كان أول من حطّ الرحال في هذا المكان، كنّا نمرح بانتظار فراغ الكبار من صلاتهم، وكان الرهان الاستيلاء على قطع النقود التي ترميها العجائز فوق قبر الوليّ. كان الشيخ يخرج عند انتهاء التراويح من حلقة الشيوخ، يأخذ يدي برفقه المحبّب ميمّما الحوش نقطع كثبان الرمل، والنجوم هي التي تضيء لنا الطريق، تكثّف الصمت داخله وداخلي. لم أعرف للوقار وللجلال رمزا إلا هو على كثرةِ من رأيتهم يفتعلون أمرا كان عنده فطرة وغريزة.

وفي ملفّ آخر من نفس الحقبة، ينكبّ هذا الآدمي على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- صيف الصحراء والحصباء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم إلى أهلك في الشمال على مسئوليتي، وسأبلغ ابني بقراري وسيقبله وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

تفتح الذاكرة الآن ملفّ جدة عوّضت بحنانها حنان الجدّ المفقود.

تجلس العجوز المرحة على الدوام على الحصير البالي تعدّ الشاي وهي في قمة السعادة بعودة ابنتها وبرؤية بعض من أحفاد أرهقت كثرتهم ذاكرتها فبقيت تخلط بين الأسماء إلى نهاية العمر.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثارة، مرحة تبرز من قريتها لتفقّد أحوال تعلم صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بالخيرات التي كانت تحملها، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه بمجرد ظهورها.
تتصاعد من جمرات الكانون رائحة احتراق قطع خشب تقول الجدة أنها جاءت من أرض النبوة ولا أنجع منها لإبعاد الأشباح والجن. كانت تخرج علبة معدنية صغيرة تفتحها بمنتهى الوقار، تتناول منها مسحوقا أخضرَ داكنا تمسكه بين إصبعين ماهرين، ترفعه بتمهّل إلى أنفها تستنشق رائحته بلذّة واضحة. يغافلها الطفل ليسرق بعضا منه يدسّه في أنف فيباغته الالتهاب والعطس.
تضحك الأمّ وأم الأم إلى أن تستلقيا على الظهر ثم تتسابقان لتقبيل الطفل الغاضب. إلاّ أن ما كان ينتظره بفارغ الصبر هو أن تنزع الجدّة المحبوبة عن رأسها وشاحا بالغ القدم تعتمره وتتدلّى ذوائبه على كتفيها تخفي في طيّاته كنوز الأرض قاطبة. كانت تفتح عقدة في هذا الوشاح، تخرج منه قطعة نقد هي ضريبة تتخلّص بها من طفل مشاكس تحبّه وتضيق ذرعا بكثرة شغبه.
كان الطفل يلتقط القطعة أو قل يخطفها مطلقا ساقيه للريح وكلّه مشاريع حول ما سيشتري بها من ملذات الدكّان القريب، تاركا نصيبه من الحلوى تحت حماية المرأتين، عالما أنه يستطيع الثقة بهما... في مثل هذه القضايا على الأقلّ. ثم كان يركض مجدّدا للجلوس بالقرب منهما على الحصير الخشن يصيخ السمع لحديث هامس عن فـــرَج آت لا ريب في الأمر. تصرخ الجدّة في الطفل الهائج وقد نفد صبرها من ضجيجه ومن إلحاحه بخصوص موعد حضور الرجل، ولماذا سموه "فرجا"، وماذا سيفعل في بيتنا عندما يصل.
- إن لم تكفّ هرجك فإنّ َالعبيثة ستأتيك هذه الليلة وسترى ما سترى.
العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما هدّدته عمّات وخالات بهذا الكائن المرعب الذي يخرج من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبة بالأطفال الشرسين سليطي اللسان. العبيثة! الكائن الذي تتجمّع فيه كل شرور البشر وكل تهديدات الآدمي للآدمي الآخر.
يتوسع عالم الطفل لكائنات موجودة لكنها أصعب اكتشافا على البصر حتى من أفاعي الصحراء. لم يبق عليه إلا تخيلها ورسمها ليخفّف من خوف مداهم.

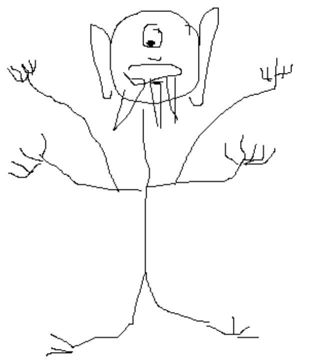

العبيثة

-" ما" من أخطر؟ العبّيثة أم الأفعى؟
- أولاد الحرام.
- أولا د الحرام؟!
تصرخ الجدّة ضاحكة تريد تدارك زلّة لسان ابنتها
- اسمع بقية قصة البارحة، لكن كفّ عن القفز على هذا السرير. إذن: وقف علي بابا على باب الغار.
ذهن الطفل الآن مشغول بأولاد الحرام أكثر مما هو مشغول بالقصة.
أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونوا أخطر من العبّيثة؟
يغمض الطفل عينيه، يترصّد قلقا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يتعمّق صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها. يغرق الطفل في أمواج مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يصدر الباب صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يثب الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة التي هرّبها معه للفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا إحدى مقولاتهم؟ أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع حجارتك دوما في الجيب.
تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:
- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبّيثة؟ آه، العبثية، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم مطمئنّا. أمّك ساهرة على الباب، سأترك لك النور.

يتنفّس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جنّا أو إنسا وأنّه سيشجّ رأس العبّيثة بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثب من فراشه ملتجئا لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.
فرصة ثمينة لمواصلة الاستجواب والأم لا ترفض شيئا لطفل مختبئ بين ذراعيها يرتجف من الخوف.
- ‘‘ما’’، إذا كان لك أمّ فلا بدّ أن يكون لك أب مثل ‘‘با’’. أليس كذلك؟
- طبعا يا حبيبي. أنا أيضا لي أب، إنه جدّك وهو زوج جدّتك مني.
- لماذا لم يأت لاستقبالنا. هو أيضا في السجن؟ هل سيأتينا بعد إطلاق سراحه؟
- لا يا حبيبي. سافر جدّك إلى جنة الخلد قبل سنتك الثانية.
يداهم الطفل شعور مزعج أنّه يكلف هذه المرأة ما لا تحبّ. أليس من حقه أن يعرف كل التفاصيل عن هذا الغائب الآخر؟ ما سبب ذهابه إلى "الآخرة" وكيف كان شكله وطوله ولباسه وطبعه لوضع بعض الملامح على الوجه الغائب الحاضر.
- وماذا أيضا؟
- كان يلبس برنسا أبيض ويضع في عبه الحلوى التي يأتي لك بها خصيصا.
- وماذا أيضا؟
- كنت تضع يدك مباشرة داخل العبّ لأنك تعرف أنه زاخر بما تنتظر.
إذن هذا الشبح الذي لم أره قطّ هو الذي علمني ألا أدخل بيتا فيه طفل إلا والحلوى ملء جيوبي. كانت هذه لمسته في تشكيل ذات عركتها من الأيادي ما عرفت وما أجهل.
- وماذا أيضا؟
- يا بني، قلت لك كل ما تريد سماعه عن جدّك محمد.
كلّ ما يريد سماعه! لا يبقى على الطفل سوى استدعاء العجوز في المنام ليقول له هو مباشرة ما كان بأمسّ الحاجة لمعرفته.
أواجه الرجل الذي لا شكل له ولا ملامح، فإذا به ملاك ملتح مغال في الوداعة والطيبة ملتحف ببرنسه الأبيض. لا أقبّله، لا أرتمي في أحضانه، ولا أتركه يلاعبني ويدغدغني. لا أقبل منه أن يناديني بأحلى الأسماء، بل أرفض أن أمدّ يدي إلى برنسه لأجد المكان الذي يخبئ فيه الحلوى. ها هو ذاهل أمام سيل من التهم يفاجئه بها طفل شيخ تقاذفته موجات الزمان وأخرجته من التتابع المألوف للقصص.
- كفى تهريجا وتمثيلا أيّها العجوز، لا أريد حلواك وإنّما أن تقول لي ما نحن بصدده. هل اتّفقنا على أن الغياب أهمّ قواعد اللّعبة؟ أم هل غافلتني فأضفت هذه المادة السمجة تظن كل قصة بحاجة إلى عقدة؟
يتعمّق صمت الشيخ ويهدأ غضب طفل لتعود القصّة إلى نسق التتابع المألوف ومواصلة التعرّف على بقية رفاق الطريق.
تتسارع النسوة لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين مريضين.
- آه، هذا هو الكبير. "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحمّت على عبد. "الله معافينا". يا لعينيه! كأنه يقرأ في الأذهان، ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكنا الطيب!
الاسم! ليسمح لي بالتركيز على هذا المعطى البالغ الخطورة عند الآدميين.
تخيل أنهم رفضوه لك عند الوصول، ولا أحد كلّف نفسه عناء تسميتك، لأن حظك العاثر شاء أن تكون ضحية تجربة علمية قرّرت دراسة علاقة الاسم بتكوّن الذات. ها أنت في وضع من مميزاته أن لا أحد يناديك، لا أحد يطلب منك أو ينتظر منك شيئا ولا حتى دفع الضرائب بما أنك غير مضمّن في أي دفتر.
من حسن حظّك أن العرف والقانون يحرّمان جريمة أفظع من جريمة القتل. فالاسم حق مطلق ومعطى يسلّمونك إيّاه عند الوصول تقبله طوعا أو كرها ليضع الحدود بينك وبين بقية الآدميين، ليجعل منك فردا متفردا وفريدا، معرّفا ومعروفا لنفسك وللآخرين.
ها أنت موثق إليه من المهد إلى اللحد كما أنت موثق للجلد والعظم والرابط بين التغيرات التي تمرّ بها الذات هذا الصوت الذي لا يتغيّر من بلل الرضيع إلى بلل الشيخ. كم من أجزاء من شكلك سيأتيها الوهن والعطب واسمك كأوّل مرة سمعته من ‘‘ما’’ لا يصاب بمرض ولا يشيخ أبدا!
للاسم أيضا وظيفة أخرى هي إدماجك في مشروع غامض، في أمل مبهم، في مهمة عليك الانتباه لها.
أي مسار كانت تتخذه الرحلة لو كانت ‘‘ما’’ هي التي أطلقت عليّ اسما محملا بتعليمات وأمانٍ صامتة غير التي حملها الاسم الذي فرضه "با " لمتابعة ملحمة بطل اختاره هو ليكون النموذج لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار.
لكن من أين لكل كريم أن يصبح كريما، لكل منصف أن يغدو منصفا، لكل منصورة أن تنتصر ...من أين لكل مريم أن تلد مخلّصا وإلها!

داخل هذا الاستطراد الذي لا أعتذر عن طوله يجب التعرّض لموضوع يفخر كاتب هذه السطور أنه أول من انتبه لخطورته. يجعل قانون "الشيء لا يكون إلا بضدّه " أنه لا وجود للنور إلا بوجود الظلام"ولا معنى للشر دون الخير وللذكر دون الأنثى. كيف لا يوجد لنا إذن بجانب كريم ومنصور ونور وعفيفة، أسماء مثل لئيم ومهزوم وظلام وعاهرة. تصور أبا يشتري ذمة موظف البلدية ليسجّل أسماء أطفال يعلم أنهم ليسوا من صلبه وأما تشتري نفس الموظف لتسجيل اسم طفل تعلم أنه من صلب الزوج الذي تكره. تصوّر هذا الأب يصرخ في طفلة صغيرة: توقفي عن الصراخ يا عاهرة، أنت يا لئيم كفّ عن شدّ شعر أختك ...والأم تنظر بقرف للطفل الذي تكره فيه زوجها: تعيس، كم من مرة يجب أن أقول لك ممنوع غسل الأسنان واستعمال الصابون !؟

تصرخ فيّ يا رجل كفى تجنيا على البشر وأنت أول من يعلم أنه لا وجود إلا في خيالك المريض لأمّ كهذه وأب كالذي تصف. لا وجود لأمّ كهذه وأب كالذي أصف إلا في خيالي المريض! انظر الدراسات بخصوص ما يتعرض له جزء من أطفال البشر حتى داخل العائلات البرجوازية من عنف جنسي جسدي نفسي وتعال ناقشني. كلنا نعبر هذا العالم كالحمير تحمل أسفارها، لاوعي بالروائع التي تحفّ بنا من كل حدب وصوب ولا بعظيم الأخطار التي أفلتنا ونفلت منها كل لحظة.

والآن تصور المشاكل الاجتماعية والسياسية والكم الهائل من الحركات والكتابات المنشغلة بهذه المظلمة المضافة التي أفلتنا منها ولا نعي. مثلا هذه الرسالة " حبيبتي ظلام، غدا موعدنا مع الثورة ضد الظلم بالأسماء. كوني أمام البلدية لحرقها وحرق كل الموظفين الفاسدين داخلها " الردّ: "حبيبي تعيس، تعلم أنني ضدّ العنف مهما كان مأتاه ومع مواصلة الاحتجاج السلمي لكي تعيد الأمم المتحدة صياغة الإعلان وإدراج حق كل شخص في اسم يحفظ الكرامة التي يتشدّق بها في كل الفصول ".

حقا يجب أن تحمد الله أنك لن تسمع من يناديك: الرجاء من السيد كلب ابن لقيط التقدم حالا لبوابة الرحيل رقم 5، أو أنه لا أحد سيصرخ فيكِ يوما: يا بشعاء الخنازيري أسرعي بالقهوة، قبح الله وجهك وزاده بشاعة على بشاعة ... (مواصلا الحديث مع مساعديه: يجب طرد هذه الغبية حالا وعلى الفور. غير ممكن! لماذا؟ البهيم هو الذي تدخّل شخصيا لنوظّفها. البهيم!!! البهيم بطمّ طميمه تدخّل لهذه البنت !؟ لكن لماذا؟ لقرابة تربطها بآل قاذورة. آل قاذورة !!!. آل قاذورة !!!. قريبة آل قاذورة بيننا ولا أحد أعلمني !!!... أريد ترقية الآنسة بشعاء حالا وعلى الفور وأن تعلم أنني صاحب القرار)

انتبهت لهول ما كان بالإمكان أن يحصل!!!كيف أفلتنا من المصيبة؟ هنا تردّ الرؤيا بكل ثقة في مصادرها أن إرادة قاهرة داخل الإدارة العامة أفشلت مخططات قسم صعوبات الرحلة وتعلاته البائسة بضرورة احترام قانون الأضداد منبّهة أن إضافة هذه الصعوبة لقائمة تحتج على طولها، قد يطلق الذات على الطريق بقنبلة موقوتة داخلها وأن المشروع برمّته قد ينهار. إذن قل شكرا لحلفائنا لكن لا تلعن كثيرا في سرّك موظفي قسم وضع تصاميم المحن والامتحانات فأولاد الكلب يقرأون في أفكارنا. ماذا تقول؟ ألا أخشى على نفسي بعد هذا الكلام؟ لا يهمّك، عافوا تكديس الصعوبات أمامي، أسقط في أيديهم وأحبطوا منذ زمن طويل.

عودة لسياق القصّة.

تتنهّد جارة بصوت عال. تهمس في أذن "ما" لا تعرف أنني أفتعل النوم:

- يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

تردّ عليها "ما" بحدّة.

- أبوه حيّ يرزق وسيعود قريبا.

يثب الطفل من الحضن صارخا:

- لا أريد أن تموتي، أتسمعين؟ إذا متّ لن أكلّمك أبدا!

تجمع الجارة حوائجها تتلعثم ببعض عبارات الاعتذار لائذة بالفرار،

تحكم الأم ذراعيها، تمسح دمعا يتهاطل من عينيه ومن عينيها:

- اطمئن. لن أموت، هدّئ من روعك.

- و"با" ... هل... هل مات؟

- يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

- إذن لماذا لا يأتينا أبدا. ألم تقولي لي انه بانتظارنا هنا؟ لماذا تركنا جدي والصحراء؟ لماذا جئنا لهذه المدينة البشعة؟ لماذا يتركنا وحدنا دوما هنا أو هناك؟

- يا بني إنه مطارد ...وله كثير ... ممن يريدون به الشرّ.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها.

يعلم أن أمه تخفي عنه سرّا له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهامس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو عفاريت، إنما بشرا كالذي يعرف، لكنهم، لسبب يجهله، يريدون الشرّ به وخاصة ب " با".
يا للطفل المسكين لو علم موعده معهم تلك الليلة!
يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تتشنج يدا الدليل الذي لا ينام إلاّ متحفّزا حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلا في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لنأتيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدّة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلّمكم إيّاه. يتردّد زوّار اللّيل. يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تنشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جثّة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلا يدفّع أبرياء ثمن أفعال الآثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أياما عند الجيران.
تقبل أخيرا نصائحهم وقد فهموا كم تتأرجح على هاوية بلا قرار فتدخل علينا امرأة قالوا لها أنها تعلم الغيب وتعرف تعرف يوم رجوع "با". تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلاّ في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنّة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا متشنجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.
- خفّفي عنك يا عزيزة. ما ثمّة إلا الخير.
تنطلق "الدقازة" في خطاب لا يهمّ منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.
- وهذا الطفل؟
- انتبهي، إنّي أرى عينا شرّيرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تتهدّده!
تعود الأسارير إلى تجهّمها.
تتدارك "الدقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.
- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريقة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ. ضعيها في كيس صغير واربطيه حول عنقه. لا تتركيه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمّام. إنهم يريدون به وبوالده شرّا عظيما، قبّح الله سعيهم.
- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصيبة.
- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حرزك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.
يسأل الطفل أمه عن المرأة الغريبة. لا يفهم إلاّ بعد عقود ردّها الواجم:
- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني بعض ما أحتاج وأعطيها بعض ما تحتاج.
الأغراب لحدّ الأن في ذهن الطفل كائنات خطرة تسميهم " ما " أولاد الحرام وكائنات مزعجة مثل جلّ الجيران أو كائنات طريفة مثل الدقازة تتحيّل علينا بالأماني والوعود الكاذبة مقابل آخر درهم في البيت.
ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:
- أبوك في مكان لا يمكّنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء... هذه الليلة فقط..جدتك ستزورنا قريبا... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.
تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها... ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جائعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبدا، أبدا، أبدا. تعبر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كان بها تردد بين ربع الابتسامة أو تفجر الضحك. تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخا وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:
- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ الوجع الذي في بطني.
تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهيب لا يقطعه إلا صوت مصباح الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدور وصفير الثعبان يرمي بآخر ما في جعبته من نور باهت مرتعش. يلقي ليل بهيم محمّل بتهديدات غامضة بكلكله على امرأة وطفل سيبيتان هذه الليلة (وكم آدميين آخرين) على الطوى.
لا شيء مأساوي في كل هذا، والكائنان مختبئان داخل مغارة دافئة مخفية في أعماق الذات يضيئها نور ساطع ثابت دافق اسمه الحب. النوم أنفع ضدّ المغص من الماء. تتخلل أحلامه صور لعجوز تضع عجينا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب،

تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجّلي؛ ابني جائع. فجأة يشعر بأمه تهزه ّوبها شيء كالجذل: هيا. انهض. الجارة-جازاها الله ألف خيرا-أتت لنا بقفة فيها ما يكفينا لأسبوع، وبعدها يفتح الله. آه إذن ثمة جيران...
يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفطور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما فطور. تلتحق بهما نسوة الحيّ. جئن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط مدينة صغيرة أفاقت على حصار الدبابات.
فصل جديد من الصراع الأزلي بين الآدميين وهم دوما في خلاف على مبتدأ الخبر ومنتهاه.
الموضوع في هذا المقطع من النصّ ليس هذا الصراع وإنما طبيعة العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير. هو مختزل في جدة وأم وخالات وعمات وجارات وكلهن يريدون تقبيله واللعب معه أو قل به. عالم انثوي بامتياز بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقّة ونعومة وليونة وطراوة... عالم سكري المذاق، مشبّع بالألوان الصاخبة، بروائح البخور والطيب... عالم يبعث فيك الدفء والاسترخاء واللّذة وشعور الأمان... ثمّ-سريعا-الاختناق. تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخفّ كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرّك البطيء، ليحتدّ ما هو خافت، ليكتسب المكوّر المستدير أضلعا حادّة. لا تعجل، يا فتى. يوم تعركك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتدّ الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلّل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تمنّي النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحور العين.
مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجها.

**

انطلاق مسلسل المحن والامتحانات لاختبار طينة المرتحل ومدى جدارته بالمغامرة الكبرى

تتمكّن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا. ها هو مرابط اليوم بطوله أمام المحطّة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويُخرج من رأسه دخانا أسودَ كثيفا. كم كان يحبّ رائحته الخانقة تعده برائحة عطرة لطربوش أحمر بذوائب سوداء! ألم تقل له "ما" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحّص الطفل الآدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس دامع العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب.

لا ينفع توسّل "ما" ونهيها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم، ولا تزيد إلا الطين بلة والطفل يتعلم تصرفا جديدا وهو ينفّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يولّد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما. ترى، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الآدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرّد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

تكفكف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا.

لا يزيد ذلك الطفل إلاّ غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم. تغلبه حيويته. لا بدّ لكل مشكل من حلّ. يكفي أن يجده أو أن يقرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو-هذه المرة-عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد. ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجه من لا صورة له ملامح وعلامات. لم لا يكون هذا أيضا حل المشكلة؟ ألم نصنع أساطيرنا وعلومنا وأدياننا بهذه الطريقة، نضع على الغائب الأزلي اسما وصفة، نتعلم انتقاء الحلول التي تلاؤمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟ ثم يعاوده الغمّ. لا أحد من آبائه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصدّ والزجر. ينتهي الطفل بالإقرار بعبث طريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أوّل إضراب له... ضدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداعي، مصمّما ألاّ يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل...وما على الله أو أي مسئول آخر إلا البتّ في القضيّة.

تقترب الأمّ من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلّة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الآدمي الذي يتحرك دوما وكأنّه مصنوع من الضباب. ترتفع يد الأمّ ببطء شديد. يخيّل له لحظة أن اليد بقيت معلّقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. تزعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلّقة. كان لا يشعر بالأمان إلاّ واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنّه-على صغر سنّه-صنع من خشب جفّ قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرجوه دخول البيت:

- ماذا سيظنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير فرحا عند مجيئك؟

مؤكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثا، متقطّع الأنفاس، آخذا القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كأنّني به يتنفّس الصعداء وهو يتأكّد أنّ القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملّكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول عيوب الرجل وقلة أهليته للمهمة. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامّة وأن حديثا بشفرة "المورس" أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السرّية.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، باردا على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني. غالب الوقت وحيدا ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قردا عالما يفاخر بي رفاقا يستهزئون بي وبه.
- نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.
- النجدة !
- نأسف لعدم تمكّننا من الاستجابة لطلبكم نظرا لتراكم المكالمات.
- الرحمة !
لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون الدليل.
أتخيله، وأنا ما زلت أتفنّن في إطلاق صرختي الأولى، آخذا بزمام الحديث عجولا، نافذ الصبر، متوتّر الأعصاب، مستنفر الحواسّ، كأنه داخل أو خارج لتوّه من صراع مع ما حملت الأرض من كواسر.
- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فدليلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدّار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع فدليلك بالحرب أحسن خبير. هيّا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتحه الفتح المبين ولا تضيّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تفخر بأبيك وأن تتغنى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين.
- "با": لو تزحزح جنابكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلاّ ظهركم الموقّر.
- وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن يكون سلاحك دوما مشهورا في وجه من يعضّ باليد اليمنى وباليد اليسرى، سوطك مرفوعا في وجه من ينبح. وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلّمك ما يجب أن تتعلّم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا. لا أسمعك تنشد: "أين في الناس أب مثل أبي"!
- اسمعني أنت ولو مرّة.
- وفي هذا العالم اللّعين، يجب أن تكون صيّادا حتّى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الآدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلّمك كلّ ما يجب أن تتعلّم في فنون الصيد؛ فدليلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. وفي هذا العالم اللّعين، حذار من الأدلة المزيّفين، يقودونك إلى صحارٍ بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرارٍ بلا عشب، لكن لا تخف فليلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أي ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي. آه، يا طفلي الحبيب حقّا أين في الناس أب مثل أبيك!
- رحماك أسمعني لحظة! توقّف، توقّف!
لكل هذا ولأمور أخرى ستبقى مجهولة إلى الأبد، حكم على طفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار، وأن يعتصم بالشارع جالسا هو وأمه على عتبة الباب بأمر الله والعبيثة والجن والعفاريت وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه-ككل الأطفال-من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.
تواصل الأم مناورة التهدئة:
- تريد الآن بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنترة: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم لهم، لكن عنترة قال له أنه لن يحارب لأنّ...
- لا، لا، لا، عنترة لم يكن أبدا جبانا!
- انتظر البقية...
- لا، لا، لا، عنترة لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.
يضع رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم ّيعود للصراخ:
- أريده أن يأخذني لحمّام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.
- سيأتي وستذهب معه لحمّام الرجال لأنك كبرت فعلا.
- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن.
- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.
- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.
- إذن سننتظر سويّا.

لنغتنم فرصة الصمت الثقيل، المرفرف على الطفل الغاضب وأمه المتزايدة حزنا لإلقاء مزيد من الضوء على الدليل الأنثى لا لشيء إلا لأنه نادرا ما يتخلّى عن واجباته كالدليل الذكر.
كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبّدا له وتبرّكا! على مرّ العصور أوما أمّ الكون، وسدنا أمّ الحيوانات، وقايا أمّ الحياة، وعشتار أمّ الحبّ، وارشكيجال أمّ الموتى، وإيزيس أم الربيع، والعذراء أم المخلّص! كيف لا تعترف أنت الآدمي، أكثر الكائنات نكرانا للجميل، ببعض الجميل لكائن هو المغارة السحرية التي اختبأت داخلها تستعد وتتأهّب للموعد المثير؟ ... هو الجسر الذي حملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود؟ ... هو السفينة وأوّل مرفأ تنزل به؟ ... هو مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات؟ ... هو متعهّد الخدمات اليومية، ناهيك عن كونه أول مرآة تكتشف فيها ذاتك. أين لك خادم كهذا الخادم يؤدي كل هذه المهامّ لا يستقيل ولا يتهرب ولا يطالبك يوما بأتعاب مخلدة بالذمّة وبقشيش الساعات الإضافية التي يحرّمها قانون الشغل! أنه لنا أساطير لا تحصى عن قتل الأب، لكن ولا اسطورة واحدة تجاسرت على تخيل قتل الأم. طبعا الأمر ليس صدفة.
عيبه الأكبر هذا الكائن العجيب أنه لا يوجد منه إلا نسخة واحدة. لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلاّ وأسمع صوتا يصرخ: هل تعتقد أنني أمّك؟ لا صدر حنون أضع عليه رأسي المثقل بهموم السنين إلاّ ويقول لي صوت جرسي نافذ الصبر: وهل تعتقد أنني أمّك؟ لا أتمنى بعض ما كانت تجود به الأمّ دون حساب إلا ويعوي نفس الصوت: اذهب؛ ابحث عنّ أمّك عند غيري. آخر ما سخروا به منّي لافتة قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأمّك لم تعد تسكن هنا من زمان".
أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتذالا. هل من المعقول أن...؟ كلاّ ثم كلاّ. تستوقفني سرعة الرفض وعنفه. تقرع داخل ذهني أجراس الخطر. ترى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟ ثمة شوائب لا يخلو منها كائن؟ يا ما تعلّمت عن الآدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم؟ كم منهم يتقدّمون كأطهار وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة؟
تسترجع الذاكرة براعم مشاعر بالغة التعقيد، بالغة الغموض، بالغة الحرج، فيها غيرة باهتة وحرج متوارٍ وإنكار ساذج أن يكون هذا الآدمي ضالعا في أمور فيها سوائل لزجة ودماء متدفّقة وجلد ولحم وأنّات لذّة وأنّات ألم، وأن تكون الذات نتيجة كلّ هذا. ماذا أيضا عن بعض أحداث صغيرة أخرى لا تتماشى مع صورة القديسة. لا أكره لديّ من أن أكون متعبدا أو أن يصوغ ذاتي صنم حتى ولو كان صنم "ما".
تتردّد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعزّ أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن تجرحني. تتصاع مكرهة للأمر الجافّ.
- كانت... كانت رحمها الله تقسو عليّ... وأحيانا... تضربني.
ما العيب في أن تفضّل أمّ أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتزّ إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من عليائه والتهشّم إلى ألف قطعة. ليتني ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي بريقه بالذهب المزيف؟ قاعدة لا يحسن تجاهلها إذا أردت فهم الآدمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه الأظلم، وإن واجهك بسحنته المكشرة ابحث عن النور المطمور داخله. حتى الأمّ الأزلية لا تخرج عن سطوة القاعدة.
ثمة تماثيل تبدي فهما لطبيعة دليلك الأول. تتأملها من جهة فترى وجه كومار ربّة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت كالي تنظر في وجهك مكشّرة ومهدّدة تتلوّى راقصة على جسد طفلها المرمي تحت قدميها وقلادة الجماجم حول عنقها، ومن أطرافها الأخطبوطية تتدلى رؤوس تقطر دما.... إنها نفس الأمّ لكن الأسنان مثبتّة في أشداقها كخناجر الجزّار.
تقول كفى هذرا. هذر! يبدو أنك لم تضع مثلي أنفك في خبايا العائلات وما يفعله بأطفالهم نوع من الآباء ونوع من الأمهات. لا يقدّر الطفل-إلا وقد أصبح كهلا-أن كالي بقيت طوال الحياة مخفية في أعماق "ما" لأن كوماري كانت أقوى منها. تصوّر ما كان ينتظره، مثلما حدث لأكثر من مسافر تعس الحظ، لو كان العكس ما شاءته الأقدار!
عفوا، غيّرت رأيي، لا داعي أن تتصوّر.
تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخانقة. تجد المرأة الذكية مخرجا سيحفظ ماء وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:
- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك اللّيلة في المنام.
يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من الغرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. الوجه المرعوب المرعب

الذي رسمه ادفار مونش يغرق في بحر من الدم. دمي. تضيع صرختة الصامتة في فضاء مبهم. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها عتاب رقيق. يصفّر وحش أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطلّة بحنوّ فائق اضطرابا غير معهود في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه وشفتان تتبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللّقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتي أبيه يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا قبل أن يتفرّع الطريق نهائيا ليذهب كلّ في حال سبيله.

**

انقشاع الضباب عن الأفق، بداية الضرب في الأرض ذات الطول والعرض

يشعر الطفل النائم بوجه جافّ خشن التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس صاخبة تأتيه من تداخل الكلمات والضحكات وروائح العطر والتبغ والعرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود. قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلّبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة لتستجيب للشهوة الجامحة.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفّل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدّك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمّك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وإن لم يرحل.

تسرّ "ما" في أذن ابنها أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجدّه ويردّه لأمّه.

إنها لخاصية الرئيسية لكل طريق يحترم نفسه ويحترم مستعمليه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدّئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع ممّا كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق. تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت عده لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسّر الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاخب بآخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يفتعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيّع وقتك أنت ننفق منه ونبذّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمّت أن أبعث لمن استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر: سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذّره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضّة. تنفتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. وعلى رصيف المحطّة، والفجر في أولى وعوده، تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات.

- "با"، هل هناك آدميون في الأماكن التي ذهبت إليها أم هل هي مسكونة بالعفاريت؟

يتنحنح الرجل مستعدّا لإلقاء الدرس على طفل لا صبر له على انتظار الجواب.

- هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟

يجيل "با" البصر حوله بعصبيّة مشيرا للطفل بغلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟ هيا نقتلهم. هيّا.

ينقذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غيّر موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل-وهو لأوّل مرّة في جوف الوحش الأسود-ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه. يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أي آلة إلاّ وأنفه فوق الزجاج. يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهنّ ضاحكات متأففات. تتسّع حدقتاه وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبأ أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الصراخ المتصاعد داخل العربة المكتظّة إلى هوايته القديمة: التفحّص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعوا بها أبدا. يومها شعر بفخر عارم بأبيه...فخر لن يفارقه أبدا.
كان "با" مقتنعا أن الترحال مصيره لأن قدر "النفيس أن يكون غريبا حيثما كان". كان الحلّ والترحال عنده حاجة ضرورية قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتا وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له:

"تغرّب عن الأوطان في طلب العلا (الشافعي)
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
جلاء لهمّ واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

ربما كان على حكيمنا إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟
تلتقط أذن الطفل مقاطع من كلام هامس لوالده حول شيء اسمه "الوطن" ومحنته. ثم يعود للتركيز على نافذته متعجّبا من إعراض الناس عمّا يعرض على شاشتها، لا يعلم أن اللامبالاة تجاه العجائب تأتي ضرورة يوما كل المسافرين، أنّه سيجلس يوما مثلهم غير مبالٍ بغروب شمس أو بطلوع قمر. يستحوذ على لبّه التغيّر البطيء، والثعبان الأسود يغادر بلاد التين والزيتون والعنب، ليدخل أراض موحشة غبراء اللون تميل-كلّما تقدّم الركب-إلى حمرة قانية. تغرق المناظر العجيبة شيئا فشيئا في غموض الليل، والطفل لا يقبل أمرا بالجلوس أو الأكل. أخيرا يتوقّف الثعبان الأسود عن الصفير والجري اللاهث ويتوقف معه حراك البيوت والشجر. يشعر الطفل باستياء غير مفهوم. ألم يكن يترقب الوصول بفارغ الصبر؟ يغادر القطار متثاقل الخطوة، يحرّك رجلين من حديد لا يعترف كم هو مرهق وفي نفس الوقت، يقظ متحفّز، متأهب، متشوّق للمزيد من ركض القطار.
- "با"، هذه ليست قرية جدّي.
- إنها واحة على ضفاف البحر، آخر محطة القطار. نبيت الليلة هنا وغدا نواصل السفر. هيا الآن إلى النزل. أنا ميّت من التعب.
يمتطي الأب والطفل عربة يجرّها جواد أسود يلسع بالسوط ظهره رجل يصرخ فيه بالسبّ والشتم. يقفز الطفل فوق كرسيه كلّما هوى السوط وكأنّ ظهره الذي يلسع. يجاهد لتجاهل السوط النازل الهابط بالعودة للسؤال:
- واحتنا أبعد شيء وهي توجد على حافة الأرض. أليس كذلك؟
- لا يا فتى. هناك أماكن أبعد منها.
يرفض الطفل القبول أنّ بوسع الثعبان الأسود الجري نهارا كاملا لا يصل الفراغ الذي قرر أنه حدود عالم هو في ذهنه طبق أفقي من الصلب ممتدّ في كل اتجاه، لكن بالضرورة محدود.
يجب التثبّت من الأمر.
- وهل ذهبت إلى تلك الأماكن البعيدة، البعيدة جدّا جدا؟
- لبعضها نعم، فالعالم واسع، يا بنيّ.
- وهل ستسافر إلى كلللللّل أماكنه؟
يستغرق الدليل في ضحك طويل تنهيه نوبة سعال.
- لا، لكنّني أحاول.
- سأحاول أنا أيضا؟
- وهل أمامك خيار آخر؟
يتهالك الطفل على سرير النزل ليغوص مباشرة في نوم مضطرب يتخلّله صهيل حيوان باهر الرشاقة، والسوط البشع يلسع ظهره هو ليركض ويطير.
ينهض صارخا هاربا من السوط، يهزّ الدليل النائم جنبه:
- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.
- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:

- استيقظ، سيفوتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:
- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
يثب الرجل رافعا كفّه. يفهم الطفل أنّه في خطر. يسلّط الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثمّ ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه.
يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدّد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
يجرّ الطفل دليله المندهش يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطّة. اجلس الآن ولا تتحرّك حتّى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرّك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.
- سأقول ل"ما" انّك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنّك أخرجتنا من النزل في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنم قليلا عليك اللّعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
يشعر الطفل بتجدّد الخطر ثمّ بانحساره السريع والمحطّة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.
- في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!
يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ.
- أريد أن أراها.
يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللّعنة.
تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجرّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم اقل لك أننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد من هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فاتتنا الحافلة.
اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
يتنفّس الرجل الصعداء.
- أعدك أن آخذك للبحر عند رجوعنا من الصحراء.

- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن...الآن...الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفّ عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟
- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.

أخيرا الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقية الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق. يحار لبّه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.

- لست مطالبا بالوقوف طوال السفرة.
- لا أحبّ الجلوس.
- افعل ما تشاء.
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟

تدوي قهقهة الأب.

- ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبّة.

تصل الحافلة قرية تتلخص في شارع مغبرّ تتكدس على جانبية بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحمّاماتة الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمائها الفوّار كل الأمراض. ثم تغوص الحافلة مجددا في المبهم الممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا ‘‘البحاير".
- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟
- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.
- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء وواحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟
- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركّاب يعلمون أن هذه الأرض القاحلة التي يسمونها البحاير تستأهل حقا اسمها ...أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءا من بحر بل من محيط تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان...أن هذا المحيط جفّ واندثر ...أن الصحراء التي ورثته لم تكن دوما بحار الرمل التي نعرف...أنه كما للقلب قبض وارتخاء لهذ الأرض نسقها إلى نهاية الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركدن والتمساح ، بعد مئات السنين ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجدب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الابل والبشر من نوع قوم "با". قلّ من ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضا سينمائيا وليس على الشاشة إلا صورة للعالم لا تتغيّر إلا بعض حواشيها، نظننها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقشع الضباب عن الفكر فنفهم أننا نعايش لحظة من زمن بدّل وسيبدّل العالم طواله كل صوره من النقيض إلى النقيض... أننا لا نرى إلا مقطعا من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

يجذب الطفل كمّ أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش، وليس حصانا.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألاّ يعرف بدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الشريرين... وخاصة ‘‘با". يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلا على جرح بسيط وحوله العالم بكلللللّ غرائبه.

- "با" انظر. انظر!

- إلى ماذا؟
- لساقيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.
يضجّ الجمع مجدّدا بالضحك.
- إنّها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد اللّه أنّها تصل بنا.
يعود الطفل للصراخ:
- انظر، انظر !
- اللّعنة على هذا المغفّل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟
- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.
- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقّى لي من عقل.
يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنّهم رفضوا الانتظار. يفاجئ الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.
- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟
- اسكت، يا مغفّل.
يعضّ الأب على شفته السفلى. يعمّ الجمعَ صمتٌ متجهّم. يأتي الطفل لأوّل مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم. تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي بسلام. تعود الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى النفوس. يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل: إنّها بركة هذا البريء.
- "با"، أين جدّي؟ قلت أنه سينتظرنا عند باب الحافلة.
- أعدك أن هذه القرية آخر محطة قبل الوصول.
يضع مجهول لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.
- أنت، تعال معي.
يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:
- انتظرني هنا حتّى أكمّل الإجراءات.
- أي إجراءات؟
- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة لأمثالي.
يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.
- اسكت يا مغفّل، وإلاّ أرجعونا من حيث أتينا. لا تتحرّك حتّى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.
يجلس الطفل وعيناه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حرّاس الطريق. يخرج "با" أخيرا، يده على خدّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم. ما الذي حدث يومها؟ ملفّ خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوما عن النزيف.
- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟
- لا، لن يرجعوني هذه المرّة ...لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غدا.
- لماذا؟
- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.
- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟
ينفجر "با" ضاحكا، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبّر عن مرح أو فرح.
- هؤلاء! من بلّغ عنّي واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكّر دوما-يا بني-أن البشر من صنفين...
- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال و.
- أتحدّث عن الرجال؛ فالنساء لا يحسب لهن حساب.
- الكبار والصغار، الكبار والصغار!
- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.
- إياك وإياك أن تشبه يوما رجالا لا تتعدى الرجولة عندهم التبوّل وقوفا.
تتدافع على لسانه أبيات للشاعر الذي ارتضاه قدوة ونموذجا ضجّ بالشكوى مثله من قوم لا تجد فيهم "كريما تزول به عن القلب هموم" أو "صحبة لا يعوزها الصدق في الأخبار والقسم" ، أو "مكان يسرّ بأهله الجار المقيم"، أو ثغرا مبتسما عن محبّة لا عن خوف أو طمع.
ها هو يغلي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم"استدجحوا" و"استبقروا"و "استنعجوا" وجعلوا من الخروف واستكانته للمقصّ والسكّين نموذجهم الأعلى.
- خاصية أشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم "إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحرّ الممتحن بأولاد الزنا".
لا تكن يوما جبانا وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلما بنسبي. إياك أن تشبه يوما هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية ونذالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبّلون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.
يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كتفي:
- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! آه وآه
لقد أسمعت لو ناديت حياً (عمرو بن ربيعة الزبيدي)
ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت فقد أضاءت
ولكنك تنفخ في رماد
كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الذلّ أمام مستعمر أو طاغية حقير. كل هذا الصخب كان أيضا حبا معكوسا وهو لا يبغي شيئا قدر التباهي بأهله على عادة البدو، إلاّ أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمّة أخرجت للناس.
يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفرّ من حوله.
- اللّهم لا تقبرني في أرض جبناء! اللّهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور-يا فتى-جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع تواري في الرمل جثة الأسد!
هذا الرجل هو نفسه الذي كان يردّد لابنه:
- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام ". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبّا مخلصا ووفيّا إلا لأرض الآباء والأجداد مهما جافتك وظلمتك...
والآن تدبّر أمرك يا فتى لتفهم وأي أمر تطيع.
تتواصل نوبة الغضب، وهل الغضب إلا جنونا صغيرا من حسن الحظّ أن الناس تشفى منه دون حاجة لطبيب.
- اللعنة، اللعنة على هؤلاء البشر، اللعنة اللعنة على هذه الأرض وما حملت!
- "با"، لكن كل الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدّا جدّا!
- الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: صغير... مدنه... قراه... جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توفّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهجرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كان الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟
قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة الرجل وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية والوطن والمنفى. هي ستطبع تفكير ابنه طفلا ومراهقا وكهلا، إلى لحظة اكتشافه كم كان والده غارقا في قصة تافهة لا يعي أنه في أرضه وهو بين أغرب الأمم وأنه غريب عابر في أرض الآباء والأجداد. كم يبدو لي اليوم ضيّق الأفق وهو متمسّك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. عاش الرجل المسكين ومات لا يفهم أن الوطن هو الأرض التي نعطيها نحن ما تحتاجه هي، لا الأرض التي تعطينا ما نطلبه منها. كيف لم يكتشف-هو الباهر الذكاء-أننا، معشر البشر، أينما وجدنا دوما في وطننا وفي منفانا، لأن من طبيعة العالم أن يكون دوما لنا وطنا ومنفى.
ماذا لو كان صراع "با" مع ومن أجل الوطن بمفهومه الضيق، الوتر الحساس الذي كان يتعهّده وينقر عليه باستمرار ليستل من أعماق ذاته أحدّ الأحاسيس والمشاعر، تلك التي يبحث عنها الآخرون جريا وراء الجنس أو المال؟
يجرّ الأب الغاضب طفلا مندهشا لا يغفر لأهله ضعفهم وبغضه المفاجئ لوطن لم يرقى لمصاف أحلامه.
يتوقف في طريقه إلى مربض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولابنه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم.

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهندام أمام جدّك.
أحسن ما في الآدميين نزعة التمرّد إذ لولاها لما وجد تجديد.
- لا أريده. لا أحب لونه الأسود وشكله الفضفاض.
وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرّد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.
- قلت لك: البس. بكم السروال، يا رجل؟
- لا أريده، لا أحبّ لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!
يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.
يصرخ فيه "با" بغلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوّة.
- والآن البس بسرعة، وإلا فاتتنا الحافلة.
- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!
مشهد لا أكثر منه ابتذالا في علاقة الآدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.
القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد... لتفويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرّف الأم مع رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون والخالق يريد تطويع المخلوق بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر والالتجاء لربّ آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط باستراتجيات التطويع وهي تتأرجح بين الترغيب والترهيب، الغلظة والرقة، الصدّ والوصال.
هذا الرجل الذي يريد تطويع ابن يريد تطويعه، جاهل بما في فيه على صغر سنه من عزم على أن يكون هو الرابح دوما في هذه اللعبة. أضف لهذا عدم توفّره على مهارات أم الطفل، والمسكين لا يملك، كأغلب الذكور، إلا وسائل بدائية وخطرة، لا فقط على ضحيتها وإنما على مستعملها الساذج.
يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقّف وهو يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدّي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها الآن على الأقلّ. يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه. ثم تتباطأ سرعته وقد جاءه التردّد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا يبكي أبدا كالنسوة والصغار.
- لا أريد أن تقول لجدّك أنني ضربتك، وإلا فأنني سأضربك مرّة ثانية.
- بل سأقول له أنك ضربتني بشدّة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل " ما". نعم سأقول لها، سأقول كل شيء!
- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جّدّك.
- وسأقول أيضا لله.
- لا تقحمه هو الآخر، يكفيني مشاكلي مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟
يتمسّك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدّم بها رجل متزايد الارتباك. ثم تتدافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقّدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكم قرار.
- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكللللل الأماكن التي سافرت إليها؟
- موافق.
- كلمة رجال؟
- شريطة ألا تقول لجدّك أنني ضربتك.
- كلمة رجال. قد تفوتنا الحافلة إذا ذهبنا للمرطبات!
يعرض الأب على ابنه إمكانية قضاء الليلة عند قريب، ليواجه برفض قاطع.
- لا، لا جدّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!
يصرخ "با" وقد تبخّر منه مجدّدا كل حسن استعداد:
- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصبتني بالدوار. كفّ عن الجري، كفّ!!
وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:

- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إنّه أمامك، يا مغفّل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الوراء، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تذكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "با" لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرّة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي خرج من الصحراء، وخرج عليها، ناقما، ساخطا، لا يحلم-وهو منفيّ عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشي ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر. كم سمعته يتحدّث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يردّد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانيّ أن امدّد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرّة الأخيرة في "العِرق"... أن أجيل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذهوله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل سترى جدّك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب. حقّا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللّحظة المباركة تنعكس في مرآة العالم أجمل حالات الآدمي، وتنعكس في الآدميّ أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحقّقت فيها مرامي هذا من ذاك وتحقّقت فيها أهداف ذاك من هذا، وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلّى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبّر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، دامع العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستبطن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلّم من سفرة ستطبعه إلى الأبد...أنّ الواحة محطّة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وحدودا وعسسا يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنّه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهام، لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يمسح عن عينيه دموع الفرح.

وفي حافلة تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلع الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجدّه واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه كما وعد إلى "طينية" ليبذرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية صابرة، عنيدة، قوية تنتظر تحت الرمل والصخر أشهرا وأحيانا سنينا رحمة الغيث فيمرح الأطفال بين الزهور والعشب، لأن هناك عشبا وزهورا في الصحراء، وليس فقط حجر ورمل. ربما لم تلعب صورة للعالم دورا في تشكيل ذهن الكهل قدر صورة هذه البذور التي كان يزرعها الجدّ وهي تقاوم كل قوى الموت متمسكة بآخر نزر من الحياة إلى لحظة الخلاص. هذا ما جعله يستبطن باكرا قدوة بالجدّ المهيب وأنّ لا دور له في الحياة غير بذر الأفكار والقيم ولو في صحراء قاحلة ليس فيها سوى الأفكار القاتلة وقطاع الطريق والباقي متروك لمشيئة قوى تتجاوزه.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسى والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- أما أنا فأحبّك كثيرا وأكثرنا حبّا لك "با". يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدّك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أفلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظّ أنهم يجهلون دروب الصحراء.

كانت "ما" تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء.

حقا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلفوا معه فجاءوا لذبحه ليلا. حقا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسئولية: مواجهة الذات لذاتها.

يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى قرية جدتك.
- وبعد قرية جدتي؟
- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلّم كلام الله.
- وبعدها؟
- أعتقد أنه يصل البحر.
- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.
- سأذهب حتى الى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

يا للطفل المتهوّر! أقول له كم في الطريق من عقبات، من ألغام ومن وحل... أن أخطر ما ينتظره على تقاطعاته بنو جلدته! أقول أو لا أقول، ما الفرق؟ رمي النرد.

تبتسم "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هائما على وجهك مثل كل بني آدم، تبحث عما لا يوجد وتجد ما لم تبحث عنه قطّ.

يركب بطلنا الصغير عصا القصب مستعدّا للإقلاع ليعرف كللللللّ ما يوجد وراء الأفق.

قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف كللللللّما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات.

تواصل الطفلة المتقطّعة الأنفاس القفز بالحبل بين أشجار الزيتون، تضحك من غباء الطفل الذي سيصبح بعلها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن تتوجّه إليه كل الصلوات: اللّهم اتمم هذه الرحلة على خير، إنّك السميع المجيب... أحيانا.

**

الكتاب الثاني
العالم

ما أن يعود الربيع
إلا وأنا متيّم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

" هايكو" لشاعر مجهول

مقدّمة الكتاب الثاني

اليوم 19710 من الرحلة.

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

حقا إنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام التي تدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهوّر، وغادر القادمون القدامى بنفس الصعوبة، وتخبـّط المرتحلون في نفس المشاكل المبتذلة التي جرّبوها جيلا بعد جيل.
ومع هذا يثير فيّ رقمه هذا رهبة لأن فيه أربع مرات رقم تسعة. هل وراء الأمر رسالة مبهمة لا يفهمها إلا المتطيرون الذين نسخر منهم؟
تقول ساخرا من خوفي ومن خوفك: ما الداعي إلى القلق، فنهاية العالم مبرمجة، حسب أغلبهم لبداية القرن القادم والألفية الجديدة التي سيفتتحها، أي بعد أشهُر فتنعم بما بقي لك من وقت.
صحيح أن من تبعات تكرار هذه الإنذارات الكاذبة عدم الانتباه لوقوع أقصى ما يخشاه البعض وأقصى ما يتمنّاه البعض الآخر.
الثابت أنه لا بدّ للعالم من نهاية، فلِم لا يكون هذا اليوم؟
ربّما حصل المحظور وقامت القيامة البارحة مثلا.
لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجي منه أغرب من عدم انتباهي لبدايته ودخولي فيه؟
لا قدرة لأحد على التأكيد أن هذا اليوم ليس آخر الأيام.
لذلك قرّرت وضعه تحت المراقبة اللصيقة إلى لحظة رحيله.
أنظرُ إلى ساعتي بشكّ حذِر بين الفينة والأخرى، فيتأكّد لديّ كل مرّة أن عقاربها لم تتوقف بل تتحرّك إلى الأمام لا إلى الخلف.
على كل حال، ما يزال أمامي بضع ساعات لمحاولة الانتهاء من النص، علما أنني أرفض التفكير في جدوى العملية إذا فرغ العالم من القرّاء والنقّاد، فلو فكّرتُ في جدوى أفعالي لما قُمت بأيّ عمل باستثناء سماع الموسيقى.
تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل والسماء ما زالت مرفوعة فوق رأسي.
حتّى لا أُتّهم بترويج الأوهام والآمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقَنة، سأقطع الكتابة لحظة للخروج إلى الحديقة والتثبت من الأمر.
أبشروا جميعا، فهذا اليوم برقمه المثير للشبهة والشك ليس نهاية كل رحلة، حيث ولّى الأدبارَ منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتي، والعالَم ما زال موجودا.
مشَيتُ على نفس الأرض الصلبة المعتادة. لسعَتني نفس الحشرات المجهولة. تصاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكِرة. وتّرت أعصابي أعراسُ الجيران. داهمتني نفس الريح القادمة من البحر حرارة ورطوبة. لمستُ كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها.
لم ألحظ أيضا ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم لا يبدو مختلفا عن جهلي به البارحة.
أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الآدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلِق. كلّ هذا يؤكّد انطباعي أنّ العالم ما زال قائما.
المشكلة أن إصبع الدهر على مسبحة الزمان تسرع في "التسبيح" ولسان حال المسبّح المخفي يقول: هو لم ينته أما أنت فستنتهي بأسرع مما ترغب. عجّل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.
المشروع! الذي قرّرتُ عند انطلاق التدوين: أن أستجمع شَتات فكري، أن أتفحّص حصاد الرحلة لتكوين صورة ما عن هذا العالم الذي تبلورتُ فيه وتبلور فيّ، عَلّني أجدَ أخيرا جوابا على أحد أهمّ أسئلة الطفل: هل قُدّ القمر من فضة خلخال "ما" وهل صُنعت الشمس من ذهب قرطَيها؟

**

أولى أدوات استكشاف الذات لعالمها الجديد

تهمس "ما" في أذن طفل يفرك عينيه نصف مستيقظ.

- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ "با" في طفل فاغر الفم دهشةً انتصب واقفا على السرير.

- يا اللّه يا فتى، تحرّك ما لك، أسرع، ليس لنا وقت نضيّعه.

تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجنّي من القمقم.

- "با" أين كنت، أين كنت؟

- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.

يرقص الطفل على سريره من الفرح. ثم يعاوده القلق.

- هل ستسافر مجدّدا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟

- كأنك تريد إغضابي! هيّا، لا تضيّع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة المدينة الكبرى. ثم لا بد من الحمّام وزيارة الحلّاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. ثم لا بدّ أن أبحث عن كتاب هامّ قبل آخر قطار تعالَ، حثّ الخطى.

يتبع الطفلُ رجُلا وُلد على عجل، وعاش على عجل، ومات لا يلوي على شيء، وكأن له مواعيد هامّة حتى في الآخرة.

تتلقّفنا نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

- وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...

- لا توتّر أعصابي من الآن.

- أسرع، أسرع، أريد أن أرى كلللللللّ شيء.

- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه وسط جحافل آدميين يتدافعون في الشوارع الضيّقة وكأنهم أمواج نهر على وشك الفيضان، إلى أين والحيطان سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.

تتتابع المناظر وتتغيّر بسرعة مذهلة، وهو ينقل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.

- "با"، مَن هذا، وماذا يفعل؟

- شيخ ينسج الجبب. سأشترى لك جبّة جديدة ليوم العيد، إذا كففت عن الصراخ.

- انظر "با"، إنّه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

- إنه سوق الشوّاشين، لكنه ليس هذا الرجل بالذات من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.

- "با"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "با"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب "سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرضْ على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.

- "با"، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمّونه "الكنسترو". يوم نخدعُ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "با" ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

يُداهم الطفلَ قلقٌ مبهَم.

- بخصوص الحمّام والحلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغابة من الشّعر فوق رأسك؟ أخشى -إن أهملنا قصّها-أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبٌ يجر ابنا، وابنٌ يجر أبا، لحمّام اسمه "القشّاشين" يقول عنه "با" إنّه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.

- "با"، لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتك؟

- كنتُ أفضّل الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدّى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.
تضيع الأشكال والألوان في ضباب تتهادى داخلَه أجسام مترهّلة تحمل حَول الخصر فوطة باهتة اللّون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي "الطياب" كالفأر بين مخالب القطّ. يسلم جسمه مكرها ليديْ المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.
إنّها لحصّة تعذيب مستوفاة الشروط، من تسليم الجسم لقوة لا تقاوَم، وتمرّد الجسم على ما يلحق به من أذًى، وصراخ المعذِّب في أذن المعذَّب بالطاعة، والفرق الوحيد أن الجلّاد لا يستحيي أن يطالبك بالبقشيش وبعبارات الامتنان والشكر. ما أغرب حبّ الكبار لهذه الأماكن التي يبغضها كل الصغار، خاصة عندما يهددهم الحلّاق عند مدخلها!
لا يبقى للطفل غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمته الجسدية. ليس في هذا الحمّام اللّعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل، وقد أعمى البصرَ الماءُ والصابون ورغوة "الشامبو".
- عيناي تحرقانني، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.
- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقلّ أنشّفك. المرّة المقبلة ستذهب إلى الحمّام مع أمّك ككلّ الصغار.
- أريد الخروج ! أريد الخروج!
- أخرج اللّه روحك. استلقِ على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من "ما".
يأخذ الطفل الثمرة، يقرّبها من عينيه يطيل النظر وكأنّه يرى برتقالة لأوّل مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدًى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمّام.
- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟
- بلى، إنّها جميلة جدّا، خاصّة اللّون. ألا ترى كم هو جميل؟ "با"، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيتَ برتقالا بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟
- يا لك من طفل غريب. والآن كلْ برتقالتك واتركني أغفو لبعض الوقت.
يغرق الأب في غفوة قصيرة معرضا عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار تجدّد الصلة. يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكرهها لسبب غير مفهوم.
ومن الملفات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفّ عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.
يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يمرِض "ما" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينيها. أليست اللعبة الغبية -كما تصفها "ما" ظلما-بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟!
هو يتذكّر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.
- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟
- إنه من المبصّرين يا بني، تلطّف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.
- مبصّر؟
- يجب أن تسمّيه "مبصّرا" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.
- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟
- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.
يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرا" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو يستنشق روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح، بل ها هو يسمع دبيب النمل على الأرض كأنه ركْض الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزخر به الفضاء من إنس وجان. ربما كان ذلك الاكتشاف انطلاق عادة رافقته طوال الرحلة: ألا يسمع الموسيقى أو يستنشق عبير النساء إلا مغلَق العينين.
السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسّر للضرير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟
يحتفظ الكهل بطعم الفشل لينقل حيرته يوما لطلبة يريدون منه وصفات جاهزة وهو لا يريد منهم إلا تجدد الانتباه: الامتحان اليوم، تفسير اللون الأخضر لأعمى من الولادة. لا أكثر من أربعة أسطر. يفتح الطلبة عيونهم على أقصى اتساع، ويمدّ الطفل يديه نحو وجه الشيخ المبتسم يفسّر له بكل ما تسعفه به المصطلحات التي يعرفها كيف أن الحليب لا يكون أسود، وأن الدم

ليس أخضر، وأن الألوان جد جميلة، وأنه يعلم أن الشيخ سيصبح قادرا على رؤيتها جميعا إذا صلى كثيرا لله الذي لا يرفض طلبا لعباده الصالحين، والعهدة على "ما" التي لا تكذب أبدا.
ثمة مسألة أخرى شغلت باله آنذاك كثيرا.
- إذن، هو لا يراني!
هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.
هو سيعاني مثل بقية الآدميين من ألم بقائه خارج مدار أنظار تمسحه ولا تبصره، لأنها شاخصة إلى الأفق أو لأنها منعكسة لا اهتمام لها إلا بذاتها. هو أيضا سيبقى يلهث دوما لتتوجّه إليه كل الأعين كأن كثافة رؤية الآخر تكثّف من الوجود. هو أيضا سيكون بين مَن أذلهم الجري وراء الأنظار. هو سيجرّب مراهقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة مَن لا وجود له إلا بوجود الناظر.
ينمو قلق داخل الطفل.
- "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟
- "سبعة ألطاف وبعد الشرّ على ولدي"، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عينيّ.
ثمة رعشة خفيفة في نبرة الصوت، تنبئ برعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.
كيف لا يأتيها التطيّر وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العَمى فسادا في قرية غارقة في الفقر والجهل؟
كم سمعها تهمس في أذن أحد العُميان وهي تظنّ أنه نائم.
- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟
- يا عزيزة، صلّي على النبي.
- لكنه يقرّب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.
العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما" تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب الطفل إلى يوم الرحيل.

في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه دون حاسة الرؤية التي أعطيَت دون منٍّ وحُرم منها -لعطب غير مقصود- بعض الذين ظلمتهم أيّما ظلمٍ طاولة القمار؟
في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه مصابين بالعمى والصمم؟ في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه بالعمى والصمم والبكم؟ في أيّ عالم كنا نرتحل، لو أفقنا فيه بالعمى والصمم والبكم وبلا حاسة الشمّ؟ أي عالم كنا نعبر وكل ما نملك حاسة اللمس.
حالة لا تعرفها إلا دودة تشق طريقها في دهاليز الأرض نصيبُها من الوجود أحاسيس الخشونة والليونة، الحرارة والبرد، الجفاف والرطوبة، وداخلها الحالم الأكبر بصدد التخطيط لأدوات استكشاف أخرى ماتزال في خياله الخصب براعم مشاريع.
ثمة إذن، عالم آدمي لا يعرفه إلا المبصرون! وآخر اختفت فيه الأصوات لا يعرفه إلا "الطرش"! وآخر لا وجود فيه للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفها إلا من فقدوا حاسة الشم!
كم من بني سفر ارتحلوا داخل عوالم كهذه نظنهم يقاسموننا نفس العالم والحال أنهم سيَقضُون جلّ رحلتهم في محاولة تدارك وفهم هذا الجزء من العالم الذي حُرموا منه.
عالم رحلة الأغلبية الساحقة بداهةً مصنوع في مستواه الأكثر وضوحا وحضورا وتأثيرا مباشرا، من حواسّ خمسٍ، لكل واحدة منها قدرات واسعة لكنها بالضرورة محدودة. نحن لا نسمع ما تسمعه الخفافيش، لا نشمّ ما تشمّه الكلاب والقطط، لا نرى بالدقة التي ترى بها عين النسر والصقر. قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل النحل في الأزهار، ونظارات عن قرب تتأمل رقص الذرات، ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرّات، ولمَ لا رؤية ما وراء البنفسجي وتحسّس الذبذبات الكهربائية-المغناطيسية-، ناهيك عن إضافة حواس أخرى لا تزال براعم مشاريع في خيال الحالم الأكبر.
لكن ماذا ترانا فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي الإمكانيات التي خُلقنا بها؟
حتى بعدد أكبر وبمجال أوسع سنبقى دوما مرتهنين لها بما هي المداخل الإجبارية أو الأدوات التي لا مهرب منها لإعطاء المبهم الأصلي الذي نتخبط فيه ملامح نطمئن إليها ونستطيع الفعل فيها والتفاعل معها.
هل يعني هذا أننا في آخر المطاف لا نستكشف إلا ما نخلق ولا نخلق إلا ما نستكشف؟

يفتح الطفل عينيه يكتشف والده يراقبه باستغراب ثمّ يهز كتفيه: هيّا إلى بقية يومنا.
يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج لألا يرى الحلّاق ناصبا له الكمين.

- "با"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟
- قلت لك: لا تتهرّب من قصّ الشعر.
- أسألك عن المبنى، لا غير.
- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي علّ الحلّاق المسكين يستطيع لك شيئا.
حصّة التعذيب الثانية، أهذا هو اليوم الذي كان ينتظر بفارغ الصبر؟
يتفحص وجهه الذي في المرآة. يطيل إليه النظر كأنه يراه لأوّل مرّة.
ترجع له المرآة وجها مستديرا أسمر، بأنف صغير مدبّب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل وبعد الشرّ داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.
يثير فيّ الوجه الغريب، عابسُ الملامح مع مسحة من كآبة، قلقا غامضا.
- "با"، انظر، هل هذا حقا أنا؟
يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.
- ماذا تقول؟
- انظر. هذا أنا.
- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتأملك في المرآة أيضا؟
يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلّاق.
يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلاقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.
- "با"، هل تدري...؟
- لا أدري. قلت لك: لا أ-د-ر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحِلاقة.
يقرّر الطفل أن يغلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجُّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج. يعود إلى تأمّل أدوات الحلّاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر. ثمّ يشدّه ثانية الوجه العابس في المرآة.
تتواصل حصة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء ملفِت للنظر غير صورته تتأمّله بإلحاح. يغمض عينيه ثم يفتحهما أملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدّق فيه كل مرّة، يستفزّه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.
- "با"، هل الذي في المرآة يشعر بما أشعر به؟
يصرخ الأب:
- هيّا يا رجل، أسرع، نفدَ صبري منك ومن هذا "الفرخ".
ينفُض الحلّاق عن الطفل بقية الشعر العالق بياقة قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها "با".
يتوجه إليه بلطفِ مَن فتَح الكرم قلبه:
- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.
- جميل، آه، نعم، أمه تدّعي هذا أيضا. كما يقول المثل: "كل قرد في عين أمه غزال".
ينطلق السؤال كالرصاصة الطائشة:
- "با"، هل أنت أيضا قرد وفي عيني جدتي غزال؟
تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفعة كهذه. يا إلهي لم يجرّب مثلها على كثرة ما عرف خدّه الغضّ من الصفع! تُرى هل ستترك -كالمرّة الفائتة-آثار الأصابع الخمسة؟
يجرّ الرجل المتشنّج طفلا قرّر ألّا يكلّم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجُل، حيث أتاه الهدوء ومعه الندم.
قلّ من يرتكبون أفعالا مشينة ثم يسعَون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "با" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعذّبه أحيانا.
محاولة التكفير.
- آن الأوان لنشرع فيما تحبّ، هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟
-...
- شيء نشتريه لأمّك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سآخذك لأحسن خيّاط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنّك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

-... ،... ،... ،... ،... ،... ،... ،
- تصمت عندما أريدك أن تتكلّم، وتصمّ أذنيّ عندما أريدك أن تصمت!
الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج "ما" ستكون هذه المرة جدّية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرّات الأخرى العديدة، مجرّد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمّام.
- المطعم! نبدأ به، إنني أتضور جوعا.
- إذن، إلى المطعم يا فتى.
وهذا مَعلم أثري من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد. ثمة مَن كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دَوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاع الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفّة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيّق، تحميها من تساقط المطر ومن نِبال الشمس الأسقفُ المرفوعة فوق شارعٍ حافَظ منذُ قرون على طابعه الشرقي الجميل. يجلس الطفل بجانب أب شارد يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما".
يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبة تتوجه إليها الجحافل، لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.
- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمتَ فيه كلللللللّ كلام الله، وحيث سنصلّي معا.
يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:
- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقَد كل روح! الدليل الشامخ على قدرة أجدادنا على البناء والتشييد. قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهمّ هو ما حوله.
- "با"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنظر هكذا إلى هذه المرأة؟ لماذا هناك نساء لا يلبسن السفساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده للناس؟ لماذا قلت له "رَبيّ ينوب" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيتَ النادل، إنّه إنسان ظريف حقّا، يهرول بخفّة بين الطاولات، إنّه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.
- اترك الرجل وشأنه، كلْ، وقتُ الصلاة قد اقترب.
من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟
- قلت لك: كلْ، أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟
- "با"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية.
- هل ستأكل هذا الطبق اللّعين أم أسكبه على رأسك؟
- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.
- ركضا.
يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيّؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل التمعن في مناظر أعجبُ ما فيها تجددها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمَي والده موضوعتان على الأرض، بينما تتدلّى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاد الصبر أمام زمان يتلكأ به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.
يتوقّف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم: كيف حالك؟
هل ثمة سؤال أخطر من هذا الذي يُلقى بألف صيغة: كيف أنت، كيف الأحوال، ما أخبارك، وهل أمورك "ماشية"؟
نعَم، إنه أهمّ سؤال يلقيه الآدميون على بعضهم البعض. ما أصعب الردّ وفي كل إجابة فخّ. إن أنت تبحّرت في مصائبك ضايقت السائل وهو متعب من كثرة المصائب. وإن أنت أسهبت في وصف ما أنعم به الله عليك من الطيّبات أثَرتَ غيرته. وفي الحالتين إن أطَلت في هذا الاتجاه أو ذاك ضيّعتَ كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك آخر نجاحاته أو مصائبه هو. أما إن اختصرت الردّ، أو حتى تجاهلت السؤال -كما سيفعل هذا الطفل المتهوّر عندما يكبر-فسيحسب ذلك على تكبّر فطري وحتى على تخريب مقصود وأنت تمنع السائل من فرصة الشكوى أو المباهاة. أقلّ الأجوبة خطرا وركاكة أن تتنهد وتقول أحوالي كأحوال العالم "ماشية" و"غير ماشية"، "الماشية" تعوّض "الغير ماشية" و "الغير ماشية" تنغّص على "الماشية".
ينصرف الصديق فيتنفّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال طعامه. فجأة يجلس لاهثا إلى نفس الطاولة شيخ بدين ببُرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه الطفل للقادم الجديد.
- "با"، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنّه يعرف أحسن منك كلام اللّه، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.
يضحك "با" ضحكة صفراء، يبتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يمسح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويتجمع حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغاربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبّوس" وجبّة "قمراية" مثل أبناء المدن.

يهبّ الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيّا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفّل، لم تنتبه للهجته. الرجل كان يتهكّم علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه المدينة الكلبة: الآفاقيون؟

- "با" ما معنى آفاقيون؟

- القادمون من الآفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرّقون بين جنوبي وشمالي، لا يرَون في قدومنا إلّا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهددها... آفاقيون، أفّاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نقنع أحدا منهم أنهم هم سكان الآفاق بالنسبة لجدّك ومركزُ العالم واحتُنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه ذروة لا تُحتمل.

- اللعنة! سنحتلّ هذه المدينة، سنستعبد مَن فيها من أشباه الرجال، سنسبي نساءها، سننهب أسواقها، سنحرق بيوتها. أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنّني الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموتَ، وأنا كهل قارب اليأسَ من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثَنا الخدَم لخدَمهم واليوم يورثونا لحرّاس الخَدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تتفرّج ثمّ تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصَوت المؤذّن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنائس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلَّفة ببثّ وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الآذان الذي يتعالى من المئذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد مكان أيا كان، من صُنع الآدمي أم من صنع "الطبيعة" إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى آذان المدينة التي تطلّ على مضيقٍ اسمُه "البوسفور" والمطلة على نهر اسمه "النيل". وكيف يتلوّن في هذه وفي تلك، وكيف هي رنّة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تقرع في مدينة تربض على ضفاف نهر اسمه "الراين" أو نهر يُدعى "السين".

آخر التوصيات العقيمة.

- أنبّهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو لطرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطِعني فستكون هذه آخر مرّة آخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنّما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلوّ! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، الماشي، القافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطانا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتونة المباركة التي ورد ذكرها في كتاب "ما" الأصفر الرث. ثم أين الزيتونة التي قال له رفاق اللعب إنّها تتوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -وإلى الأبد-من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطّب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه.

- انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلّا فقدتك في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادها الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراصة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدرَ الجري للوصول إلى الصفّ الأوّل حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيدَ أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيَلة، لماذا هذا القلق المباغت والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظراتُه تقول: لا تخشَ شيئا، أنا معك.

تبدأ الشعائر المهيبة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقلّد الخلق ركوعا وسجودا ووقوفا ثمّ ركوعا وسجودا. فجأة يتسمّر بصرُه على قدمَي الراكع الساجد أمامه. لا أهم الآن من هذين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنّه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ "با" من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثمّ ينتبه لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينقذ الطفل إلّا انتهاء الصلاة من صفعة جديدة بسبب رجُل نسيت امرأته أن ترقع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيّا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أمامنا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت.

تأتي الطفلَ رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "با"، هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهّد "با":

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرآة، الجوارب... ما البقية يا ترى!

ها أنا أتلكّأ وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.

كان الأب والطفل لا يمشيان إلا وواحد يجرّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنبا لجنب فذلك ما سيأخذ زمنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

- تحرّك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.

- سأقول ل "ما" إنني صلّيت في أكبر جامع في العالم.

- الجامع الكبير ليس أكبر جامع موجود.

- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهّد "با". ربما فهِم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

- يا بنيّ، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء اللّه تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جَدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيّدي الشيخ الحاج".

- هيّا نعود إلى المطعم. أنا جائع.

تختفي النبرة الحنون بالسرعة التي ظهرت بها.

- لا تلمس صحنك طوال الغداء، وتريد العودة إلى المطعم الآن! لا مجال لهذا الدلال، تحرّك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أمامنا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

- لم أكن جائعا آنذاك، بينما أنا جائع الآن.

- تتصوّر أنني خادم لسيادتك، أن المطعم ينتظر متى تجوع ليفتح أبوابه. ما عليك إلّا أن تأكل جواربك.

- لكن، يجب أن نتوقّف وأنت تركض كالمجنون.

يضحك الدليل إلى أن يسعل.

- هيّا، إلى بائع المرطبات.

آخر ما يهمّ الطفل المرطبات، وكل ما يريد ألّا يتوقّف المشي أبدا في فضاء ساحر كهذا، وأن يتواصل الطريق إلى ما لا نهاية، وقد نسي حتى وجود "ما" وأنها تنتظره بفارغ الصَّبر ليعيد عليها -ما لا يحصى من المرّات-تفاصيل اليوم الأغرّ. لا هاجس له الآن إلا مواصلة الركض لاستكشاف كلللللّ أزقة المدينة العتيقة، كلللللللّ جوامعها وحوانيتها ومطاعمها ومقاهيها. أنسَته ألوانُها وروائحُها حتى ألوانَ وروائحَ الصحراء. هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحَت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزا عاهرة تحمل من كل مغتصِب، تلد اللقيط وراء اللقيط، تربّيهم كالقطة التي تتغذّى بفلذات أكبادها... وأنه سيواصل حُبّها رغم كل شيء.

لن يعرف الرجُل الذي سيواصل هذا الطفلَ مكانا على بُعده أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كتلك التي اعتصرتها منه أزقّة المدينة العتيقة وهو ابن يجرّ أبا يتلكّأ أو يركض للتخلص من قبضة أب متوتّر على الدوام.

مدينتنا...   (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتها

أزقتها

أغانيها

مآذنها... كنائسها

سكاراها... مُصلّيها

تسامحها، تعصّبها

عبادتها لماضيها

مدينتنا -بحمد الله-

راضية بما فيها

ومن فيها

بآلاف من الأموات

تعلكهم مقاهيها

لقد صاروا مع الأيام

جزءا من كراسيها

صراصير محنّطة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

يومَ سيجلس -بعد أكثر من نصف قرن-لترتيب ملفّاته عن توغّل الطَّريق في الفضاء الحسّي، سينتبه أنه لم يطلب من هذا الطريق إلا أن يحمله إلى أبعد مكان عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يستطيع، وقد حُكم علينا ألّا نصل إلى المكان الذي نريد إلا وشدّنا الحنين إلى الذي غادرنا، ألّا نعود إلى مسقط الرأس إلا وشدّنا الحنين مجدّدا إلى ما وراء الأفق.

**

وكيف أن للذات حاسة سادسة تستكشف ما تخلق وتخلق ما تستكشف

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشّاق المدينة العتيقة، شَغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية، ولم يكن من باب الصدفة أن نلتقي، أن تقودني لإتمام زيارة بقيَت منقوصة نصف قرن.

- أتصوّر بسهولة كم أتعبتَ الرجل المسكين ذلك اليوم، لم تتغير كثيرا رغم مرور السنين.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتهبا بعد خمسة عقود كمن ينفخ على الرماد ليلتهب ما بقي تحته من الجمر.

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موجِعة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها. بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلبْ مني تفاصيل أدقّ، لست إلا هاوية. هنا كان سوق العبيد، وهذه مقابر الملوك، وهذه دار لوزير سابق. أمَّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصّحي. أتدري أن المكتبة الوطنية كانت ثكنة للجنود الأتراك؟ هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياما؛ إرهابُ دولة ذلك العصر.

- جئت بكِ لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمّام ووظيفتها التي كان "با" لا يعرف شيئا عنها، وبعدها قد يتفتّح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها صلة أو قصّة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوما ما هذه البناية! لم تثِر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون مَن قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟ هذا هو الحمّام، لم يتغيّر منذ ذلك العهد، ما يزال الحلّاق ناصبا في بابه كمينا للأطفال.

- إذن، بعد المطعم والجامع كان الأب المسكين يحاول إكمال بقيّة أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلّص من مشاكسات "الفرخ"، مقسما بغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

- كنت تسمعيني إذن! برافو. اتّبعيني الآن إلى المكان الذي كان في عجلة للوصول إليه، لا أزال أتذكر الطريق إليه، كيف أنسى المنطقة الحدودية التي كانت مدخلي لأرحب فضاءات هذا العالم؟

- فسّر.

- يجب أن أكون نفسي فاهما، هذا هو المكان.

أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحانوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط، أصرخ جاحظ العينين.

- هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو مخصص لأشياء يبيعها محتالون لأغبياء! انظري ما فعل أبناء الكلب بأوّل مكتبة أخذني إليها "با" ... جعلوا من البوابة التي تفتح على أثمن ما في العالم هذا ال... هذا المكان الذي يبيع أدوات الطبخ والغسيل والساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدّعي الفن وتوهم بالقداسة.

تدفعني مرافقتي إلى الأمام.

- تعال وتمالك نفسك. لا أريد لك السجن بتهمة إحراق محلّ تجاري.

تتدافع الصوَر إلى سطح الذاكرة وكأن الأحداث وقعت البارحة وليس منذ عقود. تمرر مرافقتي يدها أمام عيني مرة أخرى.

- كأنك تحادث أحدا غيري. أكمل القصة وأنت تنظر إليّ.

كانت هذه المكتبة آخر محطة زيارة للمدينة وأهمّها في ذلك اليوم المشهود، المكان الذي كان يركض له "با" متأففا من طول الحلاقة والأكل وخطبة الجمعة.

أقسم أنني رأيت الرجل يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق آخر عطر لها.

آه رائحة المكتبات! لا تُعرف للأشجار رائحة ألطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة ألطف مما تتضوّع به الكتب.

يغفل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.

مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟

- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.

- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كلللللّ الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كلّ" كبقية الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.

ينغمس "با" في تصفّح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.

- تعال، قل لعمّك ما تريده أنت.

- أريد آخر عدد لمجلّة سندباد وكلللللّ القصص الهنديّة لكامل الكيلاني وكتب جورجي زيدان و.
يفتح البائع فمه:
- كم عمره؟! من أين يعرف؟
يغالب "با" زهوه:
- هات له ما عندك من قصص الأطفال حتى لا يقرأ كتبي فيفهم منها أكثر مما أفهم.
يصرخ الرجل وقد امتقع لونه:
- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟
يتدخّل البائع بلطف:
- لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زادٌ لأشهر من القراءة.
يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضرية:
- ولا تحمّل والدك فوق طاقته...
يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:
- ما دام والده حيّا فسيأخذ ما يريد من الكتب، ولا حقّ لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقلّ من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.
يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبّات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالٍ بالبائع يخفي سروره وشماتته. إنذار صامت أنّه من الأحسن أن نتوقّف قبل أن ينفجر الرجل الخطير. توقفَ ثم ركض باتجاه المحطة.
يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرّة تفتح على أوسع أزقّة المدينة العتيقة:
- "با"، ما هذا الشيء؟
- حثّ الخطوة وأغلق فمك.
- لماذا يقف أمامه الجنود؟
- حتى لا ينسفه رجالنا... إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".
- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استفزاز المحتلّ وكفره.
يزمجر "با" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.
- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشماتة بنا، لنفس الشماتة سمّوا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا-جبروتنا نحن.
- أريد أن ألمس ال...
- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. أسرع وإلا فاتنا القطار الأخير.
طوال الطريق هواجس الطفل أنه للآدميين أشكال غير التي قُدّت من اللحم والعظم. ثمة بشر من حجر ومن معادن وسيعرف عنهم يوما الكثير.
في عربة الدرجة الثالثة لآخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.
- "با"، هذه المرّة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كلللللّ الدنيا؟
يرسم "با" على محيّاه ابتسامة التهكّم ثم يصرخ.
- قطعا، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوما أراد الحياة". لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوما أراد الممات"، لكان من الصادقين... طبعا أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
- هل ثمة غيره يا مغفّل؟
- "با"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.
ينفجر الرجل ضاحكا، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.
- إياك، ثم إياك. حذارِ أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقِرَت بعد ولادته النساء. هذه أمة بقدر ما كثّر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.
- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا، أو كاتبا بما أنك تحب القراءة والآن اتركني أقرأ جرائدي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده.

تهزني مرافقتي من ساعدي:

- ومن يومها لم تتوقف عن التهام الكتب وعن ارتكاب البعض منها، على فكرة عما تكتب حاليا؟ برنامجك لإنقاذ هذا البلد التعيس؟ أنت لا تنفكّ عن الخربشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيره منك بعض الوقت.

- لست متأكدا أنكِ ستستخرجين منه شيئا، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحيانا قراءة ما كتبتُ.

- خطّ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحيانا وقوفا وسط حافلة مكتظة وحتّى مشيا.

- مادّة لنصّ جديد في الأفق؟

- نعم، لأهمّ نصوصي، وآخرها. نصّ أروي فيها تفاصيل زيارتي لهذه الأزقة واغتنم الفرصة لشرح ما توصلت اليه بخصوص وجودنا في هذا العالم.

- أوف، سيرة ذاتية أخرى! ألا يكفي طوفان النرجسيات الذي نعاني منه؟

كم سأردّد: هذا النصُّ ليس سيرة ذاتية، هذا النصّ ليس سيرة ذاتية، هذا النص ليس سيرة ذاتية. فيتهامسون وراء ظهري: بلى، بلى، بلى.

تشرد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحَبّ مطربة لِكلينا:

كتبنا ويا ما كتبنا

ويا خسارة ما كتبنا

كتبنا ميّة مكتوب

ولهلا ما جاوبنا

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

-إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأن طموحي ليس أن يَردّ عليّ أحد وإنما أن أعتصر من داخل الملفات التي تراكمت داخل ذاكرتي كل هذه العقود، أجوبة تردّ على الهواجس التي تلاحق كل آدمي؟

-كنت أعتقد أنك طبيب فإذا بك...

-يمكن أيضا وصفي بالفيلسوف الهاوي...هذا ما سيجعلني بمأمن من الفلاسفة المحترفين وهم لا ينتبهون لوجودي أصلا ...في كل الأحوال ألا يحق لي أن أكون فيلسوفا عصاميا ينتصب لحسابه الخاص في سوق تعجّ بالدجّالين وباعة القديم والرث والمستهلَك؟

- وكيف ستحقق انجازك العظيم؟

- عبر التمعّن في أدقّ تفاصيل القصة الوحيدة التي أعرفها جيدا لاكتشاف الثوابت التي بُنيَت عليها كل قصص الآدميين. أليست المعرفة الدقيقة بجسد واحد كافية لنعرف كيف بُنيَت كل الأجساد، وإن تباينت فيما لا يُحصى من التفاصيل؟

-هل تعتقد أن هناك سوق لمثل هذه النصوص، والكتّاب هذه الأيام أكثر من القرّاء.

- لا خوف من انقراض جنس القرّاء. على فكرة هل تساءلت يوما عن سبب وجودهم واصرارهم على البقاء. بعبارة أخرى لماذا نقرأ؟

- كن بائعا لبقا يعرف كيف يسوق بضاعته وأقنعني لماذا يجب أن اقرأ كتابا كالذي أنت بصدد ارتكابه.

- جلّ النصوص تتوجّه إما إلى القلب وإما إلى الدماغ. كأن العقل ليس عاطفيا، كأن العاطفة ليست عقلانية. كأن الذات ليست عاطفة-عقلا أو عقلا-عاطفة. أريد أن يتجاور ويتمازج في نصي كما في العالم الفكرُ والخيال، أن يتّسع للسفاسف ولأمّهات القضايا.

الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر... الفلسفة في خانة والشعر في أخرى... العِلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة... الأفكار على اليسار والمشاعر على اليمين؛ النبيلة في الواجهة والدنيئة خلف الستار... الجِدّ حيث لا مجال للهزل والهزل حيث لا مجال للجدّ... أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل!

- واصل وعليك الأمان.

- لنقُل إنه التقرير الذي يجب على كل واحد منا كتابتُه وقد انتهت مهمته، لعلّ أحدا من المرتحلين بعده يجد فيه ما ينفعه.
- إلى أين انتهى مشروعك العبقري؟
- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيمها، كم بودّي أن أنشرها كما هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذَوق الزبون وخوف الرقيب. أيّ ناشر مجنون قادرٌ على نشر مادة خام من آلاف الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ خاصّة أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟
- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفَل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا الاستفزاز. أرجو أنْ لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظّهم العاثر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.
جاء دوري لأنفجر بالضحك.
- هم ليسوا بحاجة إلى أي توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي لا للعلم ولا للأدب.
- متى ستشرّفني بأن أكون أولى قرّاء قصتنا جميعا؟
- لا أعرف، بل لا أعرف أصلا هل سأغامر يوما بنشر النصّ.
- الخوف من الرقيب؟
- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوَجها مهاراتٌ عديدة لست متأكدا من امتلاكها.
- مثلا؟
- مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موحِشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات، مهارة الجواهري والنصّ حجارة كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش، مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو" يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القِطَع في أكثر الأشكال تناسقا، مهارة الفنّان والنصّ لوحة فنّية يجب أن تسطع فيها الألوان أو قطعة موسيقية يجب ألا تعرف نشازا، مهارة سقراط وهو يستفزّ في السامع طاقاته الذهنية ليوَلدا المعنى معا. أريد أن يتجاور ويتمازج في نصي كما في العالم الفكرُ والخيال، أن يتّسع للسفاسف ولأمّهات القضايا.
- سأفتعل تصديقك، وأنّ الهدف ليس إرضاء رغبة كل الكتّاب: إعادة صياغة العالم الذي يعبرون وحتى خلق عوالم أخرى يرَونها أجدر بالوجود. والآن ماذا عن العنوان؟
- رحلة الحياة أو كتاب الرحلة، ربما الرحلة.
- إذا كانت المادّة بنفس طرافة العنوان فيا خيبة المسعى!
- هل هي غلطتي والبشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكاية فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيطة قرونا قبل أن أولد؟
- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسابا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟
- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين فسيفعلون ما فعلوه دوما، سيُخرجون جُمَلا من سياقها، سيقوّلونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان وبالكفر، بالشيء وبالنقيض... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.
- تتنهد!
- بصدد الوعي أنني أصبحت سجين هذا النص موثق اليه وإذ يتضح أنه عمل لن يتوقف إلا عند غرغرة الموت.
-ولماذا تحمل نفسك كل هذا العناء؟
-ثمة متعة الكتابة بكل ما توفر من فرص للهدوء للتباعد والتأمل. هناك طبع صاحبك من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصبر حتى والكتابُ في المطبعة. لا شكّ أيضا ان سهولة الإضافة والحذف والتصفيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهّل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملي "الأيام ". الأهمّ من كل هذا ضرورة مواكبة النص لموضوعه، فبما أن الرحلة لم تنهي لا معنى للتوقف عن التدوين لها وذلك إلى أن تشارف على نهايتها.
تمرّر مرافقتي يدها أمام عينيّ مبتسمة:
- سهوتُ مجدّدا، كلّي آذان صاغية لك.
- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفي منه الكلمة بدوركِ. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطرّ لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ شمسٌ تدور حولَها كل الأفلاك، وذرّةٌ من غبار تدور في فلك ما لا يحصى من الشموس؟ أيّ علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيته؟

تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبدا.

- أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة. والآن كفى من هذا الموضوع.

- بالعكس، فتحت شهيتي. ثمة إذن إشكالية لماذا نقرأ وتوقفنا عند بعض المبتذلات. والان عودة لإشكالية لماذا نكتب ...أعني ان سمحت لماذا تكتب؟ أليس الحافز وَهمُ التغلّب على الفناء بالحرف.

- الخلود! طُعم كالذي تلوّح به الحياة للعشاق: المتعة لكم، أما بيت القصيد البنون والبنات فلي وحدي.

- أيضا لعلّ نصك يحقق لك ما تحلم به من بقاء الغريب في ذاكرة هذا الشعب الذي لا يبادلك حبا بحب.

-خوفي الحقيقي ليس أن يغرق نصّي مع كل النصوص التي غرقَت وإنما أن تطفوَ بعض مقاطعه لتسميم عيش تلامذة وطلاب أبرياء وقد أصبحَت – يا للحسرة-جزءا من الثقافة الرسمية. ما أريده حقا، وبلا حذلقة، أن يكتشف النصَّ ثعبانٌ فضي جاء من أعماق الفضاء في بعثة حفريات آلاف السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيترجمه وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

-والآن وقد اكتملت الزيارة، كيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟

تتدافع الذكريات اللذيذة الموجعة.

تلك الليلة وصل البيتَ أبٌ مرهَق وطفلٌ متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا.

تفتعل "ما" السرور بما جلبا لها من الحلوى.

يسارع "با" إلى كتبه ويرحل.

يسارع الطفل إلى كتبه ويرحل.

تعود المرأة لغسل الصحون ثم تجلس على الحصير البائس تتصفح ببطء وبتركيز كتابا أصفر رثًّا، تطيل فيه النظر، ثمّ تغلقه واجمة.

تشيح المرأة المتماوتة روحها جوعا برأسها، لا تنبس ببنت شفة، ولا أحد منتبه أنها مثل سجين في أضيق زنزانة والمفتاح شيء غير مادّي لا تملكه، آن الأوان لرواية ظروف سطوي عليه.

**

تهمس أمّ في أذن طفلها النائم وفي صوتها عصبيَة غير معهودة:

- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!

- إلى أين سنذهب؟

- إلى الكتّاب. هيا، لا تتثاقل!

- الكتّاب! لكنّني ذهبت إليه البارحة.

تغالب "ما" نفسها حتى لا تنفجر ضحكا.

- ستذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيّام ما عدا الجمعة والأعياد.

إنّها نبرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحمّام، أي أنّ الموضوع غير قابل للنقاش والمساومة. ومع هذا لا بأس بالمحاولة.

- لماذا؟ ألا تكْفي مرّة واحدة؟

- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلكّأ.

تجرُّ الطفلَ امرأة بها حماس مبالغ فيه غير مباليَة بحماس طفل أقلُّ ما يوصف به أنّه كان فاترا. كلّ هذه العجلة للعودة إلى مكان ليس هو مركزه!

- تَذكّر ما قلتُه لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تتشَيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام نادهِ ب "سيّدي"، كُن شديد الاحترام له ولا تعصِ له أمرًا، استوعب ما يقوله لك، قبّل يده عندما يدعوك لتَمثُل أمامه، لا تكن وقحًا ولا تتكلّم صارخًا أمامه، أطِعه في كلّ شيءٍ ولا تعرّض نفسك لما أكره ولا ترضى، ولا تنسَ أنّه سيخرجك من الظّلمات إلى النّور فهو مَن سيعلمك كلام الله.

إنّها عادةُ الأم الأزليَة المتماديَة في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو أن لها أدنى تأثير في تحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد... ويدلُّ على تواضع دورها في الأمر أنّ ذلك لم يحصل.

بقية الحوار.

- لا أريد أن أتعلّم كلام اللّه. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلاعي الجديد.
تجذب ''ما'' يد الطّفل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:
- لا تكرّر أبدًا مثل هذا الكلام، خاصّةً على مَسامعِ الناس.
يصل الطّفل مجرورًا من يده إلى الكتّاب، وهو ركنٌ من جامِع المدينة الصغيرة التي قذفتهما على ضِفافها أمواج النزوح. تدفع الأمّ طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بقوّة، شيءٌ ما بداخلها يحثّ على الفراق وآخرَ يرفضه.
توصيَة عقيمة إضافيَة بضرورة الجلوس قريبًا من الشيخ، وحتّى بين يدَيه للتّبرك والنهل المباشر من نافورة العلم هذه.
تسترجع الذّاكرة صورة شيخ يلتحف ببرنس من الصوف البنيّ وعلى رأسه شاشيَة حمراء يلفّها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيرا لِوهج شمس الفلاّحين، ويدان لرجل لم يمسك في حياته إلا القلم والورق.
كان يفترش سجّادا مهترئا بالكاد أحسن من الحصير البائس الذي كان يتقاسمه الطّفل مع الرّفاق الصّغار، وكلّهم جالسون أمامه صفوفا متراصّةً في أعجب فوضى. يومَ غامَر بالجلوس قريبًا من الشّيخ ليبصره عن كَثب فوجئ بنظرته الجانبيَة مصوّبة نحوه، وكِلاهما يقدّر حظوظه -خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الآدميين-في استعمال الآخر لمآربه. ألم يسمع من ''ما'' أنّه يحفظ كلللللّ كلام اللّه، وأنه يعرف ما لا يعرفه حتى ''با''؟ يداهم الطفلَ شعور بالتهيّب.
قد يكون الخوفُ ثاني أقوى المشاعر إذ كانت للرّجل عصًا طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثَم قرر الطفل البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفيَة ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيءٍ رهيب آخر تسمّيه اللّغة ''الفلقة'' كان الشيخ يضعه قرب ركبته اليمنى، واضحًا لكلّ العيون، جاهزًا لكلّ الاحتمالات.
الفلقة! أداة بدائية بالغة البساطة لكنها رَوّضَت أمّةً برمّتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ. هي الّتي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخَوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطّفل لتسييره في قوافل المروَّضين.
على ذكر وسائلنا البيداغوجيَة القديمة عن الجاحظ: ''*كان معلّم يعلّم الصبيان ومعه عصًا طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألتُه ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفّر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفرّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارّة ذلك فيسارعون إليّ ويخلّصوني منهم*''.
نعم يجب إسناد الميداليَة الذهبيَة لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتّاب ولهذا الشيخ، طيّبَ الله ثراه وأسكنه في أفخم ''سويت'' في الجنّة.
في بعض ملفّاتي الساخنة، يعود الطّفل إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر لا على الأرض وكل همّه دخول البيت محافظا على مشية لا تُلفِت الانتباه. لكن، كيف يتفادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار ''ما'' على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟ كيف يعترف لـ''ما'' أنّه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنّه قام ليجلس بعيدًا عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلّا من نفسه، أنّه لم يقل للعجوز: ''سيّدي الشيخ'' وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلّا أقلّه، ولم يُقبّل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زادَ إلى أنْ كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك. ثم ماذا لو سألَته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟
تتظاهر ''ما'' بأنّها لا ترى مشيته. لا تلقي أيّ سؤال. تتغافل -على غير عادتها-عن حصّة غسل القدمين الإجبارية مظهرة مزيدًا من الحنان. يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويف، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصًا طويلة وقدمان داميتان فوق سحاب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه يصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا.
للمدافعين عن حقوق هذا الطّفل والمستنكرين لكلّ عنف ضدّ فلذات الأكباد، أقول نعم، نعم، كل حُججكم هذه أعرفها جيدًا ورددتها في أكثر من محفل. لكن، بيني وبينكم وبعيدًا عن الآذان المتطفلة، وعِلما أنني ذقتُ الفلقة أكثر منكم بكثير، أيُّ وسيلة هذه للتعامل مع هذه الوحوش الصغيرة التي تسمّونها الأطفال وهم بهذا الكمّ الهائل من النزق والطيش والغباء والعنف؟
تهز اليَدُ الرقيقة الطّفل بحزم:
- انهض، حان الوقت.
- اذهبي أنت إلى هذا الكتّاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك. نادي العجوز الكريه بـ''سيّدي''، قبّلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تتشَيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتّاب مهما قلتِ وفعلتِ.

- يا بني لابدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتّاب، أن تسمع المؤدب. هل نسيت أن والدك كان مؤدِّبا؟! كم سيكون رائعا أن تشبهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صِبيَة قريتنا كلام الله.

- لا أريد أن أكون مؤدبا. أنا أكره كل المؤدبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!!

تأخذ "ما" طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمة تغيير جَذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلا موجوعا وإنما الرَّجل النائم داخله.

- رأيتك في المنام عالِما بارعًا باللّسانَين! نعم، جاءني في المنام -وأنا حُبلى بك-مَلاك بشّرني بهذا. هل تكذّب ملاك اللّه وتخزيني؟ هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت الذي تحبّ الصراع؟ كم هو طويلٌ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدها لك "با"!

نعم، كم هو طويل طريق الآدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئه منذ البداية أنه لم يأتِ إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمّة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع مُسبقًا.

هل أتاها الملاك يَومها منتفخ القدمَين يمشي على الزجاج والجمر؟ المهمّ أنّه أتاها واتّفق معها على شروط العَقد الذي سيجعل الطّفل عالِما بارعًا باللّغتَين. لم يَعد مطلوبٌ منه سِوى التطبيق، إذ لا حقّ له في إفشال مخطّطاتٍ سرّية تتوارى داخلها أحلامٌ وردِيَة للأم ورغبةٌ عارمة عند الأب في الثأر. إنها القاعدة في هذا العالم. محكوم عليك أن تنخرط بإرادتك، أو بِتوهّمها، في القصّة التي حدّدتها لك طاولة القمار وأنْ تلعب -شئت أمْ أبَيت-الدور الذي قرّره لك "البخت" أو سوء الطالع.

يستمرّ الطفل في عناده رافضًا مواجهة تجدّد كابوس البارحة. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في البداية؟ تستخرج الأمّ من خوفها المفاجئ الحجّة التي لا تُقاوَم.

- تعلّمتُ بعض الحروف من أخوَيّ، لكنها لا تكفي لأفكّ رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيَني بالبقيّة. آنذاك سأقرأ كلام الله. هل ستخذلني؟

يحدق الطفل في وجه أمه وقد انتبه فجأة لما تقوله:

- أنت لا تعرفين القراءة؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتّاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محمّلا بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه وقد تبدّلت كل المعطيات لديه:

- سأذهب لآتيكِ بها. وسأتوَقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كلّ ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكلْ قطعة الخبز هذه في الطريق.

في ذلك الصباح لم يركض صبيّ في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -بمحض إرادته-مكانا كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشدّه، وقد ألقَت الأقدار الظالمة على كاهله الغضّ بمهمّة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادرًا ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادِيَة يمارسها عليك قبل أن يرميَ بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتـأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردّدا خلف المؤدّب كلاما لا يفهم منه شيئا، ولا أظنّ أن أحدا كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه. تُداهم الطفلَ -وهو يردد كالببغاء-أسئلةٌ بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الربّ، ما العالمين، ما الخنّاس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟

يغلبه التهوّر من جديد:

- سيّدي، ما معنى خنّاس؟ ولماذا يوَسوِس الشيطان في صدور النّاس؟ وكيف يفعل ذلك؟

من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر-من باب المطالبة بالحُجّة أي من باب البدعة في نظر كلّ الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفطّن إلى أن الطّفل من النوع الذي سيزعج أمثاله دوما بأقبح ما يكرهون، فأراد أن يقوّم الخطأ في تركيبته الذهنيّة بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجرًا في الدنيا وثوابا في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجا:

- سيّدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخنّاس؟ ولماذا تبّت يداه؟ وما معنى تبّت؟

أخيرا يستبطن أهمّ ما يعلّمه الكتّاب والحياة بصفة عامة، أنّ تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمق كرهُه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جُعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه الخشن لقضاء حوائج كثيرة، يختفي ساعات، يسلّم إبّانها العَصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون -ككلّ سلطة-إلّا بالفلقة والعملاء. كان همُّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قامة وأكبرهم سنّا، أن يصفّي حساباته مع مَن لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيدَه المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسّف العريف، عقوبات كافية لتُثْني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروفُ اللعينة رفضَ الحضور بين يدَي مَن هو بأمسّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الدّار كلّ مساءٍ مثقلا بآلام غير مفهومة السّبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جُمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "ما"، لا حروف في هذا الكتّاب، لماذا لا نبحث عنها في كتّاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العَجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصّخب والحصير، وكلّ مساءٍ مع حرقة الإحساس بالذنب والقهر. ها قد بدأت "ما" تتخوّف بجدٍ من صِدق وعد الملاك. تتشنّج أصابعها وهي تمسك بكَتفَي ابنها:

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليّا. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجِمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبدًا، هل تسمع؟

-... ،... ،... ،... ،... ،

- يجب ألا يحصل هذا أبدًا. أبدًا!!

-...

- كم سأكون فخورة بك وقد حفظتَ السّتّين حِزبا! كم سيكون "با" فخورا بك هو الآخر وأنت تتلو عليه ما تيسّر منها!

-...

- أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا ستُفرَج بإذن اللّه. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكّر والسّمن. وأنت أيضا لا تكن سليط اللّسان كعادتك. لا تكابر، فلستَ دومًا على حق. سأصلّي الليلة كثيرًا ليهديك اللّه.

ولأنّنا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإنّنا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصًا وأكبر فلقة تضعها حول أقدام البشريّة جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التظلّمات وافتعال حلّها ليتواصل الانضباط وتدفّق العصيدة بالسكّر والسّمن، أمرَت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفل ويتّخذ طريقًا قد يقوده ليصبح عالِما بأحد الرَّعيَين حسب تهديد أمّه. ربّما تدخّل حليف "ما" بحزم وإلحاح لدى مكتب التظلّمات الكونيّة. قد تكون علاقاته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم. ربّما لم يحصل شيء من هذا، وكلّ ما في الأمر أن الطّفل وجد أخيرا ضالّته.

ذات صباح يتنحنح الشيخ بوقار:

- والآن إلى ألواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتب بها كتاب اللّه.

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسّي جسمٌ سليم، حواس نشِطة، ثيابٌ تَقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيّقًا. أمّا عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة، وعلى الأقل أربعة أشياء توفرت كلها يومها للطّفل: قصبة مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحى به الكتابة وتعاد. إنّه حاسوب ذلك الزمان. يا للأدوات المتواضعة لغزو أفسح فضاءات عالم الآدميّين!

كم كان الطّفل بعيدًا عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعرًا وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراته لذاته وللعالم! من أين للطّفل -وهو راكع مُنكَبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-الوعيُ بأنّه وَضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم الفكر البشري! كم كان بعيدًا عن تصوّر حجم ذلك الجزء من العالم الذي دخله ذلك اليوم، وكم كان سيصاب بالإحباط لو قيل له إنّه سيقضي في استكشافه جلّ زمن الرّحلة، وهو كمن يبحث عن بعض قطع اللؤلؤ المنضود في أعماق بحار لا تعرف لها بداية ونهاية؟

ها هو منهمِك بهذه الأشكال الهندسية التي تصبح أصواتا، فكلمات، فجُملا، فصُوَرا، فأفكارا تتزاحم داخل عقل نهمٍ يقظٍ. يشهر قلم القصب وهو يقطر صمغا كسيف دامٍ في وجه عدوٍ شرس اسمه الجهل.

عشنا تسعة أعشار المائة ألف سنة من تاريخ الجنس البشرّي، والذي يَفتحُ لنا الآفاق في الفضاء الحسّيّ دليلٌ يحمل هراوة أو نصلا، وندخل فضاء الفكر وراء دليل سلاحه القلم.

يبدأ الطّفل كتابة الأشكال التي أمرَ بها الشيخ، أو قُل رَسمها. لا بدّ من التحكّم في تشنّج اليدين حتى لا تنطلق العِصيّ الواقفة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم! يتعلم الطّفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عِصيٌّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نِقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! يرمي لوحه ليرقص طربًا. لقد تعلّم من سيّدي الشيخ، خمسة أحرفٍ دفعة واحدة. اكتسب أخيرا ترديدُ الجُمل غير المفهومة معنًى، وكذلك حال ألم العصا. أليس الأمران ضريبة للحصول على معرفة الحروف التي تنقص "ما"، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفل من تفحّص العصيّ والنقاطِ لا بد من وضع الدوائر تحت السَّيطرة. تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفَها طوال رحلته من قِبل القريب والبعيد، تارة بالغربية وتارة بالاستفزازية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرته وعِصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه "ما"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعِصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلّا عرض اكتشافه على المؤدب.

- سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهّل كثيرا على "ما" حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصِّبيَة الحمقى حماقة.

- سيّدي الشّيخ! سيّدي الشّيخ!

- اخرس يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم خِلسة؟!

المهم أن الطّفل تحصّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها بذلك الشكل.

- "ما"، اليوم تعلّمتُ كلللللللّ الحروف! إنّها أجمل من كلام اللّه.

- كم مرّة قلتُ لك ألّا...

- اللّيلة سأعلّمكِ فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "ما" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بوعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطّفل عُود حطب رقيق يلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّما ومُهابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثمّ يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.

- انظري مليّا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟

- نعم.

- نعم، يا...؟

- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- انظري جيّدا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟

- هو هذا، يا سيّدي الشّيخ.

- حسنٌ جدّا. والآن الحرف الثاني. انظري مليا ولا تتبسّمي. إنّه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلا إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قولي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟

- هذا الألف وهذه الدال، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمتِ الفرق؟

- نعم، يا سيّدي الشّيخ.

- والآن إذا وُضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟

- لا أعرف، يا سيّدي الشّيخ.

لا بدّ من التروّي فهذه التي ستنال العصا هي "ما"، وعلى كلّ حال هي غير مطالَبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علما بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم مَن لا تظلمُه أبدا؟

- حسنًا، لنراجع كلّ ما علّمتكِ اليوم.

كانت الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفل سوى الانتظار إلى الغد، علّ "ما" تنسى حرفا أو حرفين وآنذاك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضّرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التّمتّع بسلطته الجديدة.

-ستواصل تعليمي بقيّة الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟
ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلّا نادرا.
- إيّاك أن تبوح لسيّدي الشّيخ أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمّك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!
- وفي المقابل أريد...
- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!
ينتظم تهريب الحروف من الكتّاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ "ما"، والطّفل مسكون بهاجس طَبع بقيَة الرحلة. إنّه لا يتعلّم لحسابه الخاصّ فحسب، بل هو أيضا صاحب رسالة ومسؤولية.
تمرّ أيّام الطّفل سعيدة وهو بين صمغ وطين ولوح، وأشكال تبرز وتختفي تنطق بأقدس الكلمات.
- "ما"، لماذا هذه كلمات الله؟ وما معنى كلمات الله؟
- لا تشغل بالك بهذه الأمور.
يقرّر الطفل -على العكس-أن يشغل باله بموضوع الكلمات. لا بدّ أن يكبر وأن يكبر كثيرا ليفهم يوما ما أنّ العالم الآدميّ مصنوع من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الأحاسيس والمشاعر، أنّ الله، الزّمان، الموت، الآخرة، العفاريت، العدالة، القانون، التّقدّم، البيئة، والحضارة، لبِنات لها من الأهمية في تشكيله ما للطرق والعمارات والجسور... أنّنا نعبره تحت تهديد الحرّ والقرّ والجوع وشتى أنواع السلاح، وتحت تهديد كلمات الكفر والخيانة والعَمالة والردّة والتطرف والإرهاب، تخرج علينا من أدغال الأوراق وشاشات الحواسيب بمخالب وأنياب تقطر بدم المذنبين والأبرياء على حد السواء.

**

ذات يوم تغتنم "ما" لحظة هدوء لتُخبر الطفل بدخول الطريق في منعطف جديد.
- غدًا سيكون يوما أغرَّ في حياتك يا بنيّ. ستذهب إلى المدرسة العصرية لتتعلم فيها المزيد. إنّها قريبة من محطّة القطار ولن تتعب كثيرا في الذّهاب والإيّاب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكرّاسة وكتابُ قراءةٍ جميل.
- لن أذهب إلّا إلى الكتّاب.
- أنت الآن طفل كبير. بلغتَ السّادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصريَة.
- لكن هناك أطفال أكبر منّي في الكتّاب!
- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. سترى أنها أحسن بكثير من الكتّاب.
أحسن من الكتّاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معابثة الشّيخ والسخرية منه، خاصّة عندما يرتفع شخيره في حصّة الظّهر؟ كلّا، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.
- لن تذهب بعيدا بالزاد الذي يوفّره الكتّاب. لأنّ جُلّ خرّيجيه ليسوا سِوى رُعاة قرية جدّتك.
تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجَر العثرة خوفٌ مبهَم أن تكون عصا الشّيخ الجديد أطول من التي تعوّد عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا. تُواصِل "ما" عملية الإقناع غير منتبهة لمخاوف الطفل وإنّما لمخاوفها هي. تستمع الأمّ إلى حجج الطفل الواحدة تلوَ الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضّحها ثمّ تفنّدها، تخاطب في ابنها كائنا له عقل. يتسلّل إلى عقله أنّ العَرض قد يكون في مصلحته حقًّا، خاصّة أنّه من "ما". ثمّة أيضا أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصير البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظَت عليها "ما" بحرص شديد، لا تخرجُها إلّا نادرا، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.
- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...
هو سيواصل كما نواصل جميعا شئنا أم ابينا. أحيانا لا بأس أن تجبرنا الظروف القاهرة على التغلب على ما في داخلنا من خوف من كل جديد ومجهول.
يشرع المعلّم في الخطّ على السبّورة أشكالا غير معهودة.
- انظروا جيّدا لهذه الحروف. إنها اللّغة الثانية، ويجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.
يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "با" في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ ألن يكون هو أيضا واحدا من الخَونة الذين يتَوعّدهم "با" بالوَيل والثبور؟ مبدئيا، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار.

ها هو أمام أزمة سنُسميها تعاطفا معه "أزمة ضمير". لا، لا، ليس لأحد الحق بمطالبته بشيء كهذا، يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياةٍ ستكون حافلة بأكثرَ مِن تمرّد عقيم. يفغر المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا يصرخ بقراره: لا أريد تعلّم اللّغة الثانية ولن أكتب هذه الحروف.
يكتشف المغفّل كما كان والده يسمّيه دوما أنّ المسطرة على الأنامل لا تَقلّ أذى عن فلقة سيّدي الشيخ.
الآن وقد وضعنا جانبا كلّ تعاطف، علينا مواجهة الحقيقة المرّة. ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكَمة كان يستحق! الأدلاّء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضّة كلللللل حروف لغته الأمّ فيُزعِج مَن أهداه أغلى وأثمن الهدايا. يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلللللل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزا إضافيا-فيتأفف ويُعلِن العصيان. هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يومَ اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير عصره، وبلدٍ غير بلده عَرف باكرا مِثلهُ قَسوَة الحياة.
بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ لجنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسَه وهو في العاشرة. ومع هذا بقي حيّا خِلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عَينَيه. عقدة القصة أنّ والده كان يدفع أجرا لمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلّم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا-ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلث الحروف. كان بداخل اليتيم إحساس أنّه إن بقي بثلث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى العالم بقيةَ حياته بثلث عين لا تَرى إلا ثلث الألوان.
جُنّ جنون الطفل. يريد أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف i. ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه-ماذا بعد حرف i؟ فيركله الأب صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يتوجه إلى عشيقة القسّ: من فضلك -يا سيدتي-ماذا يوجد بعد حرف i؟ فتركله صارخة: ألا ترى أنني مشغولة؟ يتوجه إلى مَن يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف i؟ فيصفعه هذا وذاك صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يمسح على شعره مشفقا: يا بنيّ، اسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.
للآدميّ نهَم للمعرفة مثلما له نهم للماء والطعام والجنس ومما لا شكّ فيه أيضا أن هنالك أمراضَ فقر المعرفة كما هنالك أمراض فقر الغذاء، أن الذات التي تتغذّى بأكثرها تنوعا ورقيا في صحّة أحسن من تلك التي تعيش على جوع وعطش الأفكار.

لا تَحكي القصةُ كيف وَضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة j، k، l، والجلالة m، n، o، والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.
المهم أنه تحصّل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب الأمور... وحده.
إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردان وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.
يواصل الطفل الغبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات شاسعة من الجهل والشعوَذة والغرور.
ثم تُداهمه الأفكار المنقِذة من الإمعان في الضلال. ألم يَعِد الملاك "ما" أنّ طفلها سيكون بارعا باللّغتَين؟ أليست هي التي أصرّت على ذلك؟ ربما دفعَت الثمنَ مسبقا، وكانت كمّية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن يقبل بأن يخدع الملاكُ "ما" فيأخذ منها ضِعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تتّهمه بالغشّ والتحايل، وحتى -لم لا-تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويَشهد المعلّم ضده.
كم من قرارات هامّة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟
المهمّ أن المناضل الصغير وجد مخرجا من الورطة الجديدة مكّنه من الخروج بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه، خاصة وهو في ذلك العمر.
اللعنة! لماذا يكتب الكفّار من اليسار إلى اليمين؟ حدِّث ولا تسل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغباهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفّة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت لتزداد لو سمعني سيّدي الشيخ.
لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عِصيٍ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصًا ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأم إلّا عصًا واحدة منتصبة مكتفية بذاتها. يتزايد الانزعاج والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأوّل منتفخ كالطاووس بعِصِيّه الثلاث بَالغة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرّد نصف دائرة هزيلة بذَيل قصير كذَيل فأرٍ قضمَته أنياب القطّ. لا داعي لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غبيّة كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفْرطوا في الضرب والنفي إلى الركن.
لا شكّ أنّ الملاك تنبّه سريعا إلى ضرورة تدخّل حاسم وسريع. خيرا فَعل، لا لأنه حافظ على الكعك ومصداقيته عند "ما" فحسب، إنّما لأنّه فتح أمام الطفل أبوابا جديدة على مصراعيها لن يقدِّر -إلا وقد كَبر-خطورة بقائها مغلقة.

يتحرّك الطريق في الاتجاه الذي لم يكن "مكتوبا" يوما في أي سجلّ، يدفع إلى ساحة القصة بدليل جديد سيلعب فيها دورا محوَريا.

كان "مسيو فيدال" صغير الرأس، يخفي صلعته تحت قبعة على شكل فطيرة سوداء اسمها "بيري".

كان بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعثّر، يقوّم اعوجاج أشباه الجُمل. كان حقا المعلّم الجدير بلقب المؤدّب، يردّ على السؤال المحرِج تلوَ السؤال الغريب، تلوَ السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضيع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزجر أبدا.

يصبح تعلّم اللغة الجديدة وما تزخر به من كلمات غريبة لعبة ممتعة، والطفل غير واعٍ أنّ كل كلمة يحفظ بأيّ من اللغتين هي بمثابة لبِنة جديدة تُضاف للمستوى أو البُعد الرمزي لعالَم متعدد الأبعاد لا توجِده كما هو ولا تطوّره كما سيكون إلا اللغة.

يغتنم الطفل الفرصة للتخلص من بعض الهواجس المتراكمة بما يملك من كلمات صعبة النطق؟

- سيّدي! سيّدي! سيّدي! هل هناك قرآن بلغتكم؟

يبتسم المعلّم برفق ثم يهزّ كتفيه:

- انتظر قليلا، ثمة مشاكل لكل عمر. أنت ولد فضولي وأنا أحبّ الأطفال أمثالك. ما رأيك في قراءة هذه القصة المصورة؟ مؤكد أنك ستحبّها.

يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صوَر، قل لي عندما تُكملها، ماذا أحببت فيها؟

تتشكل في ذهن الطفل صوَر مشوّشة لبلاد توجد وراء البحر، خضراء على مرّ الفصول، منازلها مبنيّة من الخشب، أسطُحها حمراء وشكلها كحدبة الجمل، ينطلق منها أنبوب مستطيل يخرج منه الدخان. وفي فصل الشتاء، ينزل من السماء مطر ليس كالمطر لأنه أبيض ومتماسك كالقطن يَفرح بقدومه الأطفال. داخل البيوت يوجد مكان اسمه المدفأة، فيه توقَد النّار ويلتفّ حوله الكبار والصغار، تحكي لهم جدّة كجدّتي قصّة جميلة عن رجُل طويل بدين، له لحية بيضاء وثَوب أحمر وعلى رأسه الأشيب طاقية بنفس اللون. هو يأتي مرّة واحدة في السنة عندما يشتدّ البرد ويُغطّي قطنُ السماء الجبالَ والبراري، ممتطيا عربة تجرّها حيوانات رشيقة كالغزلان محمّلة بالهدايا. ينزلق الجنيّ الطيّب داخل المدفأة محمّلا بخَيراته، ليكتشف أن الأطفال انتظروه طول اللّيل، لكن النوم أثقلَ جفونهم ثمّ أغلقها، فحملتهم الجدّة واحدا واحدا إلى فراشهم لا تعبأ باحتجاجٍ ضعيفٍ، مُحكِمةً الغِطاء فوقهم وطابِعةً قُبلة خفيفة على الجبين كما تفعل كل الجدّات.

متى قلتُ ل"ح" بلهجة التحدّي: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة بابا نويل. كان ردّها متوقّعا، بل يمكن القول إنني قرأته في ذهنها وهو يتشكّل: كل أدبكم كلام فارغ ما عدا قصة شهرزاد.

ومِن الغد ينقضّ الطفل على دليلٍ جادَ به القدَر ليفتح له طريقا جديدا في عالم تصنعه الحروف والكلمات.

- سيّدي! سيّدي! هناك كلمات كثيرة لا أفهمها وجئتك بقائمتها. سيّدي، سيّدي، سيّدي، سيّدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحنح الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيَذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلِمات...لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنّك ستكون من فئران المكتبات.

كم كان حَدس الرجل صائبا، اللهم الا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدسٍ وتوسّم خيرٍ، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدَتها "ما" وهي تروي حُلمها عن الملاك لِتمرير مشاريعها بالإيحاء بَدل الصراخ بالأمر.

فأر مكتبات؟ هل كان الطفل يرمي بكل كتُبه في المزبلة وهو يقرأ في صفحات كتاب الزمان كم سيكون سخيا حاصله من الأذى والوبال لجهله وتجاهله أن البشر يكرهون الحقيقة أكثر ممّا يحبونها، يفرّون أمامها أسرع ما يركضون وراءها، أنّ أكاذيبهم هي حقائقهم وحقائقهم أكاذيبَ، أنّه لا أثمنَ لديهم من خرافاتهم وأساطيرهم؟ هل كان سيُصاب بالهلع وهو يكتشف بعد عقود أن المعرفة تضع الذات أمام المرآة، فتصطكّ فرائص الذات من الرعب؟ أنها تعرّي "حقائق" وحقيقة القدّيسين والشيوخ والأبطال والقادة والغوغاء التي يسمّيها البعض "شعبا". هل كان بوُسعه تصوّر انزلاقه التدريجي نحو الخيانة بكل ما شَحنَه به مسيو فيدال من قيَم، وقد بدأت تداهمه في آخر عمره أفكار مخيفة حول أفضليّة التجهيل على التعليم، والتعميّة على التوعيّة، والمغالطة على المصارحة؟ وأنّه من الممكن ألّا نحتاج طِوال عبورنا العالَم إلّا إلى أكبرِ قدر من الجهل المريح والكذب المفيد والنفاق البنّاء والتضليل القويم.

ألم يكن الجاحظ مُحقّا في قَوله: "ومذهب صحصح في تفضيل النسيان على كثير من الذكر، وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عَيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء. ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلِم منه، والغافل

في الرجاء إلى أن يدركه البلاء". وهو الذي قال أيضا: "*وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكر منافعه وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرّقوا بينهما هذا التفريق، ولَما رأوهما بهذه العيون*".

**

في أحد الملفات تصرخ تفاحة التي ورثت من أبيها القدرة على إلقاء أغرب الأسئلة:

- "با"، كم هناك من الكلمات؟ ومتى سأتعلمها كلللللّها لأعرف كلللللّ شيء؟

يحدّق الطفل الذي أصبح أبا في ابنته بدهشة، تدافعت من أعماق الذاكرة كل الأسئلة الغريبة التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال العالق بلا إجابة منذ أكثر من ثلاثة عقود.

الإفلات بحيلة أو بأخرى؟ أم الثبات والمواجهة؟

- سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتبي كلماتك وسأكتب كلماتي وسنرى هل سنحصي كلللللّ الكلمات.

تكتشفنا تفيحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض. تحتجّ باكية لا تدري من خان ثقتها الأول وإلى من ستتوجّه بالتقريع.

- "با"، تفاحة شريرة تأخذ دوما أقلامي الملوّنة، أنت تحابيها دوما لأنها الأكبر.

وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك ساكنا، هي التي تتهمني دوما بأنني أحابي تفيحة لأنها الأصغر.

- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيّا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسنين فكّ الرموز.

تصرخ تفاحة:

- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، لتقرأ كلماتك أنت فقط.

- طيب، كل منّا يكتب قائمته وسنرى من الأطول.

تمسح تفيحة دموعها وتبتسم للّعبة الجديدة، تعلم أنها ستفوز بعلامات الإعجاب والحب...على الأقلّ من طرف"با". تضع إصبعها في فمها، تحكم نظارتها فوق أنفها وتتوكل على من يجب الاتكال عليه عندما يصعب الاستغناء عن خدماته. تأخذ في الخربشة وهي على ثقة أن قائمتها ستكون أطول قائمة.

تريني تفيحة قائمتها: بابا، ماما، لعب، جري، هرولة، كتاب، ضحك، دمية، عصا، رسم، أكل، نوم، خوف، حلوى، شكولاطة حليب، ماء طفلة شريرة، أخت كذابة، قط، حديقة، شجرة.

تصرّ تفاحة على عدم قراءة قائمة أختها وإخفاء قائمتها. تمسك بالورقة بقوة وراء ظهرها ترفض تسليمها لغيري. بنفس القوة أرفض لتفيحة وتفاحة قائمتي ولو لدوافع غير التي تحرّك البنتين.

يجب أن أؤكّد هنا على أن هوايتي- منذ نعومة الأظافر- جمع أطرف الكلمات وأغربها وأطولها وأجملها... آه، لو قيض أن أفتح لها بيتا أنظمها في قوائم حسب ذوقي...قائمة أسماء كلللللّ الآدميين الذين تتابعوا قبلي على الطريق...الذين يزاحمونني عليه...الذين سيتسارعون فوقه عندما أترك لهم الزمان والمكان... قائمة أسماء كلللللّ الأشياء والكائنات... قائمة كلللللّ المواقف والتصرفات... قائمة كلللللّ الكلمات التي لم يبلورها بعد فكر هذا الزمان... ألن يكون لديّ آنذاك وصفة العالم الآدمي... أو قل: العالم كما يعبره الآدمي... أو قل: العالم وقد وعى بنفسه من خلال الآدمي... أو قل:...

تصرخ البنتان: القائمة، القائمة ! رفض مطلق وكل ما توارد على الخاطر وتدفق من الوعي واللاوعي ...هذا:

انبطاح، جبن، خيانة، غدر، بوليس سري، كذب، نفاق، ذبح، هجوم، بناء، تدمير، اختلاق، تأوّه، انتظار، بكاء، سخرية، تجنّد، تبلّد، تحجّر، تكلّس، تطاول، تراجع، تقدّم، حبّ، بغض، انتقام، نحر، انتحار، عبادة، عبودية، استعباد، عبيد، عباد، كفر، صلاة، مقدّس، مدنّس، مطهّر، ملوث، يأس، جنون، سعادة، مرض، فشل، موت، استبداد، ظلم، تعذيب مخابرات، فساد، حماقة، غباء، هدر، ضياع، سلوى، سراب، وهم، خديعة، عبث، غريزة، وحشية....

- قرأت ما تكتب ...كلماتك قبيحة لا أحبها، لنحتفظ فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي.

الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة ...فسخ التي لا تروقنا؟ إعدامها؟ لعلّ وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!

بربّك أي كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني آليا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس كل الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوّث، حزب، قائد، إمبريالية، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية،

خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب. بربّك، أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل وأنها تزيد الطين بلّة.
تقول ماذا كنّا سنُبقي من الكلمات لتكون اللبنات الرمزية الوحيدة لعالمنا؟ دفء، نسيم، ماء، هواء، غذاء، طبيعة، جمال، صحة، موسيقى، حبّ، أطفال، تعاضد. تعال اسكن عالما لا توجد فيه إلا هذه الكلمات وأخواتها اختفت كلّ الكلمات البشعة لغياب كل الذي تسمي. رجاء لا تذع السرّ لأتمتّع وحدي وإياك بإعادة صياغة واقعنا المقيت.
السؤال: لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلّفة في تنظيفه، هو الذي يشتكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجرّة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الآدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو. قد تكون هناك أسباب أعمق، فالكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلاّ وانهار الصرح بأكمله. ربما ثمة سذاجة صورة النصّ نفسه للكلمات وعلاقتها بما تشير إليه؟
هي تفترض أن العالم لا ينبثق في الوعي ولا يصبح موجودا إلا عبر الاسم لأن القاعدة أن العين لا ترى إلا ما تسمّي ولا تسمّي إلاّ ما ترى. نحن لا نبصر فقط بخلايا قرنية العين وإنما أيضا من خلال "قرنية" اللغة. ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد. يضحك مرافقي ابن هذه الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والثلج. أعابثه بدوري: يوم تزور صحاريّ الصفر ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها.
أنظر من علوّ الجبل إلى صفحة الماء الخضراء تحت قدمي وسط غابة استوائية مترامية الأطراف، فلا أرى إلا بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة حتى أرى تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا. لكن رجل "المايا" يرى في هذا المكان باب "الشيبالا" أو العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. من هذا العلوّ كان أجداده لا يرمون صفحة الماء إلا بالأطفال والعذارى قربانا للآلهة. هذا الرجل يرى العالم، أو على وجه التحديد يفهمه ويفسره في أهم علاقاته معه، بغير الطريقة التي أتفاعل فيها معه لأن شبكته من الكلمات التي تسمّي وتصف وتشير إلى الأشياء غير التي أملك.
قدر الآدمي أن تكون له عن هذا العالم صور متشابهة وتصورات متباينة. شمس آدمي اسمه "أخناتون" إله يُتوجه له بالعبادة ونفس الشمس جرم سماوي أشبه بقنبلة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه "اينشتاين".
كيف نمرّ من الصور المتشابهة إلى التصورات المتباينة؟ دوما دور اللغة التي ندخلها وتدخلنا باكرا وكل كلماتها مشبّعة بتصورات الأجيال التي عبّأتنا بمفاهيم واعية وأخرى لاشعورية.
ثمة تواصل خلق التصورات تتجاوز تصورات الأوائل بالإضافات والتحسين.
تقنية أخيرة هي التزييف حيث يتمّ بكل وعي إسقاط معلومة قديمة واختلاق معلومة أخرى وإعادة تنظيم المعلومات بإبراز البعض والتعتيم على البعض الآخر. أكبر الأخصائيين في هذه "الرياضة" مؤرخو الملوك والقضايا "المقدسة". هكذا فبركوا تصورات مكّن تسويقها من خلق شعوب مختارة وأمم خير ما أخرج للناس، وأعراق صافية وأوطان ودول ما كان لها أن ترى النور لولا سحر التصورات التي كانت وراء ولادتها.
عامل آخر: المزاج. شتّان بين تصورات المصاب بالكآبة الحادة وبين ما يخلق ويشيع العاضّ بنواجذه على الدنيا. ثمة أيضا مزاج المجتمعات في لحظة ما، وهل هي في فترة بناء أم هدم، مدّ أم جزر، تفاؤل أم تشاؤم.
التصوّرات، إذن، مواد مصنعة وراءها فكر يعالج المعطيات التي نتلقاها من العالم. هي تنظيم معيّن لمعلوماتنا عن شيء أو كائن أو حالة ما. هي ما نعتقد في لحظة ما بخصوص ما نرى وما نسمع وما نشعر به وما نعيش من أحداث. هي منبع أفعال وتفاعلات كلها مرتبطة بها حتى وإن كانت كل تصوراتنا لا تتحول ضرورة إلى أفعال. هي ما نكره تغييره حيث في الأمر كلفة كبرى تتطلب إعادة تنظيم جذري لملفاتنا كما يحدث عندما نعتنق ديانة جديدة، أو عندما تضطرنا تجارب أليمة لمراجعة نظرتنا إلى أنفسنا أو إلى الآخرين. ثمة ضرورة قاهرة لنصدّق تصوراتنا كما نصدّق الصور التي تنطبع على قرنية العين، وإلا استحال القرار أو تغير طول الوقت بصفة تزيد من أخطار الطريق. لا غرابة فيما نظهره من شراسة للدفاع عنها وهي زادنا في مواجهة التعقيد.
مؤكّد أن هناك عوامل أخرى تتضافر بكيفية تستعصي على التحليل لصنع هذه "النظارات" التي نرى بها العالم وأنفسنا من خلالها والتي بدونها لا نرى إلا عجينة من الأشكال والأحداث.
مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم أي داخل تصوراتهم، لكنت تسمع -خاصة ليلا- حفيف أجنحة الجنّ والعفاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات، ولا أتحدّث عن العبيثة... واليوم أنت لا تسمع إلا طنين البعوض.

"قمر من طحين (محمد برهان)
ونجوم منثورة كحبات السمسم
إنها السماء للجائع"
الفضاء الحسي إذن ليس معطى مجردا وواحدا بالنسبة إلى كل الآدميين، وإنما فيه اختلافات جذرية تتعلق دوما بما "تراه" بصيرة صنعتها اللغة. تسألني هل أقصد أن الأمّي الذي لا يملك مفتاح الحروف، ومن ثَم القدرة على رؤية الكلمات التي ترى العالم، أعمى لغوي يعبر بالضرورة عالما مبتورا كعالم المبصر الذي كنت أريد أن أشرح له الألوان. بالضبط. تمعن في المعاني الغنية لرواية تشيكية هي الوحيدة التي تناولت بصفة جدية موضوع العمى أو الصمم اللغوي.
أنت أكبر عالم لسانيات تنزل نتيجة خطأ تقني ما مطار مدينة لم تقصدها وتكتشف أنك لا تفهم لغة أهلها. في البداية تظنّ أنك ستجد بسرعة من يتكلم لغة مشتركة فتصلح وضعك. تكتشف غير مصدّق أن لا أحد يفهم كل اللغات التي تعرف وأنك لا تستطيع تحديد أصل هذه اللغة التي لا تشبه لغة معروفة والحال أنه لا اختلاف يشدّ الانتباه لا في طبيعة المدينة الغريبة ولا شكل البشر الذين تلاقي. مدينة من العالم ...ناسها ككل البشر لكن لهم لغة لا تشبه لغة بشرية. المهم في النص متابعتنا الدقيقة لك وأنت تغوص في كابوس وكل الأفعال التي تقوم بها تؤدي إلى تعقيدات لا متناهية، وكل الأفعال التي تأمر بها تؤدي إلى مضاعفات أغرب. رويدا رويدا، تنتبه إلى أن الأشياء التي تعودت عليها، تبدو محملة بمعانٍ لا قدرة لك على فكّ أحاجيها. ثم تدخل في حالة شلل فكري حادّ وفوضى حسية شعورية تقربك بأسرع مما تودّ من الجنون. المخرج ما ينصحك به كاتب النص؛ وهو الفرار بجلدك وبما بقي لك من توازن بحثا عن عالم لا يكون إلا شراكة بين البشر، والأداة الوحيدة هي اللغة.
إنها أسهل المهمات. ثمة ما أهمّ وهي المشاركة في خلق العالم. فوظائف الكلمات الأساسية تثبيت المظاهر التي تبلورها الحواس باستخراجها من المبهم الأصلي...جرد ما استطعنا من هذه المظاهر... إضفاء الوظيفة والمعنى عليها انطلاقا من خصائصنا ورؤانا وتصوراتنا وحاجياتنا... إضافة حالات جديدة إلى شمس الشاعر كأن نجعلها تدمي من جنبها عند الغروب...نفخ الروح في كائنات مبتكرة كالآلهة والشياطين لا وجود لها في فضاء الحواس.
قد تحتجّ عليّ بأنه الموقف الذي ينعت بالمثالي عند نمط من المفكرين وأن هناك من يقولون بالعكس ويسمون أنفسهم ب "الموضوعيين" لاقتناعهم بأن العالم موجود كواقع مستقل عن اللغة والدليل على ذلك أن "الشيء" لا يتبخّر إن نحن ألغينا من القاموس الكلمات التي تعرّفه، وأنه موجود وإن جهلناها وحتى بعد رحيلنا.
الكلمات في تصوراتهم كأوراق النقد التي نحبّ أن تملأ بها حافظاتنا... مجرّد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر الذهب الذي في البنوك أو المواد التي نتبادلها بها.
تصوّر منطقي، ومع هذا يبقى هذا الباقي بعد الحرق، دوما بحاجة إلى واسطة ما ليصبح موجودا بالنسبة إلى المتكلّم وقادرا على التأثير عليه، وإلا لكان وجوده -بالنسبة إلى كائنات أخرى أو إلى فكر كامل كالذي نتصوره خاصية من خصائص الله- والعدم سيّان. هذه الواسطة كلمات. القانون كان وسيبقى أن ما تبلوره حواسنا وما تعيد خلقه اللغة انطلاقا منها أو اختلاقه باستقلالية عنها، هو عالمنا وما عداه...إما بلا وجود فعلي وإما كلمات أخرى لا غير.
إذا كانت اللغة الحاسة السادسة فلا بدّ من إقحام معطى جديد في محاولة فهم طبيعة العالم الذي نخلق ونختلق: دقة الحاسة ومداها. بما أنه ثمة قصر نظر عند الكثير من الآدميين وعلى رأسهم كاتب هذه السطور، فلا بدّ أن منهم من يعبر العالم بقصر نظر لغوي. أي نظارات غير مزيد من الكلمات؟ وفي المقابل، هل ثمة أخطر من السراب الذي تصنعه الكلمات؟
بداهة اللغة ليست مسجّلة ترجع الصدى الذي تعكسه الحواس الخمس الأولى. هي طاقة خلاقة أخرى تعيد صياغة انطباعات الحواس. هي تضيف إلى الكائنات الحسية التي ترصدها بالاسم كائنات فكرية مثل الكرامة والعدالة والتقدم والمدينة الفاضلة والنسبية العامة والماضي والحاضر والمستقبل والزمان والخلود وكلّها غير موجودة في المطلق أو في تجربة الحيوان والشجر.
هكذا تهندس عالمنا الآدمي في جزء كبير وهامّ منه. هكذا تحدّد طبيعة ودرجة وعينا به، لا لشيء إلا لأنها توفّر لنا مصطلح الوعي نفسه. نعم، اللغة مثل شبكة الصياد، لكنها شبكة تعيد تشكيل السمكة التي علقت في حبالها... بل وتخلق أحيانا الأسماك التي تصطاد.
يتم الاتفاق على أنه ليس بوسعنا نحن الثلاثة، حتى وإن تركنا المهاترات جانبا، جرد كل كلمات القاموس وإضافة التي فاجأته بعد آخر طبعة. يجب المرور لإشكالية أخرى قد تكون أسهل فهما.
- "با"، لماذا هناك لغتان وما هو الاسم الصحيح للشمس؟
من حسن الحظّ أن خصام الآدميين لم يصل بهم إلى حدّ فرض الاسم "الحقيقي" لمصباح النهار، وهل هو شمس أو صولاي. تكفي خلافاتهم العبثية الأخرى مثل صراعهم الدامي حول اسم من خلق هذا العالم، وهل له صفات الحيوان أو البشر.
- لا أعرف، يا بنتي. ما أعرفه أن هناك آلاف اللغات. تصوري وجع الرأس لو حكم علينا جمع كلللللّ كلمات كلللللّ اللغات.

- لكن، لماذا توجد أسماء مختلفة لشيء واحد؟
- ربما لتنبهنا الأشياءُ بهذه الطريقة الخبيثة إلى أننا نستطيع أن نطلق عليها كل الأسماء الممكنة ولا يستنفدها أي واحد منها، أنها دوما فوق وخارج الأصوات التي تشير لها.
- "با"، أنا أفضل كلمات لغتنا فهي أسهل لأننا لسنا بحاجة إلى حفظها وتذكّرها.
- فعلا "شمس" كلمة سهلة في لغتنا، وهي كذلك بالنسبة إلى الأطفال الذين ينطقونها "سان" في لغة أخرى. هل انتبهت لمغزى قولك إن شمس كلمة... سهلة؟
تصرخ تفيحة وقد فهمت قصدي حتى قبل أختها الكبيرة:
- الكلمات تحبّ أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلّم وتلعب وتتخاصم.
حقا؛ ما ألذّ التفلسف طفلا! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!
"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها *(روبرتو جيواروز)*
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"
- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضا بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة كلمة طقس مثلا؟
- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛ الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!
- بالضبط، إنه الوصف وهو بعض الحالات الممكنة للطقس.
تتدخل تفيحة، تحاول استعادة الكرة:
- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.
تفتعل تفاحة الترفع عن الجدل مع حمقاء لا تتجاوز سنتها السادسة. ثم تنفجر:
- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.
أكتب أم لا أكتب: الحياة مدبرة، الكائنات مفزعة، المصائب ممطرة، الأخبار مضلّلة، الأوهام متكاثرة، الغباء مستفحل، الشرّ مزمن. إنه يوم مزاجي فيه بالغ السوء كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذه الأمة التي أصابني الانتماء إليها بالإحباط، وهذا العالم الذي لا أفهم كيف يتواصل بهذه الحيوية الصاخبة وهو مثخن بكل هذه الجراح.
تتطوّر الخناقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يا إلهي، لم أغفل عن الشقيتين إلا بضع دقائق لتدخين سريع في الحديقة. يجب العودة إلى بدء المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
- والآن، ما الذي ينقص الكلمات المتزوّجة لتظهر الأحداث التي نصنع منها القصص؟
- الأفعال، الأفعال!!
لنقترح على الطفلتين لعبة القائمة وأي قائمة ستكون الأطول
تصرخ تفيحة بالموافقة.
- "با" أنا من سأكتب كلللللللّ الأفعال.
آه يا بنيتي، كم من أفعال لا أتمنى لك معرفتها، لا اليوم ولا في أي من الأيام!
أترك الطفلة تخربش أفعالها غير منتبهة إلى أن التي نستطيع رصدها لا تساعد في الرد على سؤالها.
تصرخ فيّ تفاحة أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها.
نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟
ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي؟: جرى، ركض، صارع، ناضل، صرخ، غضب، سافر، ناقش، خاصم، صالح، كذب، نافق، أخفى، موّه، صارح، شتم، قرأ، كتب، حاضر، فاوض، كابر، فرض، تنازل، قاوم، تراجع، تقدّم، قيّم.
قيّم! ... يمكن للمرء أن يقيّم صحته صوابا فلا يكثر على الأطباء ولا يقلق نفسه، ويمكنه أن يقيّمها غلطا فإذا به مرض الوسواس... يمكنه أن يقيّم حالة علاقاته الاجتماعية فيفرز بين الأصدقاء والأعداء لا يمزج أبدا بينهم، كما يمكنه أن يقيّم خطأ ما يهدده من أخطار أولئك وهؤلاء فإذا به مرض البارانويا... بوسع كل فعل إذن أن يكون صائبا فيصيب مرماه وأن يكون خاطئا فلا يصيب إلا الرامي.
على فكرة. أليس بديهيا أننا لو كتبنا كلللللّ الأفعال التي نفعلها في العالم وكلللللّ التي يفعلها فينا لحصلنا على قائمة العلاقات الممكنة التي تربطنا بذاتنا وبالذوات الأخرى وذات العالم نفسه ...على فرض أننا أمام ثلاثة مظاهر مستقلة. أليست هذه الأفعال

والتفاعلات حالات طيف خارطة ما يسميه البعض "الطبيعة البشرية" بما هي قائمة الاستعدادات الفطرية والثابتة لتفاعل الآدمي مع العالم... مما يعني أن اغتصب، حرق، دمّر، استبدّ، حارب، نكّل، عذّب أفعال لن تتبخّر بقدرة قادر في العصور الذهبية التي تحلم بها الرؤى المتفائلة، وأنها باقية بقاء الأفعال الجميلة التي يحبها أهل الأخلاق والدين. من الأحسن هنا أيضا عدم مصارحة الطفلتين بالأمر... على الأقل ليس الآن.

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يموّه على الناس بافتعال الجدية والوقار.

قرّع ... أمر ...فرض، أفعال أعدكم أن أضعها هي الأخرى على قائمة الإعدام، المشكلة ماذا سأفعل يوم أكون بحاجة لها؟

ثلاثة أفعال مضمونة الفشل على الدوام: أن تسيطر على الآدميين، أن تحسّنهم، أو أن تهرب منهم.

قد تكون استحالة الفعل الأخير أشدّ ما يضايقني. مثلا، أنت لا تستطيع خيانة زوجتك إلا مع امرأة أخرى، وكل امرأة تخون زوجها لا تستبدل في آخر المطاف إلا وغدا بوغد آخر ووهما بوهم جديد وأملا ضائعا بأمل سيضيع.

افرض أنك تريد الاختفاء في غابة لم يكتشفها آدمي. ها هم كلهم داخلك يتصارعون. لا تحاول الاعتكاف في دير لأن الرهبان كلهم بشر وحتى الذي يعبدون مجرد آدمي رقّوه لرتبة إله بعد أن نكّلوا به أبشع تنكيل.

أما عن السيطرة عليهم فأسأل كل المستبدّين الغارقين في دم قتلاهم والاعداء الأحياء يتوالدون من الأعداء الموتى إلى أن يلحق دمهم بدم ضحاياهم. وبخصوص إصلاحهم، اطلب رأي الأنبياء والثوار وكل المصلحين الذين تتابعوا على مرّ التاريخ. المساكين! لو لم يظهروا ولو كفّوا في المستقبل عن التوالد لما زادت أوضاع البشر لا سوءا ولا تحسّنا.

عودة لسؤال تفيحه وصعوبته وقد هدأ الضجيج بتنفيذ الأفعال التي أمرت بها "ما".

هل يمكن تطويق الصعوبة بتنظيم كل أفعالنا إلى فرعية وأساسية؟ هل هناك بينها فعل هو زبدة الزبدة وبالتالي هو الذي فيه الردّ على السؤال؟ عموما ما أهمّ الأفعال في قائمة القوائم لو استطعنا فعلا رصدها كلّها. تأتيني تلقائيا صورة الشجرة، وهي التي أستنجد بها كلما تشعّبت سبل الفكر والخيال. تستحوذ عليّ صورة فعل-بذرة تفرعت عنه كل الأفعال.

إنه بطبيعة الحال أول فعل. هل هو وُلد؟ حتى أول فعل حصيلة جملة طويلة من الأفعال. ما الذي فعلت الذات قبل أن تولد؟ ما الذي ستفعل بعد أن تتوفّى؟

غريب أن تبدأ قائمة الأفعال بفعل غامض وتنتهي بفعل لا يقلّ غموضا! على كل حال لا يمكن اعتبار وُلد الفعل-البذرة لسبب آخر هو أن كل الكائنات تتشارك فيه، ونحن نريد الذي يجيب عن سؤال ماذا يفعل الآدميون بالتحديد، أي في آخر المطاف بماذا يتميزون وما الذي يضيفون إلى الكائنات التي تتابعت على سطح هذا الكوكب؟ فكّر، تكلّم؟ أي دليل أن الكائنات الأخرى لا تفكّر أو أنها لا تتبادل بينها المعلومات بغير الكلام؟

ماذا لو جربنا ضحك، عذّب، ضارب في البورصة... ربما.

تعضّ تفيحة على لسانها وهي تصفّق الأفعال. يصفّف الأب على كنّاشه حصيلته هو منها. يعضّ على لسانه هو الآخر وقطع "البوزل" مفروشة أمامه تتحداه بالفوضى المنغلقة على نظام ما يزال للاكتشاف. تتناثر النجوم في السماء في فوضى رهيبة فيطوّعها الخيال ليرى المنجمون طيورا وأسودا بل منهم من يكاد يسمع صهيل الحصان يتعالى من جزء محدد من قبّة الليل.

لا ألبث أن أرى مثلهم أفعالي تصطف وفق شكل ما زال يتلمس الشكل ثم تنتظم كالكواكب حول الشمس...حول بذرة كل الأفعال... أولها والذي دونه لا تنطلق السلسلة.

نعم أيّ فعل من هذه القائمة الطويلة جدا هو الفعل الجُذر الذي أعطانا الشجرة التي أعطتنا أغصانُها كلَّ الأفعال التي نفعلها. هل هو فعل "وَلد" أي أعطى الحياة ومن ثَمّ "وُلد" أي تلقّى هذه الحياة التي ستنطلق منها سلسلة الأفعال وآخرها "مات"؟ لكن ما الذي فعلت الذات قبل أن تولد؟ وما الذي ستفعل بعد أن تتوفّى؟ غريب أن تبدأ قائمة الأفعال بفعل غامض وتنتهي بفعل لا يقلّ غموضا! على كل حال لا يمكن اعتبار ولد-وُلد الفعل-البذرة، لسبب آخر هو أن كل الكائنات تتشارك فيه، ونحن نريد فعلا يتميز به الآدمي عن كل الكائنات الحية ليشكّل وجوده إضافة ما ويعطينا حتى سبب هذا الوجود.

فكّر، تكلّم؟ أيّ دليل أن الكائنات الأخرى لا تفكّر أو أنّها لا تتبادل بينها المعلومات بغير الكلام؟

ما أغباني، بذرة كل الأفعال أولها والذي بدونه لا تنطلق السلسلة هو... نعم، لا مجال لغير هذا الفعل الزاخر بكل الإمكانات.

مهلا، فالنص ما زال في بداياته وعليّ أن أصل لأبعد نقطة ممكنة في مغامرة الاستكشاف قبل أن أنشره بين الملأ معلنا بكل ثقة أنّ فعل الأفعال بما لا يترك مجالا للشك والجدل هو...

**

في ملفّ آخر هو الآخر مكتوب عليه بالأحمر الغليظ: هامّ للغاية، يصرخ "با": هذا الولد سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربّين أطفالي؟!

متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس "ما" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس "با" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطُّعم للفأر. كانت أولى محطات الإقلاع التي وَجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سِحري أصبح له الملجأ والملاذ.

يصرخ الأخ الصغير في أمه: "ما"، إنه يقرأ في المرحاض وأنا سأتبوّل في سروالي. قولي له أن يخرج حالا. تدقّ "ما" الباب بإصرار، فيخرج الطفل مُكرَها من مكان كان يظنه آمنا بعد طرده من "الوكر".

حتى أعصاب "ما" قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عُهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلّم، قل له: سيّدي، أطعه... إلخ.

يستشيط المعلّم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكِتاب مُصادَر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واذهب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرها، يواصل ووجهُه إلى الحائط. تخيّل أحداث القصة التي كان منغمسا فيها.

تتدافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها "الهند" لا يعرف عنها شيئا. ولأنّه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصّة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعا تصل إلى السحاب ومآذنُها الشمسَ والقمرَ، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا طفل يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل بفراشه متنفسا الصعداء، لقد تخلّص أخيرا من المتصدّين لحقّه في الاختلاء بنفسه وبالكتاب، الحبيب الوحيد الذي لن يخونه طوال حياته والذي لن يلقَى منه إلا نفس الوفاء. اللعنة على هذا النوم الذي يثقل جفونه، لو يستطيع مواصلة القراءة وهو نائم!

يرتفع صوت "ما"، وفيه الآن نفادٌ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثا، لن تمنعه حتى "ما" من المواصلة.

القصة التي تشغل كل وعي الطفل هذه الليلة عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكمنا" إلى عمق الغابات بعد أن أَجبرت الملكة الشريرة زوجَها على نفي ربيبها هذا ليخلوَ العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبكي "سيتا" قومَها ووطنَها، لا تخفي رُعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

"سيتا"! "سيتا"! خطفوا "سيتا"، خطفها "رافانا" اللعين!

إنه أوّل امتحان للطفل وقد تقمّص الدور، أو قُل تقمّصه الدور. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد المُلك إلى صاحبه والأمورَ إلى نِصابها والعالَم إلى توازنه المفقود.

- "ما"، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأوّل على الأقلّ، أرجوك.

- طيّب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيتك تقبّل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمّه أنّه واثق أنّ قبلاته عبرت حاجز الورق وتسللت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد.

آه يا سيتا، يا "جاناكي"، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمة الحياء والخجل، يا رقّة الفجر، يا وداعةً، يا طُهرا، يا مَلاكا على الأرض مَشى. يا أوّل حبّ، ف "سيّدتي" كانت مجرّد هفوة.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. سأطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إنّ "ما" لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكمّمة الفم، معصوبة العينين والحبل يقيّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقه وتوهّم ما شئت. سآتيك بالخبر اليقين.

- يا بنيّ، الكتاب لن يهرَب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربّما تتهدّدها أشياء أخرى أفظع بكثير؟ لا تقدّر "ما" كم هي حَرِجة هذه اللّحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّدا، والقراءة باللّيل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزا عليكِ فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليط اللسان حتى مع أمّك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن "ما" تفهم أحسن منه. هل كانت لتَقبل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من "واقعها": لا تقلقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركيه، على كل حال هو لن يستمع لكلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككل "الأبرياء"، وهم مَن نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث.

كانت تظنّه نائما وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبّئه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة والطفل هو المخرج والمنتج والممثل، يتصرف في السيناريو على هواه. ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولا إرهابي، أصرخ فيه فتصطكّ فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيّق عليه الخناق في كل مجرّة. تكشّر السماء عن أنيابها وقد توسّطتها شمسٌ بِلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيَلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيّالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم. آن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملفّ، فليس هناك رافانا واحد أطهّر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللّعين: آه يا راما، قتلتني لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرّجا بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسما مديرا رأسي يمينا وشمالا أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أُخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثمّ أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص أخرى لمسيو فيدال. أوووووووه ،.، أنا راما. أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا يفعل الكبار بعد إطلاق سراح الحبيبة؟

يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلّا الجزء الجميل من الملحمة، وأنّهم أخفَوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الآدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمَتك رائحتها النتنة.

إنه أيضا العمر الذي تحضر فيه الأسئلة الكبرى فيجد لها الطفل كل الحلول في خصب خياله كما فعل قبله الأطفال من كل الأعمار .

ومن مشاغله تلك الأيّام التي عَرف فيها وهو معاقب في القسم أوّل مرّة تجربة النفي، بَلورةُ أولى نظريّاته عن العالم لخّصها في رسم كان يعود إليه طوال الوقت بالتلوين والتحسين.

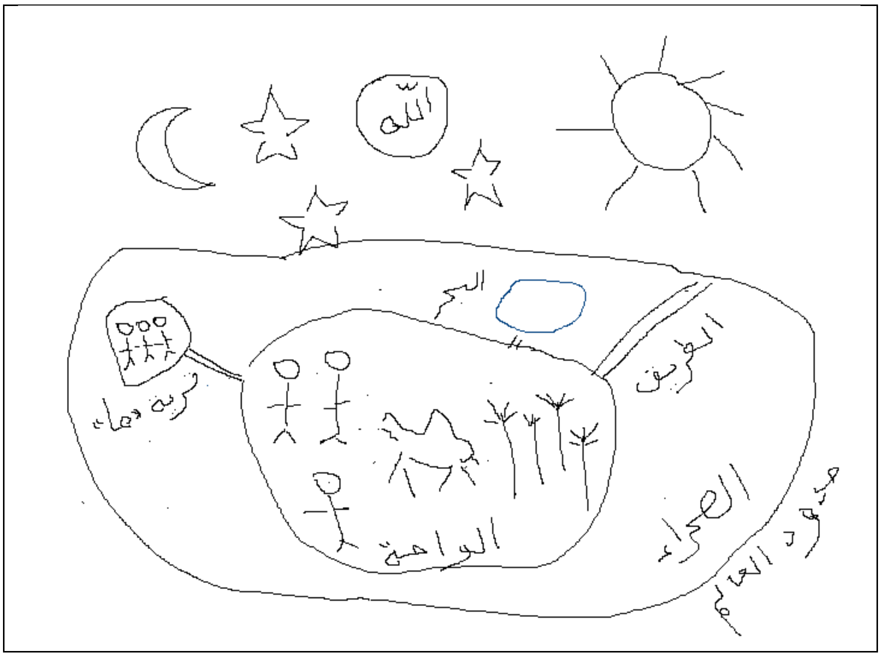

العالَم إذن -مما لا يدع مجالًا للشكّ في هذه المرحلة من رحلة الطفل-طَبق صلب أفقيّ جلُّه أصفر اللّون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّثه الدليلان عن وجوده، وبُقَع خضراء صغيرة متناثرة هي غابات زيتون أرض جدّته، ومركزه واحة الأب والجدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقيّة الكائنات والأشياء ثمّة قبّة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحنا أجوفَ من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبّة تتجوّل الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسيٍّ ضخم اسمه ”العرش“ شيخُ كلّ الشيوخ الذي هو اللّه. بين قبّة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حينِ تَسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم ”با“ و”ما“ والجدّ والجدّة والعمّات والأخوال والجيران وركّاب الحافلة والقطار تَصحبهم القطط والكلاب والماعز والحمير والبعير والخرفان والبقر، وهم أنواع خاصّة من الجيران والأقارب. من مركز العالَم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يَسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافَتَيه ثمّة مدنٌ وقُرًى لا يُعرف لها عددٌ، لكنّها كثيرة وحتى بأعداد تفوق كل توقّع. أمّا الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، من بينهم ”العبيثة“.

يُمعِن الطفل النظر في رسمه فيعود إليه الشكّ لينغّص عليه متعة النصر. ثمّة شيء هامّ ينقص، لكن ما هو؟ آه، الآخرة طبعا، التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه! هل يُعقل أن ينسى مَعلَما كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله أم على يساره؟ يجرّب فكرته ثمّ يسارع إلى التخلّي عنها إذ لا تستقيم مع بقيّة المعطيات. يتذكّر فجأة أنّ الآخرة حسب قول ”ما“ هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميّت حفرة في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللّعب معه وسرقة لوز الجيران؟ إذن، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقا لما سمع من ”ما“ التي لا تكذب أبدا، فهي مكوّنة من الجنّة والنار. يرسم الطفل مربّعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان الإقامة الأخير. المربع الأوّل أخضر اللّون لأنّ الجنّة كما تقول ”ما“ واحةٌ خصيبة، ولو أنّها أكبرُ ونخيلُها أعلى وميّاهها أوفر وأعذب، يذهب إليها من عَمِلوا الصالحات. أمّا المربّع المقابل فهو أحمرُ بلون النار المخصّصة لشواء لحم الكفار والمعلّمات الشرّيرات.

يجيل الطفل البصر في عالَمه راضيا عن عمله وقد اكتمل ووَجدَت فيه كلُّ المكوّنات مكانها.

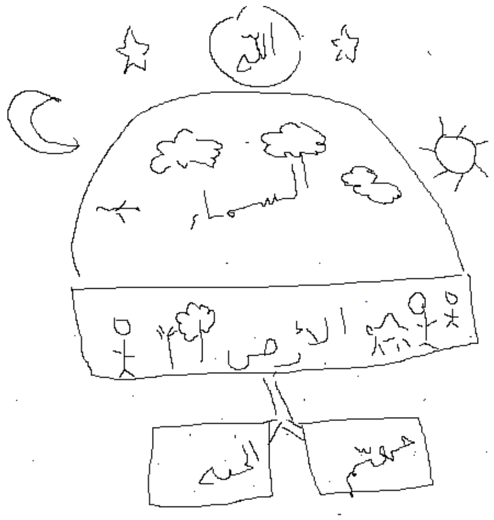

آخر معضلة كانت المكان الذي يَرحل إليه عند النوم. هل هو جزء من الآخرة أم من الدنيا؟ يغرق في تساؤلاته ثم يغلق الموضوع مرجئا حلّه إلى حينٍ يكبر.

لم تبقَ إلّا مشكلة الزمان وينتهي الطفل من فهم تركيبة كلللللل العالَم الذي وَجد نفسه مَحشورا فيه كالفار بين أرجل الفيَلة. الشرّيرة، الغبيّة، الكذّابة! لم تنتبه لتضارب معلوماتها. ما معنى أن يكون لليوم تاريخان: واحد هجريّ وآخر ميلاديّ؟ كيف يكون هناك زمنان، والحال أنّه ليس هناك شمسان ولا قمران؟ كيف تبدأ السنة مرّة من "الهجرة النبويّة" وأخرى من "ولادة المسيح"؟ ثمّ ما معنى الحديث عن أفعال ما قبل الهجرة؟ كيف يمكن للأحداث أن تقع قبل بداية الزمان الذي بدأ به العالَم وكل الأحداث؟

لتذهب هذه الشرّيرة إلى الجحيم! مؤكّد أنّها لا تعرف متى ستقوم القيَامة. وهل يا تُرى سيحدث الأمر حسب زماننا أم في زمان الكفّار؟ حسب زماننا طبعا، فإلهنا هو الإله الحقيقيّ. ولكن في أيّ سنة بعد الهجرة؟ إجابة متروكة للكِبار. وفي أيّ يوم؟ بالتأكيد سيكون يوم الجمعة لتواجد كل الناس في الجوامع، مما يسهّل على سيدنا عزرائيل إلقاء القبض عليهم جملةً.

والآن متى بدأت البداية؟ طبعا كما اتفق مع "ما" أوّل يوم في الربيع، في الصيف، في الخريف، في الشتاء. لكن أيّ يوم بالضبط؟! الجمعة مخصّص للقيامة، السبت يوم الكفّار اليهود، الأحد يوم الكفّار النّصارى، الثلاثاء والأربعاء والخميس أيامٌ بليدة لكثرة العمل فيها ولا واحدٌ منها يستحقّ أن يكون يوم بداية للعالم. لم يبقَ سوى يوم الإثنين، إنّه دون شكّ يوم الخَلق، خاصّة أنّه أوّل أيام الأسبوع.

لكن، ما الذي كان موجودا قبل أوّل يوم اثنين؟ وماذا سيوجد بعد آخر جمعة؟ ما أصعب موضوع الزمان هذا! لا خَيار غير تركه هو الآخر لحين يكبر.

كم كان سيدهش وربّما يُحبط لو أسرّ أحدٌ في أذنه أنّه لن يكفّ، حتى وهو على وشك تجاوز آخر مفترقات الطريق، عن تدبيج نماذجه وتمزيقها الواحد تلوَ الآخر، لا منهم ما قبِلَه العقل كلّيا أو اطمأنّ له الفؤاد تماما؟

هل حدثْتُك وقد أصبح الطفل مراهقا عن صداقته الحميمة مع راسكولنيكوف والأمير مويشكين والمسكين إيفان كارامازوف، رغم سوداويةً أخذوها من خالقٍ اسمُه دويستوفسكي أرهقه الصراع والصرع؟ هل بُحتُ لك بعشقٍ دامَ سنوات طويلة لامرأة خلقَها خالق اسمه تولستوي. آه منكِ يا ناتاشا، يا ولَهَ الصبا، كيف فضّلتِ عليّ بيار بيزوكوف وتزوّجته بدلي؟ حتى أنت، يا عزيزي بيار، ترفض هُيامي المتصدّي لكل قوانين السَّير المنظِّمة للعوالم. طيّب، سأقبل عتابك وأنت من أعزّ أصدقائي والصديق لا يخون صديقه؛ فعفوا ومعذرة.

كيف يمكن لكائنات لم توجد إلا داخل الكتب أن تفعل فينا فعلها العميق، تلعب في توجيه حياتنا دورا أخطر بكثير مما يلعبه آدميون من لحم ودم؟

بوسع القراءة إذن إلغاء الحاجز بين الواقع والخيال. كيف لا، وهي التي تَعلم أصدق العلم أن عالمنا مصنوعٌ من هذا وذاك. بوسعها أيضا القفز فوق حاجز كَثرة الآدميين واستحالة الوقوف عند مسيرة كل واحد منهم، وذلك عندما تفتح لنا الفضاءات المغلقة لأغرب النماذج أو لأكثرها انتشارا. هكذا نستكشفهم عبر نصوص الشعر والأدب والسِّيَر الذاتية، ونحن بأمان لا نُتَّهم باستراق النظر من ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس.

وإبان هذا التجوال في الذوات الأخرى، يمكننا التأكد أيضا أننا نختلف عنها... ولا نختلف كثيرا، فنطمئن لكَوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا مَنفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر ضياعا من بقية البشر.
تبقى القراءة رغم كل إمكانياتها حَلّا منقوصا. صحيح أنها توفّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي، أو طَرق باب كل ذات تثير فضولنا، أو الانطلاق من الصفر في إشكاليات تَقدَّم التفكير فيها بعيدا.
لكن كم من نواقص لا ينفع الإدمان في تجاوزها بل ويزيد طينها بلة!
ثمة في البداية أنها لا تعوّض التجربة، والويل لمن يحاول أن يجعلها بديلا لها... أو مهربا منها.
ثمة أنها تجمع بعض أجزاء "بوزل" العالم، لكن قِطَعها القليلة المتناثرة نادرا ما تأخذ شكلا مَرضيا. أضف لهذا أنه لا نهاية لها لأنه لا نهاية للعالم الذي ترصد أو للذات التي تريد سبر أغوارها.
هذا ما يجعل كل كتاب نقرأه بمثابة مفتاح نعمله في باب، يفتح لنا فضاءً مغلقا بسبعة أبواب. وكل باب نفتحه بنص جديد يفتح فضاء بسبعين بابٍ. فنتقدم بالقراءة ونحن مثل من يتبع شعاع مصباح يضيء بضع خطوات أمامنا... وكل ما حولنا، وبعيدا أمامنا، مناطق غارقة في الظلام.
مفارقة القراءة إذن أنها تزيدنا جهلا كلما زادتنا علما، أنها تعمّق وعيَنا بجهلنا فيأتينا يوما الإحباط والهلع. لذلك يفضّل البعض النصوص المغلقة التي تدعي حمايتنا من الدوار.
الأخطر من هذا كله أن بوُسع القراءة أن تضللنا، أن تقودنا إلى مسارب لا تفضي، أن تجعلنا نركض وراء السراب.

*

يكتشف الطفل يوما بوّابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم.
يتوجّه المعلّم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر:
- يوم الأحد المقبل سنذهب جميعا لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة السينما.
عرض؟ سينما؟
ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عمّا يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبّعة مهرّج ضخم اسمه ”العالم” لا ينفكّ يُظهر عضلاته ليزداد به الآدمي تعلّقا وإعجابا؟!
يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطا شاهقا تتجه إليه الأنظار تَوجُهَ المصلّين للمحراب. يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيّا وغرَق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينفع فيه صراخ المعلّمين طلبا بالهدوء والصمت. وفجأة يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحرّكه، يواجَه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطًّى من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميّين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصّة كالتّي يقرأ في الكتب. ترتسم على الحائط مناظر لحقول وجبال خرجت من اللّاشيء ثم لآدميين خرجوا هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريت، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التعجّب. هل ثمة ألذ من الصياح جَماعةً؟
يتّضِح لي اليوم، وأنا جالس وحدي أمام صندوق سحري حقّق الآدميّون عبره حلما سخيفا بأن يكون لكلّ واحد قاعته المظلمة الخاصة، أنّ جمهور طفولتي ومراهقتي كان جزءا من العرض بل أهمّ ما فيه. صحيح أنني لم أعد أتكلّف جهد الصراع مع طابور طويل لا أدفع أحدا ولا يمشي على قدمي آدميّ معتذرا أو غير مبال، ناهيك عن كوني لا أُخرِج من جَيبي مِلِيما واحدا. لكن أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعة السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت في مثل هذه القاعات، هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في أماكن عرضٍ أخرى. تأتيني أحيانا فكرة الوقوف بباب داري لدعوة المارّة لدخول الصالون ومشاهدة آخر القصص معي، شريطة افتعال معركة حول احترام منع التدخين والالتزام بالصمت وعدم التعليق السمج على القبلة المطوّلة بين البطلين، وتبادل الآراء بصوت عالٍ حول هويّة القاتل قبل أن يَكشف عنه مفتّش لا تنطلي عليه حيَل مجرم.
يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوّت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى. تتوقّف الصرخةُ وقد فاجأه قلقٌ مبهَم، هل سيثب الفرسان من الحائط على القاعة؟ هل سيجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة ذراعه آليا يحمي بها رأسه من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يمرّون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشتائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون وراءه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم ينبّهون الفارس المختبئ وراء الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. كأنّ غرائز قديمة قِدم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبقت في القاعة تذكّر الآدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتلة ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهدّدين بالقتل. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أيّ أهمية لآلامٍ بالوكالة؟ هو مشغوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيَل الصياد والصياد لحيَل الطريدة.

لا شكّ أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مِشيَة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرّون من كرّ طفل مغوار يستخدم في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهنّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيل الذين رآهم على جدار القاعة المظلمة؟ مَن الغبيّ، هو أم هذا الذي يقول إنّ الكائنات التي رآها بأمّ عينيه مجرّد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرُز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إنه إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أيّ طريقة لإرضاء الإدمان الجديد غير التكتّم والخداع، ف "ما" مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يَعرض -على ما كانت تسمع-قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف وقتل. كل ما تكره، ويحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسّي، كفضاء الأفكار، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والآدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه أحلامها وكوابيسها.

يتهامس الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه "دراكولا" يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقّد من لهم أعناق جميلة وشرايين فيها دم ساخن لذيذ يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على التي لا تكذب بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على "ما".

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أُجبر يزفر من الغيظ على الانسحاب. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريت التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو "العبيثة" التي ما زالت الجدّة تهدّده بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار تريد الشيء ونقيضه، تجري وراء ما تفتعل الهروب منه، والحدود بين ما تحبّ وتكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض وأخرج مع أخي من القاعة نفتعل اللّا مبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال. المشكلة الآن هي ماذا سنقول ل"ما" بخصوص أين كنّا، وسبب ارتعاش الصغير وارتباك الكبير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح ووضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما. يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش "ما". تأتيني رغبة عارمة أن ألتحق أنا الآخر بالفراش الآمن. لكن هل يعقل أن ألتجئ إلى ذراعَي الأمّ كما يفعل الصغار؟ أقرّر، انصياعا للأمر الأبوي الصارم: التحلّي بالشجاعة، أو على الاقلّ افتعالها. لا خيار غير الذهاب إلى فراشي وتنظيم وسائل الدفاع بنفسي. أبدأ بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتنا، لذلك لا يمكن أن تشكّل الفاتحة رادعا له. هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. أخون إلهَ الآباء والأجداد مستنجدا بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفتي وأنني أصبحت نصرانيا؟ لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثُّوم. أين تضع "ما" ثَومها المنقذ؟ ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ كيف سأردّ وهي تضبطني حافيا في الظلام ويدَاي ملآنتان بالثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطّى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيذ القمر باللّه، ترتجف الأشجار فِرقا وتتبرأ البوم من التمرّد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للآدميّ.

ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت.

ما تفصح عنه الذات في خلقها لهذه الخرافات رعبها من الأموات الذين يطرقون الباب بقوة إما محملين بخصائص ستزيد من شرّهم أو بالأخبار السيئة عما ينتظرنا جميعا على الضفة الأخرى.
وأيضا أنّ العالَم، كما عرّاه الشريط، مغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض، ولا نتحدث عن دم بقية الكائنات.
هل من الممكن أن يترك دراكولا أطفال قارته، وكلّهم تحت ذمّته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسسه بسوء وفتّش عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟ نعم، ممكن.
القاعدة هي، أنّ الخوف من خَطر ليس دَفعا له وإنّما دلّه على أقصر طريق إليك. أنّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما. يجد دراكولا عندها مَنفذا إلى طفل جالس على فراشه ورأسه على صدره فيتدفّق شلاّل دم من عنقه وهو بين أنياب الفكّ المرعب. يحاول فتح فمه، فلا تخرج من حلقه سوى حشرجة صامتة. يهبّ صارخا والبول -لا الدم-قد أغرق الفراش.
ما كان الطفل عاجزا عن فهمه آنذاك أن الآدمي يُظهر عبر أسطورة دراكولا رفضه القاطع لمغادرة العالم وأهواله، أنه مقرّ العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير متراجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة.
ولأنه لا وجود لشيء أو فكرة في هذا العالم إلّا ولها نقيض كم من أسطورة ومن تصرفات تظهر رعب الآدميين من العودة إلى هذا العالم بعد أن خلّصهم منه الموت؟ ستسمع أن منهم من أوصى بحرق جسده وآخرون طالبوا بأن يوثقوا إلى القبر بالسلاسل. ثمة من الأحياء من يفتحون القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

يذهل الطفل يوم يكتشف قدرته على أن يَخلُق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.
ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفّازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعةٍ سلّم الطائرة النفّاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيَب التمنيّات بنجاح المهمّة. تركب الذات مطيّة الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحرّكات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنّما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.
- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.
تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهوّر بأنّه أُنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلّة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراهة وكله امتنان لبعل ولدعوات "ما" وللطيار الهُمام.
- من طائرة الاستكشاف إلى قرط الحدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.
- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك.
يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببَركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفرّت لحلّها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرّفها رضاك.
يواصل الآدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقّل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بِيَد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعمق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة يتيمة يصنع منها الكسير الخلود.
كأننا لا نعيش حياة واحدة كما تقول الرؤى غير المتقنة وإنّما أكثر من حياة، منها التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، ومنها التي نقضيها في فضاء الحواس وأجملها التي نعيشها في فضاء الخيال هذا.
تنبت يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية من نوع جديد تعذبه بحاجيات مبهمة.
تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سيتا وبنت الجيران: الحبّ أجمل من الحرب. يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبق الأحداث.
- كفى من المعارك، لم أعد طفلا.

يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكّمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قِبل لك بتصوّر متاعبها. بالتقدم في العمر تُرفع حواجز الحياء والحرج. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

يهمس الصوت الساخر:

وبعد الافتتاح، ماذا يريد سيّدي؟ ليطمئن سيّدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الآدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة.

يا للكارثة لو لم يكن لنا الفضاء الحسي نلهث فيه وراء رغباتنا لا نصِلها إلا نادرا حتى نبقى يقظين متحفزين!

يا للكارثة لو لم يكن لنا فضاء الخيال لالتقاط الأنفاس والتغلب السحري على الحرمان.

لذلك ترانا نستعجل دخوله، استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.

تمرّ السنين. تتغير الأولويات والفضاءُ المبارك من بين كل الفضاءات لا يَرفض لزائره رغبة.

يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزيّنة ومنقّحة. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنّه "لا نبيّ في قومه" وأنّ تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب، مع أنّ السُّوق زاخرٌ بالمتقدّمين لأقدم المهامّ، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدي نبيّنا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأُعدّت له الخشبة والمسامير وعُيّن الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدَي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالّين. يقرّر الإنقاذ لأنّه أصعب من التدمير ولأنّه لا بدّ من تواصل القصص. يغيب المصطفى عن الأنظار ونُواح حَوارييه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف مُلحقٍ صحفيّ يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرّية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعذَّبين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنّار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلّا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلّا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذيها إلّا وتتمتم ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلا إلّا وسارعوا إليه بتمائم مأخوذة من جُمَله المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكِتاب الأزرق بدل محاربته، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. يتسلّل داخلي حزن دفين على كم من مُلهم وكم من برنامج طَموح فشل وسيفشل في إصلاح هذا الجنس التعيس.

ها قد داهم خريفُ الحياة الآدميَ المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكآبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه يركض على حمار سيّئ المزاج أصلعُ بدينٌ. تتساءل الذات الراكبة على الحمار بسخريّة وعطف وهي تنظر إلى جزئها الراكب فوق حطام حصان:

- أما آن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقّق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع. ضع حدّا لهذا التيه.

يهزّ الشيخ الكئيب كتفيه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أَخرج من حلمي الجميل لأسكن كوابيس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فَهِم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كم من وديانات وايدولوجيات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنّها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعملنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الدنيا".

ثم يرمي بسلاحه مقرّرا الخروج من هذيانه هو لينخرط في الهذيان الجماعي مكتسبا بالأمر صفة السويّ والواقعي، بينما يتوجّه دون كيشوت لمبارزة الطواحين مصَلّيا أن يصاب بضربة في الرأس تحمله إلى حيث الراحة الأزلية.
يتنهّد الحمار الفيلسوف ويهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.
مشكلة المشاكل بالنسبة لمن يريد استكشاف فضاء الخيال اتساعه الأخرق. آسف إذن ليس لي القدرة على أخذك في سياحة داخل أساطير ما لا يحصى ولا يعدّ من القبائل البشرية فما بالك بدخول كل فضاء خاص تتكتم عليه الذات وهو مستودع أعمق أسرارها.
يبقى أهمّ سؤال: ماذا نفعل كلّنا في هذا الفضاء الخيالي القديم والمتجدد بكل إمكانيات الحواسيب؟
أول وظيفة تبدو بديهية وحتى بالغة الابتذال: التنفيس عن الكبت.
نعم، مجدّدا يا لها من كارثة لو لم يكن لنا فضاء نلهث فيه وراء رغباتنا ولا نصلها... ويا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوّض فيه حرماننا المتواصل منها. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء وصول واحة النجاة.
ثمة من يرفضون مفارقته، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية. إياك ثم إياك من طول المكوث وإلا كنت كمن يرفض مغادرة الرحم والنتيجة الموت تعفّنا.
هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعمق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها...فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها ...براحة متقطّعة...براحة موعودة وكل المطلوب عدم الإدمان.
ثمة وظيفة أخرى – أو قل إمكانية أخر-أول من ينتبه لها الطفل.
يقرر أنه يريد أرنبه ناطقا.
- أريد أرنبا يتكلم.
تستجيب القوة المجهولة فورا:
- حاضر يا مولاي.
- أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.
يقلّب العالم شفتيه وتلمح في عينيه ابتسامة ماكرة.
- حاضر يا مولاي.
- لا، بل أريد كائنا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبيه جناحان.
تنصاع القوة المجهولة كأن لا همّ لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستفزّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.
وفي نفس السياق قدرة الخيال على بعث الحياة في كل جماد وقلب العالم متحفا والمتحف عالما.
في بعض ملفات الكهل التي تتواصل فيها أحلام الطفل، يخرج كل زوار اللوفر ساعة الإغلاق باستثنائه هو، نجح في الإفلات من الحراس ينتظر السكون والظلام ليرى خروج الآدميين من الأطر المذهبة وتدافُع تماثيل المرمر يهزجون ويرقصون إلى ظهور أولى بوادر الفجر. ما إن يأتي الصبح إلا ويدخلون لوحاتهم أو ينتصبون على منصاتهم يتأملون من يتأملونهم بوقار صامت هازئ. ما الذي يثير ربع ابتسامتك يا صاحبة النظرة الشاخصة من وراء نقابك الشفاف؟ أتسخرين من أكاذيب الأدلاّء أم من آدميين ما زالوا مثقلين بجسم مصنوع من لحم وعظم وشحم؟
وظيفة الفضاء الأولى رفعٌ مؤقت لاحتقان ذاتٍ تفضح فيه أعمق شهواتها، وتُبَلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه الفضاء الذي يسمح للذات المنهكة بالصراع في الفضاء الحسي براحة متقطّعة، وكل المطلوب عدم الإدمان.
لكنه أكثر من هذا. هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحة الفنان وفرضيات الباحث وأحلام الأديب ومشاريع الثائر.
هو مختبرَ المختبرات الذي يتواصل داخله مشروع خلق عالَمٍ يبدو كأنه لم ولن يكتمل أبدا.

**

وكيف تواصل الذات توسيع عالم الرحلة مضيفة للصور والحروف والكلمات الفعل السحري للأرقام

في ملفّ محفوظ بكثير من الحرص في أعمق طبقات الذاكرة يتوجه المعلّم المرهق إلى قسم هائج على الدوام:
- هيا يا أطفالي، افتحوا الكراسة وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.
يعود الطفل إلى نفس الأغلاط مدفوعا بعَيب فيه ما هو موروث وجلّه مُكتسب.
- سيّدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟
- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.
- لماذا هكذا، سيّدي؟
- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدوَل الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح. والآن تمرين الصباح: اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟
- سيّدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمّي؟
- تسخر مني يا وقح! ركّز على التمرين.
كم هي مثيرة هذه الرموز عندما تتسبب في قصص عن برتقال يُباع ويُشترى، وقطارات تصل في الوقت ولا تصل، وسيّارات تركض وراء بعضها البعض، وبساتين زيتون يجب أن تُقسّم بين الورثة، وكم ينال زيد وعمرٌو بعد أن أوصى أبو زيد بالثلث لزيد وظلم عَمرًا فلم يترك له إلّا الجزء العاشر من الحقل. يا لغرابتها وهي تتدافع من المجهول لتفعل أفعالا خاصة بها مختلفة عن أعمال الحروف، إذ تستطيع أن تتجمّع وتتناقص وتنقسم على بعضها البعض، وتَلد أرقاما أضخم وفق قواعد في غاية البساطة.
تُنبّه الأرقام الطفلَ لكون العالم يزخر بأشياء متباينة تنتمي إلى مستويات مختلفة يجب عدم الخلط بينها، حيث أنّه لا تستطيع أن تضرب برتقالة في قطار، أو أن تقسم القطار على البرتقالة، أنّه لا يمكن أن تشتري قطارين بعشرين مليما للقطار الواحد، وأن البرتقال لا يتسابق فيما بينه للوصول إلى المحطّة. يكتشف الطفل أيضا أنّ لهذه الكائنات العجيبة قوانين وحياة خاصّة لا علاقة لها ببرتقال أو ورثة.
من إشكاليات الطفل أيضا مع هذه الرموز الغريبة معضلة كانت بداهة فوق طاقاته.
- سيّدي، ما معنى صفر؟
- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.
- كيف يمكن أن يكون هناك شيء غير موجود؟
- قلت لك كفّ عنّي أسئلتك؟
يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.
- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفار إلى واحد!
- طبعا، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.
- سيّدي، لكنني حصلت على رقم لا أعرفه... سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأتُ به صفحة من كرّاسي؟
- ماذا تفعل؟ ما هذا العبث؟
- أبحثُ عن أكبر عدد. لكن، حتى هذا ليس أكبر عدد لأنني أستطيع أن أضيف إليه صفرا آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!! بوُسعي أن أملأ الصفحة بأكملها بالأصفار ولا ينتهي العدد!
- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقَب إلى نهاية الحصّة.
يقف الطفل مجدّدا أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لِتَنساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دَوما إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟ يصاب بالدوار وهو يكتشف أنْ لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفار. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكرا بمعضلة اسمها "اللانهائي" دوّخَت قبله كمًّا من عقولِ أطفالٍ كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنونا من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرَك؟
لا هو ولا معلّمه ولا أيّ آدمي كان قادرا يومها على التنبؤ بالثورة التي سيحدثها في عالم الآدميين هذا الصفر وأقرب رفيق له: الواحد. بخصوص هذا الأخير، هل ثمة رقم أهمّ بالنسبة للآدميين منه وهم لا يُقرّون بالحب إلا للحبيب الأول، لا يعظّمون

وطنا أو زعيما أو شاعرا إلا وأسموه الأول، ومنهم من لا يعبدون إلها إلّا لإيمانهم أنّه وحده الواحد الأحد. الرقم الذي يبدأ به الحساب... أبلغ رمز لموجود مكتمل.

مَن كان قادرا على تصوّر الثورة التي سيحدثها الصفر والواحد وكيف ستتغير جذريا ملامح العالم الذي نرتحل فيه؟

حالنا كحال رحّالة فوجئوا يوما في الفضاء الحسّي ببروز قارّة سادسة بين شواطئ أوروبا وأمريكا وذلك نصب أعينهم، تذهلهم بما تَحفل به من غرائب وعجائب لا أحد كان يتخيّل وجودها.

عن أيّ رحلة نتحدث ونحن نصل عالَما لا يمنحنا إلا قبَسا من الزمان لاستكشافه، في الوقت الذي يتمدد فيه تحت أعيننا في كل اتجاه بسرعة تتزايد من لحظة لأخرى، ولسان الحال يقول الحقوا بي إن استطعتم؟ ألَسنا أمام عملية عبثية لا تستحق ما نضع فيها من جهد للعقل والعضل. لمقاومة موجة الإحباط، علينا أن نتذكر أنّ العالم لا يأتيه العبث من أمامه أو من ورائه، أنّه يعرف ما يفعل وأنّه أذكى مما نتصور وفي كل الأحوال أذكى منا بكثير، مما يعني أنّه يعرف مشكلتنا ووَجد لها حلًّا وما علينا إلّا أن نكتشفه وأن نكف عن مطالبته كالأطفال الصغار يطالبون أمهاتهم بكل شيء وبالباقي.

حقا إنّها لضربة الحظ أن أكون من الجيل الذي عايش وِلادة فضاء لم يعرفه لا المشرقي ابن فضلان ولا المغربي ابن بطوطة.

لا شيء معهود ومألوف في هذا الفضاء الجديد الذي تصفه اللّغة بالافتراضي.

بخصوص الأماكن، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "ياهو دوت كوم" أو "اكسايت دوت كوم". لن تجده على أي خارطة للفضاء، وعلى كل حال لا وجود لخريطة له أصلا. إن حاولتَ، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسّي... حتى ولو كانت "واق الواق دوت كوم" موجودة بل يسَعك أن تخلقها أنت بالذات.

يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهومٌ آخرُ بَنَينا عليه بديهيَاتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

في "فضاء" الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في "الفضاء" الافتراضي فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة-الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين-والتوقف في جوا وعدن للتبضّع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

أما الطريق فيه فلا يكلّف المشيَ الطويل لا تعبا ولا منغصات المغامرات المثيرة مثل بعوض المستنقعات الاستوائية ودِببة القطب الشمالي وأُسود الأحراش الإفريقية وضبّاط مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضا أن تَعتَرض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلّا أخذ حياتك. هذا لا يعني أنّه خالٍ من المطبّات والأخطار. كل ما هناك أنّها من أنواع لم نَعهدها في "الفضاءات" الأخرى.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من "الفضاء" الغريب أَطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليالٍ وليالٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

مَن هذا الذي يدمّر بصفة دورية الجزء من "الفضاء" الذي اقتطعته لنفسي، والذي أستودع فيه ما أكتب علِّي أتخطى رقابة الورق؟ لا مجال لأن أضع عليه أيّ صورة أو أيّ اسم.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الآدميين الذين يتحركون داخل "الفضاء" العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعفاريت التي يحفل بها فضاء الخيال، والفارق الهامّ أنّ لهؤلاء الأشباح فعلٌ لا يتوقف في أخصّ خصائص حياتك.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني آدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعني أحد أنّه ثمّة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمّة إذن، للآدمي اليوم مستوًى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما شاء من الأقنعة، يتّخذ له أكثر من عنوان، يؤثّر من أبعد نقطة في "الفضاء" الحسّي، يدخل البيوت كالروح الهائمة لا يتفطّن لتطفّله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كلّه أن هذا "الفضاء" بصدد ولادة جنس جديد من الكائنات الذكية يسمونها الروبوتات. لمن لا يعلم، بدأت في بعض أصقاع الأرض الأكثر تقدما في ميدان التكنولوجيا الحديثة، قصصُ الحب والغرام بين آدمي من لحم ودم وروبوت جميل يعوّض الآدمي المسكين كلَّ ما لم تُعطِه أمه من حنان وصديقته من وجود دائم يخفف عنه آلام الوحدة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الافتراضي. كل التهاني وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

ما يشدّ الانتباه أن هذا "الفضاء" الافتراضي هو أيضا -مثل "الفضاء" الحسي-ساحةُ حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمسة نجوم يُعِدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخُ برامجُ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

هو مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بفونوغرافيا أطفال ورضّع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تُقدَّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو أيضا قمامة تَصبّ فيها مجاري صرف صحّي تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في "الفضاء" الحسّي، حيث يختلي كل واحد بمرحاضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمّة التخلّص منها بعيدا.

لكن مهلا، أيّ حُكم كنّا نطلقه على الأرض لو دخلناها وهي ما زالت سُهولا سَوداءَ لفظَتها البراكين لتوّها لم تُغَطِّها بعد الحشائش والأزهار، ولم ترتفع فوق سَطحها الأشجار وما يَصيح على غصونها من عصافير؟ أيّ حُكم كنّا نطلقه على "فضاء" الحروف وهو أُولى العلامات على لوحات طين يتبادلها كهنةُ أراتا وتجّار أوروك؟

هل قطعتُ كلَّ هذا الشّوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحله أنني لم أكن إلا رحّالة بدائيا يتحرك مَشيا على قدمَين، حَبيس جسد بدائي، وسأغادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على رحلات لا يتخيلها عقل.

ليكن، وهنيئا للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات، وسَفَرُهم مستَلْقين على ظهورهم في صناديقهم البلورية وخيوطٌ غيرُ مَرئية مزروعةٌ في أدمغتهم، يتجوّلون داخل المجرّات وشوارد الذرّات. نعم، هنيئا لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص.

أيّ لذّة يمكن أن تضاهي لذّة المشيِ حافيا على العشب المبلل بِقَطر النّدَى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟

هل ستعطي البرامجُ التي سيضَعونها في المستقبل أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر، وما على الأجيال المقبلة من الرحالة إلا النقر؟

لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضّل الأصل على صُوَره، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصُّوَر؟ وهل لهذا العالم أصلا أصلٌ، أم له ما لا يحصى من الصوَر و"الأصل" نفسه واحدة من بينها.

أخطر سؤال يُثيره هذا الفضاء الذي لم تعرفه آلافُ الأجيال التي سبقتنا، هو هل ما زال هناك فضاءات أخرى ستتمخض عنها عبقرية البشرية؟

ما أغربها رحلة وما أغربه عالم وكأن اجدادي البدو أضافوا للصحراء التي كانوا يذرعونها طولا وعرضا صحراء أخرى انتجتها قريحتهم ومع ذلك لم تكن تقلّ موضوعية وحقيقة وتأثيرا عن تلك التي وجدوها عند خروجهم من رحم امهاتهم!

**

ما يمكن قوله لحدّ الآن عن طبيعة عالم الرحلة

توصّلنا لحدّ الآن أن هذا الذي نرتحل فيه والذي نسميه العالم هو عالم اليقظة (بعد أن تخلينا بروح عالية من المسؤولية عن وصف الرحلة في عالم المنام) وأنه خالق –مخلوق من فضاء الحواس، وفضاء الأفكار، وفضاء الخيال، وفضاءً جديد سميناه الافتراضي وهي ميادين تفاعلاتنا وأفعالنا التي تشكل جوهر وجودنا فيه.

اللّبنة الأساسية إذن للعالم في تصورنا هي التي نسميها -لافتقارنا لمصطلح أخصب –الفضاء.

أول صورة تتبادر للذهن في مواجهة هذا المصطلح أنه "الامتداد" الذي نتحرك داخله.

إنه فهم لا غبار عليها عندما يتعلّق الأمر بالفضاء الحسّي.هو فعلا ذلك الفراغ النسبي الذي يحفّ بنا من الجهات الأربع، الشيء الذي يسمح لنا بالتحرّك داخله نشق طريقنا بين محتوياته وكلها لحسن الحظ لا تحتلّ إلا أجزاء جدّ صغيرة منه إذ لو كانت تملأه كما يملأ الماء الكأس لما وجدنا فيه مكانا لنا.

تظهر حدود الصورة مباشرة عندما نتحدث عن بقية فضاءات العالم.

لمواصلة استعمال المفهوم لا بدّ من الخروج على معناه الضيق واعتباره المستوى أو المجال أو الميدان الذي تبلوره وتتبلور فيه الأفعال والتفاعلات الممكنة انطلاقا من الأدوات التي تتوفر عليها الذات لاستكشاف العالم.

هكذا يمكننا الحديث عن الفضاء الحسّي وهو الذي تخلقه وتستكشفه حواس خمس اسمها البصر والسمع والشم والذَّوق واللمس. هو أيضا وخصوصا مجال كلّ الأفعال والتفاعلات مع مكونات هذا الفضاء من مظاهر طبيعية وكائنات وأشياء توجد داخل فراغه. من خصائص الفضاء أن له حدود (حدود البيت، المدينة، الوطن، الخ) وهي أبعد منطقة من هذا الفضاء التي يمكن ان تصل إليها وتفعل فيها كل الممكن والمسموح بفعله.

بديهي أن حدود فضاء الحواس في عالمنا هذا هي مدى قدرة الحواس الخمس كما هي عليه اليوم عند الآدميين حيث لا قدرة لك لا على تلمّس الذرات ولا على استنشاق عطر النجوم أو رؤية مظاهر الطبيعة كما يراها الدلفين والنسر.

اعتبر فضاء الأفكار. هو الميدان الذي كدّس الآدميّون فيه كل القيل والقال حول وجودهم في هذا العالم وطبيعة هذا الأخير.

أما أداة صنعه وتعهدّه وفهمه والتحكم فيه فهي الحاسة السادسة أي اللغة.

هو الآخر له حدود وهي الكلمات والمفاهيم التي لا تملكها هذه اللغة للتعبير عن أفكار وكيانات ومظاهر لا زالت جنينية في رحم المستقبل أو مثل التي نخمّن أنّها تعتمل داخل "ذهن" النبات والحيوان أو كائنات قد توجد فوق سطح كواكب هائمة في أرجاء الكون اللّامتناهي.

بخصوص فضاء الخيال، رأينا أن أداة خَلقه واستكشافه طاقةٌ –وظيفة داخل الذات اسمها المخيّلة. إنه الميدان أو المصنع الذي يُنتج وتتكدس داخله ما تخلقه المجموعات البشرية المتعاقبة من أحلام اليقظة، من أساطير، من أديان ومن قصص ومشاريع الخيال العلمي. لذلك هو المختبر الأكبر الذي تعيد فيه المخيلة تصنيع المكونات التي ترصدها الحواس الست في أشكال وحالات غير مسبوقة وذلك أساسا عبر العلم والتكنولوجيا والفنّ.

أما حدوده فإمكانيات المخيّلة الفردية والجماعية وهي في ذروة الخلق والإبداع.

أخيرا، الفضاء الافتراضي الذي لا تخلقه الحواس والكلمات والصوَر وإنّما الأرقام، واثنان منهم على وجه التحديد.

في هذا الفضاء أنت مثل زائر يَدخل متحف اللوفر بحثا عن لوحة مونا ليزا، فَيُفاجَأ بجدران قاعات المتحف تتباعد واللوحات والتماثيل تتزايد عددا بسرعة مذهلة وفي كل الأركان وكمْ من ليونارد دافنشي جديد عاكف على الرسم ينافسه كمْ من بيكاسو في الطرف الآخر من المتحف.

مرة أخرى بخصوص علاقة الفضاءات الأربع ببعضها البعض. أنت لا تنتقل بينها كما تتنقل بين غُرف البيت، وكل غرفة مستقلة عن الأخرى يفصل بينهما باب وجدار. نحن نتحرك دوما في عالم واحد تندمج فيه كلّ مكوناته الموضوعية والذاتية.

ففضاء الحواس معطى في تصنيفه وأسماء مكوناته من معطيات اللغة وهذه الأخيرة لا وجود لهذا إلا بمتكلّم يرصد معطيات الحواس وبمستمع يشاركه نفس الخصائص الحسّية.

كذلك عن الفضاء الافتراضي. هو مكوّن من بشر من لحم ودم جالسين وراء الشاشات، من حواسيب وألياف وأقراص ومراكز خزن وتوزيع تستهلك كثيرا من الماء والطاقة وتساهم في الاحتباس الحراري.

أما فضاء الأفكار فلا وجود له دون الكتّاب والكتب والقراء أضف الأقلام والورق والحواسيب والمطابع.

للتلخيص: العالم واحد في ظاهره لكنه مكون من الفضاءات الأربعة كما النور واحد لكنه مزيج من الألوان السبعة لقوس قزح: الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر والأزرق والنيلي والبنفسجي.

صورة أخرى عن أعقد مفهوم: العالم كالطوب مكون من القشّ والطين والماء وخاصة مهارة الصانع بما أن كل فضاءاته ميادين كل تفاعلات وافعال الذات طوال وجودها.

خاصية بالغة الأهمية لكل الفضاءات بغض النظر عن كونها لا توجد إلا ببعضها البعض: الاكتظاظ والتداخل والحيوية المذهلة لكل ما يتحرك داخله.

لكن هذا لا يعني أنها تشكل عالما متشابها عند كل الذوات.

خذ الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للآدميين يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلّف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف أولم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل.

خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يذرع الأرض طولا وعرضا وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصوتين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفا.

شتان أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم...بين الدي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على " فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

حدّث ولا تسل عن تباين نسخ العالم والفضاء الخيالي للشعوب والقبائل والأفراد مبني على دعامات وأسس بتباين الاله الواحد والآلهة التي لا تحصى ولا تعد ناهيك عن سطوة الأرواح والأشباح والعفاريت والجنّ.

مما يعني أننا نرتحل جميعا في نفس العالم وفي عالم خاص بكل واحد منا بما هو فرد من مجموعة ثقافية تكبر او تصغر وأيضا بما هو فرد فريد داخل هذه المجموعة.

بداهة العالم واحد في ثوابت -مثل الصور التي نتشارك فيها جميعا للشمس أو ردود فعلنا تجاه الألم -لكن له في التفاصيل والمتغيرات نسخ بعدد الذوات التي تبلوره.

طبعا، لا يعني هذا أن كل ذات عالم منغلق على ذاته، فالآدمي ليس جزيرة معزولة غير مرتبطة بما يحيط بها من الجزر إلا في الحالات القصوى للجنون. لنقل إن العلاقة بين الذوات بما هي تجارب جدّ خصوصية مثل التي تربط بين جيران الحيّ. ثمة ترابط وتواصل بينهم لكن كل بيت منغلق على اسراره التي لا قدرة ولا حق لأحد الاطلاع عليها.

مثل هذا التصور زاخر بأصعب الأسئلة وبأغرب المفارقات.

ألا يعني أن الذات والعالم وجها نفس قطعة النقد؟

طبعا. من أين للعالم أن يكون شيئا موضوعيا مستقلا عن الذات متقدما على وجودها، أوجده إله أعمى لا واعٍ تسميه "الطبيعة"، أو إله واع مبصر له من الأسماء ما للبشر من لغات وهو دوما معطى من معطيات حواسها ولغتها وخيالها وأفعالها وحتى مزاجها؟ ألا نجرب جميعا أن العالم دوما بلون وطعم مشاعرنا؟ لما نكتئب يفقد كلّ مذاق. حين نرقص طربا تراقصنا السّماء والأرض.

ثمة دوما من يذكّرك أننا نرث العالم عن كل الذين رحلوا وإنه سيتواصل بعد موتنا مما يعني أنه ...الخ.

أحاول تصوّره بعد رحيلي فإذا بي كمن يحاول تصوّر مشهد تنظر إليه عين غير موجودة. صحيح أنه يتواصل بعد رحيلي ورحيلك، لكن هل يتواصل حقا يوم تختفي آخر حلقات سلسلة الآدميين. يوم يطلق آخر الآدميين أنفاسه؟ قطعا سينقرض كما انقرض العالم الذي عاش فيه الديناصورات وكم من جنس حيّ آخر رحل نهائيا ورحل معه عالمه.

ماذا يبقى اذن من المفهوم الشائع للعالم بما أنه لا يوجد عالم واحد وإنما عوالم بعدد الأجناس الحية وعدد الذوات التي تشكلها تظهر بظهورها وتختفي باختفائها؟

بقية المفارقات.

إذا كان العالم معطى حواسّ وفكر وخيال وأفعال -أي إرادة-الذات، فهذا لا يعني فقط أنه بالأساس تجربة حسية شعورية فكرية خيالية تعيشها هذه الذات وإنما أيضا أن هذا العالم موجود داخلها.

لكننا نعبرهذا العالم ونحن نتعامل معه طول الوقت كأكبر حاوٍ يحتوي على كل الموجود من المحتويات منها المظاهرالطبيعة والبشر والحيوانات والنبات والأشياء الخ . أضف لهذا اننا نقيس كل لحظة كم هو عصيّ على الفهم وكم تعجز ارادتنا وأدواتنا الفكرية والمادية على تطويعه لمصالحنا وشهواتنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟

كأنّنا نقول (وهذا ما أقصد بالضبط) أن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف منغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش ...وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل اتساعه في جوف هذه السمكة وفي كل ما تسبح في خضمه من أسماك؟

تطرح مثل هذه الرؤيا جدية محاولتنا فهم ما هو العالم.

إن قبلنا بأن العالم هو تجربة ذات ومن ثمة هو عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها فعن أي معرفة نتحدث؟ أليس كل ما نعرف عن هذه الذوات ما نعرفه من مكتبة نتصفح بعض كتبها على عجل وأغلبها لا نقرأ منها إلا العنوان أما بقية النصّ فمحرم على القارئ.

إذا تناولنا الآن مفهوم العالم كما يتصوره عامة المرتحلين أي كالوعاء الحاوي لكلّ المكان والزمان، لكل الكائنات وكل الأحداث، فعن أي معرفة نتحدث؟

ألا نواجه بتعقيد لا قبل لنا بتخيله أضف للصعوبة العظيمة صعوبة أعظم ألا وهي أنه تعقيد متحرك لا يثبت على حال.

وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على معرفة ما يدور داخل كل ما وجد وسيوجد من الذوات ناهيك عن القدرة على استيعاب كل ما في الكون من معطيات...ونحن لسنا هذا الكائن.

في هذه الحالة -وقد نشرنا بعناية فائقة الغصن الذي نجلس فوقه -أي جدوى بل أي شرعية للحديث عن العالم والبحث له عن مكونات وخصائص والحال أننا وصلنا في آخر المطاف لكونه غير قابل للمعرفة من طرف كائنات محدودة بحدود حواسها ولغتها وخيالها وأدواتها المادية ناهيك عن قصر عمرها وهي مجرد لحظة عابرة في زمان لا قبل لخيال بتصور طوله؟

ثمة مخرج يمكّننا من مواصلة الكلام عن العالم دون السقوط في وهم إمكانية المعرفة المطلقة أواحباط استحالة أي معرفة.

يجب أن نتذكّر اننا كائنات تعرف... وتعرف أنها تعرف... وتعرف أنها تجهل...وتجهل أنها تعرف.

نحن نعرف هذا العالم أحسن ما تكون المعرفة نفرّق بين الوانه واشكاله نرصد تغييراته لا نخطئ ابدا في التعرف على ما فيه من روائع ومن أخطار، أضف لهذا أننا نعرف أنه محكوم بقوانين وبثوابت وفي نفس الوقت أنه لا يثبت على حال.

نحن نعرف أننا نعرف بما أننا نعرف أننا نخطئ وأن لأفكارنا الصائبة القدرة على مزيد من السيطرة على هذا العالم.

نحن نعرف أننا نجهل الكثير عن هذا العالم والدليل أن الأجيال وراء الأجيال تراكم المعطيات عنه وهي كمن تريد افراغ المحيطات بملاعق القهوة.

نحن نجهل كيف تعرف أدمغتنا معالجة كل ما نحتاج من المعطيات عن العالم وكيف تعرف أعضائنا القيام بوظائفها للبقاء أحياء أطول وقت ممكن والحال ألا أحد علّمنا كيف نشغّل العينين والكليتين والقلب والستمائة عضلة التي تحرّك أجسادنا.

الاستنتاج المنطقي؟ ليس فيه شيء من المنطق او هكذا يبدو بما أن تلخيصه كالتالي: محكوم علينا أن نعيش داخل وخارج عالم –ذات نعرف عنه كل شيء ولا نعرف عنه أي شيء ... داخل وخارج عالم-ذات ربما يعرف عنا كل شيء ولا يعي حتى بوجودنا.

**

الكتاب الثالث
الطريق

قال أرجونا: إني أتحرّق شوقا لرؤية وجهك المقدس، إن كنت ترى ذلك ممكنا فأرني-يا إله الآلهة-ذاتك الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني-يا أرجونا-في أشكالي القدسية، إنها بالمئات والآلاف نوعا ولونا وشكلا، تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في الريح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهاجفاد جيتا

مقدّمة الكتاب الثالث

أستمع إلى الشعر بأي لغة. لن تجد في أجمل قصائده شيئا هاما إلا وكان انتباها لغرابة العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الآدمي وهو يتمعّن فيه.
من كبار المنتبهين أيضا الرسّامون. موني Monet مثلا، وهو على امتداد الشهور يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغير الطقس واتجاه أشعة النور للعودة إلى الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لونا يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين.
ربما أكبر ما يميز الشاعر أو الفنان أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل أو قل إن الطفولة عند أغلب البشر هي التي تشهد أوج هذه الحالة التي يفقدونها تدريجيا بتقدمهم على خطّ الزمان.
يصرخ طفل في الرابعة أو الخامس: "ما"، المطر، المطر، المطر!
حتى تعود اليك انطباعاته البكر، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنّك أنت الذي دوّت الطبول تدعوه إلى لترحيب بالرعد.
افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمّل-عبر ومضات البرق الخاطفة-ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال. لا تغفل عن متابعة تشكل نهر من نور يقسّم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا من قنطرة فوق شرخ النور والنّار. اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلّل بين الثياب والجلد.
تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألذّ قشعريرة.
أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها.
ادخل أغوارها المظلمة العطشى.
هناك في أعمق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم.
ها هي الذات المنبهرة تسجّل أن الومضات تتباعد، أن الزمجرة تخفت، أن اللّهث والصفير يتباطأ، أن الكائنات الهيفاء تستعيد وقارها، أنها تنتصب من جديد ترنو شاخصة إلى الأعلى، أن أذرع الإخطبوط النباتي تكفّ عن صراع مع حيّ غير مرئي، أن حفيف يعود الأوراق همسا لا يكاد يسمع، أن الملامح العابسة تستعيد إشراقها المألوف.
لم يبق إلا رصد كيف تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء لتقول إن فانوس النهار لم يعبأ بهذا اللّغط كثيرا...كيف تعود السّماء إلى صمتها على استحياء كأن الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها التعالي...
كيف تخرج الطيور من مخابئ لا يعرفها أحد...كيف تسترجع الكائنات المتحرّكة رغبتها المحمومة في الحركة...كيف تطلق عقيرتها بالصراخ لتعوّض ما فاتها لمّا فرض عليها دويّ الطبول أن تخرس إجلالا لقوى ممنوع حتى الهمس في حضرتها...كيف يتسلّق بسرعة خاطفة الفراغ الأزرق قوس من الألوان سرق أفكاره من لون الورد، من لون شفاه النساء، من لون الصحراء، من لون البحار، ومن لون البنفسج... كيف يرتفع قوس النصر بلا أعمدة، يمشي تحته الآدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد... ثمّ كيف يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبّورة السماء؛ لا تريده-لسبب مجهول-علما ثابتا كالشمس والقمر.
حتى لا نعبر العالم كالجاهل التائه في أروقة متحف اللوفر لا بدّ إذن من توفّر حالة ذهنية: الانتباه.
أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات...أنك أفقت فيه مرة أخرى...أنك أدركت كم من ثراء مخفي وراء المألوف المبتذل.
لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرة.
لمّا تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس.
أن تكون منتبها يعني أن تعي فجأة بما تحت الظاهر البسيط من نظام وتعقيد.
أن تكون منتبها يعني أن تعي بكونك لا ترى من العالم إلا الزبد وأعماقه المظلمة محرّمة إلى الأبد.
أهمّ فضل وخاصية للانتباه نجاحه في دحر مشاكل الماضي بعيدا وطرد هموم المستقبل من ساحة الوعي لتتفرّغ الذات للحظة وقد تخففت من كل الأعباء. إنها حالة الاكتمال وقد تمازجت الذات بالعالم وتوقف سيل الزمان.
ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسّس دين كبير "بوذا" المنتبه. ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم في مثل هذه الرؤيا.

لاستعادة الانتباه قف أينما تشاء وتأمّل ما حولك قائلا في نفسك إنها المرة الأخيرة التي أرى فيها هذا المشهد والأجل المحتوم في الخطوة المقبلة...أو يمكنك أن تتصوّر أنها أول مرة ترى فيها ما ترى.

أن تكون منتبها يعني إنك استعدت اكتشاف ما يزخر به العالم من حولك من غرابة حجبها التبلد حجب السحاب للشمس.

التبلّد! إنها حالة تجربها الذات باستمرار أهمّ خصائصها انطفاء الأحاسيس البكر، تبخّر الإعجاب والتعجّب والتهيّب أمام الخوارق والمعجزات التي تحاصرنا من حل حدب وصوب. هي أيضا الركون إلى شعور الألفة نطمئن عبرها أنفسنا ونوهمها بأن العالم سيبقى على ثبات نفس الوجوه ونفس المناظر ونفس الأحداث، فلا نطالب بتواصل التحفّز.

دوريا أحاول الخروج من هذا التبلّد وهو يكاد يصبح كبعض الهواجس مزمنا.

هذه غابة عبرتها كم من مرة لكنني أفهم فجأة أنني لم "أرها" أبدا لأننا لا " نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا سؤال أو ردّ.

فرصة للعودة إلى التمارين التي أحرص عليها لترويض النفس حرصي بالرياضة والمشي على ترويض الجسد.

يتسمّر البصر على ورقة انفصلت لتوّها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مفرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟ ها هي معلّقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. ينفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصيّاد وابل الرصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فآخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس. ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبي ثم أغيّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الموت التغذي بالحياة وقدر الحياة التغذي بالموت.

دوما على مقعدي أتأمل الأشجار متسائلا عن أسمائها واحدة واحدة. أغمض عينيّ للتمعّن بكل خلايا جلدي في أحاسيس بالغة الدفء، بالغة الرقة، بالغة المتعة تبثّها فيّ الغابة العجيبة. يرتفع الهمس من الأشجار تروي لي قصصها. تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والكائن الصغير لا يريدني إلا أن أنتبه لوجوده هو أيضا. على فكرة، كم كائنات حية تختبئ داخل هذه الغابة وفي السنتيمتر المربع تحت قدمي؟ آه هذه أجناسهم وهذه آخر مشاكلهم !

من أين لي الزمن الكافي للانتباه كل ما يزخر به العالم من روائع ومعجزات؟

أفتح العينين استعيد موقعي داخل واقع مألوف مطمئن مكتشفا كما هو الحال بعد كل الحوادث الطارئة التي ترفع درجة الانتباه أن " الروتين " الذي ينقده بشدة أمثالي ليس بالبشاعة الكاذبة التي نتهمه بها.

ربما هناك ضرورة قاهرة وحتى حكمة في التبلّد.

أنت لا تنخز عضلة لتنقبض المرة تلو الأخرى دون أن تترك لها وقتا كافيا للارتخاء إلا وأتت لحظة تضرب فيها العضلة على الردّ احتجاجا على كثرة الوخز.

كذلك على الذات أن تتصرف كالعضلة وإلا هلكت.

نبض الرحلة إذن ليس فقط سعادة فشقاء فسعادة الخ وإنما انتباه فتبلّد فانتباه وذلك إلى نهاية الطريق.

ومن ثمّ ضرورة إعادة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين إن لم يكن كل زمن الاستكشاف فعلى الأقلّ أغلبه... واجعل تبلدنا لا يدوم أكثر من ضرورة التقاط الأنفاس.

"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)

إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"

**

عن توغّل المرتحل في الفضاء الحسي لا بوصلة ولا خارطة يتقاسمه الانبهار والرعب

أخيرا عَرض المحيط غلب شَوقي إلى البحر كلَّ العوائق.

يحدّثونك بتهيّب وَجِل عن عواصف بُحَيرة كبيرة من الماء المالح كانت تذهب لها الطفلة "ما" مع جدتي لغسل الصوف. أيّ رعب مقدّس كان سيداهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المكان!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلّق جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع. يشتدّ الدَّوار وتتحرك السوائل المشبوهة داخلي تريد التفجّر من فمي. ذلك لأن الخاصّية المميّزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط.

مَن لا يقدّر أهمية هذه الملاحظة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي بين بيته ومكتبه والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، ثم يغور به في عمق الأرض، ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه فيتهمه الناس بالنظر إلى نسائهم وهو من التهمة بَراء، ثم يعود به اللعين إلى مستواه الأول، يواصل مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه، إلى أن تنزل منه أمام بيتك تترنح فيَصِفُك الجيران بالعربيد، في وضح النهار. نعم، من حسن الحظّ أن الطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحيَةَ دوار البرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمله حتى مسافر صبور مثلي.

ها أنا الطريدة بين البراثن والبحر الصياد المظفّر.

تائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سميّك السائل! اللعنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان؟

تصرخ فيّ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

آه، الحوت الذي ركبتُ هذه السفينة الصغيرة عَلّي أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأتُ له سيرة لا كَسِيرة الأنبياء والقدّيسين، كتبَها له مريدٌ اسمه هرمان ملفيل.

أرفعُ رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقتا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعودٌ وهبوط.

تعود المرأة إلى الصُّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!

كُفّي عن الزعيق لوَجه موبيديك. نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبّار في خيالي بعد أن أفرغتُ كل ما في معِدتي على فستانِ عجوزٍ أخرى أشبعَتني نظرات ساخطة، لا تَقبَل صاحبتُها بوُجود البدوِ في عرض المحيط.

هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل. وبَدوُه الدلافين والسلاحف والحوت، يرحلون هم أيضا بحثا عن واحات مبعثرة في كل هذه الشساعة المرعِبة، يجدون فيها الكلأ والمرعى وجِماعا يُجدّد الحياة.

ما يقال إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كائنات تتبارى في الغرابة والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان، مما عاد به الرحالة الذين ذرعوا هذه المساحات الشاسعة من قصص لا تكاد تصدّق، إن الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض.

قرب السطح ملايين الكائنات الصغيرة يزدرد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك. تحت هذا الطابق الأسماكُ الأكبر التي تبتلعها، ليبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق. وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسَه بين فكّي الحوت الخرافي. لا يطلع هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصياد الآدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إرَبا إربا.

للّه درّ فرسان الريح والموج. إن شجاعتهم حقا لَضَرب من التهوّر أو الجنون! لم تَكفِهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وأيضا لمواصلة حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون أو أي بحار من قرطاج إلى البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُحِيَ من ذاكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضتُ إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري. لكن حانون عاد إليه كما عادوا كلّهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على صهوة الجواد الجامح. ربما عاد لأنه لم يرَ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف رَوعة أروع من سطح البحر ليلا وشّحه طلوع القمر بنهر من النور.

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

الرأس بين الركبتين والعينان مغلقتان يسترجع الشاب أول لقاء الطفل مع البعبع المبهِر المرعِب وهو يتقدّم بخطًى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف مبهَم.
تلك الليلة سألَت "ما" طفلها ألّا يبخل عليها بالتفاصيل.
فتح ذراعيه علّه يبلّغ كم هو عريض كم هو متّسع، فسقط الذراعان.
كيف يصف لها هيبة دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟
ما نفع الكلام في وصف سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضان الموج واختفائها فيها!
من أين له الكلمات لوَصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدّها سوى الأفق؟
كم يكره أن تظنه "ما" مبالِغا أو كذّابا!
تلك الليلة آب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ الشيء الشمس مجددا أم هل سيحتفظ بها نهائيا فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيسَ. مِن الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكّد لها، أنه اكتشف لماذا تبدو الشمس لامعة نظيفة كل صباح وأين تذهب لتغتسل كل غروب، فتتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.
وفي صوَر أخرى لنفس الملف، أراه يواصل تفكيره وقد تذكّر أن ماءه مالح مثل الدموع التي تسيل على خدَّيه. تتشكل أولى نظرياته أن البحر حفرة ضخمة مليئة بالدموع. مَن، يا ترى، بكى كل هذا البكاء؟ البشر الذين سبقونا طبعا! بِرَبّك، أليست هذه فرضية معقولة وقد وُصف هذا العالم أكثر من مرة أنه وادٍ للدموع. هل من مستَودع أحسن من البحر، ولو أن فكرة السباحة في دموعنا ليست من النوع الذي يحبّب رياضة لا يعاب عليها شيء؟
كم حَلُم يومها أن يضع خُطاه -هو الآخر-على خُطى فارس الريح والموج وكلِّ المغامرين الذين ارتحلوا على صفحة الماء، ليعرف أخيرا كيف هو وسط البحر. لكن من أين له تحقيق مثل هذا الهاجس هو الذي عاش في أحضانه القاتلة رعبُ الموت الوشيك ذلك اليوم الذي أوشكَ فيه على الغرق على بعد أمتار من الشاطئ؟
متى أقنعَت مثل هذه الحجج الآدميين بالإعراض عن البحر وهو كما تقول القصص الشائعة اليوم الرحم الذي خرجت منه كل الكائنات؟
في ملفّ آخر ما زال في خضم مستقبل بعيد، رجُلٌ تجاوز السبعين، رأسُه بين الركبتين يغالب موجة من الغثيان، يتساءل هل البحر الذي أمهَلَه كلَّ هذه السنين سَيتركه يُفلت منه هذه المرة.
يأتيه من كل النواحي صُراخ البحّارة المسالمين وهم يواجِهون بأيدٍ عارية مسلحين داهموا السفينة الصغيرة، التي ركبها علّه يصل مكانا سُجِن فيه شعب بأكمله دون ذنب أو محاكمة.
فجأة ينكبّ أحد المهاجمين على الرجُل الجالس ينتظر بهدوء ما الذي ستتمخض عنه الأحداث، ومنها إمكانية الموت في الدقائق القادمة: سيّدي لا تخشَ شيئا، لو كنا نريد موتك لسلّمناك لأعدائك الذين ينتظرون على بعد أميال. سنجرّ هذه السفينة -التي تريد كسر الحظر عن الإرهابيين-إلى بلدنا وسيمكنك أخذ الطائرة والعَودة من حيث أتيت.
نعم، وسيمكنني أن أنظر لهذا البحر من عُلوّ عشرة آلاف متر بمأمن من أشداقه المفتوحة.
بالمناسبة، مَن قرّر أنّ على الآدمي بالضرورة شقّ الطريق على سطح البحر؟ أليس من الأسلم رسمه على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هائمين على وجوههم؟ ألم يتّبعوا الشاطئ آلاف السنين لا يحيدون عنه إلا اضطرارا، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون وهم متردّدون بين فتح الطريق في البرّ أو فتحه في البحر، من شدة وعيِهم بأنهم بين خيارين أحلاهما مرّ؟ أليست فكرة رائعة أن أمشي ونَعلايَ بيدي وبنطلوني مرفوع إلى الركبة، قدماي في الماء إلى الكعب، أدور حول هذا البحر الذي عشتُ كثيرا على ضفافه، أملأ عيني من تعرجات شواطئه الجبلية وشواطئه الحجرية، شواطئه النظيفة وشواطئه القذرة. ويوم أُكملُ تأمّلي لِكُل هذه الأماكن أشرَعُ في دورة حول الذي يصِفونه بالأحمر ثم الأصفر، ثم المحيط الأول والثاني والثالث. ثم أنهي البرنامج بالمحيط الأبيض، وهو على ما يبدو أبيض فعلا خلافا للبحر الذي أعرف والذي أشهد أنه أزرق. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمَدُ مَن يتوجّب له الحمد أني لستُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلل.
وحيث أن عاهة غبية اسمها "دوار البحر" حرّمت عليّ الرحيل على ذروة الموج، فإنني أحيلكَ إلى غيري من الرواة ليحدثوك عن البحر وما عاشه المرتحلون على ظهره.
كل إضافتي لأدب الرحلات البحرية ستقتصر على بعض الأفكار الفلسفية العميقة من نوع أن رحلة الحياة -مثل رحلة البحر- مغامَرة طائشة على أمواج هائجة، لا تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحةِ أشداقَها غيرُ قَشة طافية، ونحن نتشبث بها ونتقيّأ على بعضنا البعض.

*

حولي يتدافع الزوار في فَوضًى لطيفة. داخلي تتدافع أشباح آدميين اسمهم خوفو، خفرع ومنكاورع. وهم الذين بلوَروا كل ما في الآدمي من طموح وإرادة وقوة لترتفع هذه الجبال من الصخر. شبح آدمي اسمه هميونو، المهندس الذي بلوَر كل ما في الآدمي من عبقرية وقدرة على الخلق والإبداع لكي تتخذ الصخور هذا الشكل، أشباح آلاف الآدميين الذين لم يحفظ التاريخ أسماءهم وهم الذين بنَوا هذه المعجزة بأبسط الأدوات، وبلوَروا كل ما في الآدمي من طاقة الصبر والعمل.
يجذبني من ذراعي رفيقي ومُضَيّفي، ابن المدينة التي تُشرِف عليها هضبةٌ طَبقَت شهرتُها الآفاقَ وفوقها جبالُ البشر هذه:
- هيا، أفِق من ذهولك، ما زال أمامنا بعض الوقت لفسحة قصيرة على النهر.
وهذا نوع من الطريق لا صعود فيه ولا هبوط، بل ولا يكلّف المسافرَ أدنى جهد. تأتيني دَوما عليه حالة من الارتخاء اللذيذ وأنا أستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد. نعم، هكذا كان علينا أن نعبر الحياة: جلوسا على كرسي مُريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء. نتأمل من بعيد -وفي أمان-روائع العالم وفظاعاته. أروَع ما في هذا المعلَم القار من معالم العالم، أنه لا تشتكي منه ظاهرة مزعجة اسمها دوار النهر.
في طباع هذا النهر شيء يذكّر بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي المسمَّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل مَن وثقوا أنه يعرف طريق البحر.
"هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)
ميقات كل العصور
راحل أبدا باتجاه الشمال
هو النيل
يعبر هذي التخوم... وتلك البحار
وذاك الغمام... وحدّ الخيال
يسافر في اللانهايات
ويبقى على شفتيه السؤال
عن نخلة يتناهى إليها المساء ويطلع منها الصباح
وعن تعب غامر يتساقى به الطهر فوق الحقول الفساح"
يمازحني مضيّفي:
- هيّا يا رجل، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.
- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!
- لهذا تسمّيه اللهجة العامية "البحر".
- أهم تحدّ طرحه النهر على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضُه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة.
- حتى طوله أرهق الكثيرين وهم يبحثون عن منبعه.
- المنبع! لماذا لا تدير اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد ووُلدت معه حضارتكم.
- كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. أخشى أن نتأخّر كثيرا على العشاء فتزعل "الولية مراتي". ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.
- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.
- تذكّر أن الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزؤه العجوز. كأن ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيَويته. هذا النهر شيء جد مختلف في شبابه وطفولته أو هو يتشكل في رحم المجهول.
- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالم لا يريد بنا أبسط إزعاج.
- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرّك
وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.
- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلتُ لنفسي: أخيرا وجدتُ الجزء الآمن من الطريق، وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيّب، ماذا سنفعل الآن بالآدمي وقد توقّف به النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصّد تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظره البشر آكلو لحوم البشر.

- لا خيار له سوى أن يسبح بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظره أسد فارغ المعدة نافد الصبر، وإن نجا بجلده، عليه مواصلة التوجه دوما نحو المجهول.
- يا رجل، رحمةً بالآدمي! اختصر. ما الذي حصل للمسكين وهو يواصل بحثه عن أصل الشيء؟
- ضاع في ألف اتجاه. لكنه لم يكفّ عن الترديد: ما هي إلا بضعة آلاف من السنين قبل أن أكتشف هذا المنبع اللعين، ماذا يظن نفسه هذا النهر؟ هكذا سمع بعد قرون من الضياع ببحيرة تقول الشائعات إنها المنبع الذي يبحث عنه.
- برافو لأوائلنا ونحن خير خلف لخير سلف. الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي هربتُ منه آخذ المترو كل صباح لأسمع تفاهات الناس يصرخون في نقّالهم!
كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبثّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه المستنقعات وهذه الأدغال التي لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.
أعود لممازحة مضيّف كريم.
- لا تُطِل، اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟
- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. يُقال إنها الخزان الرئيسي. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قِطع "البوزل".
- متأكّد أن كل القِطَع جُمعت؟ ما أعرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرّم أمرا كهذا.
- ثمة صوَر التُقطت من الفضاء وكم من برهان آخر.
- طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به البحيرة الأمّ لتلد نهرك هذا؟
- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها معروفة وموَثقة.
- وقبل ذلك.
- ماذا تقصد؟
- فهِمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟
يضحك مرافقي.
- في السحب طبعا.
- وقبل تجمعه في السحب، من أيّ بحر تظنّ أنه انطلق؟
- أتصوّر صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.
- إذن تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبعه. محكوم علينا أن نجهل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولّد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوَة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تَقدر عليه والبحر ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر.
- وبعد وصولنا البحر، أين تريدني أن آخذك أنت الذي لا يسعك مكان؟
- نوقف الطريق لنذوب ونتلاشى وقد تحقق هدفنا وهدف هذا النهر؟
- لستُ متأكدا أنه مستعجل للذوبان والتلاشي. ألم ترَ على الخريطة حبّه للتعرّج واللفّ والدوَران. هل رأيت يوما نهرا يرسم لمساره خطّا مستقيما؟
- طيّب، لنتّبع بعض تعاريجه شمالا أو جنوبا. ما زال أمامنا بعض الوقت.
- أمامه هو الذي قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل بارد.
مِن أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أَوحى به النهر أبا كل الأسئلة التي تلاحق الآدميين: من أين أتى الآدمي، من أين أتى العالم؟ من أين أتى الزمان؟ أليس النهر من ثبّت لنا تصوّراتنا الساذجة عنه، وأنه مثله يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، وأنه لا قدرة لأحد على تثبيته في نقطة ولَو أوثقته بكل سلاسل الدنيا والآخرة.

*

تُطيل شرطية المطار تفحّص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بَداهة تقديرُ مدى خطورتي على أمن وطنها المفدّى.

كان الأوائل عندما ينزلون بشاطئ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفينتهم ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون أكثر منهم خوفا يقتربون من أشيائهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدَورهم ليعودوا يوما -إن عادوا-يضعون هداياهم على الرمل.
بالكاد تغيّرت الطقوس والحذر من الشبيه المختلف قارّ ثابت.
كأنني أسمع الأسئلة الصامتة تتدافع في ذهن حارسة وطنها: ما سبب قدومك لحرّيَتستان؟ زرتَ قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان. ونفاقستان أيضا! ماذا فعلتَ في هذه البلدان؟ مَن تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل تنوي قلب نظام الحكم؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل كنتَ ستخطف الطائرة ولم تجد الشجاعة أو السلاح؟ هل أنت مشبوه في بلدك؟ هل تحمل قنبلة؟ لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيّفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكّد أنّك لا تحمل فيروسات أو قنابلَ؟
تتوجّه إليّ الموظّفة العابسة بعد أن أشبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا ودراسة وتدقيقا.
- انتظر سأسأل رئيسي. على فكرة، أنت لا تنوي زيارة مزرعة؟ أنت لم تأت بفواكه مشبوهة وبذور غير مرخّص بها؟
تعود الشرطية بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:
- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلّنا نحتاجك في أمر ما.
أخيرا هذا البلد أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جئتُه متعللا بالبحث عن العلم. والحال أنني لم اقصده إلا للضياع في غاباته.
لم يبق لي إلا بضعةُ كيلومترات بالحافلة لأصل المدينة التي سينطلق منها بحثي عن ممالك الأشجار الباسقة.
أتوجّه لرفيقة الطريق مداعبا مستفزّا.
- مِن الظلم أن تتمتّعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري القاحلة. بدأتُ أخطّط للغزوِ والنصر المبين. المشكلة أن جِمالنا لا تعرف السباحة. كيف لها عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح-تحسّبا لغزونا؟
- أخذتم الصحاري الصفر بنفطها وأخذنا البيض بمائها. قِسمة عادلة.
فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها:
- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!
- حذار، هذا الذي ذقتَ أنيابَه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلتَ مصرّا على غزو غاباتنا؟
- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قولي لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟
- إنه حشرة كلّفت شعبنا من الموتى ما لم يكلّفنا أصحاب الأرض الأصليين. اسمح لي بأن أقدّم لك البعوض الأكبر: المار نجوان.
- بعوض! تسمّون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ طمئنيني. هل النزل مَحمي ببطاريات صواريخ مضادّة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغابة مجدّدا إلا مسلّحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى. سأحتجّ على وكالات الأسفار. ما هذا الغشّ؟ مَن تصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنّة والحالُ أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة -على الأقل-ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايُل موصوفة.
تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال.
- لا تعجل بالاتهام واللّوم. كل ما هناك أنّك أتيتَ في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.
- تقصدين أنه انتظرني حولا كاملا وأنه ترصّد قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم.
عالم رائع حقا لكن لا مَوطئ قدم فيه إلا وحولك ضرورة كائن يخدش أو يقضم أو يعضّ، وإن لم يجد ما يمتصّه منك، أصدر طنينا مزعجا أو رائحة كريهة لمجرّد المضايقة. القاعدة هي نفسها أينما ولّيتَ وجهك: قناع جميل آخر لنفس اللّيث بارزِ الأنياب وأنت كالعادة تحسبه يبتسم.
بدأ حماسِي يفتر بهذه الغابات الكثيفة وبالبحيرات الزرقاء التي تنعكس على مياهها الوديعة قمم مكللة بالثلوج.
أقفز من جديد وأفظع الشتائم تتدافع مجدّدا على لساني:
- بجِدّ، كأنّ لهذا اللعين مشكلة شخصيّة معي، عجّلي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غيّرتُ رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.
- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.
- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجوان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يؤشّر لاتجاه النزل. انظر مليّا لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أُفرَغ من دمي! حذار قد أكون مضطرّا إلى مصّ دمكِ أعوّض ما يأخذه مني فيلُكم الطائر.

- من هنا الطريق.

طريق! لم يحذرنا الشاعر ماخادو أنه لا وجود للطريق، كل ما يوجد المشي.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتقنعني بصواب القرار، لا تعلمُ أنه لا أجهل منّي بقراءة الخرائط علما وأنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح.

أعود للمزح مع امرأة متوترة ربما لأنها لم تكن واثقة تمام الثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف، مشينا فيها جلّ النهار.

- ثمة أهم من خريطة موثوق بها ونعرف قراءتها وكان عليك أن تملئي به حقيبة الظهر قبل تطفلنا على مملكة المارنجوان.

- عمّ تتحدث؟ أخذتُ كل المطلوب من القهوة والسندويشات.

- أتحدث عن التعاويذ لتفادي الدببة التي قد تكون قد خرجت للصيد.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابرادابرام باتو باتتي يتاى متغقى".

هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريت ويصلح أيضا ضدّ العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي 543 فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة 798: "لايانايع لايس". هي صالحة ضدّ وجع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشرة للمراهقين وترهل الثديَين لمن تجاوزن عمرا معيّنا. لكن جهلي بالدببة لا يمكنني معه إعداد التعويذة الملائمة.

- إذن سيادتكَ تتحرك في هذه الدنيا مُلغيًا بتعاويذك كل ما لا يعجبك. عفوا لكنك هنا في بلد متحضّر.

يتعمّق الصمت والتجهّم والمرأة تعود لخريطتها تسألها عن الصراط المستقيم، لا تعلمُ كم عانى البشر بحثا عنه عبثا وسيواصلون.

أعود للمزح هذه المرة للتخفيف من توَترٍ انتقلت عدواه إليّ.

- هل تعلمين أن الأوائل، سامحهم آمون–رع، كتبوا دليلا مفصّلا وليس مجرّد خريطة بسيطة، بخصوص الطريق الذي يأخذه الموتى ليصلوا في الوقت وفي أحسن الظروف لمثواهم الأخير، بعد التغلب على قطّاع الطريق من شياطين وثعابين وخنافس؟ ألم يكن من الضروري أن يمدّونا أيضا بالذي نحتاج في هذا العالم: كتاب الأحياء؟ نَقْصٌ قررتُ أن أضع له حدّا.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- نعم، ويجب أيضا أن أعمل على خريطة جدية للعالم حتى لا يتيه فيه مزيد من المرتحلين.

بجدّ، مَن تَسلّم عند الإفاقة مِثل هذه الوثائق الضرورية للرحلة؟ ألا نَقضِي عمرنا في مزج قطع "البوزل" التي جمعناها ببالغ الصعوبة من هنا وهناك، فلا تتجانس فيما بينها أبدا، والحال أننا بأمسّ الحاجة إلى صورة واضحة عمّا رُمينا فيه. أليس وضع المرتحل شبيها بوضع سائح يفيق في محمية إفريقية وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ مَن يكون وماذا يفعل في هذا المكان؟ ما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يُؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي سيقوده إلى الهدف المجهول.

- معك حق، لكن شريطة ألا تكون خريطة مزيّفة. هل تعلم أن الإسبان كانوا يوَزعون في القرن السابع عشر خرائط كاذبة عن العالم الجديد، حتى لا يهتدي المغامرون إلى الأماكن التي كانوا يسرقون ثرواتها؟

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبوقنفيل وكوك وقبلهم بحارة العرب والفيكينج وجزر المحيط الهادي خرائط صالحة لاستكشاف أصقاع عالم لم تكن لهم عنه أدنى صورة واضحة؟ كلهم مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار والمحيطات اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مجهول إلا القليل من المعطيات والكثير من التهوّر. كأنّ قدرنا أن نشق طريقنا في هذا العالم مسافرون في نفق لا يعرف له منطلق أو منتهى.

- إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الآدمي وكتاب الحياة لحُسن التعامل معه، هناك غياب الأدلاّء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية-مَن يتسلّم القادم الجديد فيرميه خِفية في مَصبّ البلدية، أو يدخل به أوّل سوق يبيعُه بمقابلٍ بَخس، أو يجعل منه عبدا، أو يضيّعه في الطريق

عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نَقضِي جلّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلّاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟ مِن أين لي أن آتي لوحدي بكل ما تحتاجه الأجيال القادمة من أدلّاء يعرفون حقا أين هو الطريق؟

"ما زال على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)
لا يوجد في الدرب دليل هاد
كلٌّ متمسك بفرع واه
والدهر على نظامه المعتاد"

تهزّ رفيقة الطريق كتفيها وهي تطوي بعصبية لا تخفيها خريطةً لا نفع منها.

- واصل ثرثرتك، لا أحبّ اجتماع الصمت والظلام.

- أمرك. كم من مشاكل تطرحها عليّ وثيقةٌ بمثل أهمية كتاب الحياة وهي لم تر بعد النور! كيف سأحفظ حقوق الملكية في عالم مكتظّ بالناسخات والمزوّرين؟ هل سأبيع منها طبعة موجزة بثمن خاص للطلبة والفقراء؟ هل سأطرح للسوق نسخة مبسّطة للأميّين وأخرى "بالبرايل" للمبصرين؟ إنها مشاكل واجهها واضعو كتاب الموتى. ما يشجّعني أن منهم من أصبحوا أغنياء. يجب أن أدرس تقنياتهم.

تهزّ المرأة كتفيها مجدّدا. تعود إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد.

ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في فتح "الترموس" وارتشاف القهوة الساخنة جالسا على جذع شجرة ميتة أتأمّل الآدميَّ إذ أَغلقت عليه الغابة قبضتَها وتفجّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهَم وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج لا يُرجعه إلى نقطة الانطلاق.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند الرجال ونوبات الهستيريا عند النساء.

لا بدّ من خفض الاحتقان.

- أقصّ عليكِ طُرفة عن آخر مرة ضعتُ فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصلة التوغّل فيه حتى أتأكّد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟

نعم، قُضِّ لك يوما ممتعا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمرة، ماذا تسمّونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبّات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومربّى.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيا -لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجدّه كل تقنيات الجني والقنص-أصلَحُ من زوجها للمهمّة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: ماذا لو طلبتُها أن تعطيَني أيضا أحمر الشفاه لأصبغ به جسمي وأخرج إلى الغابة عاريا. يجب أن أطلب أيضا رُمحا وقَوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ آثرتُ الصمت وتوَكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أُولى غلطات اليوم وأنا أستفزّ آلهة الربوع، المحلّية منها والمستورَدة. خرجتُ إذن، بقفتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألعنُها في السرّ وفي العلَن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلُكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطَعمُها حامض وتلتصق باليَد تاركة بِقَعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبتُ -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها-على غصن تمدّ إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري. مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكّر من أين أتيتُها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كَونها في أقاصي الأرض و"ما" في طرَفها الآخر لا قِبَل لها بمساعدتي في شيئا. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الآدمي طوال سَعيِه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسَب اتجاه، ومواصلة المشيِ دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتُ على قدميّ منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرقُ يتصبّب منّي، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلّا إنه على يميني. لا، على يساري. النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدكَ البوليس بعد أسبوع تتماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟

- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوائل. الملاعين لم يتركوا لنا إلا الطرق المعبدة والحافلات المكتظة.

كأني بأشباح تَوَغَّلَت بعيدا في فضاء العَتَمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجّب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا ... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

- سهوتُ. واصل.

-كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مروّضا شَقّ فيه الآدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعذار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة مَن لا يعرف في أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

- مالك ممتقع الوجه؟ لماذا تأخّرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟

- أخذهما الدبّ. لا أخرج إلى الدببة في جبل بوقرنين إلا بالرمح، وترسلونني هنا لكل الأخطار أعزل. سأقول كلّ شيء ل"ما".

يومها ضحكَت المرأة الطيبة:

- آه منكم يا أهل المدن، تَضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبّعة صفراء.

تنفجر مرافقتي بضحكة متجهّمة:

- هذه ليست غابة صغيرة تحاصرها الحقول. إنها تمتدّ مئات الأميال في كل اتجاه. إنها، غابة حقيقية.

- من الأزل وطن السحر وموطن الساحرات، آخر معقل للثوار!

ترمقني مرافقتي بنظرة ساخطة لا تَخفَى دلالتها: لولاك أيها الغبي لما وجدتُ نفسي هنا، الله يلعن اليوم إلخ.

تعود إلى الحديث، تفتعل استعادة السيطرة على أعصابها.

- حظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه معدومة.

- لنتنفّس إذن بهدوء، ولنعمل الفكر لتحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي اخترنا؛ لا نحيد عنه قيد أنملة.

-كفى. انتبه لعلامات الطريق. لقد رَسمَته، بل قُل نَقشَته على أرض الغابة الخُطى المسرعةُ لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدّا منّا.

- إن رأيتَه فسأفتعل أنني لم أره.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنتِ في ورطة، أمّا أنا...

- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

أكبر مشاكلنا مع هذا الطريق اللعين. أذهبُ يمينا أم يسارا؟ أرجعُ إلى الوراء أم أبقى ساكنا بانتظار المفترق المقبل؟ كيف الخيار وجلُّ ما تعرفُ عن الطريق وتقاطعاته مصدرُه تائهون.

يتواصل المشيُ وسطَ أليافٍ وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا.

- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غبي؟ قد ننجح في تربية هذا المارنجوان السمين لتغذية أطفالنا، ففيه ما يكفي من الدم والبروتينات. تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب؟

- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وآنذاك حدثني مجدّدا عن رغبتك في العَودة إلى جَنيِ ثمار الغابة ولِبس جلود الحيوانات. حدَسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى شيئا عما قريب.

- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطبل الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة للاختفاء، خاصة وأن لي شاهدا.

- وما حاجتك إلى شاهد إن أردت الاختفاء؟

- هل أنا مجنون للاختفاء دون تَرك علامات؟ ألا تعرفين أن الآدمي لا ينظّم اختفاءه إلا ليثير في الناس فضول الجريِ وراءه؟ كل ما نفعل تمثيلٌ على أنفسنا وعلى الآخرين، والاختفاء لا يشذّ عن القاعدة. لكنني الآن صادقٌ قليلا، أو على الأقلّ أكثرَ من المرات الأخرى.

تهزّ المرأة كتفيها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخَوف الطفل التائه في الظلام.

- الليل يداهمنا، يا يسوع!

- نعم، لنُصلّ ليسوع. سمّره ثم اعبده. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. لله دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟

- عمّ الظلام وهدّني التعب. لم يعُد لنا من خَيار غيرُ التوقّف وانتظار الفجر والفرج. يا إلهي، الغابة ليلا ولا نارَ تدفع عنا أنياب البرد والدبّ.

إذن هذا هو العالم الذي جرّبه الأوائل كل الليالي. هكذا هو عندما يلبس أوحشَ قناع. هكذا هي الأحاسيس البكر من الرهبة والانتظار القلِق والخوف من بروز دابة من الظلام الدامس.
نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر حذِر. ثم العودة للبحث عن الطريق اللعين بعد ارتشاف ما بقيَ من قهوة، وقضمِ ما تبقّى من السندويشات.
- آه، عادت الابتسامة إلى شفتيك.
- أخيرا، ها هو الطريق. يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!
- أليس هذا ما نفعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكلَ الحقيقيَ لكل طريق؟
- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة وسيجارة و"بفتيك" بحَجم ملعب تنّس.
- شهية طيّبة، أما أنا فعائد أدراجي. ما أعمق ما عشتُ هذه الليلة. ما زال لديكِ وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الوراء.
- خذه أنت.
- يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالَي، كوني بنتا طيّبة. مَن سيطبخ لي المارنجوان ويكوي جلود الحيوانات التي سألبسها؟
- لو كنتَ تعرف على الأقلّ كيف توقد النار!
- لم أتمعّن في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.
- شكرا على دعوَتكَ، والآن تدبّر أمركَ.
- كيف أتدبّر أمري هذا؟ لا يضاهي جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكَيفيَة خَلق امرأة من ضلعي.
- هذا شغلك، أما أنا فمُهرولة إلى النزل. واصل أنتَ الطريق الذي تختار.
- تقصدين أواصل الطريق الذي اختارَني.
- إلى هذا الحدّ تؤمن بالجبر؟
- موضوع قد نخوض فيه أمام "البفتيك" الذي تَعِدينني به. آه منكم يا أهل المدن، تَضِيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصفّارة وقبّعة صفراء.

*

من أروع البطاقات البريدية المتراكمة في ملفاتي عن أجمل الأماكن التي قادني إليها الطريق.
يبسط الطريقُ إغراءاته دَوما أمام الماشي، يَعد باستكشاف مَعلم آخر لا يقلّ فخامة عن كل التي وعدَ بها ولم يخلف الوعد أبدا.
على ذكر المشيِ، لِيُسمح لي بملاحظة بالغة الأهمية بخصوصه.
بجدّ، هل ثمة أصلح للاستكشاف من المشي؟
من مزاياه الكثيرة أنه مجاني وتحت الطلب في أيّ وقت نشاء، وخاصة أنه فرصةٌ للاختلاء بالذات.
لا أتذكّر أن فكرة هامّةً أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن الفَوضى التي بداخلي، اكتسبَت بعض النظام إلا إبان المشي.
يكتبون بأيديهم وكلُّ ما كتبتُ كان برِجليّ.
ومِن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر.
لا خيار للفرار من العالَم غير الركض ولا إمكانية للقائه غير المشي، وأَحسنُه الأكثر بُطأً. كم كان أوائلُنا محظوظين والعالمُ يكشف لهم روائعه خطوةً بعد خطوة، وهم كمن يتذوّقون أفخم مأدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غَصّوا ببعضها أحيانا.
المشكلة مع هذا المعلَم من العالم الذي أمشي إليه، أن الطريق فيه ليس متّجها إلى الأمام وإنما إلى فوق.
شيئا فشيئا تتمرّد الرئتان وقد أصبحتا تتنفسان الماء بدل الهواء. يصرخ القلب أنه على وشك إعلان الإضراب العامّ. يحتدّ الصداع ويتفاقم الغثيان والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس وكأنها على سطح كوكب من مجرّة العقرب. لم يَعد أمامي من خَيار غيرُ رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بثِقَل عمود من الرخام. أرمي كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثّر. مَن كان يتصوّر عند الإحرام أن الطريق سيكون بمثل هذه المشقّة!
في مثل هذه الحالة يجب أن تردّد لنفسك تخادعها: ما تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أُقسِم أنها الأخيرة.
صدق من قال "لا وجود للطريق، كل ما هو موجود هو المشيُ". لا وجود للمشي، كل ما هو موجود هو الماشي. ما دُمتَ ماشيا فأنت موجود. يجب أن أنهض بعد كل عثرة لا ألتفت إلى ألم وما على الجِراح إلا أن تندمل وأنا أمشي، إلى آخر منعطفات الطريق، حتّى أَخِرّ على وجهي وقد تبدّدت مني آخر طاقة لمواصلة المشي.
يتوقف بي الطريق، لا لأنه انتهى، إنما لأنني أنا الذي أصبحتُ عاجزا عن أيّ حركة.

يا إلهي ثمة رحالة طلعوا إلى قمم تتعالى على هذه القمم التي هي في نظرهم هضاب؟
يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الآدمي، وكلُّ عقبة مآلُها التذليل والإذلال! لكن يا للأوباش، تنعّموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظّا بباصات السواح أو آخر فوق طاقاتي!

كأني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادِلَنا رفاهَك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهاقا وجوعا وعطشا ... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

لألتقط أنفاسي وأغتنم الفرصة لتأمّل كيف هو الطريق مِن هذا العُلوّ. لا أرى شيئا والسحبُ التي أصبحت تحتي تمنع النظر. لم يبق لي إلا تخيّلُ شبكة آثارٍ رَسمتها على البسيطة أقدامُ الحجاج والغزاة والصيادين والمهاجرين والمغامرين والسياح والتجار والمشرّدين والتائهين والمبشِّرين والفارّين من السجون والراكضين وراءهم وقُطّاع الطرق والمهربين وكل من تدافع من الآدميين على مرّ التاريخ لبسط سلطانهم على الامتداد.

ثمة أيضا الآثار التي رسمتها غزلان تركض عبر الأحراش وإبلٌ تمشي بكل وقار وخَيل وبغالٌ وحمير سجينة تئنّ بأثقال سجّانيها، ناهيك عن آثار دبيب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طيّ الكتمان والسرّ. أيّ مخيّلة قادرةٌ على استحضار أشباح مَن تتابعوا على الطريق وأعطَوه الوجود والشكل.

ثمة أيضا جبال فضاء لأفكار ولها هي أيضا كبار متسلقيها.

عن آدمي اسمه غاندي قوله: "الله بمثابة قمّة جبل وكل الأديان هي الطُّرُق التي تؤدّي إليه من هذه الجهة أو تلك... " هكذا بِقدر ما "يصعد" طاهر القلب راقي العقل إلى "فوق"، بقدر ما يقترب من القمة وأيضا من الآدميين الذين تسلقوا الجبل من جهاته الأخرى... وبقدر ما يبتعد عن الذين بقَوا عند السفح سواءً كانوا من ملّته أو من الملل الأخرى يوحّدهم جمود الفكر وغلظة القلب.

فجأةً يتسمّر البصر على سرب من الطيور يمخر عباب الفضاء في رحلة لا أظن مشاقها تختلف جذريا عن مشاق رحلتي. فوق هؤلاء المرتحلين يقال اليوم أن هناك أنهار من الهواء تلف وتدور حول الكوكب تحمل داخلها عددا هائلا من الكائنات الحية المجهرية يسمونها جراثيم وفيروسات وفطور وغبار اللقاح رسل أشواق الأشجار للأشجار. عالم مكتظ بقوافل ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس ترتحل من باطن الأرض إلى أعالي السماء لا أحد منتبه لغير هدفه.

والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار سأقطعها ولو زحفا على البطن.

خلفي وفوقي الشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أرى لأول مرّة أن لي ظلّ.

أخيرا المكان الذي أُوصيتُ، قُل أُمِرتُ بالوصول إليه وكلُّ مَن حملهم الطريق إليه كانوا مثلي حجاجا.

قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أَوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات، والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذ له من رسوم. أروع ما فيها تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة. العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة لا تكاد تلحظها، اختزلَها الرسام في خطوط كأعواد كبريت تظهر وتختفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمة دَوما شكل لا يكاد يُلحظ لآدمي يفضِّل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.

كم من رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسمُ عندهم صلاة المؤمن!

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه يبتسم (كيوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزيّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبالٍ كأنه نائم

كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة.

منهم مَن جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد.

يُقال إن أحدهم وقف مشدوها أمام المعلم ثم عاد طفلا فأخذ يصفّق صارخا: برافو الله!

أما أنا فبعد لحظة التجلّي التي كافأتني على كل عذاب المشي، لا بدّ أن أواصل الاستكشاف فهذا عالم يغطّي فيه دوما العجيبُ على الأعجب والغريبُ على الأغرب والرائع على الأروع.

قد يكون أصعب سؤال يُلقيه عقلٌ منتبه هو: ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل؟ بانتظار أن يجد أحدُنا ردّا وافيا لا بدّ أن يكون هو الآخر جميلا. لا خيار غير أن نعمل بتوصية الشاعر حتى لا نُضيع أهمَّ ما تُعوّض به الرحلةُ آلامَنا.

"عش للجمال تراه العين مؤتلقا في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)
وفي الرّبى نصبت كفّ الأصيل بها سرادقا من نضار للرياحين
وفي الجبال إذا طاف المساء بها ولفّها بسرابيل الرّهابين
وفي السواقي لها كالطفل ثرثرة وفي البروق لها ضحك المجانين
وفي ابتسامات أيار وروعتها فإن تولّى، في أجفان تشرين
لا حين للحسن، لا حدّ يقاس به وإنّما نحن أهل الحدّ والحين
فكم تماوج في سربال غانية وكم تألق في أسمال مسكين
وكم أحسّ به أعمى فجنّ له وحوله ألف راء غير مفتون
عش للجمال تراه ههنا وهنا وعش له سرّ جدّ مكنون
خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تماثيل من الطين"

*

لمواصلة الطريق يجب تسلق السماء التي ترعى بحنوّ بالغ هذا الجبل. أي خيار وانت لا تملك جناحي النسر غير السفر بالوكالة والحظّ لم يسعفك بأن تكون من بين نخبة من ا الآدميين الذين أخذهم هذا الطريق إلى أبعد نقطة فيه حاليا.
قد تجد بعض السلوى في إقناع نفسك أنك وفّرت عليها التعب والدوران، أنك ستتابع على الشاشة العملاقة من هذا المقعد الوثير ما يراه الرواد من المحطة الفضائية التي حرمتك الأقدار الظالمة من وصولها.
يخيّم الصمت على قاعة العرض.
فجأة يدوّي انفجار يصمّ الآذان.
تدخل رؤوس بعض النظّارة الأكتاف والصاروخ الجبّار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به كالرضيع بأمّه، وهي تهمّ بالقفز فوق الهاوية.
يخيّل إليك من فرط دِقّة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهيب النّار يلفح وجهك وبرائحة الدّخان تخنق منك الأنفاس.
تتابع كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدّخان وهو يتلاشى رويدا رويدا.
ثم ينفصل المكوك عن الصاروخَين الدافعين.
انتهت عملية القذف وتمركزت الكاميرا في موضع يمكّن الآدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغةُ الأرضَ، وكان من الأصحّ أن تسميه البحر.
إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين والجيَف، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت حتى وإن تعرف أن كل ما يتدافع على السطح لا يكفّ عن الصراخ.
يتضح من أول نظرة أن ساحة الرحلة مستديرة فعلا استدارة البرتقالة والتّفاحة والسوار والشمس والقمر. كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليلي! ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الآثار التي ترسمها من القِدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر فما بالك بالشبكات غير المرئية التي تتحرك داخلها البضائع والطاقة والأفكار.
على ماذا أركّز والذهن مشدوه مأخوذ بكل هذا الجمال المهيب؟
على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟
على البياض وهو كفَروِ دبّ أُلقي على كتفَي غانية؟
على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟
على الصفرة تضيّق الخناق على النهر الخالد كأنّها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟
على الحمرة التي استفردَت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟
فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعدّ للاعتداء المبين على الآدميين المساكين.
تدريجيا يمحو السواد باقة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الآدميين ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك.
هذه قارتي المنكوبة بأضوائها الباهتة المتفرقة غارقة في كل أصناف الظلام.
من يستحضر أن هذه القارة لم تكن دوما بالشكل الذي ترسمه خرائط العصر ولا أنها كانت مثل بقية القارات في الموضع الذي تحدده؟

ما نعرفه اليوم أنها كانت قبل أربع مئة مليون سنة جزءا من كيان ضخم واحد يضم كل الأراضي الطافية على سطح الماء ... أن هذا الكيان انقسم إلى جزئين ثم إلى عدة أجزاء تباعدت طوال عشرات الملايين من السنين لتستقر منذ عشرين مليون سنة على الشكل والتوزيع الذي نعرف للقارات والبحار والمحيطات.
ومما أصبح قناعة عند المختصين أن هذه القارات لم ولن تنهي رحلتها هي الأخرى في الزمان وفي المكان. هي تتحرك طول الوقت وإن ببطء شديد مقتربة من بعضها البعض لتعيد لحمتها يوم نكون قد انقرضنا فيه منذ زمن بعيد...ثم تتجدد الدورة في الاتجاه المعاكس وهكذا دواليك إلى ان تبتلع الشمس هذا الكوكب العجيب.
ومما أصبحنا نعرفه أيضا أن هذه الأرض اتخذت أكثر من لون طوال تاريخها الحافل. ففي بداية تكونها توشحت باللون الأحمر، لون حمم البراكين التي كانت أولى لبناتها ... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم ...ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحها تدشن عصور الحياة ...ثم باللون الأبيض في أزمان سؤدد الجليد والثلج... أخيرا لونها الأزرق الحالي منذ غطت المياه جلّ مساحتها.
ثمة من أهل الذكر من علماء المناخ من يتنبأ أن هذه السماء التي لا نتصورها إلا زرقاء نهارا ستصبح خضراء اللون تشرف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكثافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون.

صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقرضت على سطحه الأجناس بالملايين. آه تريد طرد مثل هذه الصور من فكرك. ليكن.

ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويتكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك.

أنت في هذا العالم كمن يدعى لمشاهدة فيلم وسط العرض ثم يرمى بك خارج القاعة قبل ان تفهم العقدة وتشهد الخاتمة.
مما يعني أن ما نراه لها اليوم من توزيع البحار والمحيطات وما استقرت عليه لبعض الزمان مرحلة من تاريخ لا قبل لعقل أو خيال بتصور طوله اتخذ فيها العالم أكثر من شكل ومن حالة...ونحن دوما من التبعات وحتى من أسباب كل تغيير.
كم هي بدائية تلك التصورات التي لا ترى في هذا الكوكب المستعرض مفاتنه أمام الأنظار المنبهرة إلا ديكورا وخشبة مسرح تتابع عليه كائنات من طبيعة أخرى برزت من اللاشيء أو من إرادة مجهولة.
ومن هذا العلو الشاهق توحي لي الصور المتلاحقة بسيل من الأفكار وكل فكرة أغرب من الأخرى تثير فيّ مزيدا من الاعجاب والعجب.
ما تعمى الأبصار عنه أننا أمام كائن ينبض قلبه قبضا وارتخاء، حرّا وبردا، خلقا وتدميرا، أن ما يتتابع على سطحه من أجناس فلذات كبده، أنها كلها أشكال-حالات من أشكاله وحالاته، كما هو شكل-حالة من أشكال-حالات ما تسميه اللغة الكون...وهذا الأخير شكل-حالة من أشكال-حالات ما ستسميه الرؤيا "الشيء".
هو لم يكن مقدّرا، حتميا، متوقعا، محتملا أو ضروريا. كان مجرد إمكانية من بين ما يحصى ولا يعد من الإمكانيات.
يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت ولا تزال من خوارق ومعجزات.
كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظّ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!
كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفّت، من صحاري تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل!
كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنت هامتها لتسوّيها بالهضاب وبالسهول!
كم تتابعت وانقرضت على سطحه، في أعماق بحاره وفي اتساع سماءه من أجناس حية تتبارى كلها غرابة وإعجازا!
كم من بشريات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوما تلفها الغرابة والأسرار!
"تحتي " أكبر رحم لا ينفك عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من أغرب الأجناس وأطرف الكائنات.
تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثّة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل.
كم هو فريد، يتيم، وهذا الكوكب، قد لا يكون له شبيه على الاتساع المذهل للكون !
ومع هذا ثمة من لا ينسى تذكيرك أنه مثل حبة رمل في صحراء الكون الشاسعة.

صحيح، لكنه أيضا مثل جوهرة ثمينة اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم الثمينة... وسواد درة الاونيكس... وخضرة الزمردة... وبياض اللؤلؤة... وزرقة الياقوت ...جوهرة ثمينة موضوعة على ستار لا متناهي من فاخر الدمقس الأسود مرصّع بالأنوار الآتية من ابعد نقطة على خطّ الزمان والفضاء اللامتناهي.
كيف لا ينتابك حبّ جارف لهذا الذي تدرك انه الوطن الحقيقي ...الوطن المشترك لكل الكائنات ..الوطن الذي لا مكان فيه لغريب . بعصوبة فائقة يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي التي يشكل لها أروع ديكور.
تفغر فاكَ دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف.
كأنّ "هذا الشيء" الذي رسمها-سمّه الفنان الأعظم إن شئت-أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشموس وفوانيس المجرّات...والنتيجة متحف رباني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.
كم غريب أن يثير الجمالُ فينا إن فاق حدّا، شعورا يقارب الألم !
ذات يوم في مستقبل ليس بعيدا سيرسل الادميون إلى أبعد من مليون كيلومتر مرقبا بثماني أعين وضعوا فيه كل عبقرتيهم ومواردهم ومجهودات دامت عقودا ليرصد لهم ما لا تراه العين المجردة ولا أكثر المراقب جودة على سطح الأرض والمكافأة صور لعالم يزايد فيه الجمال على الجمال والغرابة على الغرابة.
من ذلك المرقب وحتى من أبسط المراقب التي يتأمل من خلالها الهواة الروائع المرفوعة فوق رؤوسنا، تتسطّح كل القامات وكل الأحداث... تتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي ...ومع هذا...ومع هذا ... حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟

والآن إلى أين وقد أخذنا الطريق أو أخذناه إلى أبعد نقطة تدركها الحواس ويواصلها الخيال؟ خاصة هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟
حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟ أضف إلى هذا مشكلة أعقد: عدم ثبات الهدف على مكان. مما يقال إن النجوم والمجرات تتباعد عن بعضها البعض كشظايا قنبلة انفجرت منذ مليارات السنين. وممّا يقال أيضا أنها ستواصل الفرار في كل اتجاه بسرعة متصاعدة، أنه سيأتي ‘‘يوم" تغيب عن أنظار بعضها البعض لا قدرة لجار أن يدردش مع جار فصلت بينهما مسافات يستعصي اختراقها حتى على النور.
لنجعل طريقنا يسرع أكثر مما تسرع، يلحقها ثم يتجاوزها إلى أن تتوقف، فيتوقف خطوة أبعد، والكل يلهث ويمسح عرقه.
أمامنا الآن فراغ مطلق حالك السواد لا ترمق العين فيه منارة ولم يعد فيه كائن أو شيء أو حدث. أوصد المسرح نهائيا أبوابه.
انصرف الممثلون انغلقت العتمة على العتمة وتمازج المصب بالنبع.
ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفض عن ظهره آخر راكب. مجدّدا إلى أين؟ ...إن بقي في مستوى كهذا معنى لسؤال ووجود لسائل؟
ليواصل اللعين إلى حيث يتوهّم هدفا أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة من هذا الموقع على ما تركت ورائي أو تحتي .... صحاري مترامية الأطراف كثبانها مجرّات من كل الأشكال والألوان ورملها كواكب وأقمار وأحجار من كل الأحجام تذهل العقل. هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من هذه المجرّات توجد أو وجدت حبة الرمل –الزمردة –اللؤلؤة –الياقوتة التي انطلق منها طريقي وطريق كم من كائن شبيه.
هناك جرّبت الوجود لفترة زمان كانت بمثابة قبس من قبس، شرارة خاطفة انطفأت حال اشتعالها.
ما العمل وقد توغّل الطريق داخل مجهول مطلق لا قدرة لعقل أو خيال على تصوره؟ العودة من حيث أتينا نواصل استكشاف العالم الذي أفقنا فيه وأفاق فينا العزاء والسلوى أنه مهما طال زمن الاستكشاف هو الآخر لا يُستنفذ.

**

ارتطام الطريق بحدود العوالم العجيبة المجاورة لعالمنا

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرّد وعدِ يومٍ لا كَسَائرِ الأيام:
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميَة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.
أسرّ في أذن رفيقة الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكّون. ألا ترفض هي الأخرى تحمّل أدنى مسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميتها الكبرى، التي نحن بالطبع أثمن حيواناتها؟
- شتّ، لا تخلق لنا مشاكل مع قِوًى نحن في أمس الحاجة إلى حيادها، خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.
يهمس الدليل: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.
يبدأ المشيُ الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيًّا من هذه ''الوحوش'' التي جئنا نتطفّل عليها في عقر دارها.
تُبادرني رفيقتي ممازحة:
- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظًّا من رحلتنا إلى شواطئ ''هرمانوس''.
كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:
- انظر إلى هناك.
- لا أرى شيئا.
- دقّق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزبد المتطاير؟
هل أعترف أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام، ونزلتُ من السفينة الصغيرة أترنّح كأنني شربتُ كل الخمر التي حرّمها الدين وحرّض الشعر على تناولها؟
تمدّ لي المرأة بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:
- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.
- أيًّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقا في لقائي. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيَلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القردة احتفاء بمقدم الصديق الوفيّ.
- نعم، كيف لا تختفي عن الأبصار وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل البذيء الذي يسمونه "الصيد الرياضي" وأنك من كبار الأنصار والمعجبين؟
- رجاء قولي لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.
فجأة تقطع المرأة عليّ أفكاري وهي تنهر الدليل:
- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟
يردّ الرجل متحرّجا:
- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.
وحش؟ لله دركم أيها الآدميون. ما أبرعكم في قلب الحقائق. مَن عرف منكم جنسا فيه جلّادون باستثناء جنسكم؟ مَن سمع يوما بنمر نكّل ساعات طويلة بنمر آخر؟ لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل كلمة شتيمة؟
ربما "المتحركة غير الآدمية" للفصل بينها وبين "الثابتة غير الآدمية" كالأشجار والنبات؟ مصطلح جدّ دقيق، لكنه طويل، ولا أعتقد أن أحدا سيقبل به لهذا السبب ولأسباب أخرى كثيرة. حتى أنا غير راض عنه وهو يجعل منها فرعا بالنسبة إلى المرجع الذي هو نحن. هل ستستقيم الأمور لو سمّينا الآدميين "الكائنات-غير الحيوانية-غير الشجرية"؟
أخيرا يتسمّر الدليل مشيرا إلى مُبهم ما:
- سيّدي، انظر هناك!
- لا أرى شيئا.
- دقّق النظر يا سيّدي!
- في ماذا؟
- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!
- أه، تقصد هذا الخطّ.
- إمضاء فهد. هيّا. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب.

تختفي رغبتي في ملاقاة السكّان الأصليين، لعلمي بِطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء. نعاود التحرّك إلى الأمام والطريقُ يتوغّل بين أعشاب تحتضر عطشا. يهمس الدليل وهو يُنزل بندقيته عن كتفه:
- من هنا فصاعدا المشيُ دَوما ورائي. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرتُ بالتوقف، تَوَقّفَا فورا دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمَ هنا سبعٌ سائحة انجليزية متهوّرة.
أهمس في أذن رفيقة الطريق الجديدة:
- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.
- كن جديا، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصياد.
- وهل الغاب الذي جئنا منه حقا مختلف؟
يأمر الدليل باستراحة قصيرة. يختفي وراء الأشجار ليتبوّل مؤكّدا على ضرورة عدم التحرك بانتظار رجوعه وأنه بوُسعنا فعل نفس الشيء. أقترحُ على مرافقتي رفع الحرج.
- لا نيّة لي بدخول هذه الغابة، أخشى من إزعاج الفهد. أَديري لي ظهرك وأُدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.
نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوع الدليل بقلق متزايد لطول غيابه وقد اتضحت لنا فجأة ضرورة التأدب معه وحتى مداهنته بلا انقطاع.

من منا يتذكر ولو من حين لآخر أننا لا نتقاسم هذا الفضاء الحسي فقط مع كل البشر المتدافعين من كل حدب وصوب وإنما أيضا مع ما لا يخطر لنا على بال من كائنات لها نفس الحق في الوجود على سطح هذا الكوكب...من تأتيه الفكرة أن حديقة بيته التي يظنها ملكه الخاص مملكة ما لا يحصى من الكائنات المجهرية وأنه مثلها تماما مجرد مستأجر عابر مسموح له بالاستعمال المؤقت أبدا بالتملك.

تهزني مرافقتي تفضح ما بها من توتر متصاعد خاصة والسماء تتلبّد بسحب كثيفة ترمينا ببعض القطرات.
- تكلّم، ماذا تفعل بهذا العود؟
- أعابث هذه النملة التي غامرت بتسلّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضعُ شعوب هذه الحشائش بداهةً ليس أسهل من وضعنا.
- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تفترس الحشراتِ التي يضعها سوء طالعها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحنّ قلبك على الآدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقلّ-خَلقوا على هامش معاركهم شيئا اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقزّزة.
- تكلّمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله.
- تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.
- يا امرأة أيّ جنس يفوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرِب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بَنى الديمقراطية والاشتراكية وحقّق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعةَ والرعي والغزو والرقّ والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسيّر أمورَه على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبيّ؟ أليس هذا سرُّ بقائه منذ مئات الملايين من السنين؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.
تسحب المرأة المتوترة هاتفها النقال من جيبها. أبادرها أفتعل لومها.
- ألم نتفق أننا لن نحمل معنا هذا الهاتف اللعين؟
- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكامٍ إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقُل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خبرا ما...
- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي مَن أنا، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يريده مني من قرّر لي هذه الرحلة.
- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم. انتبه، ثمة حركة وراء الشجر.
تسأل مرافقتي الدليل المقبل (ضاحكة) لا تُخفي انحسار الخوف وعودة الصلَف:
- افترض -بعد الشرّ عنك-أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعا. كيف كنا نخرج من هذه الأحراش؟
- اطمئني، أنا مطالَب كل ساعة بمخاطبة المخيّم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردّد ما قلتُه هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرّك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأحراش بلا بندقية وخارطةٍ ودليل مَحض انتحار.

آسف، ممنوع دخول الأدغال حتى لقضاء الحاجة الطبيعية، في الخلاء فقط.
أجيل البصر حولي وقد اكتسب المكانُ كثافة أجّجت انتباها كنت أظن أنه وصل أقصاه.
يتواصل المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المجنّح؟ إلى مَن تَوجّه بالتهديد أو بالغزل؟ هل يُغازل نثرا أو شعرا؟ هل تكون -يا طير-أكبر شاعر في هذه الأدغال؟ الحيوانات لا تقول الشعر؟ ألم تسجّل الميكروفوناتُ المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع في ثرثرة بني موبيديك. ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟ بماذا تشعر وفي ماذا تفكّر هذه الكائناتُ وهل ثمة فلاسفة من بني حرية وآل ثبات تساءلوا هم أيضا ماذا نفعل في هذا العالم؟

أفيق على همسٍ صارخ للدليل:
- انظر هناك!
- أين؟
- تحت قدميك!
- لا أرى خدشا.
- هناك، هناك!!!
- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.
أثر آخر سينمَحِي قريبا. هو والآثار التي تركتها كلّ الكائنات على الطريق.
- لا يا سيّدي إنه لوحيد قرن. لننتبه، قد لا يكون بعيدا.
وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأجناس التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة. هم السابقون ونحن اللاحقون. التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجدَت يوما. على كل حال المحمية نفسها من الآثار. ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدَى عالم اختفى أو هو بصدد الاختفاء.
نجلس ثلاثتُنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا.
- هل تعلمين أن الفيَلَة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفَي سنة في البراري التي جئتُ منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلهيةَ الشعب أساسُ السياسة، فبَنَوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هائجة للتمتع بمذبحة تدوم أحيانا ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات الملاعب الرومانية على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين -نعم الملايين-من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِق "بزنس" كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئا فشيئا فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوَغلون فيها جيلا بعد جيل هربا من الوحوش الحقيقيين. هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناهم فيها. انتظري، مَن قال إن علينا تعلُّمُ حماية هذه الكائنات لا لشيء إلا لأن ذلك سيُكسبنا مهارات تمكننا من حماية أنفسنا؟
تُفضّل المرأة المرهَقة عدم الردّ خاصة والدليل يدعونا إلى مواصلة المشي.
- سيّدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات وحيد القرن الذي رأينا آثاره. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا.
انتباه متحفّز ثمنه توتّر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار.
ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظلّ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر وقلّما نجد صاحبه؟
بدأ الحرّ والفراغ يؤثّران على أعصابي.
(رافعا صوتي متوجها إلى الدليل المكسوف)
- طيّب والآن، لا أرى خدشا ولا آثار أقدام ولا خَرا!!
- هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار. انظر الآن إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدها.
- عظيم، عظيم!
نعود للمشي وسط فراغ متزايد الاكتظاظ بالأشباح. تفاجئني مرافقتي بسؤال يُلقى كأنه تهمة:
- هل ندمتَ على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدا، أفضّلها على طريقة الذين يتجوّلون في عرباتهم شبه المصفحة على امتداد طريق معبّد والحيوانات عليه كأنها في عرض أزياء. يتصورون هذه المحمية حديقة حيوانات. لكن لو فكّرنا: محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط.
حوار بصوت هامس لمغالبة الإرهاق والملل.
- انتبهي لطبيعة هذا المكان. تتصورينه كآخر معاقل الحرية، والحال أنّ الكائنات التي تعيش فيه في سجن أكبر ممّا يذهب لزيارته الأطفال. حديقة حيوانات وُضعت وسط الطبيعة لا مجرّد وسط المدينة، ولا وجود لأي منظمة تطالب بالعفو العام وإطلاق سراح سجناء أطوَل حروب الآدميين. هذه المحميات "بانتوستانات" للحيوان، لا غير. كم تذكّرني بتلك التي وُضع فيها بَشر سُمّوا "الهنود الحمر." يومها قيل أيضا إنهم سيكونون فيها أحرارا.
هذا الفضاء الحسّي هو أيضا وطنٌ لما لا يُحصى ولا يعدّ من الكائنات، وكلها بحاجة إليه مثلما نحن بحاجة إليه، تَصنع منه واقعها كما نصنع منه واقعنا. أليس بديهيا أننا نُسافر داخل عالم على تخوم ما لا يعدّ من عوالم، قد تكون بعدد قطرات ماء المحيط، قد تكون بعدد حبات رمل الصحراء، قد تكون بعدد النجوم في السماء. ربما حتى هذه الصوَر عاجزة عن تقدير عددها. دوار، دوار، دوار!
- واصل
- آخر سجن حيواني زُرتُه حبسٌ بخمسة نجوم اسمه طارونغا بُنيَ على هضبة غنّاء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك الحبس المتحضّر وفي ذلك البلد المتقدم-كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراحٍ شَرطيّ، ناهيك عن ظروف إلقاء القبض غير الشرعية! أتذكّر -بمنتهى الوضوح-أحد سجناء ذلك المحتشد الأنيق. كان كلب بحر، جُوِّع عَمدا، يَرمي له المروّضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الآدميين، والأطفالُ حول المسبح يصفّقون له فيقلّدهم سجين الحرب. كلما ازداد مَرحه ومرحهم رَمى له بسمكة أخرى لتشجيعه على مزيد من التهريج وتكلّف حركات لا وجود لها في قاموسه لتسوّل غداء مُنع بالقوّة مِن البحث عنه في لجّة المحيط. نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبَد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وجواد مخصيّ على المشي إلى الوراء. بعد التنكيل يعودون بهم إلى الزنزانة كما كانوا يعودون بي بعد حصص الاستنطاق. مَن قال:" الآدمي حيوان خان السلك؟"
- بهذه المقاييس كلنا مساجين، الفرق اسم السجن ومساحته.
- لهذا أقول بفتح سجون الآدميين للزيارات السياحية. على الأقل ستمكن مداخيلها -بعد خصم رشاوي الإدارة والحراس والقضاة-من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكّد منه أن مثل هذه الزيارات ستَلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات ستتدافع للضحك على السجناء ورميِهم بالحجارة وبالبذر.
- تُبالغ. تبالغ. تبالغ.
- أبدا، صدّقيني ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخانق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومِن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ثم مجدّدا من القضبان إلى الحيطان، ومن القضبان إلى القضبان فإلى الحيطان فإلى القضبان فإلى الحيطان.
- انتبه، بدأتَ تتكلم وحدك.
- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.
- أعراض ضربة شمس؟
- وجع ذكريات. وقفتُ طويلا أمام قفص الكائن الذي تسميه اللغة "الغوريلا" وهو جالس، ظهرُه إلى الحائط، لا يفعل شيئا باستثناء تحريك حصاة صغيرة بقطعة من الخشب، ويرمقني. يومها تلاقت النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. لحظتها غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و" الشيء" بما لا يدع مجالا للشك يحدّق فيّ يسألني: عرفتني، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها.
يا إلهي من ذلك الفيلسوف الشهير الذي طلع بأغبى فكرة عن الكائنات التي تقاسمنا الوجود مدعيا أن الحيوانات آلات بيولوجية لا وعي لها لأنه لا لغة لها؟ لا لغة! لا أحاسيس! لا مشاعر! لا وعي! لا ذكاء! تمام العكس هو الصحيح.
- وفي الأخير انصرفتَ مُضيفا إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضا أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامة وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجدَت في هذا السجن حياة آمنة لا يتهدّد نومها زئير الأسد؟
- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثرَ من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

تُرى كيف هو حس الكرامة عند الأسود؟ ما أعمق تبلّد من يعتقدون أنه ليس لبني حرية وحتى لآل ثبات أحاسيس ومشاعر، أنها لا تعرف الحبّ والكره، اليأس والألم، الحزن والفرح، الاستنكار وربما حتى السخرية. هل من الممكن أنّ عالم هذه الكائنات أحاسيس بكر، مشاعر بكر، في صفائها الأول، في عنفها الأول، أحاسيس ومشاعر سلمت من "تلوّث" الأفكار ومن "هلوسة" اللغة. آنذاك من الكائنات الأرقى، وأيُّها تعرف أجدر التجارب بالعيش: البشر أم بنو حرية وآل ثبات؟

قد نخرج يوما من ورطتنا الوجودية يوم يفهم البشر أخيرا أن هذا العالم مأوى لكل الكائنات العابرة ولكل الأجيال المتتالية... أنه يسخر من كل من يدّعي تملكه، والانذارُ الموضوع على باب الدخول واضحٌ كل الوضوح: للاستعمال لا للتملّك. أيكون فعل تملّك هو أصل كل البلاء والشرّ في قصة القصص.

فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطيع من الثيران الوحشية.

- نقترب لنرى بوضوح.

- يا سيّدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقى في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار. يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيّدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"، والمتوسطة الحجم وتسمَّى "نيالا"، والضخمة وتسمّى "كودو." ما رأيتَ واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرهقه طول افتعال التأدّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدّرون ضرورة التحلّي بالصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصرّ على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربع الخالي فتبعَه الصياد لا يصده الحرّ. استجار بأبعد أماكن الصحاري البيض فهرول وراءه لا يخيفه الجليد. استجار بعرض المحيط ففتش عنه وراء كل موجة. استجار بالجبال الشامخة فوَضع للإمساك به الأوتادَ على الجبال. استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جذوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلا. استجار بالصِّغَر فخلق له المجهر. من الفضاء تجسّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رَشق على ظهره واشيا إلكترونيا. كم من سُيّاح ومصورين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! أترى كل هذا الإصرار لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رفيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحمية. سمعتُ أن فيها قطعانَ فَرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستتبخّر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقا صفيرا عجيبا باتجاه كدس رمادي يطفو بعيدا على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكا:

- نعم أتكلّم "الهيبو"، أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيقترب، آنذاك قدِّروا المسافة. إن بقي بعيدا عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلّق أقرب شجرة.

تحدّق فينا الكائنات بتقزّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيدا داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوما أن أتكلّم الجَملي والحِماري والحصاني والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسَعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلّمني. لأجرّب أولى كلماتي بالهيبو. فففففيوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

- يبدو، يا سيّدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيتُ لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكّس الدليل رأسه. جرحتُه. متى سأتعلم مَسك لساني، ماذا لو ضيّعني في هذه الأحراش؟

يدخل الرجل قوقعته والطينُ يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلا لا يعرف يمينه من شماله.
لماذا تصرّ هذه ال"غير الحيوان-غير شجرة" على أنّ يَومها ذهب هباء لمجرّد أنها لم تظفر برؤية كائنات متحركة غير آدمية لا تولي أدنى اهتمام للكائنات غير الآدمية الثابتة في مواقعها كأنها لا تستأهل التوقف عندها الساعات وراء الساعات؟ ما أعجب تجاهل أغلب الآدميين لها، والحال أنها حاضرة بكثافة وتواصل على طول الطريق. من ينتبه إلى شجون الأشجار الأسيرة المزروعة على قارعة الطريق، لمشاعر التي تجتمع تحت أغصانها النساء والأطفال يجمعون حباتها السود المتساقطة على الحصير؟ أو لتلك التي تتدلّى منها العراجين الذهبية لا تبخل على الفقراء بالعراجين؟ بالكاد يعتبرها البشر كائنات حية وهي الحياة بزخمها وتنوعها وعبقريتها ولولاها لما وجدوا أصلا. من يعرف أكثر من ثلاثة أو أربعة أصناف منها، ولا أتحدّث عن جهلنا بأسمائها الفردية التي تناديها بها أمهاتها همسا؟ يقال هذه الأيام إن من سخّروا حياتهم بحثا في أسرارها لا يكادون يصدقون ما يكتشفون: أشجار تتبادل بينها المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أشجار تدافع عن نفسها تسمم الحيوانات التي تبالغ في قضمها، أشجار تتعاون مرة مع الفطور ومرة أخرى مع النمل وتستعمل الطيور لنقل أجنتها. كل هذا الذكاء الصامت في مواجهة غباء كائنات منتصبة على طرفين تتصور نفسها أذكى الكائنات وقد تكون أغباها. يوم جاءتني رغبة معرفة أمم الشجر وتاريخها، داهمني نفس الإحباط الذي داهمني وأنا أخطّط لمشروع معرفة بني عمومة لها تسميها اللغة "الأعشاب" و"الأزهار". استسلام غير مشروط أمام الشطط في التنوع، في الابتكار في الجمال، في الغرابة، في الإعجاز. كم ثمة هنا من أصناف غريبة منها لم أرها في أي مكان آخر. نعبر العالم ونحن نتصور اننا نلتقط منه بحواسنا وأفكارنا وخيالنا طبيعته الحقيقية والحال اننا لا ندرك منه إلا ...إلا ماذا؟ ما الجزء المتناهي الصغر والبساطة التي تسمح لنا امكانياتنا المتواضعة باستكشافه وماذا عن الباقي؟ آه لو كنت قادرا على الأقل على فهم الثرثرة الصامتة لكل هذه الأشجار؟

- يا رجل، قلت لك: انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكّر هذه المرّة؟

- في الطريقة التي تموت بها الأشجار. ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة. عشرة ألاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتدبيج تقرير له الحدّ الأدنى من الجدّية. آه، لو علّمَتني سرّها.

- ثم ماذا؟

في ضرورة العودة لعبادة الأشجار. ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موفّى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرةٍ عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدَّعي أنه ابن الربّ! بربّك هل في الآدميين ما يُعبد؟

يا إلهي! كل هذا الذكاء الذي تظهره الأشجار في توزيع بذورها لحفظ النسل وتوسيع رقعة التواجد تستغل النار والريح كما تستغل العصفور والسنجاب والقرد ...يا ألهي! كل هذا الذكاء الذي تظهره هذه الكائنات وهي تنسج في أعماق الأرض علاقات تكامل وتعاضد مع الفطريات وشبكات واسعة لتبادل المعلومات بين بعضها البعض ...يا إلهي كل هذا الذكاء الذي تظهره وهي تتنافس بشراسة لتحفظ وجودها في الوقت الذي تحنو فيه على بعضها البعض ...ثمة شيء مرهب مرعب في هذا الذكاء الصامت ...إنه نفس الذكاء الذي تجده عن كل الكائنات من أبسطها إلى أكثرها تعقيدا ...وهؤلاء الأغبياء الذين ابتلى بهم العصر الذين لا يرون في الأشجار إلا الخشب لصنع الموائد والكراسي!

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم ، أساسا الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطرّون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلنا نأمل بمستقبل للبشر أن منهم من يتجمعون آلافا يحتفون بالشجر المقدس، يتعبدون للقوى التي ترقد في الجذور والجذع تجدّد أزهارا سريعة الفناء، والزمن مختزل في اللحظة العابرة وعودتها ربيعا بعد ربيع.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاي هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنتُ الثلاث وعشرين سنة تقتات بما يرفعه إليها من مؤونة حفنة من العقال-المجانين مثلها. لم تقبل بالنزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها "لونا"لن تفتّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول "نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما قابلا للسكن، ونحن لا نتصرف كما يجب أن يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. "

- هل عندك المزيد من هذه القصص؟

- أذكر يوم مشيتُ وراء النخلة المقتلعة لحيّنها، وجرّار البلدية البطيء يسدّ الطريق، وطابور طويل من السيارات وراءه. كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.
بربّك، ماذا لو فقدت الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدّسها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئا باستثناء أن تمنحنا مجددا ظلّها وجمالها.
- هل عليّ أن أفهم أنك من عبدة الأشجار وأنك تحاول أن تملأ قلبي بالإيمان؟ لكن قل لي قبل أن أقبَل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة.
- كل صباح قبل الذهاب للمستشفى أرتدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر والكفار، لأن الأمر بشهادة الحرّاس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلّص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.
- وبعد الصلاة؟
- مُتقطعَ الأنفاس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردّدا في سرّي: يا سيّدي جوناس، يا سيّدي جوناس!
- مَن؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.
- جوناس، الاسم الذي أطلقته -هكذا دون سبب-على الكائن غير الآدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البطّ ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيّدي الخافي وسيّدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.
- أشجارك ومنها هذه التي تتبرك بها -إن سمحت لي باستعمال المصطلح المجمع عليه-فيها من يسمّم الحيوانات ومن يخنق أشجارا أخرى وكلها تتصارع بينها على الفضاء والشمس.
- ممكن، لكن هل رأيت يوما شجرة تقول كلاما بذيئا، أو تغنّي "أهواك وأتمنى لو أنساك؟"
آسف للخبر المفزع وهو أن أعلى درجة سلّم الكائنات الثابتة وبعدها تأتي الحيوانات وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟
- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضا فقُرّر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.
-تفسير منطقي. لهذا حاولتُ في هذه الرحلة أن يبقى ملفّي نظيفا علّ السلطات العليا لعلها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.
نعم، لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل سيكويا، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجذوري بعيدا في أغوار العتمة... في شراييني تتدفّق عصارة الحياة، محمّل بكل البذور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محميا بظلّي يفكّر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرّد، يتسلّقني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أُطعم من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو آمل شيئا... صلب، ليّن، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح والفراش والنحل رسل أشواقي... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل... منتبه، شارد الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوّي تلعثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.
يهمس دليل مكسوف كم أودّ مواساته:
- آسف. لا بدّ من العودة إلى المخيّم. التجوّل في المحمية ممنوع بعد غروب الشمس.
تتنهد رفيقتي هامسة لنفسها بصوت تريده مسموعا للجميع:
- يوم ضاع بين دليل لا يعرف يمينه من شماله وقرد سابق يحلم أن يكون شجرة.
- دليل لا يعرف يمينه من شماله! هل ثمة في هذا العالم دليل يعرف يمينه من شماله أيا كان الفضاء الذي يقودك فيه؟ كلنا تائهون نقود تائهين.
يهمس الدليل فينا بعصبية متزايدة:
- قلت آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.
عند وصولنا المخيّم تبادرني رفيقة الطريق محاولة افتعال التهكم:
- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خَرا وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.
هذه المرأة لم تتعلم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.
لا هدف ولا وجهة.

يغنم كل لحظة
ما تقدّمه له الحياة
- على فكرة هل تعرفين ما قاله لاوتسو...
- لا. كفاني استفزازات، اتركني أحاول أن أنام.
- من قال لك إنني أريد أن أنام... النوم في مكان كهذا! في ليلة كهذه! ما أفظعه تبذير.
تبادرني رفيقتي كأنها تطلب الصلح لسوء مزاجها المزمن.
- طيب، لكن لا تحدثني عن حيوان. كيف كانت جولتك البارحة في هذه الأسواق الإفريقية التي تعشق؟
- غاية في المتعة. كيف أصف طفرة الألوان والروائح والأصوات! مأدبة فاقت كل توَقّعاتي.
- هل وقعتَ في فخ شراء تماثيل تدّعي علاقة بالفن المحلّي وهي مصنوعة في هونج كونج؟
- فزتُ بما هو أحسن بكثير. انتهى بي التسكّع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم ووقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبث ساهمة بعصا ولا شيء أمامها. لما انتبهَت لوجودي حدّقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلّم: أتشتري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردّد: ليكن. التقطَت المرأة الغريبة بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض الأعشاب المحترقة. مدّت لي الكلّ في خرقة قذرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكّة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه.
- واصِل، المهمّ ألا يكون الموضوع عن هذه الحيوانات اللعينة.
- هل تتزوّجينني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.
- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهنّ، ثم هل ستقدر على مهري؟
- كم؟
- مائة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.
- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.
- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟
- قد لا أكون أحسَن مَن يَصطاد له، لكن يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن أُلَمّع حذاءه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغلية البيض أحسن مني.
- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمدّك بقائمتها الطويلة.
- هل سمعتِ بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذببة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتماثيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفنّ أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كُثُرٌ يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاقّ لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أنثاهم بثمن معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.
- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، ديّة من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.
- تَعادُل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتهن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أس البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون،
- فقط؟
- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة وال ستريت والمافيات آكلة السوشي وآكلة السباجيتي وآكلة الهامبورجر وآكلة جناح القرش.
- يا اللّه!
- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا.
- بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رنّة فخر كاذب وتأثّر مفتعل-تحرّر المرأة. هل لاحظتَ أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغّلي دماغك الأنثوي الصغير. تأمّلي أهم التغييرات المجتمعية عندما تُمكَّن الأنثى من حق الشغل-قُل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين." ستكتشفين آنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمّا خَطبتُ أُمّ تفاحة وتفيحه، كنت لا أملك شروى نقير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدُّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أُنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهَم أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

- سلّم عليه من طرفي وبلّغه تضامني وتشجيعي.

- كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيّلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطبينني من "ما". قد تخيّرك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أنصحكِ بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتنص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذينني عند أمّك مع بقية العفش، لكن انتبهي، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "ما" وما أدراك، وجداتي ينحدرن مباشرة من الجازية وبلقيس وعلّيسه.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكد أنها ستكتشف -طال الزمان أو قصر-أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، لم تنتبه للأمر إلا وهي تودعني عند باب المطار.

-كفى هذرا، والآن حاول أن تنام. غدا قد نكون أحسن حظّا.

إنها ليلة تشبه كل ليلة ولا تشبه أي ليلة. ليلة أرق تنتظرني رغم إرهاق يوم طويل، ليلة ستتضوّر فيها الأسود جوعا هي التي لا تصطاد إلا في حالك الظلام. ليلة تنام فيها الطرائد نصف مطمئنة والبدرُ المكتمل يدفع عنها رعب الأظافر والأنياب.

"الليل وطوله (شيكي)
والقرد يرنو إلى السماء حائرا
كيف الإمساك بالقمر؟"

*

من الغد توقظني رفيقة السفرة:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- صبرك، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

نزدرد فطور الصباح لننطلق مجدّدا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يقول عنهم الدليل إنهم يتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا.

ما أرقّ هذا النسيم. ما أروع هذا الهدوء. ما ألطف هذا الجوّ. يا ما في هذه اللحظات من سحر! ويريد هذا الكائن غير الشجري غير الحيواني أن نجري وراء شيء آخر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعدي.)

أي شيء أهم من التنعّم بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء. كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتنم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

- أسرع، الدليل واثق أننا سنعوّض كل ما فاتنا البارحة.

بعد أقل من ساعة مشي حازم يتوقف الدليل ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألتفتُ إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا.

- أنتِ، أمّا أنا فلم أصل يوما إلا بعد الأوان أو قبله.

- أتكون رأيتَها وترفض الاعتراف؟ فاجأتُك أكثر من مرّة تخلع نظّاراتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أرَ شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ. عمَّ تتحدّثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ برؤية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة آسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

يجب أن أواسي امرأة عادت لتجهّمها.
- أنشدك بعض قصيدة لأحَب الشعراء إليّ

قال البشاشة ليس تسعد كائنا يأتي إلى الدنيا ويذهب مرغما (إيليا أبو ماضي)
قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإنك بعدُ لن تتبسما

تهزّ المرأة كتفيها.
- أمَلنا الأخير في الكسالى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل الترعة وسيادتك تغطّ في النوم. آه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو،
- تغني أيضا!
- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سَحر جمالُ صوتها أُمّةً بأكملها.
يضع الدليل إصبعه على شفتيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمة.
هذه المرّة وصلتَ حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.
تنتصب عن بعد أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقا بالغة الطول ثبّتت عليها رؤوس ماعز أو غزلان كأنها جُعلت لرعي السحاب. تصطفّ على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال. فجأة يتواجه كائنان منها فيتقاطع عنق الأوّل مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نبتا في اتجاهين معاكسين. ثمّ تدير لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تختفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.
من جديدٍ، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه منذ مدة غير بعيدة "الشيء":

هل من حدّ لخيالك! هل هذه الكائنات التي جئنا نتعقبها وتلك التي تعوّدنا عليها وتعوّدت علينا مشاريع تجرّب عبرها إمكانيات خلق لا تنضب أبدا؟ في هذه الحالة ما الذي تجرّب في الآدمي بعد أن استنفذت الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال دون توقف من قطب إلى قطب؟

تصرخ مرافقتي:
- اللعنة، لم تترك لي الوقت لأخذ أي صورة.
يتوجه إليها الدليل بنبرة مَن نَفد صبرُه من الأبلهين:
- يا سيّدتي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيٌّ من هذه الحيوانات المقام.
لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان. كلّ ما في جعبتك اللعب على تنوّع الأشكال وتغيير المقاييس. هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ مثلا عالم بلا كواسر وطرائد، ومع هذا لا يختلّ له توازن.
تتوجه إليّ امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.
- على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتمّ بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.
- هل انتبهتِ أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.
- وحده شخص سيء الظنّ بالبشر وخاصة بقَومي يظنّ أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.
- اللغة أكثرُ مِن وَضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلّم ورؤيته للعالم وتعامله معه.
تغيرّ المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:
- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟
- أفضّل صورة مع الفيل والثور والكركدن والأسد، بمحض الرضا وكلنا أحياء نرزق. إذا رفضوا لي الأمر، فسأكتفي بصورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعبثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت عليّ جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون. أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي ترصد وراء الأعشاب، ثمّ سأصرخ مثل طرزان أنبهها لوجود لحم طريّ شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.
- انتظر تذوّقها وستعرف تكلفة بطء الآدميين في الركض هربا من الآدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لَعينة قرّرَت أن تمنع عنه بَقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق الفلاش أو الرصاص عليها.
ها هو يتسمّر من جديد مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:
- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.
تجثو مرافقتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:
- هل رأيته؟
- آه طبعا رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.
- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.
- اطمئني، رأيته الآن.
أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:
- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...
- الأبيض والأسود كلاهما رمادي.
- عجيب!
يتفطّن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطء الأحراش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمري لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟
تقطع عليّ رفيقة الطريق خواطري.
- واحد أفلتَ من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.
- لكنه لن يفلت من حنوّكم عليه فردا فردا بعد أن دمّرتم جنسه وبيئته أيها المتحضرون.
- هل جرحتُك؟ لا تؤاخذني. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألستَ من ألححت عليّ لأنظّم لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟
- كل الأمر توزّعي بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، والحرج. هل كنتِ تقبلين بأن يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطّشه إلى معرفة الآدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدوّنه لينال به الشهرة بين بني جلدته السميكة. على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركّز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.
- لهذا تحمل كل شيء لأنفك أو لفمك!
- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّرا على عجزي عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق السحب.
تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهنئ صاحبة البقشيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون.
النوع الأول صيد الأسد والنمر والفهد للغزال والكودو والحمار الوحشي. يتميّز بضراوة انقضاض الصياد وأناقة مراوغة الضحية، بسرعة مباغتة الأول وسرعة هرب الثاني، بالحسم السريع، بتجدّد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد أو بالخاتمة السعيدة للآكل والفظيعة للمأكول.
على طرف النقيض النوع الثاني: صيد تنّين الكومودو نوع من الحرباء انقرض إلا في جزيرة نائية في المحيط الهادي. ينهض الثور من رقدته في الوحل يدفع عنه هذا الدخيل القميء الذي عضّه في طرف وسبّب له جرحا بسيطا. هو لا يعلم أن الدم الذي يسيل منه رسالة تعبق بها الأجواء تدعو بقية القطيع من الزواحف الكاسرة إلى التجمّع وملاحقته بصمت طيلة أسابيع لا تضيّعه لحظة، تنهشه هنا وهناك وفي كل عضّة تحقنه بمزيد من السمّ الموجود في لعابها إلى أن تخور قواه فيسقط لقمة سائغة فتمزّقه المخالب والأنياب نصف ميّت نصف حيّ. مَن خَبِر البشرَ يعرف أن صيد الآدمي للآدمي يأخذ من تقنيات الأسد ومن استراتيجية الكومودو، والظروفُ وحدَها مَن تُملي الخيار.
يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل، وهل من الممكن أن يكون الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة. كلّا! فالفاعل لبؤة لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني آوى.
حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين، كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة، المسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمعنت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه. لا شيء في هذا العالم غير الآكل والمأكول، غير القتلة والضحايا، أهَمّ

فعل فيه كان وسيبقى قتلٌ والباقي من الأفعال تعاليق وهوامش، من هذا الغبي الذي قال: أنا أفكّر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.
فجأة تتحرّك بعض الأغصان فوقنا يتعالى منها صراخ منكَر.
يهمس الدليل: لا تهتمّا، مجرّد خصومة قردة الشمبانزي.
أهمس في أذن مرافقتي:
- على أيّ شيء يتخاصم بنو عمومتنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدّى الذي تهدد حدودَه المقدسةَ جحافلُ الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.
تضحك مرافقتي.
- ليس الأمر دوما هكذا. تذكّر ما يُقال عن طبائع بني عمومتنا الآخرين: البونوبو. عندهم يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه وتنتهي الخصومة في الحين. ما أن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى لشعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.
- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلِح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدّعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.
يلتقط الذهن الشارد آخر جُمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:
- حقًّا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القطط والعادةُ رؤيةُ البعض منها حتى أوّل يوم.
أتدخّل في الحديث:
- قطط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبّر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.
تهزّ مرافقتي كتفيها.
- قطط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.
- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر المارّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقتبل العمر لطراوة لحمهم.
- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطٌّ جائع من قطط هذه المحمية اللعينة.
- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، آه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجففه بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أفظع منه مذاقا، مالح، تتكسّر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرَت إناثنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

*

سمر الليلة الثانية

حديث هامس حول النار بين آدميَّين التقيا صدفة يتبادلان تجاربهما ومفترقُ الطريق على وشك أخذهما كل واحد في اتجاه.
- أما اليوم فأربع زرافات تبخّرت كما ظهرت ووحيد قرن تائه في غبار بعيد وبقايا جثة غزال. أي حصيلة بائسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.
- لا تكفّين عن الشكوى من غياب الكائنات التي جئنا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكّري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الحيوان الذي قَتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف مَن قتل، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعبناه في أحلى أوقات القيلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الغزالة التي لا نعرف كيف اغتيلت ومن قاتلها.
- هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع الأسد؟
- استحضري أيضا ما في هذه الغابة من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفرا لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا قِبل لنا بتخيله.
- كفى، أصَبتَني بالدوار.

- انتبهي لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظارتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرّب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكلّ هذه الأشجار التي تحفّ بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حجرك.

تشير رفيقة الطريق إلى الدليل بصدد إعداد العشاء.

- أرجو أن هذا الغبيّ يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألذّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغرائي بالادعاء أنك طباخ ماهر.

- ذكّرتِني على فكرة، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشّى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميّز إناثها بصبغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق.

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ.

- يا امرأة، رحماك...

يفتح طفل في سنته الرابعة أو الخامسة عينَي الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتفجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، وديعا، بريئا، كان يحنو عليه ويدلّله كما لو كان له الأب والأمّ. وفي هذا الملفّ المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادئ راض عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقدّر ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الآذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك من الآن إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصبان" لعشاء العيد! صوت الأم: يا بني هوّن عليك، إنه مجرّد ... أقصد أنه، على كلّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الآدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوّة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العنيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه لَما قبله. لا تكفّ دموعه عن السيلان يعذبه عجزه، هو الذي لم يقدر على حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والتقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقّف أيادي الأم والخالة والجدة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكف عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاد صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيَت أنها تناديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزّني مرافقتي من كتفيّ:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيّئ.

- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أرَ في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجزّارين.

- خاصّة إذا تكدّس عليها الذباب.

- لأنني منصف، سأسمح لكِ بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحَقٌّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزارين ببلدك وبلدي: محطّات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدّة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أمّ أو أخ أو أب.

- ارتفع صوتك والدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلتَ أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجزّار والشوّاء وروّاد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذتُ بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولية عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور عابرة ممتعة لقطيع من الآدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجزّار، ينتظرون أن تنفد لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها.
- غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل آدميين يتوقفون أحيانا للتبوّل تحت الحيطان.
- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديدمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقّا لصور منعشة للروح!
تضحك رفيقة الطريق إلى أن يتملكها السعال. أغتنم الفرصة للتنفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.
- أذكر أيضا يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الآدميين طبعا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممرّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرّد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ها هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتهوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء ميتة -أو هذا ما يتمناه لها المرء-وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموانئ. يتقدّم آنذاك الجزّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتتدفّق شلالات من الدم والرجُل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضع دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين.
ألم تنتبهي يوما إلى أن الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أَضرب بحذائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبح. لَمّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حنجرة الغزال -يَقتل الأول ويموت الثاني-يَحفُّ بهما وقارُ الصمت. أما عند الآدميين فيرفع القتيل عقيرته بعويل يجمّد الدم في الشرايين والقاتل يصيح كالمجنون يحيا الامبراطور أو عاش الوطن وحتى بلاهة من نوع يحيا الموت.
كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء -إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات-أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدّعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟
- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعا الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟
- أخيرا تعترفين بأنني على حقّ، بدايةٌ مشجعة.
- ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟
- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصّد بنا الكوابيس على الضفّة الأخرى.
على خط التماس بين الوعي واللاوعي أصبح صراخ الكائنات مفهوما. تحققت أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن ضرائب جديدة سيفرضها العالم على الكائنات، عن شجرة سنط شاهرةٍ شوكَها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الممتطية ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القتيل.
فوق الرقعة الكبرى لاعب الشطرنج مواصلا لعبةً تتزايد إثارةً وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بذاته، معها تارة، وتارة أخرى ضدها.

*

سمر الليلة الثالثة

قالت والنار تلتهم آخر الأغصان وشخير الدليل يعلو ويهبط:
- تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسَلية ورقيقة كتلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الآدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة حب ووئام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احكِ لي مَثلا عن دبّ النسيج الذي كنتَ لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.
- ليس لنا دببة في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفَوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرّين.

- ربما كان لكَ دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.
- أخشى أن تضحكي منّي إن حدثتك عنه، عِديني بعدم فضح الأمر.
تَعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة من بدايتها. كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي. كان جديّ لا يملك غير حوش متداعٍ وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقاتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنتُ باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرتُ تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أُدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكنا معهم. مِن يومها قطعتُ كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه. لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أذقتُه إياه من أصناف التعسّف والدلال. كان عنترُ سهلَ الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبيه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثمّ أُخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرتُ على أعداء أبي.
- هل كان جدّك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟
- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّعي-فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدّي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل يتشيطن عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبّي الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلّف الرسمي والوحيد بأن آخذه ليشرب من العين، والمشرف الأوّل على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القِرَب الرَّطبة المطلية بالقطران.
- توقّف، ستبكيني. لا أتصوّرك تَحدَّثت يوما عن رائحة حبيبة فرّقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثر.
- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحدّثيني عن النساء! آه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حميّر يُحضِّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد مَن تحنى الآذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! آه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميلَ الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من مفكري الآدمية وحكمائها، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. أقولها ولن أعود إلى القضية ثانية. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الآدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمّل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في خيال الثقافة البشرية لجنّة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجارَى في الشرّ اسمه الآدمي. الاستثناء الوحيد الفئران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة أخرى في خيال من يعشقها.
- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح!؟
-لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبالتأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية إناث الآدميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدّكن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسل... هل كنا نتعلم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصبح مزارعين وبناة قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاةً وفرسانا لولا مُطَهَّم الخيل؟ ...ألم تشكل الحيوانات النموذج والقدوة، ونحن نتشبه بهيبة الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ ...على الأقل رسمَ أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد. أما نحن أحفادهم الأغبياء فنضعها في الأقفاص أو نسومها خسفا بلا حياء أو عقدة ذنب.

- واصل القصة.

الفضل الأكبر.ألا تقول الروايات الجدية التي توصف بالعلمية وأن الأوائل لم يرتحلوا حبا في المغامرة والمعرفة وإنما حبا في اللحم ركضا وراء قطعان البقر الوحشي والغزلان وكل الحيوانات الطيبة المذاق ..أن هذه الحيوانات هي نفسها كانت تركض وراء الكلأ أرهقها الجفاف في قارة لم ولن يتوقف فيها المناخ عن التغّير ..ما أغرب أن تكون الحيوانات هي التي فتحت لنا الطريق واننا ندين باستكشافنا لروائع العالم لهذه الكائنات ..نعم ما أغرب أن رأس قافلة بني سفر لقرون طويلة لم يكن الدليل الآدمي وإنما غزالة أو جاموسة !

-أتعلم أن صمتك يضايقني أكثر من ثرثرتك؟

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محاصَرا قلت: لم لا أشتري حمارا أُسكِنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفّر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي نَكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيرا عرفتُ ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكلّف المشقة فبلدي يعجُّ بالحمير، بل منهم من تبوّأ أرقى المناصب.

- ذكّرتني بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنتَ ستفعل بحمار بَطّال يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحي. كان المشروع أن أُغافل في آخر هزيع من الليلِ البوليسَ السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيراني وكلهم مَيسورون لا يركبون إلا المرسيدس؟ ماذا لو تفطّن البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برؤاك دَوما معدومة. لكن لو كمشوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحَت معدومة ونصف.

- خاصة مع قربة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. دَيدن أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبنَ قوام الأفعال. المهمّ، تخليتُ عن المشروع برمّته ولم يبق لي للتنفيس عما في وجداني غير حمار الفلّاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتي على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمارَه أواصرُ نَسب بحمير الجنوب وربما -لم لا-بحمير قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرّد الصدفة دائما-من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الآدميين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

ثمة مفترق طرق في تاريخ هذا العالم قد نصل له يوما نقرّر فيه أنه بعد الغاء رقّ البشر قررنا الغاء رقّ الحيوان وأننا سنعيد للحمير والماعز والخرفان والبعير والخيل والبقر وباقي الحيوانات المستعبدة حريتهم ليعيشوا أحرارا في فضاءات هي نصيبهم الشرعي من عالم كلنا فيه ضيوف سواسية.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدباء التي حُكم عليّ بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جنح الظلام حيث لا يمكن للبوليس أن يتصوروني فارا إلا على متن سيارة. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أواصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعيس برمّته. تصوريني على عنتر الثاني متسكّعا بين المجرّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّدني، لا خصم ينافسني، لا نصير يبتزّني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنتَ تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب برجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تنحنح بوقار ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين دينارا. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عينيّ فسارع قائلا: إنه حمار لا يأكل كثيرا ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مئة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوى هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الآدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم. يومها جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أُجرته ولم أره

ثانية. ما من شكّ أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مراجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلّما تذكّرت الثمن الذي طلب.
- وهل كنت تريد الحمار مجَانا، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟
- لا تفتعلي عدم الفهم.
- بصراحة، هل كنت قادرا على دفع الثمن الحقيقي؟
- طبعا لا. من يقدر؟ مائة وخمسون دينارا لكائن له ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها!، ذلك الجلد الأعجوبة!، ذلك الجهاز المناعي العبقري!، تلك الحواسّ الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان!، تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورّثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الآدميون! حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تَطلّب ابتكارُها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمةُ تعقيدٍ مخيف يكتشفه الباحثُ، فاغرا فمه من التعجّب والإعجاب في كلّ خلية، في كل نسيج، في كلّ عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تُكلّف الملايين، ويقول لي هذا الآدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين دينارا!!!

إنه نفس الذكاء الصامت المبهر المدهش الذي تجده في أبسط الخلايا وأكثر الكائنات تعقيدا...إنه الذكاء الذي يكتشفه تدريجيا العلم منبهرا وكان الفنّ والشعر قد انتبها إليه قبله ...إنه سرّ الأسرار ومستودع كل غرابة الموجود وما وراء هذا الموجود ...ونقيضه-إذ لا بد لكل شيء من نقيض يقاس به -الغباء الصارخ الذي لا تجده إلا عند البشر...أنكون اغبى الكائنات ونحن مقتنعون أننا أذكاها ولا أكثر دلالة على غبائنا من هذه القناعة.

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.
-لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.
تستغرق المرأة في صمت طويل وكأني حيرت فيها أوجاعا قديمة.
- في ماذا تفكّرين؟
- في غباء تكلّفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أَقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.
- لا تغتمي، غدا يوم آخر سنرى أخيرا الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.
- غدا يوم آخر ستواصل فيه استفزازي. ليلة سعيدة.
- أي نوم بكل هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خفّضتم الصوت قليلا لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود.
- تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟
- ثمة من يهتف بسقوط الآدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديدا: Go home ،Go home ،Go home
تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم. لربما تلاقي فيها الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة.
آه يا صمت صحرائي الغالية!

في آخر المطاف ما الخاصية أو الخصائص التي تميز الآدمي عن كل هذه الكائنات الصاخبة والصامتة التي تحاصرني هذه الليلة بكثافة وجودها؟ ما الآدميون بالنسبة لها؟ أخطر الوحوش التي يأتي منها موت خاطف مُدَوٍ من بعيد لا تطالها أنياب ومخالب؟ من يعرف منها أن هذه الوحوش تسيّر دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها !

بغضّ النظر عن رأي هذه الكائنات فينا، *ما معنى أن تكون آدميا بالمقارنة؟*

كيف يمكن التعامل مع سؤال كهذا. لننطلق من كيف نحدّد ما معنى أن تكون رجلا.
تَفحّص المعطيات التي تعرّف هذه الحالة وستكتشف أنها تتعلق بالاختلافات الجسدية مع المرأة، بالاختلافات النفسية الثابتة والخيالية مع المرأة، بالخصائص المنشودة في الرجل التي تنشدها المرأة، أخيرا بالوضعية الاجتماعية دوما بالنسبة للمرأة سواء في المجتمعات التي تكفهرّ فيها الوجوه لولادة البنات أو في المجتمعات التي تحكمها النساء.
يُضاف لهذا ما تعيش الذات في أعمق أعماقها من تجارب لا تُقتسَم. من أين للرجل أن يعرف ما تمرّ به المرأة من أحاسيس ومشاعر وأفكار إبان الحيض والحمل والولادة والإرضاع؟
ثمة قَبول الدور الذي فرضته الفيزيولوجيا والثقافة، وتَقمّصه بكل سهولة وبسرور... أو عدم القبول به مع كل التبعات الموجِعة والرجلُ يريد أن يكون امرأة والمرأة تريد أن تكون رجلا: المثلية نموذجا.
وفي المحصّلة تكتشف أنك لا تفهم ما معنى أن تكون رجلا إلا في علاقة بنفس السؤال في المرآة: ما معنى أن تكون امرأة؟

هل أخطأنا الطريق ونحن نبحث في مرآة أشباهنا من الآدميين عمّا يجعل منا الكائنات التي نحبّ ونكره، التي نأمل منها كل الخير والتي نتوقع منها كل الشرّ؟
ألا يكمن سرّ هويتنا فيما يفرقنا عن الكائنات غير الآدمية التي تعيش على تخوم عالمنا ونعيش على تخوم عوالمها؟
طيّب، لكن أن تكون آدميا لا يُختزل في كونك لا تملك ذيل القردة وجناحي العصافير وأنياب الليث، فالاكتفاء بهذه الخصائص الظاهرة كالقَول بأن الرجل هو الكائن الذي لا يصبغ أظافره بالألوان الزاهية والمرأة الكائن الذي ليس له لحية وشارب.
نحن إذن في ورطة: لكي نفهم ما معنى أن تكون آدميا، يجب أن نفهم ما معنى أن تكون حيوانا أو شجرة.
لكن من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساءُ بالكاد يفهمن ما يختلج داخل الرجال والرجالُ بالكاد يفهمون كيف هي تجربة النساء؟
أضف لهذا أن سؤالنا يُحيلنا، إن تمعّنا فيه إلى أضخم إشكالية يمكن للفكر طرحها: هل ثمة ضرورة، فائدة، إضافة، غاية للوجود آدميا مقارنة بالوجود ״شجريا״أو״ حيوانيا ״؟

*

سمر ليلة الرحيل

نهار آخر من الغبار والحرّ وكثافة الغائب الحاضر، نهار انتهى ومعه العذاب اللذيذ.
في المخيم تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعبَ على الآدميين من التزام الصمت وهم جنبا لجنب.
- لننسَ هذه الحيوانات اللعينة. كلّمني.
أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أوّل نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكاري، وترتخي أعصابي، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل مَن حولي؟ ما أروع أن يكون لكل يوم نكهته، الذي ننتظر بفارغ الصبر، الذي نترقبه والقلق يعتصر الأحشاء، الذي نبكي منه، الذي نبكي عليه، الذي أحسنُ ما فيه أن له نهاية، الذي أسوأ ما فيه أن له نهاية، نعم ما أروع أن يكون لكل يوم طعم جديد ولو كان أمرّ من الحنظل.
- يجب أن يقتصر اليومُ على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. بربّك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غبيّة مثل الحادية عشرة صباحا والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ مَن بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكارى ومدبّري الانقلابات؟
- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحتفظ إلا بالسبت والأحد.
- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمّل بكل تهديدات الاثنين.
- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟
- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعلّقة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من الحياة. يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلا. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوما وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراما للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بأكذوبة ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحيي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحا والسادسة مساء ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقا زمنا رائعا وقد طهّرناه من كل وقت مضيّع للوقت؟
- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتك؟
- كل التي أعقبت ظهوركم، على الأقل التي دشّنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء العشرة آلاف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّري ثراءه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوري الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادُنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصيلة. تصوري الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادئا على السطح زاخرا في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحارٌ بصدد التصحّر

بجبال من البلاستيك.بصراحة ألا تعتقدين أننا نوع من الفيروس الخبيث داهم هذا العالم المسكين كما يداهم الأيدز أجسام المصابين بالمرض الخبيث؟
تواصل مرافقتي حثي على الكلام وهي بين فضول واستنكار.
-مسكين هذا العالم وقد تورّط فينا ورطة لا أدري كيف سيخرج منها. نعم، كيف سيحلّ مشكلته وقد أصبح وجود البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم.
- كيف؟ فسّر.
-يوجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلا بوباء لا يبقي ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطيئة الانفجار تبثّ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترول، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.
- إذن سيتحملنا العالم طويلا لأنه لا خيار له.
- نعم سيتحملنا من باب "مكرهٌ أخاك لا بطل." ألم تخالجكِ الفكرة يوما أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتقزّز والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتها إلا وانفجرت بالضحك.
- ما أنا متأكدة منه أنني لستُ العفريتة التي تصف بالنسبة إلى كلبي وأنني لو متُّ غدا لَحَمل الحداد عليّ.
- كل الحيوانات ومنها كلبك ستُقيم الأفراح والمآدب. لو اختفينا لما افتقدَنا إلا الجراثيم والطفيليات والفطور التي وجدَت فينا مرتعا خصبا، خاصة القمل ونحن مصدر قوَته الوحيد.

كم من آدمي يعرف أنه عالم بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعدّ وأغلبها ترتحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها ...كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترتحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- ما لك سكتّ يا عدو الله والبشرية.
- على كل الكائنات التي نكّل بها الآدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر، إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للآدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.
- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.
- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للدود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدَّ لتكون حاضنة الحياة.
تتنهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعترافاتها للقسيس أيام الأحد.
- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستتدارك حتما خطأ تغييبك عند وضع التصاميم.
- لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيتَ في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الآدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويبكون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم مَن أَقحَموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. لكن انتبهي. لي في كل القضايا رأي للصباح وآخر للمساء، لأوقات الغضب ولأوقات الرضا. تريدين رأيي الآخر أنقض به هذا الرأي؟
- ما نسيتَه أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجّد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرّة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدّد لكَ ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبّر على أضعفَ منها؟ هل رأيت صوَر الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صيّاد رهيب يصارع على الأنثى وعلى الغذاء بكل عنف. ثمّ مَن أدخل في صراع البقاء الشفقةَ غير الآدميين؟
- من قال لك إنني ضدّ كلللللّ الآدميين أو إنني متعاطف مع كلللللّ الكائنات غير الآدمية؟ أبغض -دون حرج أو عقدة ذنب- الذباب والبعوض وكل هذه الهوامّ التي أطلقَتها الإدارة العامّة وكأنها الأظافر المقصوصة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرأيتِ أقبح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الآدمي الجديد -بالمقارنة-آية في الجمال. والجراد، من أي مخيّلة مريضة خرج كائن كهذا؟
لكن بصراحة ...
- نعم، نكّلنا بالحيوانات لكنكَ نسيت أو تناسيت المعابد التي يقدسون فيها الفئران، الأطفال الذين يغسلون فيَلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حدب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر. نسيت رجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ألم تسمع

ببشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. نسيت أو تناسيت الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمور لغسلهم وتغذيتهم وأخذهم للفسحة في ضواحي الدير.
تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.
إنها العلاقة المتذبذبة منذ الأزل مع هذه الكائنات التي تشاركنا الوجود. مرة نجعلها آلهتنا ومرة نجعلها عبيدنا أو أشياءنا. مرة نرى بيننا وبينها أوثق وشائج القربى، مرة نتخيّل هوَة بيننا غير قابلة للتجسير.
- أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشي والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ.
- لا تنسَ ملفّ من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات القطع.
- وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنشار الكهربائي.
- ثمة وثيقة أخرى. هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك؟ أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسّ أخلاقي مرهف وخير فطري في الآدمي؟
- عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقديس فرانسوا، فاسرعي بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الآدميين الخاشعين. على الممشى وسط الكاتدرائية المكتظّة، يتحرّك طابور طويل وكل آدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقطّ، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار وحتى بجمل. عند الوصول الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد يبارك الآدمي ويبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبين للمتعبدين الصامتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أشكال لنفس الخالق.

ما سرّ تصرفات كهذه؟ لنقُل إنه كما هناك حمم تجد أحيانا طريقها للسطح فينفجر بها البركان، هناك داخلنا "شيء" مطمور في أعمق الأعماق يربطنا بجذع الحياة. هو الذي يشق طريقه نحو سطح الوعي عند البعض مخترقا الطبقة السميكة لتبلدنا المزمن فتأتي منه الرسالة والأمر... طالما هناك من يتقبل الرسالة ويفهمها، طالما بَقِيَ أمامنا أمل في الخلاص.

تجذبني رفيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.
- والآن وهذه آخر ليلة لنا هل لكَ أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟

أقول لها إنني جئت حاجّا لنقطة انطلاق الطريق؟ يقال أنه انطلق من أكثر من مكان في هذه القارة وليس من نقطة واحدة كما تخيل البعض ...الثابت أن في هذه الأرض أو في جوارها القريب نشأ وترعرع فرع من الأوائل... في هذه الأرض أو ما يشبهها تعلموا تقنيات البقاء على قيد الحياة... في هذه الأرض أو في جوارها القريب ظهرت الحاجة الماسّة إلى حماية قوة غيبية تحميهم من أهوال عالم مبهر مرعب فتشكلت النماذج الأولى للدين والعلم والسياسة... في هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والساحر يروي ملاحم كبار الصيادين...أقول لها إنني جئت أسأل هذه الربوع هل تحركنا هربا من الجفاف ركضا وراء البرق والرعد... أو فرارا من الكواسر والخوفُ يعتصر منا الأمعاء... أو جريا وراء الطرائد والجوعُ هو العاصر؟ ...أم هل كان انطلاق الرحلة بحثا عمّا هو أهمّ من الأكل والشرب وحتى من الأمان؟

-ما لك سكتت من جديد، تكلّم.
- الحقيقة أنني جئت لإثراء نص أكتبه عنوانه "الرحلة" أحلم باستجواب سكان المكان حتى أعرف كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومتنا المتأرجحين على الأغصان.
- خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.
-لم أكن جديا في حياتي أكثر من هذه اللحظة...

نعم كم بودّي أن أخرج من جسدي لأكتشف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس؟ ...كيف هي صوره داخل ذهن الفيل والنمر؟ كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم الشماء بعينه التي تُثبِت داخلها مجهر يبصر أدقّ التفاصيل؟ ... هل كنتُ سأفضّل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ ... يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما" ...حتى هي لن تستطيع لي شيئا... محكوم عليّ وعليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الآدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمنا، فمحرّمة إلى الأبد.

- جئتُ أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.
- جئتَ تبحث عن... الله... هنا؟

- أين تريدينني أن أبحث عنه؟ في معابد تفيض بموظفين يتمعّشون منه دون حياء وبشحاذين يتسولونه دون كرامة.

لا يبغّضك في السياسة قدر السياسيين إن عارضوا وإن حكموا... لا يكرّهك في العدالة إلا القضاة والمحامون... لا يبعدك عن الدين غير الكهنة والمتدينين... كأن هناك لعنة مصاحبة لكبرى المؤسسات والقضايا تجعل حراسها لصوصها ومدّعي حمايتها ألدّ أعدائها.

- ابحث عنه أين تريد أما أنا فلا أعتقد بوجوده أصلا.

- لا أغبى منكم أنتم معشر الملحدين. تخلطون بين حاجتنا إليه وبين تصوراتنا البدائية له، بينه وبين الفظاعات المرتكَبة باسمه، ترمون كما يقال الرضيع مع حمام الماء القذر.

- أما أنتم معشر المؤمنين فلا أذكى منكم. تتخيلون كائنا يعرفكم واحدا واحدا، يستجيب لطلباتكم، يقتصّ لكم من أعدائكم، يا للكسب السهل!

- أنتِ لا تدفعين نقودك لشِراء البرامج التي تخرب حاسوبك. لا تختارين إلا أجودها والتي تتماشى مع حاجاتك. هكذا ما فعلته الآدمية منذ البداية. شحنَت دماغها بالبرنامج الذي يكفل لها كل مصالحها في فضاء الواقع وفضاء الخيال. طبيعي أن يلقى النجاحَ الباهر حتى بالأسماء والتصورات الساذجة التي يسخر منها أمثالك.

- وما هي تصوراتك غير الساذجة له؟

-...

-تكلّم وعليك الأمان.

-التي تكفّ عن إلصاق الصفات وإضفاء الطبائع الآدمية على ما هو غير قابل للتوصيف بأي لغة آدمية ... خاصة التي تستحيي من إقحامه في صراعاتنا الدموية.

-مزيد من التعريف؟

-قال لا وتسو له كل الأسماء ولا اسم يستنفذه. لذلك اسمّيه "الشيء".

- وجئتَ إلى هنا لعلّك تقابل شيئك هذا؟

وأيُّ أرض تخلو منك حتى تَعالَوا يطلبونك في السماء (الحلاج)

يقولون إنك مخفي وراء ألف ستار لا يُقترب منك إلا بالعبادة والتأمل وأنا أراك كل لحظة وفي الجمال المبهر للعالم وفي كل كائن أعجوبة تبلورت فيه... كم أخطأ الذين جعلوا أولى خصائصك أنك غير مرئي، لا تُلمس ولا يُسمع لك صوت والحال أنك تخطف الأبصار لا أكثر منك وضوحا وتجليا ...

-أضاعنا الفلاسفة والمتدينون والسحرة الذين اختلقوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه. الحقيقة أننا لا ننتبه له وعندما ننتبه له، تحت ما يلبس من أقنعة وما يتخذ من حالات، يكون ما أسميه اللقاء ... معجزة لا أفهم طبيعتها، تحصل تلقائيا دون سابق إنذار.

- ومتى عرفتَ آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- لما مدَّت لي المرأة الغريبة حجيراتها وبعض العشب المحترق، شعرتُ بوجوده... وأنا أتأمل مشدوها الزرافات تشرب من الغدير، شعرت بوجوده.

- تُذكّرني بجدّتي جاثية في كنيسة قريتنا، مع فارق واحد. أنت طولَ الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله مَعبدُك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل اللقاء بين آدمي وآدمية تائهَين وضعَتهما صدف الطريق وجها لوجه.

- ونحن ندير الظهر لبعضنا البعض نتبوّل في الهواء الطلق تحت حراسة الدليل، أنتِ تُخفين حرجك وأنا أكتم ضحكي.

**

نقطة على خطّ الزمان

بخصوص علاقة الآدميين بالكائنات التي تقاسمهم هذا العالم وفي ملفّ ما زال بعيدا في غياهب المستقبل:
مُدنٌ مطوّقةٌ، محلات مغلقة، مستشفيات تفيض بالمرضى، شوارع مُقفِرة، ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفزعة عن كائن لا تكشفه أي من الحواس اسمه فيروس الكورونا خرج فجأة من المجهول ليصبح بين عشية وضحاها القاتل بالجملة، مفاجئا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول.
لا شيء يَختزل هذا التطاول على الجنس البشري وعلى صفوة من فيه قَدرَ وَضع أُمّة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تَدّعي أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها.
ها هو كائن مجهري خرج فجأة من المجهول ينقضّ عليها فيزهق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية...وبصفة عامة كم هي تافهة أوهام الآدميين عن تفوقهم المزعوم وكم يبالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هشّ وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم.
أنشتكي مما تفعله بنا الفيروسات ونحن فيروسات العالم الذي نتحرك على سطحه؟
ألم تحصد البشرية ولا تزال دون أن يرف لنا جفن، ما لا يحصى ولا يعدّ من أرواح بني حرية وآل ثبات ؟!
ما أسرع نسيان البشر لدروس التاريخ والآدمية عَرفت من قبل على مرّ القرون أوبئة فتاكة تسبّبت فيها كائنات مجهرية مثل هذا الفيروس حصدت منها عشرات الملايين من الأرواح مدمرة شعوبا ودولا وحتى حضاراتٍ بأكملها.
وهذه الجائحة كما لم تكن الأولى لن تكون الأخيرة.
الشيء المدهش القدرة العجيبة للآدمية على تضميد جراحها وتجاوز هول ما عاشت واستئناف مسارها بعد كل كارثة مهما عظمت-وكذلك الأمر مع ترتكبه تجاه نفسها من حروب-وكأن رغبة الحياة أقوى من ان تكسرها أشرس الأوبئة وأفظع الحروب.
من المؤكّد أن البشر في إطار طقوس الاحتفال بانسياب الزمان وعودته سيبالغون ذات ليلة لم تعد بعيدة في إطلاق الشماريخ والرقص والعربدة في الشوارع المكتظة لا تيمنا بقدوم السنة الجديدة وقد تعلموا الحذر من آمالهم العريضة وإنما لرحيل سنة شؤم رقمها 2020.

عن الأشياء التي يخلقها البشر لتعوّض ما فيهم من نواقص وكيف يصبحون لها عبيدا وهم سادتها

قد لا توجد سفرة تُجدّد فيك أقدمَ تجارب الأوائل وهم يصلون مكانا غريبا قدرَ التي تقف بك في مدينة نائية والليلُ أرخى سدوله.
تبثّ فيّ الساحات شبهُ المقفرة قلقا متزايدا. تتلاطم داخلي مشاعر مغرقة في القدم، عن أخطارٍ مُبهمة تترصد، عن وجع الشعور بفقدان التحكم والأهمية وأنت في مكان لا تعرفه ولا يعرفك فيه أحدا.
كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمَّى "ليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تضرب في الأرض ذات العرض والطول فإنك لا تغيرّ مكانك فقط وإنما مكانتك.
الآن وهنا، بغرابة سحنتي وجهلي المطلق باللغة، أنا أشبه بالحيوان أو بالمتخلف الذهني، آدميٌ أدنى درجات سُلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.
والآن إلى أين؟ حتى العلامات لا تعني شيئا وحروفُها مجهولة عندي.
هذا مارٌّ ربما يدلّني. أتوجه إليه بِلُغة يُفترض معرفة أغلب الناس بضع كلمات منها. يعرض عني الرجل وكأنّ الذي خاطبَه عفريت خرج لتوه من القبر. هذا آدمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيته المترنحة ما يجعلني أشكّ في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيّعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يعرض الرجل عني لا يُخفي خوفه.
يتفاقم شعوري بالضياع وأنا أدخل وأخرج شوارع متجهمة وساحات مقطبة الجبين. يصبح التنفس عسيرا مؤلما كأن جبلا جثم على صدري. يخرجني من تلاطم الأفكار بروزُ امرأة من الظلام لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرّب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي تحريك عنفهم الغريزي.
- سيدتي، أنا أجنبي مزمن، غريب محترف، لاجئ بالوراثة، منبوذ بالطبع والتطبع، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض، أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلّيني، جزاك بوذا وإله "ما" ألف خير.
المعجزة. المرأة بابتسامة عريضة:
- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أحبّ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.
- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.
- آه نزل السعادة الأبدية! لستَ بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.
(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثّر من رعشات اللذّة لهذه المرأة الصالحة.
تخيّلتُ أو سمعتُ المرأة تتنهّد هامسة لنفسها: آمين.
الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدّونك بها.
أخيرا النزل في ابتذاله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأغراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.
على فكرة، هل انتبهتَ أن الأماكن الآدمية، شُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي وسطح خارجي، أن اهتمام الآدميين منصبٌّ على السطحَين يتكلفون ما يتكلفون لتزيينهما، ينذرون أن لصاحب المكان مكانة، لكنهم لا يقدرون على شيء بخصوص الفراغ الذي تنغلق عليه الأسطح الداخلية.
إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قَصرٍ مزركش بكل أصناف الزينة وأغلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش. تقول لي: نسيتَ يا مسكين ما يتكلفون لتعبئته بأجمل الأثاث وأرقاه وأغلاه.
طيب، كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتماثيل الغالية واللوحات المسروقة من أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلّا في ماذا ستمدّ رجليك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض القصدير.
تقولُ بدأتَ تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين!
يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع. رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسمي رحلة نقل جسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلّمها ثم بسيارة أجرة لدفعه أخيرا داخل قفص بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الأشياء اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغَت متاعبه ومُتعته وإن لم تُلغِ خطر الموت الخاطف مذكرة أنه أيا كانت وسائل الارتحال فالطريق إلى الأزل والخطر سيّان.
لا يبقى عليّ إلا إلقاء الجسد المرهق على أريكة غرفة فيها برّاد زاخر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدفّعونني فيها ثمنا موجِعا عند المغادرة. يجب أيضا تعديل المكيّف حتى لا يضايقني التبريد بنصف درجة زائدة.
ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟
أضع على باب الغرفة لافتة "ممنوع الإزعاج"، وعلى الطاولة الصغيرة حذو السرير لافتة: "ممنوع الحلم".
من الغد يرنّ المنبه منذرا أنه آن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث تتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطاب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيَل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما سنصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتفل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقته الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبهٌ ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذَت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق.
آن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددتُ به عبثا كل السلطات ودعوتُ إليه كل المتمرّدين دون نجاح. ألستَ من يردد دوما أن السيد من يعطي المثل وليس من يعطي الأوامر؟ إذن لأعطِينَّ المثل. ربما سيتبعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحيّ، وهذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ربما ستفيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوءً مريبا في شوارع أقفرت وبيوتٍ أغلقَت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قرّرنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة وبأغلظ الأيْمان أنها ستغيّر جذريا في التعامل معنا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة.
تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرّت على عنادها خوفا من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيّعه في الجري وراءنا!
هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين، أما أنا فلافتة "عدم الإزعاج" موضوعة من الآن، والمعني بالأمر العالم كله، وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح. بدأ الإضراب التاريخي وسنرى موقف كل المعنيين به.
السؤال ماذا سأفعل بكل هذا الوقت وأنا رجل لا يكفّ عن الحركة؟ طبعا النسج على منوال ذلك الأرستقراطي المعادي للثورة المدعوّ دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوما في غرفته عقابا على خطأ ما، فتوكّل وجهّز نفسه لخير استغلال للوقت: استكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها. كان الرجل على حق في سخريته من الرحالة المغامرين -قرنان قبل المسمّى ليفي شتراوس-إذ لا يوجد فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غالَينا في التهوّر.
على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقرية؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسيُكتب في أدب الرحلات؟ وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقا ألفا في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا اللعين دوماستر شبه مجهول بين قرّاء لغة موليار فما بالك بقرّاء لغة المتنبي، وحيث أن احتمال ظهور ناقد يفضح السرقة شبه معدوم، فإنني قرّرت بكل أريحية نسبة الفكرة إلى نفسي وادّعاء أنني أولّ من دوّن لرحلة في غرفة نومه.
ها هي إذن رواية أول رحلةٍ الهدفُ منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق، ليس البحث عن الآدميين وبقية الكائنات وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه.

*

يبدأ الاستكشاف بتفحص أثاث الغرفة عَلِّي أكتشف فيها شيئا لم أره من قبل في كل ما عرفت من نزل. خيبة أمل عابرة. إذن داخل الحمام: حنفية، دشّ، ستار، مناشف، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة، موس حلاقة، معجون أسنان، كوب، حولي: سرير، أريكة، خزانة، كرسي، مكتب، دفتر، لمبة، برّاد.
يتوقف البصر مطوّلا عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقا رأي الذي سرق مني فكرتي وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. من أين له هذا وهي عقبة جبارة على الطريق، علما وأنه لا يوجد ما يكفي من الفضاء للجري حتى يمكن القفز فوقها. مما يعني أن المرء مضطر إلى تسلقها والنزول وراءها لمواصلة التحرك نحو الحمام. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الأرستقراطي الفرنسي الكسول.

اللعنة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب-أكثر من ربع ساعة، وذلك الآدمي ارتحل في غرفته اثنين وأربعين يوما كاملا! كم مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوما؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

أضيع في حساباتي ومراجعة نتائجها وكلها دوما متناقضة. فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعبقرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعفّف، فآدمي نزيه مثلي لا يسرق أبدا ما هو ليس بأدنى حاجة إليه (إلا في بعض الحالات التي لا يفهم دوافعها حتى الوعيُ الباطني)

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفيا للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل. كيف وأخطر من الدوار الملل؟

بصراحة ألا نقضي العمر نستكشف العالم كما أَستكشفُ الآن غرفة هذا النزل التعيس؟ كل ما في الأمر أننا -لحسن حظنا-لا ننتبهُ كم هو ضيّق فضاء الاستكشاف وكم هو مضحكٌ قِصر زمانه؟

أجلس على الأريكة أجيل البصر في المكان المغلق متسائلا عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة.

لا شيء باستثناء مشاهدة التلفزيون.

التلفزيون!

ما الذي تحاول الآلة تقليده أو التصريح به؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بيأس متعاظم؟ نعم، قد توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب. ألم تتابع آلهة هومير كبرى المعارك وزوس يحرّض هكتور وأبطال طروادة وبوسيّدون ينتصر لأقامنون وفرسان البحر؟

هومير! ما الذي نقصه حتى لا تنتصب على قمم جبال الأنديز، في كهوف اثيوبيا، في غابات كيرالا وسهول بريطانيا معابد المرمر الأبيض بدل كنائس الطوب والحجر؟ ما الذي حدث حتى لا تخرج جماهير هذا الزمان وراء مواكب زوس وأثينا؟ ما الذي جعل ملحمة الأم والابن تغلب ملحمة الأب والبنت؟ آه لو كان لك مدير أعمال كالداعية الداهية المسمَّى بولس! آه يا هومير، يا نبي بلا بخت.

آه لو كان هذا التلفزيون حقا ابن حلال وصديق الناس الطيّبين أمثالي وعرّيفا بأقدار الرجال، لَما بخل عليّ هذه الليلة -التي لا تشبه أيّ ليلة-بالفيلم الوحيد الذي يهمني: ملحمة الجنس البشري؛ وليأخذ كل الوقت لستُ في عجلة من أمري.

كأن جنّي علاء الدين هو الذي أسرع بتلبية الطلب. فجأة تمتلئ الشاشة بالصور والصخب.

يا جنيّ، قلتُ فيلما ينطلق من بداية الرحلة. يروي تطوّرها عبر العصور. يَصل إلى النهاية التي توصَف دوما بالمحتومة. وَعدٌ مِنّي أنني لن أبوح بالسرّ لأحد حتى لا أُفسد على الأجيال المقبلة تشويق قصةٍ يجب أن تبقى لآخر لحظة مجهولةَ الخاتمة.

ربما الأمر فوق طاقة المسكين. لا شيء على الشاشة غيرَ وجوهٍ تتتابَع بسرعة متصاعدة... وجوه ضاحكة، مضحكة، عابسة، مبتسمة، جميلة، قبيحة، بذيئة، نبيلة، مُنَفِّرة، مُحبّبة، مُطمئنة، مخيفة، مرعبة، راضية، ساخطة، متشنّجة، هادئة، حائرة على شفتيها ربع ابتسامة بوذا ومونا ليزا. إنها وجوه كل الذين ارتحلوا قبلي وكلِّ الذين سيرحلون بعدي!

كأنك أمام المحيط تستعرضه قطرة قطرة. كأنك أمام الصحراء تتفحّص هضابها حبة رمل بعد حبة رمل. كأنك أمام سماء ليلة صيف وكل نجم فيها يحتلّ كل الفضاء ثم ينطفئ.

فجأة وجهٌ كيف لا أتعرف عليه وهو وجهي بقسماته العابسة دوما وضحكه المكتوم على الدوام.

هو الآخر اختفى بنفس السرعة التي برز بها.

يا ألهي، كلُّ هذه الوجوه!

وجوه؟ بل قُل نفسُ الوجه على ألف شكل وشكل، على ألف حالة وحالة.

أفتحُ العينين والتلفزيون الغبي ما زال على لامبالاته بما آمُل أو أرهب معرفته.

يتفاقم الهاجس: ما العمل بكل هذا الوقت المترصّد بي؟ تقول: استعمل الهاتف لإزعاج الأحباب والأصدقاء. رحماك، لا أكرهَ عندي من التلفزيون إلا الهاتف وكم من أشياء غبية أخرى من نفس الصنف.

الأشياء! ماذا كتبت؟ الأشياء!

يا إلهي أدعو الناس لتنمية الانتباه ومحاربة التبلد وأنا أمرّ طول الوقت في قمة التبلدّ غير منتبه للأشياء وهي من أهم مكونات العالم الآدمي، وقد تكون فيها أهمّ المعطيات عن هذا الكائن الذي أوجدها!

طبعا جل أشياء الآدميين خارج هذا الملجأ: طائراتهم، سياراتهم، قطاراتهم، غواصاتهم، دباباتهم وكل ما اخترعوا من أجهزة وآلات لإحكام قبضتهم على العالم. لكن ثمة ما يكفي منها داخل هذا الفضاء الضيق للتمعن في أهم خصائصها واستعراض بعض الأفكار بخصوص سبب وجودها وماذا تعنيه بالنسبة لخالقيها.

التأكّد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟

من منكم اكتشف التناقض؟ تقول: لكن الشيء لا يغلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثَم جواز تسميته بالمفتاح. تَخلُّصٌ سهلٌ فهذا الذي أقصد صُنِع وطُوِّر وحُسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سرّي للغاية"، كل هذا خوفا من جشعكم وقلة أدبكم وفضولكم، أيها الآدميون الخطيرون.

الوظيفة الأساسية لشيئك هذا بما لا يدع مجالا للشك إذن، هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرَّفع المؤقت للإغلاق-فمِن المهام الثانوية، ومن ثَم دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل. كم كانت الرحلة تَسهُل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وطبقات الذاكرة، وآخرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارَها التعيسة.

ثمة إذن قصور لغوي قد يكون خلقيا وليس فقط مكتسبا، في تسمية الأشياء.

آن الأوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة أغالب به تسلّل النعاس. فرصة لأتمعّن فيه كأني أراه لأوّل مرّة.

بداهة الشيء الذي بين يديّ كائن مادي يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقا. هو يُحدث صوتا إذا ضربت جداره بالملعقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جُعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكّد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكلّف مشقّة جمع كل هذه القطع؟

" على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)
مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح
حديد بالٍ
أشلاء صحون
مواسير معوجّة
أسلاك
علب سجائر فارغة
حطب، بلاستيك
أوانٍ مهشمة
تنتظر البعث مثلنا"

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الآدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصِي أمرا ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا يوجد أيضا في عالمي الصغير؟ طبعا هذه اللوحة على الحائط التي تريد الإفلات من الجرد.

لنعدّد ما تحتوي عليه من أشياء لا يهمّ موضوعها أو جمالها: المسمار، الزجاج، اللوح، الورق، الأصباغ.

أين بقية الأشياء؟ هي داخل الأشياء نفسها. صحيح أن الشيء ملعقة، مكتف بذاته، ولا توجد أشياء داخله. ومع هذا أغلب ما أواجه به علَبٌ كبيرة تحتوي على علب أصغر، هي نفسها حاويات لمحتويات لا تحصى. ماذا لو بدأتُ بتفكيك التلفزيون؟ رفض الفكرة رغم إغرائها الشديد. ستتسبب لي في مشكلة مع إدارة النزل. أضف لهذا أنني سأكتشف داخله أشياء لا قدرة لي على تسميتها. كذلك الأمر مع الهاتف علما وأن رغبة تفكيكه أصعب مقاومة. ثمة البرّاد وما يهمّني فيه ليست الأشياء التي في جوفه. كلّا، إنها الأشياء التي تجعل من البراد برادا.

عودةً إلى نفس الرفض لنفس الأسباب المذكورة أعلاه، يضاف إليها أنه مستعص على التهشيم مثل الهاتف والتلفزيون، ولا أعرف فتحه على طريقة عمال الصيانة. ثمة إذَن خُبثٌ خاص بالأشياء وهي مثل الكائنات لا تُظهر لنا إلا سطحها محتفظة بأشلائها داخلها. من حسن الحظ أن هناك شيئا أستطيع البحث في أعماقه دون صعوبة أو خطر: حقيبتي.

يبدأ العدّ مباشرة بعد نفض بقية محتويات الحقيبة على السرير: جواز غير مزوّر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان أستاذ "أين في الناس"، كيس الملابس المستعمَلة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، بطاقة الطائرة، هدايا متواضعة طبق نحاس صغير منقوش، باقة ياسمين، علبة تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على

التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ؛ ليس داخل العلبة إلا تمر لذيذ يمكنني أن آكله كله بما أن أيًّا من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العامّ.
والآن ماذا داخل الأشياء التي أخرجتُها من جوف الشيء؟ آه ثمة في جيوب البدلة التي طويتُها بسرعة وحشرتها في الحقيبة هاتف نقال مغلق منذ أيام وبقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة.
المال!
إنه شيء يشبه المفتاح، لأنه يفتح أبواب الأماكن التي كدّس فيها الآدميون -على مرّ العصور-ضرورات الرحلة وكمالياتها، أي كل ما حرمتنا منه الإدارة العامة وهي تلقي بنا على الطريق حُفاةً عراة ولا حتى أظافر وأنياب محترَمة للقنص بالحدّ الأدنى من الجدية. دخول هذه المخازن وَقفٌ على من يملكون المفتاح. الحصول عليه بالنسبة إلى من لم يجدوه قُربَ المهد، أصعَبُ حتى من صَيد الكواسر بأظافرنا. قد يجد هؤلاء المساكين العزاء في فكرة أن المال الذي حرمَتهم منه إرادة غير مفهومة أو صُدَف عمياء، ليس بالضرورة خيرا صافيا وهو يتسبّب في كثير من المشاكل ومن أوجاع الرأس خاصة عندما يتعلّق الأمر بالحفاظ عليه من اللصوص ومن جباة الضرائب ومن الأطفال والأصدقاء المفلسين. أضف إلى ذلك أنه، وإن كان يسمح بشراء ما له ثمن، فإنه لا يمكّن من الحصول على ما له قيمة.
آه ليس هذا رأي الجميع؟ أي غرابة في الأمر وأنا لا أقول رأيا، حتى "اثنان واثنان يساوي أربعة" إلا وتصدّى له آدمي مقتنع أنني سيد الأغبياء وهو سيّد الأذكياء.
اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن ساذجا. أعود للعمل بعصبية لأكتشف كل ما سهوُت عنه: قنينة عطور، شامبو، علبة شكولاتة، أريكة صغيرة منزوية أفلتت من الرصد.
ماذا بقي مخفيا؟ لا شيء. هل تمزح؟ أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا وضعه في الصدارة، في الواجهة، على مرمى حجر، أمام أنفك وفوقه أحيانا، والدليل على ذلك أنني قلبتُ مكتبي رأسا على عقب أكثر من مرّة لاكتشاف أين ذهبت نظاراتي وأنا أرتديها.
ما الذي يحاول العالم إخفاءه عني؟ لا بدّ أن يكون الشيء ضخما للغاية وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. آه إنه جهاز التبريد طبعا. هو لم يكفّ بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء. لم تنطل حيلته طويلا. ها هو على رأس القائمة.
ماذا الآن عن الشيء المختفي في صغره البالغ؟ هل هي علبة الكبريت؟ أم هذه المشبّكات لمنع الأوراق من التناثر؟ أم هذا المسمار المسمى "بقة"؟ يا لي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. إنه بالطبع الغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل كل الفراغ بما فيه فراغ الكون.
لسبب مّا تثير فيّ هذه الخاطرة قلقا غامضا. أسارع إلى المرآة أتأمل شكلي مُقدّرًا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. تصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعيها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لآدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحاب خفيف! كم سيتطلب كنس هذه الوساخة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب! بالمناسبة، هل لاحظتَ أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلَق كلِّ شكل والشكلُ الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أَعِدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

*

يقطع عليّ أفكاري رنينُ الشيء المسمى "هاتف"، رغم أن الذي في جيبي مقفل بإصرار. تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الآدمية بالسراح الشّرطي وبالعفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترِع الهاتف وهو الذي دفّعه كل ديون الجنس البشري.
كيف لا أدعم الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات. نعم لا عدوّ لي بين الأشياء إلا هذا الشيء ولأسباب كثيرة منها المغرقة في القدم.
في ملفّات الطفولة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تنطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مُطرِقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "با".
في ملفّ آخر تهزّني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

كم من ذكريات بشعة بطلُها دوما هذا الشيء اللعين. يرنّ صوته في غرفة الحراسة. تصرخ فيّ الممرضة والساعة تشير إلى الثالثة صباحا: الرجل يفرغ من دمه. عجّل.

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أيقظني. أغلقُ الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين.

أهرول حافيا شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أشتمه. أفضل مبادلته صمتا بصمت، أنتظر أن يغلق هو الخطّ. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضّل عدم رفعه. يلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

تمرّ السنوات والعقود وهو دوما نفس الشيء السمج الحامل لكل خبر سفيه: سيّدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم. أرمي بالشيء على الأريكة وأهزّ كتفيّ: معاقبة؟ لماذا أكلّف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحقد لا يدمر إلا الحَقودَ والحسد لا يُذلّ إلا الحسود؟

يرنّ الشيء: آسف سيّدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحَهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.

من يستطيع الاطمئنان لشيء كهذا؟ تقول بأنني أتجنّى على جهاز يؤدّي خدمات جليلة، نعم؛ للآخرين، الذين يستطيعون مغازلة حبيبة أو الثرثرة مع صديق بلا مخبر يسجل كل كلمة يقولونها.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زلّته، تمادى في المعاصي. فعِوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبَى إلا أن يصغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل-عل حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب. هكذا أصبحتَ تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع. أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الآدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء يرنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكةٌ هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نقّالهم معهم مواصلةً لعادةٍ مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوطات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحه بحشو أذنيّ بكل الممكن من القطن والصمغ قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرهها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكره وآنذاك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكّد أن به عطبا ما. أقلّبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خَطبه إذن؟ لا أصّدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهُمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ وعليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيني الجميع. لم لا؟ سيمكّنني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرتها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوّالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب". الآن وقد طلبتُ نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتُها. آه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!

تقول: لا يكفي أن تكون سيء النية بالبشر والكائنات والآن بالأشياء. اعلم أنني لست ضد الأشياء ولا حتى ضدّ البشر الذين ارتكبوها. كلا، فأنا بشهادة نفسي رجل متوازن، يضع الوسطية والنسبية والاعتدال حتّى في شتائمه. مثلا أنا أقرّ بوجود أشياء لا ترنّ ولا تحمل الأخبار السيئة.

خذ السرير مثلا -أو الحصير بالنسبة إلى متطرفي الفقر-مَن منّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثا فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر"، والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنرتاح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوفّر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت.

مظلوم كبير آخر: الحذاء.

بخصوص هذا الشيء تحضرني قضية شائكة: قيمة الأشياء المقدرة بكمية المال الضرورية لاكتسابها. إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها.

مثلا كيف نقرر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفرادا وشعوبا لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل الموضوعية والثقافية والذاتية منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرههم التي تضطر مالكها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخا في وجه كل هذه النظريات مستخفا بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير حفيظة الرجال وغيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتمّ باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل ...ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء !

تخيل لحظة واحدة أنك تعبر العالم حافيا. تصوّر كم كان مشي الأوائل عذابا صرفا قبل أن يضع الحذاء حدّا له . لا غرابة أن يكون الحذاء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمل الطريق لولا هذا الشيء صاحب الأيادي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلصق بالشيء المسكين بل ثمة منهم من يذهب إلى حدّ رميِه في وجه كبار المجرمين وكأنه لا أحقر منه في الوجود. أعترف أنني من جملة هؤلاء المتبلّدين.
تداهمني صور عشرات الأحذية التي أَبلَيتُها على الطريق وتخلصتُ منها رميا في الزبالة لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دِين أو عِلم أو أدب ولا حتى موسيقى.
كم نُظهِر للأشياء من عقوق أفظع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجَهْنا بها الأشياء أو الكائنات.
تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.
ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القدّاس. يا له من منظر مَهيب والآدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظّف الحذاء ويلمّعه لأجله، هو الحذاء، لا لأغراض لابِسِه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قدميّ داخله رِفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح. ثم كيف سأواصل الطريق أحمّله التعامل مع الشوك والحصى والزجاج المهشم والمسامير وخرا الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟
من حسن الحظّ -وهذا ما يزيده قيمة على القيمة-أنه شيء ابن حلال بكل المقاييس (وليس كابن الكلب الهاتف النقال المذكور سابقا)

"وحده الحذاء القديم (روبرتو يواروا)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أواصل حافيا"

نقطة أخيرة. أنظر دلال الأشياء وهي لا تترك لنا خيار المواد التي نصنعها منها. أذكرُ أنني فتّشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء وواضح لما حباه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحلّ، وهو دوما متخلف عن متطلبات الوضع بسنين وعقود. صدّق أو لا تصدّق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مشّاء كبير وسريع ككاتب هذه السطور. إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات ذرية من الطين والقشّ حتى الصنف الجيّد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا، ثم يدّعون بعدها أننا نفعل ما نريد بها وأننا مثل الآلهة التي تقول للشيء: كن فيكون.
يرنّ الشيء المسمى الهاتف. أقرّر تجاهله ومواصلة تلميع الحذاء وأنا جالس على العرش الديمقراطي الوحيد معمّقا تفكيري في أيادي الأشياء علينا.
يمكنني أن أتابع سيل أفكاري لمواصلة تذكيرك بكل الأشياء التي تستعملها ولا تعيرها أدنى اهتمام، فما بالك بشيء من العرفان. الثياب مثلا. على أيّ حال مِن الاضطراب كنتَ سترتحل عاريا حتى وفي يدك نقّالك اللعين! من يقدّر اليوم قيمة الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات عصور ليست جدّ بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى الجثث

ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغانم. يكفي أن أنظر إليها مرمية على الأريكة لأقدّر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك من الآدميين -خاصة الإناث-مَن ينتبهون أكثر، لكنني أشكّ أنهن يُظهرن لها من الامتنان أكثر ممّا أُظهر. فالثياب دوما مجرّد أدوات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتميّز، أو لأداء مهمة قذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطَى للخادمة أو تُلقى في المزبلة. مَن أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطَواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمة أوادم يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرّد منديل، مثل المدعوّة هرتا مولر التي تستأهل جائزتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقنّعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداع نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلا فإنه يلفّ منديله حول يده. نحرّك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثّة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيءُ يوضعُ على عيني مَن خرَّ صريع الموت؟ مِن هنا فصاعدا إن أُصبتُ برشح سأضغط بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرّف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائلي الأنفية اللزجة الخضراء، أو أمسح فيه يديّ لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

تقولُ أنسيتَ شبه التقديس الذي يوليه بعض الآدميين للأشياء التي تصلح في هذا البلد لحفظ الشاي وإعداده وشربه؟ يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال كأنهم يجاهدون لإنقاذ مريض عزيز من الموت. يفضلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل. أنسيتَ ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء لأنها واكبت ماضينا، لأنها أصدق شاهد عليه، لأنها -خلافا للكتابة- لا تكذب عليه؟ أنسيت وضعها في المخازن والمتاحف وعلى أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟ أنسيت حب الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الآدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تَصلح حتى لنقل الكلام الفارغ. أنسيت أنها قد تلبيّ حاجيات مثل خطف الأبصار عند الإناث وإظهار الجاه عند الذكور، لكن الأصل فيها بحثُنا الذي لا يكلّ عن الجمال؟ أنسيت ما تَكلَّفه مِن مشاقَّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنَوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبّد لها؟ أنسيت كل الجهد الذي تَكلَّفه البشر في صنعها واقتنائها؟ فجأة أنتبه لإناء موضوع على رفّ. يبهرني لَمَعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جريا وراءه حِرَفيون صعدوا إلى الجبال يُنَقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونه منها، الشيء الذي استفزّ طوال قرون قريحةَ الفنانين وطمعَ الأثرياء وجشع التجار، الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار، الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرافئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدِّين العواصف والقراصنة، قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّر عليهم مغادرته ينتظرون أشهرا حمولات قوافل أشباه العبيد. الشيء الذي رجع به جشعون غرقَ منهم الكثير وغرقت معه أثمن بضاعة، الشي الذي مثّل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

طيّب، ليكن أننا أمام حالات تَطرُّف في عبادتها، ولنعد إلى تلك التي تأخذ منّا قسطا من الاعتبار ليس فيه إفراط.

اعتبر الكِتاب مثلا. مَن منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المربّي، الدليل الصديق، السمير والمنبّه الأكبر! كيف لا يكون المسافر ممنونا له، وهو الذي يأخذنا إلى كل زمان ومكان.

تصوّر حرج الوضعية لو خُيّرتَ عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدا بين فردتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج. أي حياة حافيا، لكن أي حياة دون كتاب الطريق، أجمل هدايا "ح"!

يعود الشيء إلى الرنين المطوّل غير عابئ -على ما يبدو-بازدرائي. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة. كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟

الساعة! ربما لم ألحّ بما فيه الكفاية على أن تصرفات هذا الشيء من أهم أسباب دعوتي إلى الإضراب العام. أستعد الآن لتصفية حساباتنا معه وكُلّي ثقة أنكَ ستوافق على كل كلمة من كلماتي. ها هي الساعة موضوعة على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة “اللمبة” أسلطها عليها كما تَعلّمتُ من المحققين في الأقبية المخيفة. لا بد من محضر مستفيض لكل جرائم

الشيء وهي لا تحصى ولا تعدّ ويمكن اختزالها في جريمتين. أولا التعدي على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق. ثانيا، ادعاؤها تمثيله، لكن مَن منكم توقّف هرمه عندما كسّر ساعته أملا في،

تيك، تاك، تيك، تاك. الساعة على أذني أتوهّم أن للزمان صوتا. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. متى انطلقَ العدّاد؟ ما ميزانيتي من الزمان؟ كم وُضع منه في رصيدي لحظة الصرخة الأولى؟

ما أقصر هذا الليل (شيكي)

تُرى كم بقي

لي من ليالٍ؟

حقًا يا شيكي تريد أن تعرف؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو فاجأك جنّي خبيث بالردّ.

تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. خطوة بعد خطوة تتوارى البداية، تقترب النهاية. حاوِل التوقفَ عن المشي وستكتشف أن بساط الزمان الذي تسير فوقه، هو لن يتوقف. حقا لنا حرية الثأر: إيقاف التيك تاك بمحض إرادتنا بحبل حول العنق أو رصاصة في الصدغ أو كيلوغرام من حبوب النوم بالنسبة إلى الإناث. لكن ممّن سنثأر والعالم بالكاد منتبه لقدومنا أو لرحيلنا؟

"نهار يزورنا كعابر سبيل (محمد برهان)

يفرغ ضوءه

فوق عقارب الساعة

يقضم شيئا من أحلامنا

ثم يمضي

حتى قبل أن نشعل

نار المضافة"

والآن التهمة الدامغة: أي زمن تقيس هذه الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدوَل؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الآدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جَريح ينزف أم الزمن المستنقع لأيام زنزانات العزلة الانفرادية؟

نقرأ لائحة الاتهام قبل الإدلاء بالحكم الجاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة -شأنها في هذا شأن كل الساعات-الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّةٍ لا يُعرف حتى عند النقّال، وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان عندما تتعطّل أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفكّ عن دفع الزمان قُدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ركيك يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهر جليد جامد منغلقٍ على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمعن في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...

يرنّ الشيء المسمى "هاتف" مغتنما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتنم لسان الدفاع الفرصة: نرجو من الجناب التسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الآدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الآدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأننا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.

لا يتوقّف الرنين هذه المرّة. على الأقل خَلّصَني من ثرثرة المحامي ضعيف الحجة. آن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدّعَى عليه، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تؤدي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حَكَمنا على الشيء الماثل أمامنا بالجنون المؤبّد.

كيف يمكن للساعات أن تُجَنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنتقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وتلقائية. والآن لَخبِط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-12-2-4-5-7-8-3-9-11-10-6. تأمّل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سنربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمني

نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادَرتَه منذ ساعتين وعندما تحتجّ ينبهك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولا، لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات.
أين القلم لأمضي به الحكم؟ آه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ آه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.
لكن أين النظارات؟ آه النظارات! كم من مرّة أسرَّت الأم في أذن الطفل المتهوّر، وبعد تجدّد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بنيّ أرجوك كفّ عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوّع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولاها لعبرتُ عالما ضبابه خارجيا أكثف من ضبابه داخليا.
آه كم كنت أفضّل أن تكون لي في حقيبة السفر نظارات تدقّق في ملامح الروح والفكر أو على الأقلّ لا تُكسَر، ساعةٌ تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، تلفزيون ليس فيه أخبار مجازر، قلم يقرأ أفكاري ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكيّ تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّنني من القفز فوق الجبال وفوق البحار، وخاصة هاتفٌ لا يرنّ وإن رنّ فلِخبر سعيد.
فجأة انتبه لغياب أشياء هي دوما جزء لا يتجزّأ من الفضاء الذي نلتجئ إليه عند حلول الليل؟ طبعا تلك التي نعلّقها على جدران كل بيت نسكن، التي نضعها في أجمل إطار على مكتبنا، التي نسندها رثة صفراء إلى صفّ كتب ليست بأحسن حال، صور الأحبة الذين يتعثرون في خطواتهم الأولى، صور الأحبة الذين رحلوا، الصور التي لا يتغير مَن عليها وأنت وحدك الذي يتغيّر. إنها الأشياء التي نتوَهم بها تملك جزءًا من الفضاء الحسّي كالغزاة الذين يرفعون عَلَما على أرض يدّعون أنها من هنا فصاعدا وقفٌ عليهم وحدهم.
كل هذه الصور الغائبة تصرخ الآن في وجداني: يا مَن دخل كالآلاف هذه الغرفة وسيخرج منها كأنه لم يدخلها قطّ، بالصور وبدونها أنت دوما في هذا العالم غريب ابن غريب ابن عابر سبيل.
كدتُ أنسى حاسوبي النقال رغم كل الخدمات الجليلة التي يقدمها لي.
يدفع الشيء بأوّل قطعة على رقعة الشطرنج. أدفع القطعة تلو الأخرى فتسقط بسرعة لا تصدر صوتا. هكذا يجب السقوط في ساحات الحروب بدون ضجيج مزعج قليلِ الذوق. يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كشّ مات. إنّها نفس مشاعر الهزيمة في معركة الجسد. خليط من المهانة والنقص والألم وشهوة الانتقام. أقرأ على الشاشة رسالة: أتريد اللّعب من جديد؟ أجيب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمنّي نفسه باستعادة كلّ ما خسر في الجولة المقبلة عبثا، والرسالة دوما نفس الرسالة: كشّ مات.
لأجرّب التهديد.
- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروسا فتصاب بالجنون مما سيضطرني إلى رميك في سلّة المهملات.
كشّ مات.
- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيدا محبوسا في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلّكم في كمبيوتر نقّال لفسحة نهاية أسبوع فلا تَقضُون العمر كلّه في هذا المكتب الكئيب.
- كشّ مات.
- وماذا لو زوّجتُك تفيحه. أترضى لصهرك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟
- كشّ مات.
الرابعة صباحا! أرهقتُ الحاسوب المسكين ومِن حقه أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضتُه عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب.
المشكلة الكبرى مع هذه الأشياء اللعينة تزايُد تعقيدها وذكائها ومن ثمّ وخطورتها.
من يتذكّر أن الفكر الذي يسكن داخل هذا اللعين كان لحدّ هذا الجيل موجودا داخل أدمغة متحصنة بقحف عظمي يحميها من الرضوض؟ ألم تعد تَسعه فقرّر أن يسكن أجسادا جديدة لأنها تمكنه من التفكير بطريقة أنجع وأسرع؟ هل سيبقى هذا الفكر مجرد امتداد وتحسين للطاقة الذهنية التي تسكن أدمغة الخلايا العصبية والشرايين، أم هل سيستقلّ يوما مُعلنا انتهاء صلاحية أدمغة الجماجم والأجساد سريعة العطب؟ تقولُ: لكن الحاسوب لا يحس ولا يشعر مثلنا، ربما انتبه الفكرُ المخفي الذي يبحث فينا وفيه أنه من الأحسن خَلق عالم بلا عواطف بعد أن اتضح أن أضرارها في تسميم حياة الكائنات فاقت منافعها في تنبيهها السريع للأخطار. ربما هو بصدد العمل على أحاسيس وعواطف أكثر صقلا وتشذيبا، ربما سيأتي يوم يصير فيه متيّما بحاسوب المكتب المجاور فتحدث مشاكل لا قبل لنا بتصورها إذا كان هناك حاسوب ثالث يريد أحد الحاسوبين لنفسه.

ها قد بَدأَت تتزاحم على حدود ما نسميه "الواقع" أصنافٌ متفاقمةُ التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغدا "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكيرٍ أسرع وأصفى من الآدميين، ولم لا على مشاعرَ أرقى وأفعالٍ أذكى؟

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزوا خارجيا لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاعَ حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلكَ والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيما تمهيدا للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدُنا آدمية اللحم والعظم إلى محميات من نوع "سانتا لوسيا" تأتيها الكائنات الجديدة للتسلية والتفلسف.

بالمناسبة يخطئ من يتصور أن خوف الآدميين من الأشياء أمر جديد والدليل على ذاك اسطورة شعب من شعوب جبال الاندز الموهيكا وتروي ثورة الأشياء بإيعاز من القمر واله بومة وكيف تمكنت من التغلب عليهم. كيف لا يخاف بشر الماضي العصي والسيوف والنبال والرماح وكيف لا يأتيهم الرعب وهم يتخيلون ما ستقدر عليه في المستقبل الحواسيب والروبوتات ناهيك عن هواتفهم النقالة التي ترصد تنقلاتهم وتنقل أسرارهم لمن يسوى ولا يسوى.

عَلى كلٍّ هذا مشكل الأجيال القادمة، تكفينا مشاكلنا مع الأشياء وهي ما زالت ملتزمة بالطاعة أو تفتعلها.

من باب توارد الخواطر. لبضعة عقود فقط لم نكن نعرف أشياء اسمها النقال والحاسوب والروبوت وها هي اليوم جزء من حياتنا اليومية. أليس ممكنا أن أشياء أخرى من هذا القبيل أو أخطر تنتظر الولادة.

على كل حال بما أن سنة الأشياء النشوء والارتقاء كما هو الحال بالنسبة للكيانات الحية وأن تطور الأشياء في تسارع مذهل فلي بعض المقترحات أعرضها على الأجيال المقبلة من كبار مهندسي فضاء الصفر والواحد تاركا لهم كل حقوقي المادية وحتى حقهم في انكار ابوتي للأجهزة الثورية التالية.

لنبدأ بأبسط جهاز يمكن تصنيعه في أقرب الآجال: المرشاف.

تسألني من هذا الرجل المكبّل بالأصفاد، ما الذنب الذي اقترف، ما العقوبة التي يجرّ إليها؟ إنه مثقّف مرتزق ارتضى لنفسه دور كلب ينبح ويعضّ كل من يتهدّد سلطان سيّده. ولأنه تعلم في مدارس الشعب الغلبان وجامعاته واستعمل علمه في خدمة طاغية يسرق ويضطهد ويقمع ويحتقر هذا الشعب، فإن المحكمة العادلة حكمت عليه بعقاب المرشاف وهي مصاصة مهمتها استرجاع كل المعارف من ذهن رجل لم يكن جديرا بها. تقول: هذا يعني أن المسكين! ... بالضبط، مُسحت ذاكرته وعاد دماغه مثل الصفحة البيضاء.

المطهار إضافتي الأخرى قل فضلي الآخر على الأجيال القادمة.

ما لا ننتبه له أن للروح افرازات مثل التي تخرج من الجسم باستمرار. كم مرة تشعر برائحة العفن تصّاعد من كلمات مخاطبك فتنتبه أن روحه هي التي ضرطت. كل هذا لوجود مواد تختمر داخلنا، والمختمر مشاعر كريهة وأفكار مجرمة. ثمة بالضرورة فضلات لمثل هذه التفاعلات يجب أن تجد طريقها للخارج وإلا تسممت بها الروح، تماما كما الأمر لو منع الجسم من البول والفضلات. من الضروري الإسراع باختراع أجهزة لتطهير الأرواح حيث لا سبب لأن توجد القمامات والمصبات البلدية في فضاء الحواس ولا يكون لها مثيل في فضاء الخيال

ثمة أيضا المزوار وهو الذي يمكّنك من زيارة الذوات الأخرى...من التسلل داخل ذاكرتها، داخل فكرها، داخل أحاسيسها ومشاعرها. تقول مصدوما: كفى، لا أريد المزيد، ثم تبتسم بخبث: رغبتي أن أتجوّل داخلك الآن. لا شكرا الجهاز مخصص للآخرين، أما أنا فلا أريد دخول أي ذات ولا أريد لأي ذات ان تتطفّل عليّ أكثر مما تفعل في
" الواقع".

يبقى أن أروع مبتكراتي هو المرحال. داخل الجهاز المرعب التعقيد يورّق المرتحلون" الكاتالوج" وهو زاخر بكل المطلوب من أجود الرحلات لينتقوا منه ما يريدون مجانا. تفضّل. كأنك غير مطمئن لخدمات الجهاز وتريدني أن أجرّب أمامك؟ لا شكرا، والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف تصرخ أريد أن أخرج! أريد أن أخرج! هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم وزّع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدل مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطاياه كلما دفّع فيها أغلى الأثمان.

اعتبر الآن أهمية مثل هذا الجهاز: المرصاد.

أنت في هذا العالم كمن يشقّ طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم وعفاريت وأشباح، أخطر ما يتربص بك ليس هراوات وسكاكين قطّاع الطريق فقط وإنما أفكار ثبتت في أشداقها أنياب قاطعة. هذا ما يجعل من الضروري

تطوير علم التنبؤ بالحالة التي عليها فضاءات الحواس والأفكار والخيال بخلق الجهاز القادر على الإنذار السريع بقرب بروز عاصفة دينية جديدة أو إعصار استبدادي قادم، أو طوفان عنصري آخر، أو موجة طريفة من الجنون الجماعي، أو حرب أفظع من كل التي عرفنا. تصوّر منافع جهازي وهيئة الرصد تنذر بأن الأجواء غير مهيّأة لرحلة فيها الحد الأدنى من الضمانات فيقرّر جيل عاقل إرجاء ولادة الجيل المقبل لترك الوقت لتبخر الليبرالية والوطنية والقومية والعنصرية والأصولية وصراع الحضارات، وكم من ملوثات أخرى.

نعم، آسف هذا كل ما أقدر عليه للرحالة المساكين، اللهم إلا إذا أرادوا استعمال المعكاس.

إنه أداة العودة من حيث أتينا بدل مواصلة طريق عبثي. الزمان الآن يسيل من المصبّ إلى المنبع. غدي البارحة وبعد الغد ما قبل البارحة. عيد ميلادي المقبل الذي احتفل فيه بتناقص سنة لا الذي يوضع فيه على كاهلي عبء سنة إضافية. عما قريب سأقول للشباب ما فعل بي المشيب.

يوم ناقص بعد يوم ناقص يستعيد الجسم ليونته، خفته، قوته. ذهبت آلام الظهر والركبتين. ذاب الشحم الذي في البطن وفي الأوراك. نبت الشعر على الرأس فاحم السواد. عادت للحواسّ قدرة رصد أدق اختلاجات المحيط.

تتدافع من المصب إلى المنبع سنوات الكدّ والجدّ...، سنوات متراكمة التجارب...، سنوات اللقاءات الأولى مع الآدميين، مع فظاعاتهم وروائعهم.

يا إلهي هكذا كانت ‘‘ح’’ وهذه الصبية هي ‘‘ما’’ وهذا الشاب الوسيم هو الذي كان في قصتي ‘‘با’’! كل هذه الوجوه التي تمعنت فيها يوما والتي اختفت بلا أثر! ...

يصل الزمان الراكض القهقرى منعطفا ضروريا. تقصر القامة شيئا فشيئا. تنسحب القوة من عضلات لم تعد مفتولة. يتقدم الطفل المشدوه بخطى حذرة نحو الموج بين فضول جارف وخوف داهم لا يكاد يصدّق ما يرى. كم هو عريض، كم هو متّسع وكم فيه من ماء. هل ستصدقه ‘‘ما’’ وهو يروي لها كيف هو البحر؟!

إنها مرحلة تأجّج الانتباه والعالم كأنه خارج لتوّه من ورشة الفنّان الأعظم يعرض مفاتنه على أول زائر. هي أيضا مرحلة الانخراط في أولى قصص الوجع والطفل جالس ساعات عنيدة على باب المحطة يكفكف دموعه ينتظر من القطار الأسود الذي أخذ والده أن يرجعه له فورا.

يتلعثم اللسان، تتفكك الجمل وقد فقدت الكلمات انضباطها ومعناها. ترتبك القدمان والرجلان لا تقويان على حمل. أنا الآن على أطرافي الأربعة أحبو، تركت المشي ورائي مع كل ما تركت من مكتسبات زمان الاتجاه المعاكس.

يتعالى صراخ الرضيع وهو يدفع بقدميه البضتين قماطا يقيّد حركته. إنها المرحلة من الرحلة والذات كالإسفنجة تمتص معطيات محيط غريب متقلب، تتفاعل معه أحاسيس بأحاسيس، مشاعر بمشاعر، لا تشوش على تفاعلهما لغة قد لا تكون إلا تعويض خلل أفلتت منه بقية الكائنات. يطلّ عليه وجه مشفق يتساءل: من هذا الكائن الغريب الذي يلمع في عينيه شيء كأنه حضور جنّي أو كهل.

صرخة الانبهار والرعب... الأخيرة هذه المرّة لا الأولى.

يبدأ تسلق النفق المظلم للارتماء أخيرا في مسبح الماء الدافئ. ما الذي دهانا لنغادر مكانا كهذا نصرّ على الخروج لعالم كانت تبلغنا منه كم من إنذارات التهديد وكم من صرخات الألم؟

يبدو أنني بدأت أهذي وقد ضاعت الحدود بين الحلم واليقظة.

يجب أن أخطّ بعض الملاحظات السريعة على دفتري ثم أحاول النوم مجدّدا ولو بِضع ساعات.

بداهةً هذا العالم يفيض بأشياء لا تعدّ ولا تحصى ولا سبب لوجودها إلا وهو مرتبط بوظيفة تُلبّي حاجة ما للآدميين، بل قل: هي حاجاتنا بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصوَر، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط.

ماذا عن الأشياء التي لا تلبي أدنى حاجة؟ مثلا تماثيل بأذرع حديدية تتحرّك في كل اتجاه ولا تحرّك شيئا آخر، مثل التي ارتكبها فنان يُدعى جان تنقلي وتطلّب وضعها تصاميم معقّدة استنزفت أموالا باهظة دفعتها حبيبته الفنانة نيكي دو سان فال. لنقُل إنها الشاذة التي تحصى ولا يقاس عليها، الاستثناء الذي يوكّد القاعدة.

بخصوص الفنّ، ما يذهلني في الشيء الذي اسمه "العود" ليس ما يَعتصر منه الفنان من أنغام تُسكرني وإنما كل الوقت المتطلّب لكي يروّضه ويجعله طوع بنانه. سنوات وسنوات من العمل، لكن مَن يروّض مَن؟ الشيء الذي يَستلّ من الفنان كل قدراته ويعاقبه أشدّ العقاب لأبسط هفوة، أم الفنان الذي يقضي عمرَه ولا يصل إلى استنفاد قدرات سحرية لقطعة مزركشة من الخشب ثُبّتت عليها بضعة أوتار مصنوعة من أمعاء الحيوانات؟

الأشياء إذن ضرورية للقيام بوظائف تلبي حاجيات عاجلة وأخرى مؤجلة. على أي حال ما كنا سنَعبر العالم لولا هذه الأشياء، حتى على ما هي عليه من نقصان؟

نعم، لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالآدمي، خلافا للدب بفروه، للبغل بحوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أَفاقَ في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه. هكذا أُجبِر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها. مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوّقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟ ألا يُقاس الكمال في كائن باكتفائه بذاته؟

ثمة فرضيتان. الأولى أن الإدارة العامة بصدد القيام بتجارب حول الحدود القصوى للكائنات، من أجل الردّ على أسئلة من نوع: هل من الممكن لجنس من الكائنات دون مخالبَ وأنيابٍ أن يعيش بين الكواسر، أن يمشي في الأحراش دون حوافر، أن يعيش في صحاري الجليد بلا فرو، أن يطير دون أجنحة؟

الفرضية الثانية أن الإدارة العامة رمَت بالآدمي في هذا العالم، كما يَرمِي المهندس في مكان مُهمَل من المخبر آلةً أيقنَ أنه لا فائدة من مواصلة البحث فيها، لكنها تدبرت أمرها لتواصل وجودها، والمهندسُ غافل عن تشبثها بالبقاء واختراعها لما يكمّلها ولو جزئيا. مما يعني أن وجودنا في مثل هذه الفرضية غير شرعي وخارجٌ على القانون وربما ما زال مجهولا عند السلطات العليا. السؤال إذن: كيف ستواجِه الإدارة العامة الأمرَ عندما تكتشف بقاءَنا بفضل ما خَلقنا من أشياء؟ هل ستغفر لنا نجاحنا في البقاء؟ أم هل ستصاب بالفزع فتُسرع بالقضاء علينا قبل أن تقضي أشياؤنا على أشيائها؟

فجأة أسمع يُدقّ الباب بلطف لكن بإلحاح. أقفز من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماما من أغرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنّى أنك ارتحت. كثيرٌ من الأصدقاء ينتظرونك في" اللوبي". محاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضّل بسرعة.

يرنّ الشيء فجأة في ظهري. يصمت بسرعة. يعود إلى الرنين ثم يصمت عائدا بعد ثوانٍ لرنين طويل. إنها "ح" وطريقتها في إعلامي أنها هي التي على الخطّ. أجزم أنها تريد التأكد أنني ما كنت سأنسَى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا.

كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك بحبهم وبكرههم في فضاء المنام وفي فضاء اليقظة!

**

الكتاب الرابع
بنو سفر

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعةُ الأحزان في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربتَ بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.
حافظ

مقدّمة الكتاب الرابع

لأنك لا تنظر للعالم إلا من خلال حواس ولغة ومعتقدات الآدميين فإنه لا مجال لفهمه والتعامل السليم معه دون فهمهم.
ها أنت في وضع شبيه بوضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار بحّارة سفن سانتا ماريا وبنتا ونينيا.
قد تكون الصورة الأقرب للواقع لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على باخرة تطفو على سطح المحيط الأهوج... والصراع داخلها بين الركاب على أشدّه حول من يأكل على طاولة الربان ومن يأكل من القمامة أو لا يأكل أصلا وحتى من يكون المأكول. في مثل هذه الظروف يصبح استكشاف الباخرة وخاصة طبيعة سكانها لمجرّد البقاء الجزء الأساسي من الرحلة وليس التنعم بمنظر القمر على سطح البحر أو التفكير في العجائب التي تتحرّك في الأعماق المظلمة.
المشكلة أن استكشاف الآدميين ليس هيّنا لجملة من الأسباب القاهرة أُسارع لعرضها للتنصّل من مسؤوليةِ محدودية هذه الشهادة وإبراء الذمة بخصوص كل نواقصها وحدودها.
ثمة التجربة المباشرة لكنها محدودة بحكم استحالة معرفتهم واحدا واحدا.
ثمة الصور النمطية التي يُشيعها الآدميون عن الآدميين.
كلها أحكام مسبقة يسوّقها البشر للدعاية لأنفسهم كما يسوّق الذكوريون لصورة الرجل-السيد في المجتمعات البدوية.
ثمة ردود الفلاسفة والأدباء والفنانين على مرّ العصور.
أغلب الوقت هي غلاف لمزاج المتحدثين يُخفون وراء ما يسوّقون من أفكار تشاؤمهم أو تفاؤلهم من منطلق تجاربهم الذاتية وأزماتهم الشخصية.
تجد في هذا الكلام ما تجد من موضوعية ونزاهة في الإعلام الرسمي لدولة استبدادية.
هناك القراءة عنهم. هي محدودة بخبرة من يكتبون عنهم وحتى بنزاهتهم. في آخر المطاف هي ليست سوى الشكل الأنيق للقيل والقال المذكور أعلاه.
ثمة مراقبتهم في أماكن خاصة تبرز جزءا مُعيّنا من طبيعتهم كساحات المعركة، والأسواق والمحاكم والمعابد والمواخير والمعامل والسجون والثكنات وبيوت التعذيب. المشكلة أن هذه الأماكن كثيرة والمورد الزمني كما رأينا جد محدود.
ثمة استحالة النظر إليهم بعينَي البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تَصوّرْ كلَّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صوَرنا في ملفات ذاكراتها. تُرى هل كنا سنرفع ضدها قضايا في الثلب والتعدي على الأعراض؟
ثمة أن المعرفة بالآدمي لا تُورَث ولا توَرَّث، بل تأخذ كثيرا من الوقت للتخلص من الأكاذيب والشائعات والأحكام المسبقة التي تزيد من ضياعنا.
ثمة دوما قِصَر زمن الملاحظة ورفضُ الإدارة العامة المتواصل تمكيني من الوقت الكافي لمتابعة بحثي بضعةَ قرون، وهو أقل ما يكفي من الوقت لإكمال عمل كالذي تسرعتُ بالانخراط فيه.
كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكّنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة، من مَوقع لا يحتلّه إلا مَن تسميه اللغة الربّ.
هيهات! القاعدة أنكَ لا تنظر للآدمي، مثلما لا تنظر لباقي تمظهرات الموجود إلّا من أسوأ موقع ممكن: ذات مجهولة لذاتها جدّ محدودة القدرات، تركب ذرّة من المكان وقبَسا من الزمان، تتأمل ذاتا أخرى أكثر غموضا وضياعا.
آه لو مكّنني جنّي مصباح علاء الدين من مجهر ذهني أنظر به داخل كل ذات كما أنظر بالمجهر الطبي داخل الأنسجة والخلايا. آه لو وضع تحت تصرفي عيّنة ممثلة أدرسها بهذا الجهاز أتابع أدق اختلاجاتها! آه لو مكّنني نفسُ الجني ابن الحلال من مرقب ذهني بقوة تلسكوب "هوبل" الذي يبصر النجوم والمجرّات وهي تتكوّن في اتساع الفضاء الذي تسميه اللغة الكونَ، لكنه تلسكوب لدراسة قصص كلللللللّ الآدميين الذين تعاقبوا!
أخيرا أكبر الصعوبات: استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل راوٍ يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات وليس الأحكام.
أي كلام صادق يمكن أن تقوله عن الآدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟
كيف لا وهم يسمّمون حياتك من المهد إلى اللحد.
يسمّمون حياتك وهم رضّع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات. حدّث ولا حرج عن ولعهم بالإصابة بالحمى وبالإسهال وبأغرب البثور الجلدية عشية سفر كنت تريد به الفرار منهم ومن التي ارتكبتهم.
يسمّمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي.

يسمّمون حياتك وهم مراهقون يكلّفونك مصاريف تقصم الظهر أجرة أطباء الأمراض الجلدية والنفسية.
يسمّمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدّعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سذّج مغرورون جهلة. المضحك المبكي أنهم دوما على قناعة أنهم المستقبل وأنك الماضي يجهلون أنهم هذا الماضي اللعين يكرّر نفسه من جيل لجيل برتابة مثيرة للقرف.
يسمّمون حياتك إناثا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشّا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ.
يسمّمون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمّك أعلم الناس بأنك بها الأجدر. حدّث ولا تسل عما يكلفونك وهم خصوم في مستنقع السياسة، وهم موظفون في إدارة الضرائب، وهم جيران لا يدخلون في أشغال تصمّ الأذنين إلا وقت القيلولة.
يسمّمون حياتك وهم شيوخ يرتعشون ويهذون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه، لم تنتبه لفرار السنين.
يسمّمون حياتك لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الآدميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيد الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة. ثم عليك أن تدلو بدلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.
بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة وأساطير مقدّسة يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم التفتيش ليأمر بحرقك حيّا بعد ما تيّسر من التعذيب.
هنا تصرخ فيّ والشرر يتطاير من عينيك: يا ناكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من علموك كلّ ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ هل "ما" و" ح" و" تفاحة" و" تفيحة" ملائكة ام جئن من المريخ؟
طبعا، طبعا، معك نصف حقّ، لكن اعلم يا هذا أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت لهم بعين السخط او بعين الرضى النتيجة دوما نفسها: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية الكلام عن الآدميين بصفة موضوعية مجرّد فصيل آخر من مسمّمي الحياة.
أقصى الممكن للحديث عنهم الصدقِ وليس الموضوعية ذلك لأن كل ما تقول وتكتب عن الآدميين وَصفٌ لحالات تمرّ بها أنت في علاقتك معهم.
هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسمٌ لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا عِلمَ آخرَ بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.
أكبر خطر يتهدد فهمهم التبلد الذي يأتيك يوما من طول حبهم ومن طول كرههم.
لذلك انتظر الأزمات لتتفاعل معهم بكل جوارحك ثم لتهرع بعدها لشهادتك ولتقطر الحروف حبا وكرها، لا خير يرجى من كتابة تحت راية اللامبالاة.
المطلوب من كل شهادة الصدق وليس الموضوعية. على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقا من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه هذا كل ما أعرف عن الآدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروته.

**

استكشاف رفاق الرحلة من الآدميين وأولى معطيات الحواس الستّ عنهم

التزاما بقواعد أسلافي الميامين كتّاب الرحلات ونسجا على منوالهم في وصف البشر الذين يرتطمون بهم بعد طول الإبحار أو التيه في الأرض ذات الطول ولو عرض، سأحاول -ولو بكثير من التأخير-وصف الكائنات التي ارتطمت بها -ولا أزال - منذ إفاقتي والتي حكمت علي الأقدار بمرافقتهم على كل طريق يتوغل في مجاهل هذا العالم.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه صارخا:

- ‘‘ما’’، انظري كم هي سمينة هذه المرأة!

يفهم من ابتسامتها وتقطيبها جبينها والتفاتها يمينا ويسارا أنها محرَجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ لسبب يجهله.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيدا وأخشى أن نصل متأخرين.

- ‘‘ما’’، لماذا تلبس النساء "البخنوق" ولا يلبسه الرجال؟

- قلت لك: هذه مواضيع سنتحدّث حولها لاحقا، ليس الآن.

- ‘‘ما’’، تقولين دَوما إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ ‘‘ما’’، متى سأكون طويلا مثل كل الرجال؟

-... ،... ،... ،... ،... ،... ،...

- ‘‘ما’’، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى نفسه؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمّه نبرة استحسان.

- أصبتَ يا بنيّ، ولو أن هناك استثناءً سأحدّثك عنه يوما. والآن، توقّف وأمسِك بيَدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يغتنم الطفل الفرصة لمسحٍ شامل لما حوله. يجيل البصر مترصّدا بروز آدميين لهم أجنحة ثابتة على الظهر كالطيور. لا شيء من هذا القبيل باستثناء شحّاذ بلا رِجلين يزحف على البطن، والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه.

كم من وجوه تسترعي الانتباه وهو لا يعرف على أيهم يركّز؟

هذه أنثى بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، وهذا أحدب كسير النفس، وهذا شاب مفتول العضلات، وهذه عجوز تتّكئ على عكّاز، وهذا وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، وهذا وجه آخر كأنّه حُفِرَ في خشب بنّي بِسكّين، وهذا وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، وهذا وجه يحمل خيوطا غائرة عميقة تحت العينين، وهذا رأس شعره بلون القمح، وهذا رأس ثان شعره بلون الليل، وهذا آخرُ اختار لشعره لون اللبن.

يصرخ الطفل في أمه: "ما" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

تداري الأم حرجها وجهلها بما يفعل كل هؤلاء الناس في هذا المكان. تضحك قائلة إن البعض ذاهب ليتسوق أما الآخرون فهم بصدد قضاء حوائجهم التي لا تعرفها.

إنه نفس الحرج الذي سيواجه الطفل وقد أصبح أبا يمسك بيدي " تفاحة" في الرابعة أو الخامسة من العمر وهي تصرخ أمام تدفق الناس وسط ساحة عمومية:

-"با" ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

من أين للأم أو للأب أي ردّ مقنع ولا أحد يعلم بالضبط ما الذي نفعل كلنا في هذا العالم. إنه سؤال سيلاحقنا طوال النص وسنعود إليه مرارا بل وسنحاول الردّ عليه.

على كل حال نحن ما زلنا في بداية الاستكشاف.

ينتبه الطفل إلى أن وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كرّاسه وأقلامه حال وصوله البيت ليرسم، أو قُل ليحاول رسم كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران يتّسعان في نهايتيهما على شكل عريض ينقسم بدوره إلى خمسة أطراف. على قمة الجذع هذا، يوجد انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون. للانتفاخ جزء أمامي مملوء بالثقوب، به فتحتان مستديرتان في أعلاه وفتحتان ضيّقتان في الوسط وفتحة كبيرة مستطيلة في جزئه السفلي. على الجانبين هناك فتحتان تحيط بهما كتلة من الغضروف والشحم سيتصرف فيها كثيرا المعلّمون و ‘‘با’’، بل وحتى ‘‘ما’’ أحيانا بالشدّ والفرك، وتعلّق عليهما الإناث أشياء سخيفة يتعلقن بها لأسباب لا يفهمها.

تتضح الحاجة إلى بعض المعلومات الإضافية.

- ‘‘ما’’ هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، يكفينا وجع رأس واحد.

- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى متابعة العمل.
بربّك، أليس هذا عَين الصواب، والكل يعرف قلة مردود الدماغ الواحد وندرة حسن استخدامه.
- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.
أين يضع الرأس الثاني والثالث؟
يجرّب أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين.
يَفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلّى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.
ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسته، ويكتشف الكهل أمام لوحاتِ أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا بَعدُ عن لعبة إعادة تشكيل الموجود. أليست هذه الوجوه المبعثرة، المفكّكة، الخارجة من خيال شاجال، بنفس الكَيفية التي ركّبت بها الوجوه والأجسام؟
"كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال" (بيكاسو).
ربما واجه الإله النحّاتُ الرسامُ نفس المعضلة، ليكتشف الحلّ الذي كان الطفل أصغر من قبول بساطته وأناقته وتَبِعاته. أليس أكثر الحلول اقتصادا خَلقُ نفس الكائن بأعداد رهيبة؟ آنذاك، ما الذي يضير المجرّب الأكبر أن يمرض أو يتعطّل هذا الرأس أو ذاك وهو يتوفّر على هذا الكمّ الهائل من الرؤوس!
هو لا يعلم أن أغرب الآدميين مظهرا ينتظرونه في منعطفات الطريق الكثيرة القادمة: اللواتي تلبسن أغلى أنواع "الكيمونو" وكلّ "جايشا" لوحة فنية أجمل من الأخرى، الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيقة كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، الحُلّق لكل شعرة تنبت فوق الرأس، المخْفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلدهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصباغ يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.
هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكهم... الثابتون على نفس القطعة من السهل أو الجبل، والذين لا يحطّون رحلهم أبدا... غزاة المستقبل والذين يسعَون بكل قِواهم إلى العودة إلى ماضيهم الخيالي... الذين يقدّمون الأضاحي الآدمية لآلهتهم والذين يرفضون ذبح بقرة. كم من إخراجٍ لفكرة واحدة! كم من تقاسيم لا نهاية لها للَحنٍ يتيم!
ثمة أيضا حاسة الشمّ ولو كانت بغير الأهمية التي هي عند أغلب مخلوقات الأرض.
ممّا أذكره عن علاقاتي المعقّدة بالرجل الذي كنت أسميه "با"، أنّ أول سوء تفاهم بدأ معه في سنتي الثالثة وكان بخصوص الروائح التي يبثها الآدميون من حين لآخر، تفضح ما يريدون التستّر عليه من طبيعتهم.
ذات ليلة صرخت متوجّها إلى "ما" وهي مضطجعة حذوَ "با":
- أف!، "ما" أخرِجي الكلب بسرعة!
كان في ضحكها المكتوم ونحنحة "با" -إضافة إلى أنني تذكّرتُ آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم-ما يكفي لأفهم أنّ رَبّ البيت -وربّما حتى ربته-يضرط أو تضرط كما أضرط، تخرج منه أو منها، روائح كالتي تصدر منّي.
كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء.
انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال -وأنا أداوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب، تغطيةً على الصوت بالسعال الملائم-ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعا اللهم إلا الانفجار ضحكا.
البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك بأن تكون قمامة متجوّلة تصدر من حين إلى آخر روائح نتنة.
من حسن الحظّ أن هناك حواسَّ أرحمُ بصورة الآدميين. خذ مثلا المعلومات التي تأتينا والفم مطبق بعناية حول حلمة ثدي منتفخ بالحبّ، والسائلُ الدافئُ الرقراق يُبعد عنّا أبغض حالات الشعور؟
أليست أدوات المعرفة الأُولى لدى الآدمي الشفتان والأسنان واللسان؟
النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوُّقٌ وابتلاعٌ لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمله.
مما يعني أن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الآدمي، أكل الآدمي.
أليس أقصى قدر من فهم الشيء استملاكه، أيْ جعله جزءا لا يتجزّأ من الذات؟
لهذا يمكن القول إن أكل الآدمي كان وما يزال في العقل الباطني أكملَ الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدرُ كل خطرٍ والمعين على كل الأخطار. من جهة نحن نتخلص جذريا بهذا الأكل من الخطر الذي يمثله. من جهة أخرى نختزل كل زمنِ البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

انظر طقوس كهنة الأزتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهازيج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدّامية لقلوب ما زالت تنبض تُقدَّم إلى مأدبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذّة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكِّد؟

عن الجاحظ، طيّب الله ثراه، بعضُ الأشعار التي تنبؤنا أن الأمر كان موجودا أيضا في ماضينا.

وأنتم أكلتم سخفة بن محدّم زمانا فلا يأمنكم أحد بعد

تداعوا له من بين خمس وأربع وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد

وقال شاعر آخر:

إن سرّك الغدر صرفا لا مزاج له فأت الرجيع وسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهمُ فالشاة والكلب والإنسان سيان

ثمة من قال في قبيلة تُدعى بني فقعس:

عدمت نساء بعد رملة فائد بنـي فقعس تأتيكم بأمان

وباتت عروسا ثم أصبح لحمها جلا في قدور بينكم وجفان

وقال شاعر يهجو قبيلة اسمها باهلة:

إن غفاقا أكلته باهله تمشّشوا عظامه وكاهله

وأصبحت أم غفاق ثاكله

يبدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذوّاقة وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الآدمي:

أبلغ لديك بنـي كلب وإخوتهم كلبا فلا تجترو ا بعدي على أحد

هذي الخصى فكلوها من نفوسكم كما أكلتم خصاكم في بنـي أسد

لا داعي للحرج والانكار فالظاهرة قاسم مشترك بين الآدميين، وُصفوا بالتحضر أو وُصموا بالتوحش.

قيل -والعهدة على المؤرخين-إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبّان عصر يسمّى النهضة، مَلك عظيم راعٍ للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدّوام في جيبه قنّينة صغيرة من مسحوق اللحم الآدمي يمضغه متأنّيا، يقينا منه أنه يدفع البركان الذي بداخله لمزيد التوهّج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وُضعَت أُصول وقواعد لتذوّق اللّحم البشري. فبعد قتل الآدمي شنقا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمّونه "عدالة"، تُترك الأجساد معلّقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتّى يتعفّن أعلى الرأس، ثم يحصدون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادةٌ تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهّزون الميّت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطريّ ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

كان ديوجان -المسمّى سقراط المجنون-لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري، بل كان يدعو بحماس إلى تذوّقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما يتمازج الباحث والمبحوث فيه فيصيران شيئا واحدا.

ألم يكن نبلاء "الأزتاك" يبحثون وراء طعم اللحم الآدمي عن طعم الذات نفسها، أو حتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ ألم يكن هنود غابات الأمازون ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الآكل؟ ماذا عن الملِك الفرنسي المتحضّر؟

لكن في حال اقتناعك بالفكرة كأقصر طريق للمعرفة، مِن أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سرّا وأوقات المجاعات فقط؟

ثمة إمكانية نشر إعلان على الإنترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوّع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث.

أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الإنترنت قادرٌ على تعقّبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلّص من العظام.

خذ العبرة أيضا من مصير آدمي من بلد اسمه أوكرانيا، قَتل خمسين امرأة وأكلهن جميعا وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة، والحال أنّه كان مجرّد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحُدّان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلّق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلا أن بعض الآدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه مرض الكورو، لا نتمناه حتى لألدّ الأصدقاء.

لهذه الأسباب الصحية والقانونية ننصح بتَرك جانبا فكرة أكل البشر للتعمق في دراستهم ربما إلى أزمان أخرى قد تتطوّر فيها العادات والقوانين.

ما المدخل إذن لمعرفة ذوات لا نوجد إلا بوجودها؟
طبعا الاحتكاك والعلاقة المباشرة ...بكل ما في الأمر من مجازفة والآدميون أخطر كائنات يمكن أن تلقاهم على طريق بخيل بكل شيء إلا بالمنغصات والأخطار.

**

اللذين منهم كل وحشة وكيف أن قدر الآدمي العيش مجهول وسط جحافل من المجهولين

أخيرا مقعد في عربة مترو شبه فارغة. على الطرف الآخر ثلاثة مراهقين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنت ولدعوة رفاقه إلى الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ آه، إنها لهذا الأجنبي القذر!

نعم، لم يكن الرحيل يوما سهلا على الآدمي، لا بحكم اتّساع المحيط وضراوة الصحراء وعلوّ الجبال وفيضان الأنهار وأنياب الكواسر فحسب، إنما أيضا لأنه فلّاحٌ يرفض له القيصر أو "الشوجون" مغادرة قرية وُلد ويجب أن يموت فيها، لأنه فقير أو عبد أو أنثى أو سجين على الدوام في وطنه وفي كل وطن، غريب، أجنبي ومشبوه.

يجب تغيير الخطّ والنزول في المحطة المقبلة.

على بساط السجاد الآلي المتحرّك أقف لالتقاط الأنفاس آخذا كل الوقت لتأمُّل البشر الذين يحملهم سجاد الاتجاه المعاكس.

ثمة من قال بخصوص الآدميين: نحبّ منهم واحدا أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية من المجهولين لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

شيء من التصحيح: عادة نحب من الآدميين أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية من المجهولين التي لا تثير عند الكُسالى إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ على العكس فضولا عارما.

تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي مباشرة. عوّضَتها أخرى كم هي مُشابهةٌ وكم هي مختلفة.

تداهمني صورة الرجل الماشي للنحّات جياكومتي. قدماه ملتحمتان ببساط الزمان، والمسكين يتخيّل أنه هو الذي يتحرّك. أما الوجوه فهي كما رسمها، بنفس الأضلع الحادة والملامح المتجهّمة الأبصار الشاخصة نحو الفراغ؛ بما يكفي من الوضوح لتكون وجوها آدمية، وبما يكفي من الإبهام لتكون لكل الآدميين ولأيّ واحد منهم تحديدا.

هذا وجه لم تزَل في رسمه يد الرسام الأعظم. تُرى عن ماذا تبحث المخيّلة الخفية وهي تصوغ مثل هذه الملامح؟ عن بسمة لم تصل إلى مصافي ما يريده على كثرة ما رسم من بسمات؟ كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علَت على محياه ابتسامة النصر. ماذا لو كان بصدد البحث عن مواصفات مبهمة لم تتحقق ولا حتى في هذا الوجه؟

الكلّ تائه داخل ذاته، مغرق في صمت حذر، لا تسمع إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج آتٍ من الإناث بكعبهن العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى ممشوقة القامة كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادّة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة قاهرة تلوي عنقا لتلحق الذاتُ ما فاتها. هذه نظرة مطوّلة للصياد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير، بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة، يأس موجِع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمتا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

تختفي الحسناء التي شدّت كل الأبصار دون أن تترك لي الفرصة للاستدارة وإلقاء نظرة على الوجه الذي سحر كل الوجوه.

ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة الرسم، إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه وتحديدا في هذه التي تختزله كله الآن وهنا؟ هذا عالم أغلى قيَمه الجمال. محكوم عليك أن تَعبُره رائيا مرئيا، والكل يقيّم مدى قربك وبعدك منه. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ على العكس ما أروع أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في حلكة الظلام. هذه نظرة خِلتُها ستتوقّف عليّ ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلقَت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الآدميّ جديرٌ بالاهتمام. كم هو مُخيف ألّا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إلي، أو اهتم بي أو لاحظ كم أنا مُرهَق مَهموم أو عَبأ بطموحاتي ومشاريعي أو استفزّته أفكاري. لكن متى انتبهتُ أنا للآدمي المجهول أو اهتممت به، أو شعرت بآلامه أو عَنَت لي هذه الآلام شيئا أو لاحظتُ كم هو مرهق ومهموم أو عبأتُ بطموحاته ومشاريعه أو اهتممت بأفكاره أو انتظرت منه شيئا. اللعنة! أنا أيضا ألقيت عليهم نفس النظرة العمياء، مسحت أشكالهم ببصر لا يَرى، وهم يبصرونني بنفس العيون التي لا تبصر. مَن ينتبه لكون الأغلبية الساحقة من البشر الذين نتنفس وَسَطهم منذ الإفاقة أغرابا لستَ لهم إلا نكرة ضائعة وسط جحافل النكرات. مَن قال منهم: "وُلدت مجهولا، وأملي أن أعيش مجهولا، وطموحي بعد أن أموت، أن أترك ورائي ما ينفع الناس دون أن أكلّفهم عناء أن يذكروني".

كم مؤسف ألا أحد من هؤلاء الأغراب يقف مسلّما ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقُبَل والدموع.

كلهم كُتُبٌ مُحكَمة الإغلاق لا تَرى منها إلا العنوان. أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه. ألا يكفي أن أقرأ في صفحات الذات لأقرأ في صفحات كل الذوات؟ ألا يمشون في الطريق الذي أمشي فيه. أغلبهم مؤمنون بأنهم صرّة العالم، مقتنعون أن الأقدار ظلمَتهم، منغلقون على أسرار بائسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل

والمعاصرون، عائشون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبَه على ممشى الآلام، ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعِدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.
خليط من الأحاسيس والمشاعر يتلاطم داخلي وأنا أنقل النظر بين الوجوه والظهور: التعجّب، الإعجاب، الكره، الحب، الحنق، الأسى، ربما الشفقة؟ نعم الشفقة، حقّا يا للمساكين!

"كم تسكّعت شرقا وغربا! *(أغنية صينية)*
كم لاقيت من البشر!
ولا وجه أتذكّره
تعبت حقائبي
ظلّي وحده الرفيق"

يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأفيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطّ أو ذاك والإشاراتُ الصامتةُ هي الدليل.
أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرّت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام.
ينفرط الجمع ليتشكّل آخرُ بَدله، بعيدا سيتفكك بنفس السرعة ولا أحد يتوقف ليقول لي مَن هو ومن أنا وماذا نفعل كلنا هنا.
يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف ليختفي بدوره في الزحمة. آدمي أصبح أخيرا إنسانا يقول لي: تشجع ثمة مخرج لنا جميعا من كل الأنفاق!
لا غرابة في الأمر فمن هذه الجماهير المتجهمة الموحشة التي لا تنتبه لوجودك أصلا يخرج لك دوما من يحببك في البشر ومن يبغضك فيهم.
يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الواعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وبيدي اليمنى تمسك بيد اللص وبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة يبدو أنها تابعَت الحادثة بانتباه شديد: برافو يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!
اللعنة! مَن قال لهذه الغبية إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تملّص مني لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالمٍ كثُر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغبية لتناول القهوة التي فوتتها على المسكين لتمدّني هي بتصريح مطوّل، عَلِّي أزيح بعض الغرابة عن الآدميين بصفة عامة وعن النمط الآدمي الأكثر انتشارا: ‘‘ الذي منه كل وحشة’’. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألقَوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد وراء قطار خَطِّهِ لأبقى وحيدا في مواجهة المعضلة.

تَلفظني أروقة قطار الأنفاق نحو الهواء الطَّلق. أخيرا الشارع الرئيسي للمدينة التي سأقضي فيها سنواتٍ أخرى من النفي، وقد قبِل الدكتاتور التافه الذي سممت حياته وسمم حياتي أن أخرج من البلاد، أتركها له ولزبانيته يعيثون فيها فسادا وظلما.
على طوله مظاهرُ الزينة، أجملُها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار. يحتفلون بقدومي؟ لا يا عبيط إنه عيد الميلاد.
على الرصيف المكتظّ السُوّاح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقر. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهروا الخَدَم بمكرماتهم الخيالية.
فجأة ألتفتُ خلفي مدفوعا بقوة قاهرة لأهزّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجتُ أو قُل طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حرا لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرَ أُلصق بَيني وظِلّي يتنفّس في عنقي.
لم أشعر كم أنا غريب إلا بين ذوي القربى. ولم أحسّ كم أنا مَنفيٌّ إلا داخل حدود بلدي. ليحلموا به هم وليُغنّوا: ‘‘سنرجع يوما إلى حيّنا’’. ليكتبوا الأشعار عن مفاتيح بيوتهم التي تركوها في الأندلس وليحرقهم الشوق والحنين إليها. أما أنا فوطني العالَمُ كلّه لا مُجرّد قطعةٍ منه. كل مَن حَولي الآن مواطنيَّ وهذه المدينة وطني وهي مَلاذُ كل الغرباء الذين استجاروا بها، سواء جاؤوها من أقرب الأرياف أو من أبعد الغابات والصحاري، سواءً وصلوها قبل ألف سنة أم البارحة مِثلي.
ورائي قَوس النصر. على مَن؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجزّار الكبير الذي رَفعه، لكن مَن يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعا ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرَت رجوعَه عبثا. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عَرفت أكثر حروب الآدميين وحشية وغباءً، أنه كان واحدا من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أَخذوا الأشلاء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثّل كلَّ الذين التهمَتهم الحربُ ولم يَحفظ لهم التاريخ مأثرة أو اسما. يا لها من جائزة أحرزَها ولا عِلم له بالشرف الأثيل! أيّ قارئة فنجان كانت تتجرّأ لتقول لأمّ المولود الجديد إنه سيعيش نكِرة وسيموت أبشع مَيتة، لكنه سيصبح من المشاهير حتى ولو أنه سيظل نكِرة يقف ملايينُ الصغار والكبار إجلالا أمام قبره ولا أحد يعرف الاسم الذي أعطته له.

ربما هو المحظوظ وقد ذهبَت جلّ قصص سكان هذه المدينة مع الريح.

يصل الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كمّ هائل من أفظع قصص الآدميين.

ثمة مَن حَسبوا كم من رأس بالضبط سَقطَ في هذه الساحة وتوَصلوا لرقم 1119 منهم مَن كان برتبة ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملِكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان المناسب!

يوم يتوقف بنا الطريق، سيبقى العالم يعجّ بأماكن لم نصل إليها، بكائنات لم نعرفها، بقصص لم نسمعها، بأسرار لم نكشفها. وهذه المدينة غيرُ عابئة بدخولنا أو بخروجنا هي صورةٌ مصغّرة منه.

انتباهٌ لاختلاجةٍ، امتعاضٌ هنا وعلامات نفاد صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسدّ الطريق والويل لمن يتلكأ.

ليسرعوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصَبٌّ على أشباح نساء ورجال حُلقت رؤوسُهم وأيديهُم مقيّدَة إلى الخلف كُدّسوا فوق عربات مجرورة بالخيل والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة التي أدرتُ لها ظهري هي وقوسَ النصر. أريد نسيانهما معا. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوسٍ على وَشَك السقوط جاحظة العينين في قفّة معدة خصيصا لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبثّ على كل الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل ؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولَد ملكة، وفي غير الزمان المناسب. لو جاءت قبله أو بعده لربما أصبحَت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجائز والعذارى؟

كيف الإفلات من صُراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهّمة تقع على بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتَبِعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهى هذا الطفل ليولد أميرا ووليّ عهد ملِكٍ على وَشَك الغروب. ربما كان سيصبح أكبر الملوك حِكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمدا قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يحصي، لا يتذكّر ولا يعبأ بكل ما عرف من المآسي. مأساة لا أهمية إلا لها بالنسبة للذات التي عاشَتها. في هاتين الخاصيتين المتناقضتين جوهر قصة كل آدمي.

مدفوعا بعادة تأصلت على مرّ السنين، والمخبرون ورائي في كل خطوة يحصون أنفاسي، ألتفتُ خلفي مرّة أخرى. لكن هذه مدينة بسطت عليّ حمايتَها يسَعني أن أمشي فيها بأمان.

على يساري البرج الحديدي الذي أصبح رمزا للمدينة والمطلّ على نهرٍ هو منذ نشأتها شريان يضخّ في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة.

وراء الواجهات المنمقة لهذه المدينة يختفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسّس والدعارة والجريمة. هي ككل تجمعات البشر غاب وأغلب مَن فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذّر الأمر.

تصِلني كاللطمة المفاجئة على الأنف لعنةُ سكّير اتخّذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعَرَق. آدمي آخر لم تُحابِه أكثرَ الطاولةُ اللعينة.

هذا جبل القديسة التي حَمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا مَن يغازلها طويلا. يا سيدتي جنفياف، خففي من آلام روح الطفل ليجد العزاء أخيرا، ارحمي هذا المتشرّد، وبما أنك في مزاج رائق وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك وإلى دين ليس الذي تدينين به، لا تنسَي آلامي فقد خذلني أسياد وسيدات الأب والأم.

يحدّق فيّ الشحاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: "بونيول"، تفه!

الوغد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أَستثمِرها في صدقة تعود عليّ بالدعاء لا بالشتم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا اللص الأجنبي!

لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأنني السارق وهو المسروق.

كل شيء موجود في هذا العالم فلِمَ لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟

ما يجهله هذا الشقي أنني أجنبي مرخّص له في الوجود وليس كالغرباء الذين يختبئون في الأقبية خوفا من اكتشاف أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.

كم مشيتُ في شوارع هذه المدينة المترامية الأطراف لا وهم لي حول ما يدور ببال من يُلقون عليّ نظرة متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهدِّد للنظام، لخزينة الدولة، للصحة العمومية، لا يُرجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.
الغريب في الأمر أنني لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربائي إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل.
في كل الحالات توجد الآن في محفظتي بطاقة بلاستيكية سأعيش على هاجس فقدانها أو سرقتها مدّتني بها سلطات البلد -ببالغ الامتعاض-تحفظني مؤقتا من عنف الذين يدّعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.
قد يكون من مزايا هذه البطاقة تطميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي ولَقبي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام يبدو أنها تحدّد لبيروقراطية مخفية من أكون.
لا شيء من كل هذا يجعلني أقل غربة فأغرب ما في الوضع أنني غريب حتى لنفسي.
تُبادراني فجأة صبيتان وابتسامة بلهاء على الشفتين.
- هل تعرف الربّ؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبّك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟
- لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة في كل ما يتعلق به، أما حُبّه للبشر فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا، خاصة هذه الأيام.
أخيرا الحيّ الذي ذرعتُه سنواتِ شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندَر كتاب.
لا أَحبّ إليّ من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريت، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي.
صدق مَن قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتَهم ولسعوك، إن بعُدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيّل، أبحث عما بحثتُ عنه دوما: الدفء دون لَسْع.
أعود إلى المشي الوجهة الآن المكتبة العظمى محدقا بفضول بين سخرية مكتومة وتعاطف لا يجرؤ على الجهر في المجهولين الراكضين من حولي في كل اتجاه.

كلّهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقلون فيها غربة عن غربتي ... كلهم استكشفوا ثوابت الطيف الواسع للأحاسيس والمشاعر التي هي قدر كل الآدميين...... كلهم تقلبوا بين الحزن والفرح ، بين النجاح والفشل، بين الخضوع والثورة، بين اليأس والأمل ..كلهم لعبوا الأدوار الاجتماعية التي فُرضت عليهم او اختاروها مقامرة وتهورا ..كلهم دفعوا ثمنا باهظا لما أهدتهم الحياة من قليل الملذات ..كلهم سيرحلون عن هذه الدنيا يد فارغة وأخرى لا شيء فيها ..كلهم لهم قصص لا تبعد كثيرا عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. الشَّدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قَوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز. هذه المدينة نَصّ عظيم مكتوب بالدم، بالعرق وبالحبر، والكاتبُ التاريخ. الأمر الذي تقرأه في كل السطور: فكّـرْ من خارج كل الأُطر، تمرّد على كل الصيَغ، جدِّد ولا تتوقف عن الإبداع، كلُّ شيء مقبولٌ إلا الرداءة. جوٌّ كهذا هو جرعة الأوكسجين للمختنِق ونَفحُ الطِّيب لمن عاش والنتن يملأ خياشيمه.
صخَبٌ مفاجئ على يساري. متشرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتّش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل.
مَن قال: الخيار أن يتصفّح القلب أو أن ينفجر؟ تصفّح قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرّة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسوّل المضطجع أرضا في رواق المترو وكل أمتعته في حقيبة مكسورة بين رجليه، أمام المراهق التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل، في أماكن بشعة يتكدس فيها مَن أفقدَتهم المصائبُ كل صواب. أي غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيّار، أنهكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جانبا، ضاق ذرعا بحِملٍ ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشريّ سأرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية أي لغم!

"الطريق ليس صعبا، (كيركجارد)
الصعب هو الطريق."

أجلسُ إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كَتب الآدميون عن الآدميين. ليس أمامي الآن إلا الضواحي البعيدة ومنها التي سَتلتهم سنواتٍ من عمري في معالجة أفقر سكانها. إنهم آخِر مَن تدافعوا من أقاصي قارة منكوبة هربا من الموت وطمعا في الحياة. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال ولا دليل ولا خارطة ولا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

إنهم آخر من تدافعوا على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها المرفأ والعاصفة.
لا شكّ أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الآدمي وهو تائه في الصحراء بلا ماء ولا أمل، أو غريقٌ أُنقذ آخر لحظة من براثن البحر، أو مغامرٌ يائس بائس يخترق الجبال خلسة ليلة صقيع يُمزّق أحشاءَه الجوع، لينتهي على أعتاب المدينة شبهَ ميّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقي جناحيّ.
هل ثمة في هذه المدينة أشجار كرز وهل فيها ربيع تزهر فيه حتى يمكننا أن نغني؟

"تحت أزهار الكرز (إيسا)
لا وجود بيننا
أبدا لغريب"

**

بشهادة شاهد من أهلهم وكيف أن الآدميين هم أخطر كائنات العالم

تسألني ‘‘ما’’ عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربة.
أنفجر في وجهها وقد طلعَت من أعماقي كل الشراسة المترسبة فيها:
- يا أسوأ دليل، يا مجرمة في حق خمسة صغار، أيّ محكمة تنصفني منك؟
تبهت ربع ابتسامة الأم. تقطّب جبينها:
- آه يا طفلي الصغير، كم أنت موجوع هذه الأيام.
تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب ثم تقرر الثبات.
- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟
- تسألينني كيف؟ اسمعي يا جاهلة كيف كان عليك إعدادنا لمواجهة الآدمي البغيض.
أثبُ أمامها لأمثّل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، وبيدها الأخرى تمسح دمعة.
تدخل الأم الجديدة بأمومتها عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل.
يتعالى الصراخ منها حادّا آمرا نافد الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلّمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلّل أحدا.
يثب الأطفال من فراشهم مرعوبين.
يتصاعد صراخ الأمّ المتخرّجة من الأكاديمية العسكرية المؤهّلة وحدها لإصدار تراخيص الأمومة: يا الله، بأسرع من هذا. تفتعلون عدم سماع ما قلت. اللّعنة! مَن تثاءب؟ مَن؟ أنت، إلى العزل، تبكي! واللّه لأقطعنّ عنك هذه العادة ولو تطلّب الأمر أن أقطع لسانك. انتهى العهد الذي كنتُ خلاله أرميكم في الشارع دون إعداد مُحكَم. وأنتِ يا بنت، خمسة جَلدات هذا الصباح لتتعلّمي الوقوف السريع عندما أصرخ بالأوامر. أنت الطفل رقم 2، قلت: ممنوع مواساة الأخت. ستذهب مباشرة إلى الخزانة تقضي فيها النهار مباشرة بعد نهاية التمارين. وأنت كبير الأطفال ازحف على بطنك حتى الباب إلى أن تتعلّم عدم رسم مثل هذه السحنة على وجهك.
قطعة خبز جافّة وبعدها مباشرة التمارين.
يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليود.
يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: ‘‘هايلي هايلو هايلي’’، نحن للألم مستعدّون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء متحفّزون، الويل للذي منه كل نقمة، إننا منه لمنتقمون.
مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت للتصفيات الجسدية.
بعدها التمرين النفسي للصبر على الأذى وحسن استعماله ضدّ الآخرين، كل الآخرين.
أبدأ بضرب أصغرنا ضربا مبرحا فتشجعيني على الضرب.
أصرخ فيه مرّة أن يستكين ومرّة أخرى أن يدافع عن نفسه.
الويل له إن ارتمى في أحضانك مدفوعا بعادات قديمة ما زالت مستحكمة. يأتي ردّك صارخا: أتريد أن يسخروا منك طوال حياتك؟ أنت الذي ستقول لهم: عودوا إلى أمّهاتكم. نعم، لا أمّ لكم في هذا السيناريو وإنّما دليل كفء يعلّمكم العالم على حقيقته والآدمي على طبيعته.
بعد انتهاء حصّة الإذلال لتقوية غرائز العنف يجب التدريب على التعرّف على السحن والطباع للتمييز بين الأقوياء الذين يجب تفاديهم والضعفاء الذين يجب ركوب ظهورهم.
آخر دروس الصباح تعليماتك بخصوص فنون القسوة والخديعة.
بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى ‘‘ الذي منه كل نقمة’’ ومواجهة القاسي النذل الخطر.
نعم، هكذا كان عليكِ أن تربي أطفالك أيتها الأم الفاشلة.
لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى ‘‘ما’’ تضحك إلى أن يأتيها السعال.
- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما في آدمي-أي آدمي-أفشّ فيه غيظي ضربا بالحذاء ولم لا برصاصة في صدغه.
- كم أخفتَني ذلك اليوم عندما وجدتُك بين عُلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدّس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف اكتشفتَ هذه الأسلحة اللعينة؟ حالا طلبتُ من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.
- ماذا فعل ‘‘با’’ عندما اكتشف خيانتكِ للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عينَي "ما" نوع خفيف من المرح، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكوّناته سخريةٌ خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفيّ بالرجل الذي ابتليَت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتذكّر أنّ بيتَنا من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

المهمّ أن هذا طفل لم يكتشف -لحسن الحظ-كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقُه سوف يأخذ اتجاها جدّ مختلف. تصوَّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتُل زميلا ويجرح المعلّم الذي حاول التدخّل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

بصراحة ألم يكن من حقّه أن يفكّر في امتشاق السلاح لدخول قسم فيه ذلك الكمّ الهائل من الخصوم، وبعضهم من الراسبين الأزليين يسومون مَن هم أصغرُ منهم استبدادا يُنذر بما سيأتي من كل أصناف ظلم الآدمي للآدمي.

ابحثْ دَوما -وراء الهدف المعلَن-عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها الآدمي، ومنها المدرسة. وستكتشف أن أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب.

أين تَعلّمنا لأول مرة الوقوفَ في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلّم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلُّ صغير يجرّب على مَن هو أصغر منه؟

داخل الفصل يبدأ باكرا تلقين كل أطفال العالم تواريخَ انتصارات دَموية مرعبة، وأسماءَ كبار الجزارين. ثم تُغرس فيهم البذور المسمومة، لتنطلق أحلامهم بالمشي أمام كتائبهم لنصرة قومٍ هم أحسن الأقوام.

أخطر الحالات التي يمر بها '' الذي منه كل نقمة'' هي قدرته على التسبب لك في كارثة قد تدمر حياتك لا عن قصد وإنما عن غباء وعن جهل.

همّ الطفل الأوحد الآن الفوز بِرضَى المعلمة الجديدة رضًى لا يريد فيه شريكا. إنّها معركة أخرى بين أطفال شرسين رهانها هذه المرّة الظفر بحبّ "سيدتي". كم سيرى هذا الطفل وكم سيمارس هو نفسه على مرّ السنين من استراتيجيات الإغراء، عندما يَسقط القناع من استراتيجيات العنف والجشع، والهدف دوما امتلاكُ ذاتٍ أخرى! وكم سيكتشف عبث العملية وكلُّ ذاتٍ غيرُ قابلة للتّملك من ذات أخرى ربما لأنها هي نفسها لا تملك ذاتها!

تصرخ المرأة لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات الّتي على الصفحة الأولى لكتابكم ثمّ نقلها على الكرّاس، وأريد أن يتمّ ذلك بنظافة تامّة.

يصرخ الطفل المتهوّر:

- إنّها كلمات سهلة، أعرفها كلّها، فسيّدي الشّيخ علّمني كيف أقرأ.

تبتسم المعلّمة ابتسامة صفراء.

- حسنًا، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللّوح.

لأسباب ما، تتوجّه المعلّمة متجهّمة نحو طفلٍ مرتبك.

- أريد أن يأتي وليّك معك غدا. وبالمناسبة، من الآن فصاعدا عليك أنْ تجلس في آخر القسم.

تحدّق الأمّ في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللّطف. يتّسع ربع ابتسامتها وفي عينَيها ذلك البريق اللّامع الذي لطالما أحبّه الطفل.

- أريدك أن تعِدني بعدم مضايقة "سيّدتي". إنّها غاضبة مِن كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كالللللّ الكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأغبياء.

- لا تقُل أبدا عن أقرانك أغبياء وإلّا كرهوك وآذَوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقريع أمّه له ولا امتعاض "سيّدتي" منه وهي لا تبتسم إلّا للأطفال الآخرين.

ذات يوم يزداد الوضعُ سوءًا والمعلّمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والآن انقلوا في كرّاساتكم الجُملة المكتوبة فوق السبّورة.

الجملة! أين هي؟ مِن هذا المكان في آخر الفصل وظهرُه إلى الحائط هو لا يرى إلّا أشكالا باهتة لا يستطيع التعرّف عليها. يغالب الطفل تردّده، ثمّ يستجمع شجاعته وقد خرجَت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجّها إلى السبّورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالَب بإعادة نسخها، لا يبالي بقهقهة السخريَة وبالطباشير المتطايرة. ثمّ يصلّي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرتُه الجُملة الطويلة وهو في غُدوٍ ورواح من السبّورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبّورة، كأنّه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصَّيد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبتِ.

- لا تتحرّك مجدّدا دون إذنٍ.

- لكن يا سيدتي...
- عُد إلى مكانك وإلّا شوَيت أصابعك بالمسطرة.
يدخل الطفل مجدّدا في قوقعته.
تصرخ "سيّدتي" في قمّة الهَيجان.
- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبيّ أم ماذا؟!...
- سيّدتي!!
- كفى، أصمت ولا تتحرك!
ليذهب المكتوب على السبّورة إلى الجحيم. لتذهب سيّدتي نفسها إليه. على كلّ حال لقد قرّر أن يطلّقها بالثلاث حتى قبل الزواج. سوء الفهم المزمِن بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توَفرها لهم اللغَة.
لمثل هذه الوضعيّة التي يتخبّط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بَعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغّص عليه عزلةً موجِعة لذيذة.
يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنّها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود. تهزّ الأمّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى النّور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله. تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنبّهه لأخطار الفرار من "الواقع".
- كيف تقرأ كتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلّمة، مستغرقا في خربشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنّك الأخير في القسم، كيف أقول له إنّك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دامٍ؟ يا إلهي، متى يعود، علّك تعود أنت إلى رشدك؟!
يرفض الطّفل الاستماع إلى أمّه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائبُ المرميَة في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلّمة وكل ما تقول. تُطأطئ "ما" رأسها، تنكفئ على حزن كأنّه بئر بلا قاع، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.
- يا بني، كنتُ أظنّ أنّني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلّم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!
ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفا، تمسك بيَدها المبلّلة عرقا يدَ طفلٍ يتملّص ضامّا يده الطليقة للصراع. مع مَن، ولماذا؟
اللّعنة، ما الذي يبرّر أن تكون آلامنا بمثل هذه الحدّة والعمق؟ ولماذا يجب أن ندفع كلّنا مثل هذا الثمن الباهظ لرحلة الحياة، خاصّة في هذا العمر؟ ربما فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدّنيا لاستقبال الزوّار، وإلا فكيف نفسّر تعذيب الأطفال بآلام لا يعرفون لها سببا أو معنًى؟
يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكلّف إخفاءه:
- طلبتُ حضور والده!
- أبوه... غائب يا سيّدي المدير.
- غائب أم فارّ؟ أم في السجن؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطير ومسلّح.
- يا سيّدي...
- اسمعي يا امرأة. إنّ ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلّف ذهنيا. يضايق المعلّمة ويعطّل القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الآفاق أو من الصحراء تحديدا، الأحسن لكِ وله أن تأخذيه ليرعَى الجمال هناك.
- أُقسم يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا و.
- كفى! إنّه متخلّف ذهنيا، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.
- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلا نهارا، إنّه شِبه يتيم يا سيّدي.
- حسنًا، حسنًا، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّدا ينتج أحسن الزيوت! لِيُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبدا.
يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمّا تغالب دموعا بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.
ثمّة في أقدم الملفّات صيغة أخرى لنفس الحادثة.
- طلبتُ حضور والده.
- أبوه... غائب، يا سيّدي.

المدير، بصوت خافت:
- بارك اللّه فيه وأمثاله من الوطنيّين. اسمعي يا سيّدتي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّدا. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبّورة لينقل ما تطلبُ المعلّمة كتابته. حقًّا إنّه طفل غريب! لماذا لم يقُل من البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركتهُ يرسب. أما الآن فخُذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.
يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطبّاء الشبّان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقِصَر النظر. أُولَى أَولَويات القسم - هذه السنة-الكشف على عيون كل أطفال السنَة الأولى في جميع مدارس المدينة.
ثمّ تهاجمه آلام اعتقد أنّ الزمان فعل بها ما تفعله الرّيح بالرمال، لكنّ الذاكرة الماكرة أَبَت إلّا أن تحافظ عليها كنقشٍ على الحجر. لماذا نُبقي بكلّ هذا الحرص على بعض آلامنا، نرفض فراقها ونحن كمن يغلق راحته على الجمر؟
بتصفّح ملفّ الحادثة يستوقفني شعور غريب. أين الحدّ بين الذاكرة والخيال؟ حقّا، أتذكّر ممشى الآلام وأنا في غُدوّ ورَواح من السبّورة إلى الطاولة ومنها إلى السبّورة. لقد قالت لي يوما "ما"، وكلها استغراب وفخر: هل تتصوّر؟ قالوا لي قبل أن نتفطّن لعينَيك، إنّك قد تكون متخلّفا ذهنيا. هل كنتُ فعلا مهدّدا بالطّرد، قاب قوسين أو أدنى من أن أصبح راعي أغنام عند الأخوال أو راعي إبل عند الأعمام؟ هل وقفت "ما" أمام مدير فظّ فاسد أهانها أم أمام مدير وطني كرّمها، أنقَذني وأنقَذها؟ أتراني أقوّل الذّاكرة ما ليس فيها لتكتسب قصتي رونقا أكثر ومزيدا من التشويق؟ أليس من ثوابت السيناريوهات التي نحبّ أن يتعرّض البطل إلى أظلم وأقسى المحَن، أن يشقّ طريقه في العالَم متحدّيا التنّين والساحر والشّيطان، أن يكون قاب قوسين أو أدنى من الفشل الذريع، ثمّ تحصل المعجزة التي تمنحه النصر المبين؟
هل القصّة التي أرويها لنفسي مصنوعة -على الأقل في بعض مقاطعها-من خيال الذاكرة أم ذاكرة الخيال؟
لم لا، فالذاكرة ليست خِزَانة تتراكم فيها ملفّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يَصقل فيها الحاضر ملفّات الماضي، يُعيد تكوينها وترتيبها وإضفاءَ معانٍ جديدة عليها. لهذا ليس للذات تاريخ وإنّما تواريخ تتشكّل من تضارب الملفّات، وممّا أُضيفَ إليها عَمدا أو بلا وعيٍ. مَن يصدّق سيرة ذاتية لشهير -كتبها بنفسه أو كتبوها عنه-مُطالبٌ بالكفّ عن القراءة، لأنه لا يفهم وظيفة الكتابة، وأنّها جُعلت للإبراز، قدرَ ما جُعلت، للإخفاء والتضليل.
وفي قصّتي -بما فيها من حقيقة وخيال-يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما:
- ابني أنا متخلّف ذهنيا، يوصَى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامَل هكذا؟! ابني أنا يُهمَل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!
- إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟
- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. واللّه لو حكّموني يوما في رِقابكم لترحّمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير.
تركتم ابني يرسب وأمّه تُذَلّ وتُهان ولم تذبحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلّا الإعدام رَميا بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يَعد فيه إلّا عميل أو جبان. أنا أستقيل منكم، اذهبوا أنتم لتحرّروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيّات!
- يا رجل، اتقّ الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحباه بعطفه خائن وعميل هو أيضا؟
- بالتأكيد هو أجنبيّ مُتخفّ فضحَته أخلاقٌ انقرضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا ينتبهوا لأمره ويسفّروه خارج الحدود. مَن المتخلّف ذهنيا؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديرا لأنّه كبير الخوَنة؟ ابني أنا متخلّف ذهنيا؟! اسألوه ما تريدون. قل لهؤلاء الجَهلة أين صَمد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟
- في الفالوجة.
- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهنّئا ومساندا؟
- قلت له: جئناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا لسلاح نقهر به أعداءنا وأعداءكم.
- أَسَمعتم؟! والآن عَلِّم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيّام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.
- جومو كينياطا.
- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟
- الماو ماو.

- أرأيتم؟ إنّ هذا الطفل كاد يَوما يُفلسُني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنّني وجدته البارحة مستغرقا في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلّف ذهنيا يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنّه يلتهم كل ما في مكتبتي ويقرأ حتى التي لا يَقدر على فهمها. ابني أنا يرعَى الإبل؟ ابني أنا، يفعلون به ما فعلوا!!! إلخ... إلخ... (وصلة أخرى من نفس النغمة)

ثمّ يلتفت إليّ. يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنسَ وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع البقيّة:

- وهذا المغفّل الذي بقيَ صامتا عِوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود،

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنّه يغالب دموعه؟

- ابني أنا يبكي! ثمّ ماذا أيضا؟! تعتقدون أنّه من طينة أطفالكم! ربّيتُه على الشدّة حتى لا يشبهكم يوما، يا مَن إذا حَكَمَكم كلبٌ مدحتم الكلاب وإذا حكمكم بغلٌ تغنّيتم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبن والعلف! سبحان من جعلني واحدًا منكم! إلخ... إلخ...

مِن يوم وُضعَت على عَينَي الطفل نظّارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسايَرة سلحفاة. كما هو الأمر دَوما، لم تتبخّر مصاعبه وإنّما تغيّر منها الشكل فقط.

وفي حالات أخرى يلبس الذي منه نقمة قناع الكائن المكلف بإحباطك وتحقيرك والسخرية مما تقول ومما تفعل اصطفاك للانتقام من البشر الذي يكرههم ويخاف منازلتهم، أما أنت الطفل الضعيف فلا خطر من صبّ جام حقده عليك.

يصرخ المعلّم الجديد: اكتبوا موضوع الإنشاء! جاءتك فرصة للقيام برحلة يوم الجمعة، صِف ما فعلتَ وما شاهدت ذلك اليوم.

يَنكبُّ الطفل المتهوّر بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقَع حبر.

وفي أوّل نصوصه يفيق الكاتب الصغير على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيّها الغبيّ ثمّة يوم أغرّ أمامك. وأمَرها هو ألا تُفْرط في الحرّ ولا في الشحوب لأنّه على سفر. ثمّ خرجت السيّارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكل الإمكانات ليجلس المغامر الصنديد خلف مقوَدها، الأمّ في قمّة الإعجاب والأب في قمّة العجب. سارت السيّارة على الأرض إلى أن واجهها الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيّارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتنحّ عن طريقي. قال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتُك وكفَى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقَت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله يَبسط حمايته عليه وعلى الجميع عند الأصيل، وقد خضّبت دماء الشمس هامات النخيل. توقّفَت السيارة قُرب فِراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا، والمرضى يجب أن يكونوا دَوما في فراشهم يتأوّهون ويصرخون ويطلبون من أمّهم أن تأتيهم بما يشتهون من المرطبات، إلا أنّه لم يكن للجدّ أمّ لأنّها سافرت إلى بلاد بعيدة وتركته وحده، لذلك جاءته "ما" بالحلوى فقال لها شكرا يا ابنتي، مع العلم أنّها ليست ابنته وإنما ابنة أبيها، جدّي الآخر صاحب البرنس الأبيض الذي توفيّ وأنا صغير. ثم قال الشيخ المريض: آه، إنني مريض جدّا، فقال له الطفل: ولماذا أنت مريض يا جدّي؟ فقال له الأب: اسكت يا مغفّل، ألا ترى أنّك تضايق جدّك؟ فقالت الأمّ: أطال اللّه عمرك يا عمّي، إن شاء الله يكبر هذا الصبيّ ويصبح طبيبا يعالجك من كل سوء، فبارِكه وادعُ له. فقبّل الجدُّ الطفل ودَعا له وللجميع وهو مسموع الدعاء من الله. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أكككككبر طبيب وسآتيك بكللللللّ الأدوية التي تحبّ وستروي لي كللللللّ قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنترة وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشُرب المشروبات قبّل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكينَ دَوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبكِ رغم أنّه كاد يفعلها لشدّة حبّه لجدّه. فهو يحبه كحُبّه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيالٌ من الكتّاب الناشئين أوّل نصوصهم: ورجعتُ إلى البيت فرِحا مسرورا.

يضع الطفل قلمه لاهثا ماسحا عرقه وكأنه خارجٌ لتوّه من معركة استنزفت كلّ قواه. هو بالفعل خارجٌ من معركة ستتواصل طوال حياته والرهان فيها هو التحكّم في الجُمل تركيبا وترابطا وتسلسلا وتشذيبا.

يلوّح المعلّم بإنشاء الطفل ساخرا ومهدّدا.

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصّة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحَت الشمس تَأتَمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلّم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفرٌ مُبين؟! لا تعُد إلى مثل هذا الكلام أبدا.

يتنهّد بصَوت مسموع قائلا: هؤلاء البدوُ! كلّهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم.
يكظم الطفل غيظه واعدا نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد، فلا المعلّم ولا حتى أعداء ''با'' قادرون الآن على تفكيك الحروف وهي داخل ذِهنه. إنها مِلكٌ نهائيٌ غيرُ قابِل للاسترجاع.
ما من شكٍّ أنّ هذا النص مواصلة الفرض الأول، فالتلميذ الذي كبُر كثيرا وبَقيَ نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشائه الأطول: أَفَقْتَ في عالم الآدميين، صِف كلّ ما شاهدتَ وفعلتَ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟
قد يكون انتقاما متأخرا من معلم ضيق الأفق أعطاني صفرا وأضحك عليّ كل أقراني. الأمل أن يحصل النصّ هذه المرة على علامة مشرفة ويا ليت أن تكون أحسن من علامات كل المنافسين.
ما أكثر الذين كتبوا وسيواصلون الكتابة في موضوع لا يستنفذه إنشاءُ طفلٍ في السابعة أو كتاب شيخ في السبعين.

وسط ساحة المدرسة، يُترك للأطفال أنفسهم مهمّة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري - والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين-وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.
يواجِه الطفلُ خصمَه منتبها لأوّل مرّة أنه فارغُ الطول مفتولُ العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار الطفل بسرعةٍ المواجهةَ، ربما لأن أمرَ الأب الجبار المتواصل داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوعٌ،
ممنوع، ممنوع. تضيع ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجهَ البغيض. ثمّ يندلع الألم فظيعا ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صُنعتا من حديد ورخام. يستنجد بكل ما بقي فيه من وَعي وحيَوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحتين ليسقط مرة أخرى، ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوًى مجهولة.
يلمَح من خلف انتفاخ عينيه نظرةَ الاستغراب في وجه المعتدِي وصوَرا مشوّشة لأطفال يتهامسون، كأنّ شيئا كالقلق بدأ يستشري بينهم. ربما أرعبَتهم شلالات الدم من الأنف والفم. فجأة تتوقّف ضربات المطرقة. يطلق المراهق ساقيه للريح، أيقن أنه أدّب خصما عنيدا يتبعه أصحاب أخرسَهم صمت متعجّب قلق.
هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كَم هو رخوٌ في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجِعة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسمٍ ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب.
هكذا يتعلم كل طفل ماذا بداخله، وهل هو رخو الروح أم أنّ فيها صلابةً ستمكنه من مواجهة كل المعارك التي تنتظره في ساحات كل المدارس والمعاهد التي سيمرّ بها الطريق.
يستبطن الطفل منذ ذلك اليوم المشهود أن الشجاعة ليست ألّا تخاف وإنما أن يَعتصرَ الخَوفُ منك الأحشاءَ فترفضُه، أن يصارعك فتغلبه، أن يزيّن لك الاستسلام فتلفظه. بتكرار مثل هذه التجارب -سواء كانت معارك أطفال ومراهقين بالقبضتين أو معارك شباب وكهول بالأفكار أو بالمؤامرات-تترسّخ عنده القناعة التي ستتحكم في كلّ تصرفاته إلى نهاية الطريق: إن انتصرتَ على خَوفك لن ينتصر عليك أحد.
مأساة كل الذين استسلموا للخوف أنهم سيعيشون طيلة حياتهم فريسة هذا الآدمي وقد لبس أبغض أقنعته بل هم بجبنهم من يبلورون فيه خاصية من أخطر خصائص البشر ألا وهي نزعة العنف وافتراس الأضعف.

يواجِه طفلُ سيرفض دوما أن يكون فريسة أو مفترس الوضعَ وكلُّه سعادة بأنه لم يستسلم لخَوفه، مرُجئا مشكلة الأكذوبة المفضوحة التي سيبرّر بها حالة ثيابه ووجهه.
كيف؟ نَفذَت كلُّ أعذار السقوط: من السلّم عند مسح الخريطة بأمر من المعلّمة، من الشجرة لمحاولته إنقاذ عصفور جريح، من الكرسي في الفصل، لم يبق إلّا الكرسي ليسقط منه.
تأخذ ''ما'' بيد طفلها، لا تُخفي وراء شبح ابتسامةٍ حزنَها المتواصل:
- لا يمكن للأمور أن تتواصل هكذا، أليس كذلك؟
- برأسك ''ما''، لم أكن يوما البادئ. لا أفهم حتّى سبب عداوَتهم. ماذا أقول ل''با'' يوم يعود؟ إنّني تركتُ كلبا منهم يعتدى عليّ ولم أدافع عن نفسي. لا مجال لهذا!
تعود ''ما'' إلى محاولاتها العقيمة والمرأةُ المسكينةُ إلى النهاية أسيرةُ التصورات الساذجة عن الأطفال بصفة عامة، وعن طفلها على وجه الخصوص.

- عِدني أنّك ستكلّم أقرانك غدا لتسأل عن أسباب العداوة. ربما هناك لُبس يُسوَّى بالحسنى.
- لا، أبدا، أنا أكرههم.
- إنّهم أترابك وأبناء الحيّ، منهم أقارب وجيران، ربما أسأتَ إليهم دون أن تشعر. الكلام فرصة لرفع كلّ سوء تفاهم.
- ،،،،،،،...
- لا بدّ أن تكون أكثر لطفا وبشاشة. نعم، هكذا أفضل. يا بني، الابتسام مفتاح القلوب. كم هو رائع أن تتصالح مع رفاقك وأن تستمتع باللّعب معهم من جديد.
تهمس "ما" في أذن جارةٍ جاءت تسلّي عنها همومها.
- إنه ولد طيب. لا تتصورين كم يتعسّف عليه أخوه الأصغر وهو لا يردّ الفعل. لا أدري لماذا أصبح بمثل هذا العنف وماذا يجب أن أفعل معه.
يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيَجان والمرح، يَصِف يوما من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.
- أعمَلتُ في أولاد الكلب قبضتَيّ. صمدوا بعض الوقت، ثم فرّوا يستنجدون بالمعلّم. كنتُ كسيّدنا عليّ في هجومه على الكفّار. على فكرة، السيد المدير يطلبكِ غدا لأمر يهمّك.
تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف بفسّر لها أنّه وفَى بوعده، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.
- أرجوكِ، اسمعيني. يدّعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لأحصل على أحسن الأعداد، لذلك أنا أوّلُهم.
تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.
سبحان مَن جعل أطفال الآدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية ونرجسية من الآدمي وهو طفل. أليس جلّ ما نعانيه من بعضنا البعض تواصلُ الطفولة فينا؟ أليس كلُّ طاغيةٍ طفلا رفضَ أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمّة يريدها أمّهُ؟ لا يوجد متوَحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش موزَّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية للأطفال مع بالغ الأسف. كم ننسى أننا نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين. لكنّ عدّادَ النضج يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة. فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر. كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول.
بربّك، ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيرا أحدنا مسؤولية قَول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرُهم الرضّع؟ لا أحمل أيّ واحد منهم -وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقبّله وافتعل الإعجاب بجماله ونباهته المبكّرة-إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبوّل عليّ اللعين أو أن يغتنم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة. ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضع على وجه الخصوص. بالله عليك، هل وُلِد هولاكو، أو هتلر، أو ستالين، أو جورج بوش الأب أو الابن، بشوارب وحذاء بمهمازَين؟ ألم يكن نيرون -ولا أتحدث عن كاليجولا-هو الآخر "ملاكا" تذوب القلوب لرؤيته، استبشَر بقدومه أبٌ وأم وجدّة وأعمام وأخوال، وهو يُعدُّ منذ نزوله عالَمنا للمصائب التي ما زال التاريخ يتذكّرها مرتجفا من هَول ما شاهد وما جرّب من فظاعات؟
وفي ملفٍ مودَع في أعمق طبقات الذاكرة يشتدّ صراخ "با":
- هل رأيتم بريق عينيه؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غضّ الطرف يا ابن الكلب. غضّ الطرف واطلب العفوَ. لا تريد أن تبكي. لقد كسرتُ شوكةَ مَن هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك -يا كلب-وستعلَم أنه لا خيار لك غير الطاعة.
هل من باب الصدفة أن يسألني بعضٌ من الأهل عن أحوال "سيّدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيدا"؟
تشتدّ سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.
- رحماك، رحماك، ستقتله.
يصرخ الأب وكأنه مُصاب بلوثة من الجنون:
- سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، اللعنة على كل أنثى!
يواصل المراهق الرافضُ الخضوعَ لمتسلط -أبا، حاكما، أو إلها-التحديقَ في الوجه الغاضب المحمّل بآلام السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب يحوّل ذهنه وجهة بيت شهير بتغيير كلمة واحدة منه:

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر   أما للعصا نهيٌ عليك ولا أمر.

يجنّ جنون "با".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنّه آن الأوان للإمساك بهذه الذراع وليّها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهِه بين العنف والقوّة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمّل تبعات كسر ذراع مَن يبغض أشدّ البغض، لكن مِن أين له تحمّل تبعات كسر ذراع مَن يحبّ أشدّ الحبّ؟ إنه فصلٌ من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وإن بأشكال مختلفة-إلا علاقة الأم بالبنت، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي سيواصل هذا الطريق؟

يصرخ الرجل في أوَج الغضب لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مُناصِر مجهول:

- قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجّلوا بالطبيب!

يرمي بعصاه على الأرض وبجسده المرهَق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دَوما على حقّ وأن هذا الولد ما زال غير ناضج وأنه أكبر من أن يعبأ بشطحات مراهق.

وفي آخر ملفّ عن صراع الإرادتين، يواجِه الشاب نظرة أبيه لا يرفّ له جفن، نافخا ببطءٍ مدروسٍ في غليونه الجديد، وحركاتُه تنضح بما مفاده أنّه سيّد نفسه، أنّه وحده من يقرّر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراخ بنفس الحدة وكأن الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخّن أمامي؟ خسئت يا كلب. ما زلتُ السيّد الذي تنكّس في حضرته العيون.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدّي؛ فالذات لا تتشكّل إلّا باعتراف تفتكّه من أب أو غير أب، افتكاك اليد العارية للّقمة من فم السّبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالحب والاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها بالكره أو بالتجاهل. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني دَوما من بُناة الذوات لا من مدمّريها.

يتسمّر البصر على البصر. تتضح للابن الموجوع فجأة الحالةُ الحقيقية لرَجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتّجاه، لرجل مقهور مِن تجدّد مَنعه من دخول صحرائه الغالية، والمانعُ شرطي محلّي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفتيش، لرجل محبَط هزمَته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذَوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشِل حياته.

فجأة يلمَع الاستغراب في عينَي "أين في الناس" كأنّه ذُهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبُه طفلي؟

تبقى العصا معلّقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجُل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمَن يُعيد إلى غمده سَيفا لم يعُد له نفع. ثمّ يحدّق في ابنٍ لم يتفطّن أنه أصبح شابا وفي عينَيه شيء من البغض وشيء من الحبّ، شيء من التفهّم وشيء من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فَضَلالة عابرةٌ من الكآبة ثمّ تجدُّد المرح.

ينفجر "با" ضاحكا: لله درّك إنك رجُل. والآن اخرج من بيتي حفظك اللّه، لا يتعايش أسدان في قفص واحد.

جاء الدور لتعذيبي على من لا يلمع في عينيهم إلا بريق الحقد والغضب.

يحدّق فيّ كبير الشرطة السرية طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحوّل اتجاه النظر:

- نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرناك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجدّية.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوعَ للتهديد، والغريزةُ عندي الهجومُ على كلّ مَن يهددني!

لم يكن الرجُل المخيفُ يهدّد في الفراغ. تصرخ سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفةٍ مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء يصرخون فيّ أنني مَن تجمّعَت فيه كبائر الموبقات. أصبح الشارع بلا نهاية والأوباش ورائي، تَوزّعوا الاستفزازَ في نظام محكَم. فهذا مكلّف بالكلمات النابية، وذاك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أخُن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خائن ابن خائن.

من أين يأتي النور؟   *(البياتي)*

ونحن في كل العصور حجر الطاحون
نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور
يبيعنا الطغاةُ للطغاةِ والملوكُ للملوك

تتسارع وتيرة الشتائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذا من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أُمّي. يفتح المارّة أفواههم دهشةً ثم يُطأطئون الرؤوس وهم ينتبهون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفَوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية. في مستوى حديقة الحيوانات تَفتعل حشود ‹‹الذي منه كل نقمة›› قطعَ الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضَع في المكان الوحيد الذي يليق بكائن مثلي: قفص القرَدة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيضَ لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفتين مغلقتين باشمئزاز. تتدافع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استَحلَّ حرمتَه إجرامُ الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال-صارخا: مَن تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة داهمتني على غير انتظار، رعدُها الحقد وبَرقها الغباء والجهل؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العَون؟ ممّن؟ أُجيل البصر حولي باحثا عن هبّة من ‹‹الشعب›› الذي نَدّعي كلُّنا أننا على استعداد للموت من أجله. يطأطئ المارّة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

ما الناس إلّا مع الدنيا وصاحبَها *فكيفما انقلبَت يومًا به انقلبوا* *(أبو العتاهية)*
يُعظّمون أخا الدنيا وإن وثبت *يوما عليه بما لا يشتهي وثبوا*

فجأة أنفجرُ ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة عائلية سيضحك فيها على الفجّار ويتشمّتون.

في ملفّ آخرَ والغوغاء المأجورة -نفسُ الغوغاء المأجورة-الملجأُ الأخيرُ سيارةٌ يَستهدفها ‹‹الذي منه كل نقمة›› ضربا بالعصي. أصرُخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلمَ السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبدا. يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بإرهاب دَولةٍ صادرَتها العصابات، مثلَ زورق تتقاذفه الأمواج. فجأة تكفّ الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرّد إنذار آخر وربما أخير.

لنُسمِّ هذا النوع من الآدمي ‹‹الذي منه كل نقمة››.

ها قد أَغلقت المدينة أبوابها في وجهي كأنني لم أسكنها يوما ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح بوجهه مَن يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدَهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غبارا شوّه لمعان حذائه. يفتعل مَن كنتُ وليّ نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرَني وأنا أوّل من رأى مصدوما ومتضايقا. إيه والله هكذا هُمُ البشر.

ما أكثر الأحباب حين أعدّهم *لكنهم في النائبات قليل* *(الشافعي)*

لم يبق لي من مكان أمشي فيه طولا وعرضا، ولا خشية فيه أن ألاقي آدميا يغيّر الرصيف، غير بيت فارغ ومطوّق. الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الآدمي أنه دَوما في وضع أحسن مما يَتصوّر وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا عِلم له بالمصائب التي أَفلتَ منها، مثلما لا وعي له بالتي تترقبه. ذاتَ يوم وأنا أبحث عن كشك هاتف غير مراقَبٍ، تُمسك بي من الخلف أيدٍ عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيرا أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلا. كم أظهروا من طول النفَس طوال هذه السنين والعقود. نفَسٌ لا يضاهيه إلّا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين ‹‹ما›› هذه المرة لتحميَني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطّب الجبين مِن حامٍ؟

العقبة الكأداء هذه المرة، ليست كثرة مفترقات الطريق وكثرة قطّاعه ولا حتى اكتظاظه، إنما توقّفه غير المتوقّع.

يصرخ ورائي الحارس بصَوت خشن فيه ملل لا يخفيه: قف؛ وجهك للحائط. انتظر أن يأتي دورُك. لا تتحرّك. لا تتكلّم إلا إذا أذنتُ لك. اغمس الإبهام في الحبر الأزرق. ابصم يا حيوان. انظر إلى المصوّر دون هذه الابتسامة الغبية. تظنّ أننا نأخذ لك صورة العرس؟ والآن إلى الزنزانة ركضا، لا تنظر يمينا أو يسارا.

وفي ملف آخر ما زال بعيدا على خطّ الزمان يهمس فيّ السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: مِن هنا سيّدي الرئيس، حذار من دخول الزنزانات ففيها بعض المجانين الخطرين.

يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرَى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصمّ الآذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيّدي أرجوك. انظر إلى هنا!

ها قد تداخلت الفضاءات والأزمنة وها أنا أدخل فجأة زنزانة رجُل منهمِك في القراءة لا يعلم أنّ شبحا آتٍ من مستقبلٍ قريب يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح هؤلاء البشر! حقا يا لك من غبيّ.
كل الامتداد زنزانة نتنة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير. لا شيء تفعله سوى المشي طولا وعرضا كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباحٍ ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زنزانة ذاكرةٌ ملقّاتُها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أُحاول استحضار الوجوه وتخيُّل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلّا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: صبر.
قد لا يعرف الآدمي طوال رحلته حالةً أكثر عمقا وتواصلا من العجز، وهي الآن وهنا في أوَجها، وقد أطبق فخّ الصياد الخبيث على الطريدة الساذجة.
ترتفع من الزنزانة المجاورة صرخة ستُلاحقني سنواتٍ، في النوم وفي اليقظة، بين يدَي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجدّ، تُذكّرُ بأعمق وأرهب ما تعلّمتُ عن الطبيعة المخفية لآدمي يلاقيك في الطريق مُسلّما، تَضمُّه لصدرك لا تدري ما الغولُ الذي تُقبّل. أيّ كائنات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعَت التعذيب بل وجعلته أداة سُلطة في الدنيا والآخرة!
يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثمّ صفيرا ثمّ حشرجة. كفّ الرجل عن الصراخ. ربما هو بصدد التقاط أنفاسه. ربما هو يتوجه بإسمنا جميعا إلى مَن لا يهمّه الأمر: خذ استقالتي على وجهك واذهب للجحيم أنت ووجودك، أنا عائد إلى العدم. صدق من تنهّد: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أَصدَقُ منه من صرَخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل في المحطة القادمة. أَصدَق منهما الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد.
نعم، إنه السجن، السجن الأكبر، السجن النهائي، السجن الذي لا قدرة لأحد على تخطّي قُضبانه وهي في كل مكان.

فنون رداكِ يا دنيا	*لَعمري فوق ما نَصِفُ*	*(أبو العتاهية)*
فأنتِ الدار فيك الظلم	*والعدوان والسرف*	
وأنت الدار فيك البغيُ	*والبغضاء والشنف*	
وأنت الدار فيك الهمّ	*والأحزان والأسف*	
وأنت الدار فيك الغَدرُ	*والتنغيص والكلف*	
وفيك الحبل مضطرب	*وفيك البال منكسف*	
وفيك لساكنيك الحين	*والآفات والتلف*	

شيء بداخلي يستهزئ: بل أنت السجن وقضبانه مخيّلتك القاصرة وفكرك الضيّق وروحك المشبعة بالخوف وفؤادك عندما يفرغ من الحبّ.
تتردّد قهقهةٌ عاهرة وأوامرُ صارمة بالصمت وأخرى بالكلام. كيف يمكن أن يكون لهذا الذي وصلَت لديه نقمةُ البشر إلى ذروتها حبيبٌ أو طفلٌ؟ بل كيف يمكن أن يكون له أمّ أصلا؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ كائنٌ جاء من عوالمَ أخرى لتدمير الآدميين بغَرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ شيطان طُرد حتى من جهنّم؟ فرضية رهيبة وأفظع منها أنه آدمي، بل وله أمّ.
كم سيصعب علينا أن نثبت لله أنه لم يخطئ في خلقه جنسنا الشرير أو على الأقل أنه ارتكب خطأ ما زال قابلا للتدارك!
اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقةَ الوحيدةَ التي يعرف أنها قادرةٌ على دكّ حصوني.
لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الزنزانة وأن أضع رأسي بين ركبتيّ وأصابعي داخل أذنَيّ، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بِقع نور باهت.
اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن الرجُل، ولهم مني كل ما يريدون. سأقلب الموقف رأسا على عقب.
ألا يُصدر الآدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجُل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفالَ. فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد. لا، لا، تبالغ حقا، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحدثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحمله القلب. يا رجل، مَن يحدثك نحاسي كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟
يسمع الرجل النصيحة أخيرا. تعبَ الأُذُنان من رَوعة صمت مفاجئ كما تعبّ الرئتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكونون بصدد مسح دمائه والتفكير في الأعذار التي سيتقدمون بها لتبرير زلّة اليد وسوء التقدير.

لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفّ في خرق قذر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لئيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تعلو محيّاه ابتسامة الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأسُ مدفون عميقا بين الركبتين.

ما الذي يجعل من الآدمي مثل هذا الكائن البشع الذي لن تجد له نظيرا بين الكائنات الحية، في القسوة والنذالة؟

كم من فظائع يرتكبها ''الذي منه كل نقمة'' في مثل هذا المكان! أظافر تُقتلع، ابنة تُغتصب أمام أمها وأبيها، سياط تسلخ الظهر إلى العظم، حوامض تراق على الجروح، كيّ القميص على حامله، أطراف تبتر تباعا، عيّنات مما يَقدر عليه ''الذي منه كل نقمة''، عندما يتعامل مع أعدائه بالتفصيل. أمّا بالجُملة فأكوام من الأجساد تُحرق لاستخراج ذهب أفواهها، تلال من الجماجم على أنقاض مُدن سُوّيَت بالأرض.

كما لا يُعرف عن أي كائن أنه يمارِس التعذيبَ باستثناء الآدمي لا يُعرف عن أي كائن آخر مثلُ طرقه في القتل. هو عند الحيوان عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياتَه ولو بثمن حياة المقتول..داخلَ الآدميين ثمة دوما تساؤل عما يمكن فعله بعد اكتشاف الذبح والحرق والخنق والشنق والصلب وضرب العنق، والقطع إربا إربا والسلخ والدفنِ حيًّا ونبش القبور للتمثيل بالجثث؟ أيّ طريقة جديدة لم تُجَرّب من قَبلُ لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم، بهذا الذي يُقتل؟ كيف القتلُ السريع النظيف غيرُ المكلّف للتخلص دفعة واحدة إن أمكن بمئات الملايين من البشر. مَن الآدميين من قضّى رحلته يبحث عن سُبل القضاء السريع المربِح، على كل ما تحمل هذه الغابات من أشجار وتلك السهول من الأبقار الوحشية أو المحيطاتُ من الحوت...: كيف سُمح لكائن كهذا بأن يوجد؟

ثمة إمكانية أن الآدمي تجربةُ قوةٍ عمياءَ اسمُها الطبيعة، أن تجربتها هذه كانت أكبر غلطة ستدفع ثمنها باهظا.

ثمة إمكانية أن الخالِق الذي خَلق هذا الجنسَ، ارتكب الأمر وهو في حالة متقدمة من السكر...اللهم إلا إذا كان الأمر فعل من أفعال الشيطان.

عن الجاحظ: "وبعض المفسّرين يزعم أن نوحا صلّى اللّه عليه وسلّم، إنّما سُمِّيَ نوحا لأنّه كان ينوح على نفسه وأنّ آدم سُمِّي آدم لأنّه حُذي من أديم الأرض"

كيف حُذي آدم من هذا الأديم وماذا عن تفاصيل العملية؟

لا شيء تقريبا باستثناء شهادة آدمي آخر يدعى الطبري حيث يقول في بعض كتاباته إن الخالق لَمّا أراد خلق آدم، أمر ملائكته بأن تأتيه ببعض الطين ليسوّيه. لكن إبليس خاف أن يأخذ المخلوقُ الجديد مكانه، فاغتنم لحظة سهو الملائكة ليبول في المادة التي سنصنُع منها أنا وأنت. أي والله هكذا قال العالم الكبير.

مؤكد أنه كتب هذا الكلام وهو في حالة قرف من الجيران والأولاد ناهيك عن الدائنين والخصوم وما يسره له الشيطان من خصوم واعداء.

كم اتفهم الرجل وأنا في نفس الحالة لذلك هذه بقية روايته متحملا فيها كامل مسؤولياتي الفلسفية والقضائية.

نعم لم يقل مؤرخنا الكبير كل شيء من باب الرفق بمعنويات بني جلدته. حقًا لم أحضر الواقعة، لكن مَصادر عدة -لا يَسعني الآن الكشف عنها لأسباب أمنية-أكّدت لي أن إبليس لم يفرغ فقط مثانته في الطين الذي تشكلنا منه، وإنما أفرغ فيه أيضا كل ما في جوفه، وحتى أنه كان يومها مصابا بإسهال حادّ ففعل الفعلة الشنيعة التي لن أتبحّر في وصفها.

كما أكدت لي مصادر أخرى موثوق بها أن الملائكة اغتنمت الفرصة لتزيد الطين بلة فبصقت في العجينة المقزّزة بل وأكثر من مرة.

كيف لا تكون الطبيعة البشرية عموما -وطبيعة خصومي السياسيين خصوصا-على ما هي عليه؟ لا غرابة أيضا في ولع بنات حواء بالعطور لتدارك ما يمكن تداركه وهن أعرف الناس بأن الضلع الايسر لآدم الذي خلقن منه لا يختلف في مادته من بقية الأضلع الأخرى.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص وسط جحافل الآدميين.

تقول ما العمل؟ لا شيء غير مواصلة العيش معهم رغم كل ما تعلم عنهم. ألا نزرع على سفح البركان؟

ألا نبني فوق أرض الزلازل؟

لمَ لا نواصل النوم مع الآدمي الآخر بلا سلاح تحت المخدّة، طالما نستطيع تناسي الطبيعة الحقيقية لهذا الذي يشخر بجانبنا.

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعِنان السماء تريد شجّ رأس مَن ارتكب هذا العالم فترفرف لحظة لتنقضّ عليه كالعقاب، عقابا على الإمعان في تمرّد عقيم تَحالفَ لإخماده سادةُ السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأوّل لعنة إلى عالم أفاق معي متربصا بي وبغيري: ما زلتَ موجودا! كأنْ لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعتُ فيك.

ذلك أنّني أضع اللعين كلّ ليلة في المزاد العلني متوجها إلى مُشترٍ ساذج قد يَسهُل التغرير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير.
على ما يبدو، المشتري ليس غرّا وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوّجه إليه مجددا كل صباح متثائبا ولا أَملَ جِدّيًا لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالَمٌ كاملُ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجانا، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.
يُفتح باب السجن الضيّق يوما ليتلقفني سجنٌ أرحبُ اسمه الوطن. يأخذونني إلى بيتي في سيارة الشرطة.
داخل السيارة حديثُ بَشَرٍ تخلّوا لحظة عن لَعِب أدوارهم.
- تظنوننا وحوشا؟ نحن بشر، نعم بشر، ماذا تريد؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟
يواصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت:
- هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركتَ فيها؟ التي حصلَت أمام مقرّكم؟ ... طالَبونا بإهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسسك أحد بأذًى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟
الصوت الآن مختنق يغالب عبرة صامتة:
- قل،
- فتحَت القحبة بنت الكلب التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعابها المقزّز لا يكفّ عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني.
تتدافع إلى الذاكرة صورة "با" ويده على خده وغضبه لم يخمد بعدَ عقود من صفعة الضابط الأجنبي، قد تكون سبب الصداع المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه حتى دوائي. يا ربّ، كم من آلام عبثية يلحقها الآدمي بالآدمي!
دون وعي ترتفع يدي، أمرّرها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجفّ منذ شهور.
- عفوا، وقبّل صغارك من طرفي.
إذا أردتَ ألا تُخطئ أبدا في حقّ إنسان، تساءل أمام أيّ تصرف يلفظه القلب ويرفضه العقل: ما المصاعب التي يتخبط فيها هذا الشخص؟ ما المشاكل التي تجاوزَت قدراتِه على حلها، ما الآلام التي يعاني منها؟ لن تجد إجابة أغلب الحالات، لكنّ مجرد إلقاء السؤال على نفسك سيمنعك من الردّ على الخطأ بالخطأِ وعلى الخطيئة بخطيئة أكبر منها.
المضحك المبكي في هذه المآسي المهازل التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الممثلين يعتقدون أنفسهم أخيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة. تمعّن عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار-أشرار وأشرار-أخيار، بين جلادين-ضحايا وضحايا-جلادين، بين خطرين أغبياء وأغبياء خطرين، بين مهووسين بهذه العقيدة وهاذينَ بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على جلّ فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الاستيلاء على ما أُخذ منهم، وسَرقةِ ما لم يُسرق بعد، وكل آدميّ على الدوام كذّاب مفترًى عليه، سارق ومسروق، ظالم مظلوم.
لا غرابة أن يتزايد عدد من يصرخون أوقفوا هذا القطار أريد أن أنزل لم أعد أتحمل ما فيه من ركّاب.
كم منهم في هذه اللحظة بصدد النزول من القطار يرفضون متابعة الرحلة والحلّ رصاصة في الرأس او حبل حول العنق او كوب كامل من أقراص نوم لا استيقاظ منه.
مجددا وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى التي يسمونها الوطن.
مِن أين لي التركيز على العدوّ وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي.
تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتيّ. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدوّ جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرحٍ الذي أصابه به الصديق أم العدوّ. يهمس فّي:
- أتعقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيّنك بالمقابل على أصحابك؟
أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقَه، حتى ولو خان هذا الأخير.
يصرخ فيّ قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:
- يا مغفّل، مَن يبحث عن الوفاء يستثمر في الكلاب لا في الآدميين.
لا أحد فَهِمَ الحقيقة المرة قدر ذلك الأعرابي الذي تزوّج وهو في أرذل العمر، فعاب عليه أصحابه الأمر يُخفون حسدهم وراء اهتمام كاذب بذريته: هلّا فكّرتَ في أطفال صغارٍ سيكبرون بلا عائل. فجاء الردّ مفحما وحكيما: "أبادرهم باليتم قبل أن يبادروني بالعقوق".

بربّكم، أليس مضحكا أن تلتحم الجيوش ببعضها البعض وهي مثخنة بجراح المعركة التي لم تكفّ لحظة داخلها، أن تنشب بين جيوش من المعاقين والجرحى أنهكتها تنافساتها الداخلية وأكملت المهمّةَ حروبُها الخارجية مع جيوش ليست بأحسن حال؟ مشكلتنا الكبرى في معارك الصديق الذي يَختفي وراء ملامحه المنافسُ المزمن. فالصديق الحقيقي هو آخِرُ من يصدّق ما يُروَّج عنك من إشاعات وأوّلُ مَن يغفرها لك إن صَدقَت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، هو ما تُسمّيه ويُسمِّي نفسَه الصديق، هو أوّل من يُصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك فيها عن الخلّ الرفيق كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور. كم صدق القائل: اللّهم أعِنّي على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

القانون الأول في السياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة. لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محارِبا ساذجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حنجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية بساعده لحنجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة.

السؤال أمام أي حليف –منافس تصيبك به الأقدار ليس هل سيغدر بي يوما وإنما أي يوم سيغدر بي؟

لا تحاول أن تصل قمة تظن نفسك في مأمن منه، فأنفاسه في ظهرك وأنت على أعلى القمم.

"ومن يَذُق الدنيا فإني طعِمتُها وسيق إلينا عَذبها وعذابها (الإمام الشافعي)

وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همّهن اجتذابها

فإن تجتنبها كنتَ سلما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها"

القاعدةُ أن هذا الصنف من البشر الذين يسمونه المنافس على يقين أنّك حجَرُ عثرة في وجه ما يريد، أنّك أخذتَ منه ما لا حقّ لك فيه أو أكثرَ مما تستحقّ، أنّك لم تُعطِه حقّه من هذا الشيء أو ذاك، أنه سيفتكّ منك ما هو أحقّ به منك كلّف ذلك ما كلّف.

هو يريد الدنيا له وحده وحتى في الآخرة لا يريدك إلا عبدا له.

قدر الآدمي أنه لا يبني ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهيه هذا الآخر. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهيه كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارتها في أنفسنا. هكذا تنطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعاني منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسَد وصراع وظلم. إنه العَيب الهيكلي في طبيعتنا، الذي لم ولن تفلح في إصلاحه أو تجاوزه تربيةٌ أو فلسفةٌ أو دِينٌ أو سياسة.

في ملفات ذاكرة المستقبل حادثة تؤكّد أنه لا فرار من ‘‘الذي منه كل نقمة’’، لا في أدنى درجات سُلّم الثروة والسلطة ولا في أعلى هذه الدرجات.

- كان كمينُ البارحة لجنودنا أخطر الضربات الإرهابية منذ الثورة ...

أرفعُ يدي، أريد من الطبيب العسكري الصمت.

على فراش الآلام ثلاثتهم لأشهُر طويلة من العذاب، بعدها سيتلقفهم مصير لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُترت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيّدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين، الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في...

بَشرٌ يزرعون الزيتون وبشر يزرعون الألغام! هكذا هم البشر... عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزَوٍ من دهاليزها، تترصّد كل الاستعدادات القادرة على جعل الآدمي يُعذّب الآخر، يَغتصب أمامه زوجتَه الحاملَ، يستلُّ قلبَه يأكله وهو ينبض، يبول على قبره يُقهقه نصف سكران نصف مجنون، يُلقيه حيا من الحوامة، أو يزرع على طريقه لغما من متفجراتٍ كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام.

لا بدّ هنا من وضع هذا الآدمي البغيض في الإطار العام للمحن والامتحانات التي تواجه المرتحلين جيلا بعد جيل.

ثلاث آفات من الطبيعة: الوباء وجنون الأرض عندما تميد زلازل أو تنفجر براكين وجنون السماء عند الجفاف أو الطوفان.

ثمة الآفات التي هي من صنع البشر وهي أيضا ثلاث: الاستعباد والاستعمار والاستبداد ووراءها دوما ‘‘الذي منه كل نقمة’.

وفي آفة الاستعباد يتخذ شكل النخاسين وحماتهم وزبائنهم يتصرفون في البشر كما لو كانوا خرفانا أو بعيرا، شعارهم "من ذا يُطالِبُ سَيّداً في عبدِهِ"...ثم لا يتركون لضحاياهم وهم بالملايين إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام أو عواقب التمرّد الوخيمة.

وفي آفة الاستعمار يتخذ ''الذي منه كل نقمة'' شكل الغزاة القادمين من الآفاق البعيدة يفرضون على شعوب بأكملها ظلمهم وسطوتهم وجبروتهم وحقهم في استنزاف كل خيرات هذه الشعوب ...ثم لا يتركون لضحاياهم وهم بالملايين إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام أو عواقب التمرّد وأفظع أنواع الموت.

وفي افة الاستبداد يتّخذ ''الذي منه كل نقمة'' شكل طغاة قلّ أن تجد بينهم سويّا، تتحلق حولهم عصابات فاسدة مفسدة تستولي ظلما وعدوانا على مجتمعات باسرها تصادر جلّ ثروتها ...ثم لا يتركون لضحاياهم وهم بالملايين إلا الخيار بين ذلّ الاستسلام وعواقب التمرّد وأفظع أنواع الموت.

ذروة الآفات الثلاث ظاهرة ذكرها المؤرخون وأكدتها الحفريات وهي تكتشف مقابر يستوي فيها الطاغية الممدّد على ظهره وحوله جواريه وغلمانه الذين قتلوا على حافة القبر ثم رموا فيه على عجل، لأن الآدمي الذي استنزف الأجساد والأرزاق حيّا اعتبر من حقه أن يكون له خدم في الموت كما كان له خدم في الحياة.

بعد كل هذا يطلع علينا نبيّ صادق مخلص لكنه مبالغ التفاؤل بالآدميين ليقول "أحبوا بعضكم البعض" أي أحبوا أيضا ''الذي منه كل نقمة'' بل ومضيفا إن ضربك على خدّك الأيمن أدر له خدّك الأيسر. احببه انت إن كنت قادرا على الأمر طول الوقت.

أما بخصوصي فلم أدر يوما للذي منه كل نقمة فردا أو جماعة خدي الأيمن بل سخرت جل حياتي لا جثائه على ركبتيه.

*

يأتيك يوما مِن تَواصُلِ المواجهة مع كل الأشكال التي يتخذها ''الذي منه كل نقمة''، مَللٌ مصحوب بشيء يشبه الغثيان. هو كتلك النباتات المضرّة التي لا ينفع فيها اقتلاعٌ أو سُموم أو حَرقٌ. لا جدوى من قتل شكله الأوّل، ولا الواحد بعد الألف. نحن دَوما مطوّقون بأشكاله لا إفلات من قبضته وهو جزء قار أزلي متجدد من المشهد الآدمي.

لم يبق إلا الحلّ الجذري.

أي حلّ؟ تنظيم مظاهرة عارمة لكل من أضرّهم وجود البغيض والتهديد بكذا وكذا إن لم تحذفه من السيناريو القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو. تقول ساخرا بماذا ستهدّد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهمُ أن نهدّدهم بشيء ما علّهم يحملوننا على محمل الجدّ ولو لحظة.

الدليل على موافقة الجميع حضورُ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نقمة، فتردّد البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشرّ: لا، لا، لا.

بدايةٌ مَوَفّقة لأكبر مظاهرة في التاريخ ستُجبر القوى المبهمة المتحكمة في المصائر على الكفّ عن تجاهل صلواتنا وأخذِ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء. ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشازٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدين، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظلاميين الرجعيين! وآخَر يصيح عيب يا إخوة، يجب أن نتوحّد لنكون أقوياء.

تفكّكت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبّق مطالبه ويصَفّي حساباته مع مَن يدّعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهتف.

آخر محاولة لإنقاذ فكرةٍ يبدو أنها لم تكن بالعبقرية التي اعتقدت. لأتوجه إلى الحشود مخاطبا العقل والضمير وحسّ المصلحة العامّة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورصّ الصفوف.

تتعالى أصوات الاستحسانِ فالسبِّ والصفير، بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلّفِ بتسميم حياة كل زعيم: مَن قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاوَر في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صِحتُ: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يمسكون بخناقي يريدون التثبت من حزامي أنا!

" فيا ربّ إنّ الناس لا ينصفونني	*فكيف وإنْ أنصفتُهم ظلموني*	*(أبو العتاهية)*
وإن كان لي شيء تصدّوا لأخذه	*وإن جئتُ أبغي شيئهم منعوني*	
إن نالهم رفدي فلا شكر عندهم	*وإن أنا لم أبذل لهم شتموني*	
وإن وجدوا عندي رخاء تقرّبوا	*وإن نزلت بي شدّة خذلوني*	
وإن طرقتني نكبة فكهوا بها	*وإن صحبتني نعمة حسدوني*	
سأمنع قلبي أن يحنّ إليهمُ	*وأحجب عنهم ناظري وجفوني"*	

أنا الآن كالأسد الجريح يلعق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني آوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه يتنظر خائفا لحظة الأكل.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضا وليأكلوا كل هذه الخرفان، فإن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمّية الشحم واللحم التي يوفرونها للكواسر. آه، وبخصوص عذر وجودي؟ كمّية المواد المذكورة أعلاه التي سأوفرها لكواسر من حجم أصغر اسمها الدود.كم من مراسيم ركيكة قبل أن يسعد الدود بوصول المدد.

ثمة عقبة الجنازة. هي عند الآدميين كالختان والزواج: مناسبة لملاقاة الأعزاء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصفقات، أحيانا لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت. يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكبي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي ''الذي منه كل نقمة'' خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبَه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.

يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.

كأنني أَسمعُهم يتهامسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ ...لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى...هل رأيتَ ما أبشع نظراته... لا يلبس ربطة عنق، مَظهره مظهر عامل فلاحي، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الآفاقي أن يريد نفسه سيّدا لنا... حرام عليكم أن تواصِلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا اللّه من سحنته البشعة ...ثم خاتمة كل المنافقين يستنفرون لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير ".

حقا ثمة قلّة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم رحيلي.لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي (جلال الدين الرومي)

لا تظنّ

أني متألم لفراق هذا العالم

فلا تبك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه

فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف

وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق

فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي

وحين أودع القبر لا تقل الوداع

فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعُهم في حقي: الذين بالغوا في كرهي لجهلهم أو لتجاهلهم لما فيّ من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنقائصي وعيوبي. كان لي ككل الآدميين بعض الحسنات تنسبّها زلّاتي، وبعض الزلّات تغفرها لي الحسنات، ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدَر الآدمي ألا يكون إلا صوَرا في الأذهان. صورته في مرآة مَن يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يَعبر طريقها، بالكاد تَلمحُه. وحتى صورته في مرآة ذاته. أما مَن له هذه الصور المتباينة فشبه مجهول للآخرين ولنفسه أوّلا.

لعنات الحفّارين الصامتة وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أُودَعَ في جَوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان علّ بعض الكواسر وثعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في آدمي؟ الرائحة! من سيتضايق إذا رُميتُ بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تَقلق فتحتَ الثرى حيوانات أصغر من ثعالب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتَني. ''ماشي'' مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأُدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى الأعلى.

"سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيتوري)

أرقد كالماء في جسد النيل

أرقد كالشمس فوق

حقول بلادي

مثلي أنا ليس يسكن قبرا"

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد، أنت الذي يعرف محوَ الخُطى، امحُ آثاري.

أخشى ما أخشاه أن ينتصبَ الخطيب المفوّه لآخر اعتداء. مَن قال أكبرَ الأكاذيب عند البشر قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصَّيد؟ نسيَ الشقيُّ خطبة التأبين. ها هم على أُهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشوِ فَم الميّت بعنقود العنب الذي رفضوا إعطاءه وهو حيٌّ أصغرَ حبّة منه. لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّا، بالتنقيص من قدرِك، ويكذبون عليك ميّتا بالزيادة فيه. إياكم ثم إياكم، واللهِ لو خطبتم خُطَبكم الرنّانة على حافة قبري لرميتُكم بالحجارة من خلف

السحاب، أو لانقلبتُ عفريتا يأتي لياليكم بأفظع الكوابيس. بالله عليكم يا مَن أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركتُ لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا مَن أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبَلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وتنتحبن على الميّت، والحال أن تمام العكس ما يجب. ولأنني لَمّا انبثقتُ في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوّه يمدحني بخصالي المرتَقبة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا "ما" وخالةٌ وجارة تدّعي أنها قابلة، فإني لا أريد في وداعي إلا ثالوث نساء آخر: تفاحة وتفيحه و"ح" التي غمرتني بحبّ لم أستحقه يوما.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبري يخطبون. إكرام الميّت دفنُه. نعم، خاصة بصمت. وحده الوجع الصامت حقيقي، أما الصخب الجماعي فأغلب الوقت مسرحية عديمة الذوق.

تُهال على جسدي آخر حفنة من التراب، أُبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعينٍ تعتصرُ عبثا من مآقٍ جافّةٍ دموعَ التماسيح.

فوق القبر يتواصل تدفّق سيل الحياة، نهر جبار عاتٍ آتٍ من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما همّ مثل هذا النهر لأن قطرة تبخرت منه.

"ميّت أنت وإلى الأبد *(لوركا)*

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقربُ الناس إليّ عائدون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أولاد الكلب! أي أهمية للأمر الآن وقد أدرتُ لهم ظهري وأداروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهدة أريد أن يكتب هايكو ايسا أعدتُ صياغتَه بما يرضيني ولا يغضبه.

"أخيرا نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غنِّ على قبري"

الخلاصة أن هذا الآدمي الذي اكتسب شكل "الذي منه كل نقمة" هو رفيق الطريق الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خرير الماء على دويّ الرعد، على نزول المطر... هو دليل السوء والشرّ الذي يقودك في مجاهل الغابة ليضيّعك عمدا... هو مَن يحفر أمامك الحفرة لتقع فيها، من ينصحك بالطريق الذي ينتظرك فيه قطّاع الطريق... هو من يسرق حذاءك لتمشي حافيا على الأشواك... هو الذي يدفعك نحو صحاري الموت يمنع عنك الماء عند العطش أو يقرّبه لشفتيك المتشقّقتين ثمّ يبعده ضاحكا متشمتا... هو الذي يدعو الكواسر لتقتات من لحمك ولم تلفظ بعد نفسك الأخير... هو الذي لا يترك لك الخيار إلا بين الحرب الأزلية والاستسلام المشين... إنه الذي يتبوّل على قبرك ضاحكا بعد أن مشى في جنازتك وهو القاتل...كأنه لم يُخلق إلا ليكون مُغلِقَ كل الأبواب، واضعَ كلّ العراقيل، معسّر كلّ يسير، منغّص الوجود... اللهم امنع عنه النوم والموت.

ربما للقوى المبهَمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود هذا النوع من البشر، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بائخة وبلا طعم، أنه هو الذي يولّد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهّج نارا ونورا ونحن نقاوم وننتصر... ممكن، لكن لماذا بهذا الثمن!

يكمل الخيال الاحداث ويستبقها.

المهم أنني عدت من حيث أتيت أن بوسعي الآن أن أضع رَحلي انتهت مشقّة السفر. قبل الإخلاد إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجّل إدانتي التامة لفكرة خَلق كائنٍ مثل "الذي منه كل نقمة"، وطلبي الملحّ بسَحب دوره من السيناريو.

أتسمّر مذهولا وأنا أرتطم بالنظرة المتجهّمة لجبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي. آه هذا ملفّي وهو بداهة زاخر ثقيل. بماذا؟ بشكاوَى الأطفال الذين تكبّرتُ عليهم لا أنتبه لحاجتهم للتفوّق... بشكاوى الإخوة الذين استأثرت دونهم بأب لا أنتبه لحاجتهم للفت انتباهه إليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومراهق وقح وشاب ناكر للجميل لا أنتبه لحاجته من الاعتراف...بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عفّرت أنفهم في التراب لا أنتبه لحاجتهم من الاعتبار... بشكاوى الطغاة الذين أشبعتُهم تهكما وتحقيرا وساهمت في دكّ عروشهم غير معني بحاجتهم لقليل من الحب الصادق ... بشكاوى الجلادين الذين فضحتهم وسلّطت عليهم الأضواء أرفض لهم الحق في الستر ...بشكاوى كل الذين ظلمتُهم حين أنصفوني، الذين حجبت عنهم ناظري وجُفوني، الذين لم يسلَموا مني أُلاحقهم بسخريتي حتى وهم في الخرق الأبيض.

آه، ما زال هناك المزيد من الملفات!

ماذا أيضا؟ شكاوى الأعشاب التي اجتثثتُ أو دُست غير عابئ بماذا أجتثّ أو على ماذا أمشي ...شكاوى الفئران التي سمّمتُ صغارها في غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق ... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع ... شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمتُ أطفالها شاكيا من رداءة طبخها... شكاوى شعوب النمل التي لاحقتُها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.

كيف لا أنفجر ضاحكا؟ لا يكفي أنني كنت الذي "منه كل نقمة" لكل هذا الكمّ من الآدميين التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبّيثة لِما لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

وأيضا ويا للعجب أنهم ألطف كائنات هذا العالم إذ هم أيضا اللذين منهم كل نعمة

يُداهِمني الشعور بأنني مجدّدا في خطر داهم وأنا أنتبه لمجهول يركض ورائي في الشارع المظلم ويده تمسك بذراعي. تدوّي داخل الذات كل صفارات الإنذار. تتراءى لي بسرعة البرق الصوَر المعتادة وكيف سأُقتاد نحو سيارة رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمة وعيونٍ يتطاير منها شرار البغض والخوف.

تتباطأ دقات القلب وأنا أسمع الآدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنبا إلى جانب: بارك الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.

تربتُ يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الزحمة، لا يترك لي الوقت للتمعّن في ملامحه. إنّه الآن شعور مَن كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عَثر أخيرا على والديه. صدّقتم صراخي في وجوهكم بسببٍ وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيّل لي أنكم لم ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدّدا على شعر ابنته. هذا جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخجلته التأتأة. مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روحي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك فيكم جميعا.

على أي حال كنا نعيش دون هذا الذي يرافقك على طول الطريق يُعينُك على أحواله وأوحاله!

ذات صباح يُدَقّ الباب بإلحاح، فأخرج إليه متوقعا الشرّ المألوف، خاصة وأنا أسمع أصوات كلاب الضبع ترغي وتزبد وراءه. كلا، هم لم يأتوا لأخذي مرّة أخرى للتحقيق في قضية ملفّقة وإنما هم بصدد التأكّد من هُوية شخص أكاد لا أعرفه يصرّ على زيارتي. يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حق منع الزوار عنه. يسلّم عليّ مهنئا بسلامتي. يلقي بنظرة ثاقبة حوله، متعجبا من خلوّ البيت تقريبا من كل أثاث. لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة كأنه يعرف حبّي للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليَعلم الجميع، مع مَن يقف وأي قضية اختار.

إنه الآدمي في أروع مظاهره...ذلك الذي يهبّ لنجدة كل غريق ثم يختفي خوفا من أن يلاحقه أحد بالثناء والشكر ... الآدمي الذي أسميه الانسان الفارس.

أمازح الرجل:

- أرهقتَ من يتبعونا وأرهقتني بهذا المشي البطيء، أنا الذي لا أعرف إلا الركض.

- كيف أحوالك مع زميلك العزيز في الكلية وإلامَ وصلَت الخصومة؟

- طلبتُ منه رسميا أن يتوقف حالا عن الصلاة والصَّوم حتى لا يزيد في نرفزة الله. قلتُ له سوّ وضعيتك مع الناس ومع نفسك، بعدها يمكنك العَودة إليهما قد يقبل بهما الغفور الرحيم من جديد. أما فيما يخصّني فسأبقى دَوما صديقك المخلص حتى وإن كنت أعرف عنك كل شيء والباقي.

- لماذا لا تُظهر نفس الإنسانية مع خصومك السياسيين.

- هؤلاء لا تنفع فيهم الإنسانية ولا اللاإنسانية. هل تتذكّر ما ردّ به فرويد على امرأة طلبَت نصيحةً بخصوص أحسن تربية لأبنائها: افعلي ما تريدين، النتيجة دوما سيّئة. نفسُ الشيء مع السياسة، ربما لأنها عُنوان المشاكل التي ليس لها حلّ.

- فسّر.

- إن أنت لاطفت الأصدقاء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك عاجلا أو آجلا انطلاقا من قناعةٍ لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم انقلبوا أعداء مع كل تبعات الأمر. إن أنت لاطفت الأعداء عدّوه ضعفا وانقلبوا عليك سريعا انطلاقا من قناعة لم تفارقهم يوما أنهم أجدر منك بالزعامة. إن أنت بطشت بهم زدتهم عداء على عداء مع كل تبعات الأمر. نفس المعضلة على صعيد الأنظمة والمؤسسات. خذ الدكتاتورية التي نحاربها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولا يتحملونها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مبادئهم ومصالحهم. خذ الديمقراطية التي نحارب من أجلها. ثمة بشر لا يستأهلونها ولن يتحملوها وسيحاربونها إلى لحظة إسقاطها لأنها لا تتماشى مع مصالحهم ومبادئهم.

أما عن النظام المثالي الذي سيرضي مبادئ ومصالح الجميع فهو السراب الذي نركض وراءه جميعا. تسيير شؤون الآدميين مثل تربيع الدائرة. إن حكمتهم بالعنف خضعوا ثم تمردوا، إن حكمتهم باللين تمرّدوا مباشرة، والرقّاصُ يقفز على مرّ الأنظمة والأحقاب، من الفوضى إلى الاستبداد ومن الاستبداد إلى الفوضى، لا يتوازن إلا نادرا ولمرحلة لا تطول.

-بماذا تنصح إذن؟

- لا أنصح أحدا، كلهم يعرفون كيف يخطئون لوحدهم دون حاجة لناصح.

-سهوت، ربما أزعجتك بهذه السياسة اللعينة وصراعاتها العبثية. هل جعت؟ أي مطعم تفضّل؟
- بعد طعام السجن وما أطبخ بيدَيّ، كل طعام سيكون زردة.
- لنذهب إلى مطعم المتوسّط، هناك أحسن أنواع فواكه البحر وصاحبه صديق.
أمام أفخر المآدب التي أصرّ الرجل على اختيار أصنافها بنفسه، ينتقل الحديث من موضوع إلى آخر، وهو يرجعه دوما إلى ظروف عيشي.
- لا بدّ أن تدفئة بيتك في هذا الشتاء الماطر خاصة وهو شبه فارغ؟
لا أتمالك نفسي من الضحك:
- لا تقلق، بَدويّ متعوّد على خشونة العيش.
- عندك مدفأة في الصالون، لماذا لا تستعملها وتنام قربها؟ أم هي للزينة فقط؟
- لا، هي شغالة، لكن لا بدّ مِن... بالمناسبة، إلى أين وصلت المحاكمات الأخيرة؟
- غدا، سأذهب للمرافعة في إحداها. أنا معك في أنها مسرحيات ساقطة. لكن ما تدعو إليه من مقاطعتها، أمر يصعب قبولُه على محام مثلي لا سلاح له غير القانون. موضوع سنتناقش فيه لاحقا، شقيقك يشتكي أنك تخرج وحدك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي إلى استفزاز الشياطين. تذكّر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.
من الغد أفيق لأكتشف كدسا كبيرا من الحطب أمام الباب.
تلتهب النار في المدفأة ويسري لأول مرة منذ أسابيع طويلة شيء من الدفء في الجسم والروح.
نعود للمشي اليومي والرجل الطيب يركض ورائي لا هثا يمسح عرقه:
- قد يمكنني إعانتك على هموم السياسة لكنني لا أقدر لك على شيء بخصوص الكارثة المهنية التي جلبتَها على رأسك. لا أحد يريد هذا الطبّ الشيوعي الذي تحاول فرضَه. وضعك في الكلّية يتفاقم يوما بعد يوم. زملاؤك الأعزاء يكرهونك، طلبتك يرفضون إجبارهم على الخروج من المستشفيات إلى مراكزك الصحية المتخلفة. يُقال أيضا إنه لا أحد يتجاسر على إعداد رسالة الدكتوراه معك، لما تظهره من صرامة مع الطلبة المساكين.
- يكذبون عليّ كعادتهم. هل تعلم أنني كتبت رسالة الدكتوراه لإحدى طالباتي من الألف إلى الياء.
- لا أصدّق.
- فعلتُها والله دون تقاضي فِلس أو مراودة المسكينة.
- ولو! هات التفاصيلَ وسرُّ الفضيحة في صدري إلى أن نتخاصم.
- طالبة من الأرياف البعيدة جمعَت في آن واحد قلّةَ الذكاء والجمالِ والمالِ. دخلَت مكتبي ذات صباح ترفل في أسمالها باكية لأن كل من توجّهت إليهم من الزملاء الأعزّاء للإشراف على رسالتها للدكتوراه طردوها. قالت تبلع ريقها وتمسح دموعها إن هذه الرسالة آخر عقبة في طريق لم يكن سهلا، إنها بأمسّ الحاجة إليها حتى تحصل على شهادتها وتجد عملا تطعم به عائلتها المعوَزة. نسيتُ أن أقول لك إنها قضَت في دراستها ضِعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تندّر في كامل الكلية.

كيف لا يتغلب يوما تعاطفك مع الآدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن المساكين يعانون الأمرّين من كم هائل من الامتحانات والمحن وأن ما يرتكبون من أخطاء ومن خطايا أغلب الوقت ردود فعل على عالم يعبث بهم عبث القطّ بالفأر قبل التهامه!

شيءٌ ما تحرّك داخلي يأمر بمدّ يد العون لآدمي سبَح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلّا، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوتٍ مثل كل مَن ابتلاهن الله بما ابتلِيَت به من مصير.
قلتُ لها هذا موضوعٌ سهل، جمعنا له كلَّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر.
كدتُ أرمي أوّل مسوّدة في وجهها. تمالكتُ أعصابي وقضيت معها يوما كاملا في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها.
بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجينة محسّنة من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية.
في الاجتماع الدوري مع مساعديّ حصل بينهم إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضَتكم يوما تبيع الخضراوات على قارعة الطريق أو تحاول بَيع جسد لم يُسوِّه الله أحسن مما سوّى ذهنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأَت الشكوك تراودهم بخصوص ما سأتجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محلَّفين آخرين قد ينتبهوا للخديعة ويتسببوا لي في مشاكل جديدة أنا في غنًى عنها. قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة

منصب رئيس قسم ينتظر واحدا منكم. لم يشِ بي أحدٌ بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكلي المتعددة. أيّ جارة كريمة أعارت المسكينة فستانا يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدوَ من فصيلة بني آدم وبنات حوّاء. يومها كِلْنا لأنفسنا الثناء ولم نقصّر في مَدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توَصّلت إليها وكيف ستغيّر وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة. كل هذا أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهمن منه شيئا. بعد نهاية ‘‘النقاش’’ مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحفُّ بنا وقار العلماء لنعلم البنت أن رسالتها قُبِلت بعلامة مشرّف. لما أتمت قراءة قسَم أبقراط وهي تتلعثم، همستُ في أذنها أن قسَمها لأبقراط لا يعنيني في شيء، كلُّ ما يهمني احترام قسَمها لي بألا تلمس أبدا مريضا وألا تغيّر مِن الوظيفة التي وجدتُها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقّف عملُها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلَت علينا في القسم امرأة تلبَس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسِم مسحة من جمال محتشِم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحبّ عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرا. لحظةُ سعادة صِرفٍ وتصالُح خالص مع الذات والآخر.

حدّثني جدّي وأنا طفل، قال الأجنبي وقد تمخّضت عنه العاصفة: غُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدثوني عن كرم البدو. قلت له: الضيافة في هذه الربوع حقُّ طَرفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال ‘‘الذي منه كل نعمة’’ يجوب في هذه اللحظة الفيافي القاحلة التي تَفصل بين أرضٍ يَهرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يَهربون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرجَّح فيها مرور أو ضياع المهاجرين غير الشرعيين.

لنقل عن ‘‘ الذي منه كل نعمة’’ أنه الآدمي الذي يُخرجك من رمال متحرّكة كادت تظفَر بك، الذي يمشي أمامك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُطلق صَرخة الفزع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوّة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بَدَلَك من شدّة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون منّ، الذي تتّكئ على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاحُك في يدك بروزَ الذئاب، الذي يتغاضى عن واضح خَوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذئاب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يفتعل سَمَاعك وإنما يُنصت إليك حقًّا، الذي إذا انتصرتَ عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهيه نجاحك ويبكيه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهّل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكراكَ في قلبه تُواصلُ داخله أغرب أصناف الوجود. نعم، ‘‘الذي منه كل نعمة’’ هو الحالة التي يتّخذها العالَم عندما يتكفّل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهَقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الحُجّاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

في قصة أخرى، لِنقُل إنك أنت بطلُها تقول: غُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد ولن أتحرّك خطوة أخرى. كفى أعذارا فارغة. يا لله تحرّك، ألا ترى ذلك النور؟ إنه مصباح كوخٍ فقير. لا تخشَ أن يكون وكرَ قطّاع الطريق، حبسنا لك ‘‘الذي منه كل نقمة’’ في الفصل السابق. هيا تشجّع.

تفتح البابَ امرأة مبتسمة. تخاطبك بلُغة لا تعرفها لكنك تفهم من نبرتها أن عليك الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءك مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! تُرى هل ينتظرون ضيفا؟ طبعا، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في أيّ لحظة.

نعم يحق لنا أن نغفر دوريا لأنفسنا والآخرين كل ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار شيء ولا حتى كلمة شكر.

كم صحيح أننا إن لم نندثر من سطح هذا الكوكب منذ زمن بعيد فلأننا أكثر الكائنات تآزرا وأن "الذي منه كل نعمة "إلى النهاية رصيدنا والضمان ضدّ كل محن الدهر.

**

"الذي منه كل نشوة " أو الآدمي الوحيد الذي يحبّب ويبرر للذّات تجربة الوجود.

تفتح "ح" فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي بخصوص مكان السهرة.
- تريد الذهاب إلى علبة ليلية! أنت!
أهزّ الكتفين:
- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض "الستربتيز" ولا شيء آخر. ثمة بشرية لا أعرفها ...بشرية الليل والمحرمات والخطيئة المرحة ...بشرية السكارى، المدمنين، الموشمين، البغايا، القوادة، اللصوص، المحتالين، الذين لا يعرفون الأدب والتأدب، الذين يضرطون ويتجشؤون ويتمخطون بصوت عالي وأمام الجميع. لن أعرف شيئا ذا قيمة عن الآدميين وأنا أدير ظهري بكل تكبر وغرور لهذا النوع منهم وربما هم أصدق النماذج.
تقطّب "ح" الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.
- أعرفك بما فيه الكفاية لأتوقع طول الوقت خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البغيضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية الخ. لا شكرا، وعلى كلٍّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.
- أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.
- أبحاث!؟ وفي علبة ليلية!؟
- ألم أقل لكِ لحد الآن أن أطروحتي في الطب كانت لمجرد أكل عيش كما يقولون. أما اطروحتي الحقيقية فهي التي أعمل عليها طول الوقت.
-عنوانها؟
-الآدمي، هكذا بكل بساطة وتجريد. ربما سأضيف تحته سطرا: الموجز والقول الفصل في الشؤون الآدمية. طبعا لن أجد أستاذا يحترم نفسه يقبل بتأطير رسالة كهذه. لذلك قررتُ أن أكون المشرف على نفسي وأن أناقشها معها في آخر مراحل العمر. ما من شكّ أنني سأقبلها بعلامة مشرّف جدا. لكن في الانتظار، عليّ مواصلة جمع المعطيات الضرورية وهذا يتطلب أن ألحق بالآدمي في كل الأماكن التي تتجلى فيها بعض أخص طبائعه ومن بينها العلب الليلة. أرجوك، لا أتجاسر على دخولها وحدي.
- خشيتك من العيون؟
- التي بداخلي.
يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلّف المدينة من أنوار.
الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبّانها الأشياء عن الأنظار، تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار، التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين، التي نخرج فيها مكرَهين إلى أخطار عالم وضع على وجهه نقابة الأسود وعيناه جمرتان تحدقان في الآدمي كالذئب المتربص بالأرنب.
تعبق قاعة ضيّقة عائمة في شبه ظلام برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين المشاهدين والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.
- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.
تخرج التي ستخلع ثيابها من وراء ستار قذر. شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر. تبدأ "الفنّانة" في التثنية وهي ترسم على شفتيها ابتسامة مهنيّة أستشفّ من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتَواصلُ الحياء والشعور بالإثم عند المرأة مكتملة النضج.
"أتت تزجي ردفها بقوامها... فتأطّر الأعلى وماج الأسفل" (ابن هانئ)
تبدأ في خلع قميص جدّ شفّاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور.
هنا تنتبه للوظيفة الأخرى للثياب وأنها لا توضع على الجسد للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصياد: تحت الغلاف جوهر النصّ.
تنهرني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟
- لم تعد تخدعني أنثى مهما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها.
فجأة يتعالى الصفير والصراخ من نظّارة يلعبون أحسن منّي الدور الذي يؤدَّى في مثل هذه الأماكن.

تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها وسط ضوضاء تتزايد شراستها وقد تسمرت العيون على أعمق محرّك لجشع الآدمي: اللّحم خاصة اللحم الآدمي.

تنفجر ‘‘ح’’ ضاحكة:

- تغنّي! أنت! أظنّ أنّني مُقدمة هذه اللّيلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنّون؟ لم لا أغنّي أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تنحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّني لا أفهم الكلمات.

- إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يتثنّى. ردّدي معي: آمان آمان، وبالمناسبة كفّي عن إلصاق التهم المشينة بالخنازير.

تفتعل المرأة معابثة حمّالة الصدر ليحتدّ الضحك والصفير.

تهمس ‘‘ح’’ في أذني: كأنك كئيب، حدثني عمّا بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحذائها وهو بكعب عال مدبّب.

تبلغ هستيريا الجمهور أوجها عند نزع الصدريّة ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص.

يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات تعجّب، أو دهشة أو وجع.

تبدأ المسكينة اللعب بأزرار بنطلونها الضيّق. مسكينة! حقّا؟ مَن قال إنّها لا تشارك مرح المتفرّجين، أنّ اللّعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فاتن للأنظار، سالب للعقول؟ كأنّي أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأمّلوا، سبّحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبّد الآدميّ للشكل الذي تجسّد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهّدا وتجميلا منذ أُولى خطواته على الطريق؟

يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة.

يُرمى البنطلون أخيرا بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفّاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة.

تنفجر شتيمة حقيرة أرتجّ لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابتني في الوجه. تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا للقاعة رغم أنف القانون. المأدبة أمامهم ولا مجال للإمساك بما تعد. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل إنّها تصفّحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟

صدق مَن قال، من باعوا أرواحهم ينظرون باحتقار إلى من لم يبيعوا إلا أجسادهم، اللّهم إلا إذا ...

ربما لم يدخلوا هذا العرض فضولا أو لإذكاء الشهوة وإنّما لغايات أخرى؟ على من يتهكّمون إذن؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخاطفة للأبصار؟ هل داهمتهم هم أيضا صورة نظّارتيْ بُعد وقُرب وُضعتا على العينين التي كان بهما حور؟،أسنان سوداء وأخرى صبغها النيكوتين بالأصفر، نهدان سقطا فوق البطن وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تئنان بحمل ما لا يطاق من مترهّل اللّحم والشحم. هل شتائمهم موجّهة إلى المرأة أم للذي يرهّل ويمزّق ويكلّس كل جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كئيبا؟ هل هذه العلبة اللّيلية الحقيرة محراب نتعبّد فيه للآلهة خالقة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما تفعله بكلّ هذه الروائع؟ أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس: العبادة والكفر، التقديس والتدنيس، الصلاة والرجم؟

تأخذ ‘‘ح’’ هي الأخرى في التهكّم:

- تسمي هذا رقصا؟

الرقص، لحظة استكشاف ما يزخر به الجسد من إمكانيات حركة تجاهلتها أغراض البقاء... لحظة نعود فيها أطفالا نقفز ونصرخ ونهرّج لِنُفرغ ما بنا من طاقات طال كبتها... لحظة تفجر الفرح فينا لأننا ما زلنا أحياء نرزق... منذ الأزل الطقس الديني بامتياز.

‘‘ح ’’وفي صوتها نبرة لا تبشّر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظّاراتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلّا بلاش الافتعال والتكلّف عند بعضهنّ.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدّمات.

- كن على حذر. ذقت أظافري ولم تجرّب حتى الآن عضّتي.

- صمتا يا امرأة، تأملي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهائجة تمنح للبصر عجزا مكتنزا لم يرسم مثله حتّى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمّى "جوردانس". أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الآدميّ عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى.

- انظري. إنّها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُبّ ضارّة نافعة، وقد اكتشفتُ هذه الليلة وجهك المخفيّ قبل أن أتورّط معك، يا رجل هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟

- لا أرى ما أريد رؤيته.

- المرّة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتّى لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمّر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدّق أنّها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تفتعل البلاهة. أليس هذا ما أتيتَ من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

يعتقني الظلام من كلّ تحرّج. لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كلّ هذا المقدّس، أنتقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة متجوّلة ستُرمى يوما لقمةً سائغة للدود.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنّها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف الساقين، أقول لك: ستخلعه، !!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أنْ تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة ورائي، لا أظنّ خرا حتى هذه الحسناء يعبق برائحة الياسمين.

تواصل "ح" ضحكها مختبئة بين ذراعيّ، وسيارة الأجرة تأخذنا إلى البيت. ثم تتوقف:

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرك الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيتَ لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكاليفها الباهظة للعشاق والأزواج وقد اكتشفنا فضائل الماء والصابون على الروائح المخجلة؟

- كفى استفزازا رخيصا.

- استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثروات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجدع الذي تسمونه "الملك الشمس" نفسه كان نتنا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبدا ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشّا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقرية والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في المدينة الجميلة التي أعيش فيها سنوات أخرى من النفي، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحيانا على رؤوس المارة. لله دركم، تتجنّون على الخنازير وقد عبَرتم جلّ التاريخ ملوكا وعبيدا تعيشون بين وفوق القمامات وبعدها تدّعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوما بحاجة إلى عطر.

- آه، يا عدوّ البشرية!

كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا... هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشمّ ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الآدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصاء، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة.... أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا فما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة ...

- دخلتَ قوقعتك كالعادة.

- تكلّمي أنت وخذي حريتك.

- أشتمك؟

- كل ما تريدين. المهم استعادة أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين؟ أتذكرين أول آلو، يوم اتصلتُ بقسمك بخصوص مريض حوّلَته لي ممرضتك دون ملفّه؟

يا ربّ الموسيقى، من أين أتيتَ بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه الأصوات وثمن صنعها؟ وهل لديك أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتا أجمل؟ يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا-لأكلّم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليال، وبجانبي دفتر صغير أدوّن فيه ما يوحي إليّ به صوتُها من أحاسيس ومشاعر.

أخيرا اختلاء الحبيب بالحبيب.

فقل لهم لا تحضروا الشمع في هذا الجمع، في هذا المساء (حافظ)

فقد تم قمر الحبيب في مجلسنا، واكتمل له البهاء...

تشعر ذات عذّبها طول الانتظار بالجذل يتصاعد داخلها فتستعجل ما لا يزال مخفيا وراء ألف حجاب. أخيرا التي تتشوّق إليها روحي، التي سيمتلئ ويفيض بها فراغي.

أصخْ السمعَ لما يتعالى من أغاني الآدميين ومن أشعارهم لتكتشف أنه شغلهم الشاغل بل وفي كل عمر. لا تسمع على امتداد الطريق من كل الحناجر إلا صرخات شوق الآدمي لهذا الآدمي:" أغدا ألقاك"؟" اطلب عينيّ الغاليتين عليّ وأغلى منهما رضاك"، "مولاي وروحي بيده ضيّعها سلمت يده"،" مَن أكون دونك أنت الذي أفقتني للربيع وعلّمتني كلّ ما أعلم"،" نور جمالك آية من اللّه"...الخ ...الخ ... حدِّث ولا تسل عما قيل فيه من أشعار وما رسمت له من لوحات وما أُلّفت له من موسيقى.

تحدّق الذات في الوجه الموعود فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس. تتّسع ابتسامتي وابتسامة ‘‘ح’’ وهي تمرّر يدها أمام عيني لأفتحهما. عاد العالم طفلا.

أيّ أوتار سحريّة خفيّة تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عندما رفع كأس الماء إلى الشفتين، شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمّه أخيرا بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفأ بعد طول تشرّد.

يا معشر العشّاق ما البشرى ⠀⠀ قد ظفرت كفّي بمن أهوى ⠀⠀ (أبو العتاهية)
واصلني من بعدكم سيّدي ⠀⠀ كذاك أيضا لكمُ العقبى
ضممت كفّي على درّة ⠀⠀ لا شركة فيها ولا دعوى
لما تملأت سرورا بها ⠀⠀ أغربت عنّي سائر الدنيا

قد يكون الحبّ خرقا كالذي تمرّره على نافذة تراكَم فوقها غبار، لكنه خرق تمسح به يد رحيمة الغبار الذي تراكم على الروح.

الحبّ شعلة نور ساحر هبطت ⠀⠀ من السماء فكانت ساطع الفلق ⠀⠀ (الشابّي)
يطوف في هذه الدنيا فيجعلها ⠀⠀ نجما جميلا ضحوكا جدّ مؤتلق
لولاه ما سمعت في الكون أغنية ⠀⠀ ولا تآلف في الدنيا بنو أفق

ثمة طقوس معقّدة للاقتراب الحذر من ‘‘الذي منه كل نشوة’’ وهو الآن القريب البعيد، المعروف المجهول، المحمّل بكل الوعود وبكلّ الأخطار. الجسد أخيرا. كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تقديس ومن تقديس إلى تدنيس. كم يخطئ شاعر ‘‘با’’، فخير جليس في الزمان حبيب وأعز مكان في الدنيا الفضاء الذي بين ذراعيه.

تهمس ‘‘ح’’:

- ستترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.

ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنَع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!

تَعبر الوجهَ رهبة ما زالت قائمة وابتسامــةٌ تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنّها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك على بابها تضربها بقبضتين متشنّجتين. أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

- هل تثقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهي.

اتحد المعشوق بالعاشق ⠀⠀ ابتسم الموموق للوامق ⠀⠀ (الحلاج)

واشترك الشكلان في حالة فامتحقا في العالم الماحق

دليل يقودك داخل مجاهله وأنت الدليل الذي يقوده في أعمق دهاليزك.

وفي جسدي تبحثين عن الهضبة (أوكتافيو باز)

وعن شمسها المدفونة في الغاب

وفي جسدك أبحث

عن المركب وسط الليلة الضائعة

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في وعاء واحد!

- رويتَ.

- رويتُ.

- تغنّي! بماذا تهمْهِم؟

- بكلمات أغنية قديمة تدافعت إلى سطح الوعي.

نعم، يا ليت هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، ننعم بالدفء بين الأحضان، بالطمأنينة وبالاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتّرت من أعصابنا وهي لا تكفّ عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- أمر سأنفذه دون تردّد، والآن، ردي على سؤالي: من أنت؟

هل سمع ‘‘الذي منه كل نشوة’’، لكنه فضّل الصمت؟

آخر محاولة.

- مجددا، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، ‘‘أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به’’

- نم الآن، واتركني أنام. يجب أن أرتاح لمواجهة المشاكل في القسم وهي تتوالد من بعضها البعض كخلايا السرطان.

لنسمّ هذا النوع من الآدميين الذي منهم كل نشوة.

لا دوام لصداقة أو عداوة مع هذا وذاك، إنما البقاء للعداوة والصداقة. اللعبة ثابتة، كلُّ ما يتغيّر هم اللاعبون. كذلك الأمر مع الحبّ.

ما أفظع أن تفرّ الآن ممن جرَيت وراءه طويلا، أن تملّ ممّن أخرجك من الملل، أن تكفر بمن عبدت. وفي مثل هذه الحالة كأن ذاتك جذوة نار سقط عليها المطر، كأنك موجة لم تعد تحرّكها ريح، كأنك بركان خمد، كأنك حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

لا أحد عبر العالم وحيد لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع ‘‘الذي منه كل نشوة’’.

مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحبّ بغير قلوع

وتحبّ ملايين المرات

وترجع كالملك المخلوع

وفي مثل هذه الحالة كأن حبّك جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحرّكها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم بيقظة بشعة. تفيق كل ذات لوحدتها وهي تكتشف أنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

على فراش كان يضمنا للحب، تدير لي ‘‘ح’’ ظهرها وأدير لها ظهري وقد أصبح لكلّ واحد منّا شبح يعايشه سرّا، يعانقه نهارا، لينام في أحضانه ليلا. هي ولّدت من حرمانها ومن توقف اللقاء حبيبا جديدا وولّدتُ من حرماني ومن إخفاقي في تجديده حبيبة أخرى صغت ملامحها في طيّ الكتمان والسرّ. تأتيني غيرةٌ غبيّة وأنا أشعر ب‘‘ح’’ تحتضن شبح حبيبها الجديد بلهفة وخشوع. أسترق النظر إليه من فوق كتفيها وكلّي فضول جارف لأعرف مَن فضّلت عليّ. ثمّ أنسى غيرتي من هذا الآدمي الذي تعانقه سعيدة راضية وقد أنساني الفرح بمن أتاني على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيني. ربما تسترق النظر هي الأخرى من فوق كتفي وقد عرفت شيئا كالغيرة من المرأة التي أعانقها وتعانقني بكلّ هذا الشوق السعيد. ربما تجاوزت هي أيضا غيرة

لم تعد ذات موضوع وقد أنساها الفرح بمن أتاها على غير ميعاد كائنا أصبح لا يعنيها. على حدود عوالم الحلم والخيال نُسلّم نحن الأربعة -اثنان من عظم ولحم واثنان من خيال ومن حلم-مصيرَنا إلى تدفق سيل الزمان.
تكفكف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح.
- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيتُ على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذوَ النافذة. فتحتَ ‘‘لوموند’’ واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عن الجريدة والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور. تراجعت آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئا كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.
اللعنة على هذا العالم الملعون الذي لا تتحرّك فيه خطوة إلا وأنت تتأذّى وتؤذي، بإرادتك وبغير إرادتك.
- لم أكن أقرأ وإنما كنت...
- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمتُ أن تبكي ورأسك على صدري.
- ما رأيك في تغيير الموضوع؟
- ليكن. هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولا ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعا.
- لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.
- هل بوسعك أن تكون مثله؟
- ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتني مصيبة، خاصة مع النساء.
- أريد أفعالا لا أقوالا.
- تعاليْ.
تفتح موظفة النزل فمَها:
- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!
- لا أسخر منك أنت. هذا ثمن غرفة لشخصين وباقة الورد وهذا للبقشيش. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرنا بعيدا، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهرا.
وعند باب النزل تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:
- إلى أين؟
- ربما ظننت أنني تراجعت في قراري.
- من يتفهّمك أحسن منّي، أنا الذي لا يريد شيئا أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...
- بلى، وداعا.
فراق الذات لذاتها! طلاق بالثلاث بين الأنا والأنا! أي جزء سأرمي خارجي رافضا كل صلح معه؟ أي جزء من ذاتي سيرميني خارج العش أنا المتكلّم؟ هل سأتخفف حقا من أثقالي أم هل سأكتشف أنني لا أعيش إلا بهذه الأثقال؟ عبثا أصرخ في ‘‘ح’’ وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.
- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعدنا والغرفة بالثمن الذي دفّعوني.
يتجّدد بحث العابد عن المعبود والسؤال هو دوما نفس السؤال:

"من تراها (البياتي)
أنا لا أعرف. ويحي من تراها؟
همست في مطلع الفجر وقد ضاع صداها
أيّها الفجر الذي ذابت به، أين أراها؟
أيّها الغاب الذي مرّت به، أين شذاها؟"

في آخر المطاف مَن هذا الذي نركض وراءه على طول الطريق، مَن تسميه الرؤيا ‘‘الذي منه كل نشوة’’؟
ثمة فينا مَن بحث عنه على طول الطريق ولم يجده ثم جاءه اليأس فانكفأ على حزن دفين. ثمة من لم ينتبه يوما لوجوده أو لضياعه. ثمة مَن ما يزال مصرّا على أنه موجود في مكان ما وأن قَدره أن يلحقه في هذه الدنيا أو في الآخرة.
ثمة من يدّعي أنّه البديل الهزيل ل‘‘ما’’ أو ل‘‘با’’ حسب جنس الفاقد والمفقود، أننا نظلمه عندما نريده مطابقا لأوصاف مَن لم يعرف. هناك مَن يقول إننا لا نبحث فيه إلّا عن ذاتنا. ألا نتغزّل بالحبيب نشنّف مسامعه بما يريد أن يسمع ليبادلنا الهديّة بأحسن منها؟ ألا نتزوج إلا بمن يشبهنا؟ ألا نرمي ‘‘الذي منه كل نشوة’’ أو يرمينا يوم ترفض المرآة أن تُرجع الصورة المطلوبة؟

ثمة تصوّر آخر للذي منه كل نشوة، تعبّر عنه أحسنَ تعبير قصةٌ كُتبت بألف صيغة وها هي صيغتي لها.
تحلّقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم.
لما أتتني البعثة بنماذج الكائنات التي سَبَتْها في أبعد غزوة لنا داخل أبعد مجرّات هذا الكون، وضعتُ أمامي على طاولة التشريح كائنا أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنّها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أيّ ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلا؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحسس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكّد أنّ هذا الكائن هادئ، حالم، سعيد، مكتمل، مكتف بذاته، منغلق عليها، ومنسجم. أي إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلّا خزي الفشل؟ ثم إنني أعدتُ الكشف أكثر من مرّة لتُواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العِلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل. إذن نجح غريمي أينما أخفقتُ. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح مَن ألقمني علقما. فتحتُ الكائن لدراسةٍ مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين ألصقا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تفريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفصل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميتة للكائن لم تُجدِ نفعا. أخيرا رقصتُ طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد صنعتُ من واحد كامل ناقصين سأزرعهما لتجربة مثيرة، أواصل أبحاثي؛ أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا... إبليس.
هل نجري حقا وراء صورة "ما" أو "با"، أو وراء خيالنا في مرآة الآخر، أم نسعى لجمع جزئي ذات مشطورة منفية منذ زمن انطلاق ملحمة الآدمية عن بعضها البعض؟
لمواصلة سبر اغوار الآدميين يجب التحول من الأماكن التي تتعرى فيها الأجساد إلى أماكن لا تقل إثارة هي التي تتعرى فيها الأرواح أين سيتضح أنهم وراء تعدديتهم المذهلة يتقاسمون نفس المصير.

**

عن أهم خصائص الآدميين أي قدرتهم على الضحك من كل ما يبكيهم

لا توجد بناياتٌ أَولاها البشرُ العناية الفائقة وصرفوا عليها الأموال الطائلة، قدرَ هذه الأماكن التي يسمونها المسارح. ربما المعابد. طبيعيٌّ والمعابد مسارح والمسارح دور عبادة تُخفي نواياها. هل من باب الصدفة أن أول مَن علّم الآدميين بناءها ربٌّ اسمه فاكسمان، وأن مدرّبهم على الإيقاع كان شيفا، وأستاذة الرقص الربَّةُ بارفاتي بنفسها، وبراهما لا غيره هو أوّلُ معلّمٍ لفنّ التمثيل؟

لذلك لا أدخلُ معبدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين، ولا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظةً فكرةُ ترك نعلَيّ عند الباب.

ليُسمَح لي هنا بفتح قَوس. ماذا لو كان المحيط الرائع الذي نتحرك وسطه هو الآخر مسرحا-معبدا تكلّفت السلطات العليا كثيرا من الجهد لكي يكون على أعلى قدرٍ ممكن من الجمال ونحن على ركحه الممثِّلون؟ آنذاك من النظّارة؟ هل هم بصدد متابعة ما نقول وما نفعل؟ خاصة هل أدائي وأداؤك يثير فيهم عاصفة من الضحك أم وابلا من التصفيق؟

ثمة صورة أخرى للمسارح-المعابد الآدمية: مختبرات طبّية للتشخيص والعلاج، تُشرَّح فيها الذواتُ أمامَ الأنظار المتشوّقة، والجرّاحُ الماهر آدميٌّ اسمه سوفوكل، ايشيل، أوريبيد، موليار، شكسبير، أو زي-آمي.

أغرقُ في المقعد الوثير متنفّسا الصعداء أرهقَني طول الطابور.

تمرّ بين الصفوف مضيفة برزمة من المطبوعات.

- سيّدي هل تريد برنامج السهرة؟
- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.
- عفوا!
- كنت أمزح.

برنامج الرحلة! طبعا هناك برنامج لا أحد يدري مَن خطّه ولماذا بهذا الشكل... على كل آدمي أن يولَد، أن ينموَ، وأن يموت... لا حقّ له إلا في جسد واحد وعليه الحفاظ عليه في أحسن حال ممكن ولأطول فترة من الزمن... عليه اكتساب خبرةٍ ما يقايضُ بها ما يَتلقّى من غذاء الروح والجسد......عليه تزويد القافلة الكبرى بالنسل حتى لا يتوقف الرَّكب... عليه استكشاف رفاق السفر لحُسن استعمالهم أو لاتّقاء شرّهم... عليه الغوص في أعماق ذاته ليفهم مَن هو حتى يفهم مَن هم.... عليه أن يقرّر ما المهمةُ التي كُلّف بها في هذا العالم وهل قام بها على أحسن وجه...وفي كل الحالات لا مكان له ولا مكانة إن كان عالة لا عائلا، إن كان علّة لا مغيثا.

تنطفئ الأضواء تدريجيا. يُزاح الستار ببطء. يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسمّيه "الواقع" لنتوغّل بعيدا داخل فضاء الأفكار والخيال.

تنطلق الأفعال والتفاعلات التي جئنا جميعا للتمعّن فيها، نبحث عن شيء غير محدّد.

يبدأ الممثل في الإلقاء.

كم مرّةً مُثّلت هذه المسرحية! تُرى هل بوسع المخرج الشاب أن يأتي بشيء من التجديد؟ آه لو تُرك للمثلين حقُّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عَرض الليلة عرضَ البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة. آه، لو تُرك للنظارة حقُّ التدخل لا يهمّ أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصفّق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

يئنّ شبح الملِك المقتول يستنهض هِمّة ابنه يحفّز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- "في نومي وبيَد شقيق! انتُزعَت منّي في مرّة واحدةٍ الحياةُ والتاجُ والزوجةُ. يا للفظاعة. لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنَّس بالفسق والزنا اللعين".

يراقب العمُّ المتزايد قلقا ابنَ أخيه. هل فَهم أنه قاتلُ والده وناكح أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلّة؟

يتوجّه إلى هاملت خائفا متودّدا، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- "إنّه جميل ومحبَّب من طبيعتك أن تؤدّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أنّ أباك فقَد أبا وكذلك والدُه، ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوّة في الأسى، لكن لمدّة. أمّا الإصرار عليه فعِنادٌ كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا يثب من مكانه هذا الذي مزّق عهدا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، متكلّفا السذاجة، قصّة تخلّصِ إيطاليٍّ اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسمّ مسكوب في الأذن.

قصة أخرى عن نكث العهود والعقود، عقد الحبّ، عقد الزواج، عقد الصداقة، عقد التحالف، عقد الحكم، عقد التجارة، عقد السلام. كل قصصهم أفرادا وشعوبا تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا، لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة علّهم يحفظون عقودهم من نزعة الغش المتأصلة فيهم.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أيّ نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخبّط فيه، ومِن أيّ مصباح سيشعّ؟

ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحثّ بولينيوس على أن يَصدُقها القولَ بخصوص تغيّر طبع هاملت.

تُرى هل يعلم ما فعلَته الأم التي حملته في أحشائها؟

يصرّح الرجل برأيه كمَن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنكِ النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".

- "أريد أكثر مادّة وأقلّ بلاغة".

- "يا سيّدتي، أُقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة".

مأساة هاملت مأساة كل البشر.... ننزل للعالم وهو في طور من تاريخه لم نختره.... نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حدّدته طاولة القمار... نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا جمل متقدمة بسنوات، بعقود وحتى بقرون على ولادتنا ومع ذلك لا خيار غير الانخراط فيها وقد أصبحنا شئنا أم أبينا فصلا من فصولها.

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدَته الجريمةُ النكراءُ صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذنيّ. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السذاجة.

- هل يكون السبب الذي أَخرجَ هاملت من عقله موتُ والده؟

يستحيل الصبرُ على كل هذا القدر من سوء النية، وهو أكرَهُ ما أكرَهُه عند الآدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرك في فضاء موازي أرفعُ إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. لا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه مِلكه، والآن تسخر منّا متسائلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أوّلُ مَن يعرف.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلُك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأتزوّج من أشاء.

يقرّب روزنكراتز وڤيلدنستارن رأسَيهما من الملِك يهمسان في أذنه.

- مِن الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصّة أخرى ومن مستوًى آخر لعالمنا، فهو مُعارِض معروف، ككل المعارضين بقَلبِه مرضٌ.

يعرض عنّي الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحتُه وهذا المهمّ. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتنم الفرصة لأُسمعها رأيي دون خَوف، ومَلَفّي بخصوص سَبّ السلطات العليا زاخرٌ، ولا تُضيرني قضيّة إضافية.

- أيّ إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمُّه قَتلت والدَه وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! كيف لا يُجَنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للآدميين! امشِ، يَلعَن أبوكِ يا قحبة.

يواجهني الممثّلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفّ عنّا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنّك تشوّش علينا. نحذّرك من التمادي في هذا التدخّل السافر في شؤوننا.

يا لخيبة الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنّهما طَعنا في الظهر الفارسَ المغوارَ الذي هبّ لنصرتهما. لكن جحود الآدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرّمون اللّئيم ويتمرّدون على كلّ كريم مُذ وُجدوا. أجيلُ البصرَ حَولي أقيّم مدى تأييد القاعة لي وتفهّمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عنّي إذا نشبَت معركة عامّة بين النظّارة والممثلين. أُفاجَأ بهدوء جيراني، ذلك لأنّ أطوار المشادّة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأَت التموقعَ لجرّوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الآدميّون عندما يخلِطون بين الفضاءات المكوّنة لعالمهم.

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثّلون تحت وابلٍ من التصفيق، وراء الستار. يعبّر جاري بصخب كبير عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفتُ إليه باسما متأدّبا:

- أتتصوّر! أخ يقتل أخا وينكح الولية امرأته! كلّ هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحذر. مؤكَّدٌ من مظهره أنه إطار كبير في شركةٍ ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات. المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يَفتح برنامجَ السهرة يُشعرُني أنه لا يَنوي فتحَ نقاش مع غريب مشبوه. مَن قال له إنني لا أنوي الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظنّ أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟ بالمناسبة، مَن هو مؤلّفُ هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول أيّ قاعة لقضاء السهرة. لَمّا رأيتُ طول الطابور قلت لنفسي: لا بدّ أنّه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرّب؟ على فكرة، ما اسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلّف وليام شكسبير "مون بون مسيو". (بإحباط من قدّر فجأة عمق الهوة بين المتحضرين والمتخلفين من وراء البحار)

- وليام من؟

- شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟ (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

أحدّق في الفراغ مُطوّلا.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعَت أحداثُها في مدينة إيطالية اسمها "فينيسيا"؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبَختي كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدَّق. إنّها حقًّا لمأساة أن يضطرّ رجل مسكين إلى قتل زوجته ثمّ تتركه اللعينة يتخبّط في مشاكل لا نهاية لها مع الشرطة والقضاء وإدارة السجن والجلّاد. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن "الفاندتا" والشرف الذي لا يُحفَظ إلا وقد أُريق على جوانبه الدم! هل تعلم أنّهم جيراننا، نرى شواطئهم بالعَين المجرّدة في بعض الأيام؟ أَخذوا منّا هذه العادات التعيسة وانتقموا منّا بإغراقنا بالبيتزا، البيتزا بفواكه البحر، بالأجبان السبع، بالطماطم والبصل، بالزيتون، بالملوخية والهريسة،

- شكسبير ليس إيطاليا "مون بون مسيو" (باحتقار دون مساحيق)

- صحيح ما أغباني، إنّه دانماركي بالطبع.

- ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي "مون بون مسيو" (بلهجة عطف على المتخلف المسكين)

- ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معيّن من مواطنيه وخصوماتهم التي تقع دوما في قصور شاهقة، تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرهقَت أبطالَها القضايا الفلسفيةُ الكبرى من نوع "نكون أو لا نكون". بصراحة أفضّل أبطال تشيكوف ومشاغلهم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلة، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الداتشا الآيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعَها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأنتَني. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العَرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟

يحدّق فيَ الرجُل بذهولٍ. لا شكّ أنه قرّر أن يَرويَ الطرفة، واختار مَن سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيتكرّم بها عليّ.

- "مون بون مسيو"، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

- المسكين، كنت أظنّ لطول الطابور أنه العرض الأوّل.

ثم ترتفع القهقهة صاخبة والرجل لم يعد قادرا على التحكم في نفسه. تُدير امرأة رأسها باستنكار للتعدّي على حُرمة مكانٍ يُقَيَّم فيه كلُّ آدميّ على أناقة حركاته وسكناته.

هذا الآدمي المحظوظ يَعرف اسم المؤلّف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ مدّة لا يقدّرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومةً متواصلة منذ قرون حَول هُويته الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرستقراطي انجليزي كان يخشى على نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرفة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتَبها المؤلّف، أيًّا كان، أُسقطت من النصّ وأخرى تَصرّف فيها الناشرون دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسّا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتّع هو والمشاهدون ب "هابي أند"، وأنّ مُراجَعة النصوص وتزييفَها قاعدةٌ لم تَسلم منها حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرتّل في المعابد؟

الاستراحة. الوقت الضائع ...الوقت الضائع؟ !

ثمة من الظرفاء من تكفّل بحسابه بدقّة. النتيجة: "ثلاثون سنة في النوم. اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون. اثنتا عشرة سنة في الثرثرة. ثمانُ سنواتِ عملٍ (والخيار أغلب الوقت بين الأعمال الشاقة والروتينية). ثلاث سنوات في الأكل. سنتان في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقّال)، ستة أشهر في المراحيض.

عندي شكّ بخصوص منهجية هذه الدراسة، حيث لا تتحدث عن الوقت الذي يُضيعه الآدميون في الشجار، والحال أن تجربتي المتواضعة تؤكّد أنه أكثر الأفعال استهلاكا للوقت الضائع وحتى للوقت الملآن.

فرصة للتجوّل بين المتفرجين وهم يتدافعون نحو المشرب حيث ستنطلق الألسنُ بعد أن فُرض عليها فرضا أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة. سيعوّضون الوقت الضائع يثرثرون بحماس متجدِّد حول أحد موضوعَين لا يوجد أهمّ منهما.

موضوعهم المفضّل الأول الشكوى من "عزٍّ مَضى، من حلولِ مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عِدًى عَلت صيحاتهم، من كَفّ ليس فيه درهم، من ليالي تجرُّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرغَما ويغادرها مكرها".

اشتكى الشاعر من الآدمي "كم تشتكي وتقول إنّك معدم (إيليا أبو ماضي)

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قَدّمنا لحياة أعطَتنا مجانا اللمس والشم والسمع والذوق والبصر؟ ... ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا مجانا ليل الصحراء؟ ما الذي قدمنا لشعب أعطانا مجانا الحماية والزاد ورفاق الطريق؟ ما الذي قدّمنا لكل مَن أعطونا قصائدهم وموسيقاهم؟ رَبّاه اغفر لي نكران الجميل وتقبّل مني أحسن أفعالي على شدّة تواضع ما قدّمت.

موضوعهم الثاني عن آخر مستجدات خصوماتهم مع هذا وذاك.

كل هذا الخصام الذي لا ينتهي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسّ الحروبَ والانقلاباتِ والإرهابَ والشجارَ على الطريق العام وارتفاع الأصوات عند الجيران ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطفَ الأطفال والنصبَ والسرقة والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيلياتٍ تُعرَف بالمحامين والقضاة وكَتَبة المحاكم والسجّانين ومُرَوّجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف. أضف حصاده من الروايات البوليسية عمَّن قَتل مَن، وكم من أجناس أدبية أخرى حَولَ مَن كره مَن ومن تآمر على من، وما لا يحصى من المسرحيات التي يتسابقون لمشاهدتها وكتابة رسائل الدكتوراه عنها، وجلُّها إن لم تكن كلها لا تَطرح إلا شكلا منمقا من خصوماتهم الأزلية المقرفة. تَعبُر العالم وأنت تسمع هذا يصرخ بشمم مجروح: "وإذا أتتك مذمتي من ناقص"، وذاك يشيح عنه البصر مُغنّيا بتكبّر ينزف وجعا: "ما كانوا طلبوك بذَمّهم لو لم تكن منهم أجلّ وأعظم." تتصاعد من كل حدب وصوب أصواتهم بالنقد والتجريح والتهكّم والسبّ والشتم والإدانة والتهديد. هم يتخاصمون كل لحظة وبخصوص كل المواضيع. يواصلون خصامهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التململ احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة." اللعنة! اللعنة! اللعنة! كفّوا عن خصوماتكم بخصوص مَن الأجمل ومن الأولى بالاعتبار، كفوا عن خصوماتكم بخصوص مَن ملك الحقيقة ومما يزال أسير الخطأ. كفّوا عن خصوماتكم بخصوص مَن دان بالدين الصواب ومن لا يزال يتخبط في أساطير الأولين. كفّوا عن خصوماتكم بخصوص من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته، بخصوص من سرق هذه الأرض ولمن يجب أن تؤول. كفّوا، كفّوا، كفّوا. أضجرتموني بخصوماتكم العبثية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين. كفى. أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرفة. ماذا؟ استجابوا لدعائي! صدّقوني، رحلوا، الملاعين! فعلوها بي رغم كل ما فعلته من أجلهم. والآن مع من سأتخاصم ومع من سأتمتّع بالمصالحة بعد أن تمتّعت بطول الخصام.

يرنّ الجرس منذرا بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأبي هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ شكسبير.

تركض أوفيليا في أروقة القصر تتمتم مرة لنفسها ومرة تولول، أصابها مسّ من الجنون.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نونّي نونّي هاي نونّي، وعلى قبره تهاطل المطر دموعا"!!!

يتوجه شقيقها لارتس إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقد الألم الآدمي صوابه.

- هل ترى هذا يا ربّ!؟

مسكين لارتس! لم يفهم بعد أن الرب رأى هذا وأكثر لا يهمه منّا استنكار أو استبشار، مدح أو قدح.

والآن ماذا أفعل؟ أعود إلى مضايقة الرجل؟ من الأحسن مواصلة تجميع أفكاري أبهره بها في الفاصل.
عمَّ تتحدث هذه التمثيلية التي طبقت شُهرتها الآفاق؟ طبعا عن الصراع الأزلي على السلطة.
وفي ملفّ ما زال بعيدا على خط الزمان سيفيض بأحداث قد توصف بالتاريخية، سأنهض من مكتبي أتأمل عبر النافذة البحر وكأنني أراه لآخر مرة. تتدافع في ذاكرتي الصور، صورة الملك الطيب الذي أعطاني "با" اسمَه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما... وذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في بيت فقير... وصورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجه كبير حراسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بيته وحيدا منسيا... وصورة كبير الحراس الغدّار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جبانا ويموت منفيا.
داخلَ ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاظم الأخطار تتلاطم الأسئلة الحائرة: من وراء الاغتيالات والإضرابات والاحتجاجات والمؤامرات التي وصلت ذروتها هذا الصيف المشؤوم لهذه السنة المشؤومة الحاملة لرقم 2013؟ ما مدى جدّية المعلومات الاستخباراتية عن عملية ستستهدفني هذه الليلة؟ أي فعالية لفيلق الدبابات الذي أرسله الجيش لتعزيز حماية القصر الرئاسي إن كان الهجوم سيأتي من البحر كما يشاع؟
ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد، واقفا على رجليّ نحو السجن أو البيت أو محمولا على نعش، كما حدث لعدد لا يحصى من المساكين الذين مسكوا بالسلطة كمن يمسك بأخطر ثعبان والسؤال ليس هل سيلدغك وإنما متى.
لا شيء يعرّفك بطبيعة الآدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتصارعون على الإمساك بهذا الثعبان الذي اسمه السلطة.
السلطة! افتككتها عفسا على كم من منافسين وأخرجوني منها بالخيانة والغدر... ها أنا أراقب اللاعبين الذين لم تلفظهم الساحة بعد، تتلاطم داخلي مشاعر الشماتة والسخرية والتعاطف مع المساكين... من أدرى مني بما يخفون من آلام؟
كم من قصص يرويها تاريخهم الدموي عن تخلّص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه! المضحك المبكي أن الحرب الضروس التي لا تضع أوزارها أبدا، بين الطامحين للسلطة والمتمسكين بها تغطّي على حروب لا تقل ضراوة داخل الطامحين إليها وكل فرد يريدها لنفسه دون غيره من الحلفاء، وداخل الممسكين بها وكل واحد يريدها له دون سواه من الأنصار. بين هذين الفريقين الأزليين فريق ثالث من المثاليين السذّج أمثالي الحالمين بترويض الكواسر المشدودة لبعضها البعض بقيود الخوف والطمع وهم كمن يحلمون برؤية الذئاب تصبح يوما من أكلة الخضراوات.
قراءة أخرى للمسرحية.
هي تذكير بأنّ الملوك والأمراء يتعذبون في الطابق الأعلى كالعبيد والسّوَقة في الدهاليز.
من ثوابت طاولة القمار أن تسحب للبعض الرقم الخاسر فيقضون حياتهم وخصوماتهم في الطوابق التحتية لعالم سنتصوره مبنيا على شكل عمارة. هي تعطي للبعض رقما يسمح لهم بسكنى الطوابق المتوسطة، وأعلى رقم للذين اصطفتهم دون سبب واضح ليسكنوا أعلى الطوابق.
القاعدة: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُستبطن باكرا من قِبل الجميع أنّ حدة الآلام تَخِفُّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحليّ والحلل في العليا وهيكل الآلام الذي غُطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد.
ما أسخفه من صراع أخَذ جلّ وقت رحلتي، والرهان التمتّع بالعذاب في أعلى طوابق البناية.
تعطينا التمثيلية أيضا كل المواد الضرورية لتنظيم أفقي يَعتبر الآن أسباب آلامنا هذه.
ثمة آلام الملك القتيل. ظنّ نفسه بمأمن من قانونٍ أنّ كل الغنائم مَكسبٌ نضعه على قائمة ما سنخسر يوما.
ثمة آلام طريقة فَقدِ ما نتوهّم امتلاكه. يصرخ الشبح في قمة الاستنكار: "في نومي وبيد شقيق"! المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا لهان الموتُ أمّا أن يُسلب الحياة خيانةً وبِيَد شقيق فلا ثُم لا. كأنّ خِزي الوسيلة أخزى موتا يبقى أهمّ فعل في حياتنا بعد نزولنا إلى هذا العالم الرهيب.
ثمة آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقده يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عَبّرَت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ حرام دينا أو محظور قانونا أو يزيد في الوزن.

تقول: ماذا عن آلام هاملت وأوفيليا وكل الأطفال؟ أليسوا أبرياء؟ بالتأكيد، لفترة فقط.
تذكّر دوما أن هذا عالم أخبثُ ما فيه من يدّعون البراءة والطهر.
كفى مِن هذا الأنين المقرف. الآن وقد تعاطفنا مع أنفسنا بما فيه الكفاية ما رأيك في تغيير جذري، ذلك الذي رفضه مخرج جبان وممثلون بلا إرادة؟ دعني أتصرف.
نعم كيف كنت أتصرف لو كنت المخرج؟
طبعا بمنع حفظ الأدوار والأمر بارتجالها على عين المكان، بترك كل ممثل يخترع تطورا جديدا للقصة وعلى كل واحد أن يجد مكانه في نص أصبح له أكثر من كاتب. تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. أليست قصصنا فوضى تسعى عبثا إلى إضفاء الحد الأدنى من النظام على أحداثها فلا تنجح أبدا؟ لماذا لا تكون الكتابة عنها فوضى مزيدة ومنقحة؟
إذن يمسح أبو هاملت العرَق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخّرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا. يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزر على الجيران.
- آه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقينني في النوم وفي اليقظة، آه وآه وآهات!
يتوجه إليه روزنكراتز أو ڤيلدنستارن:
- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.
لا يسمع الملك. ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا؟
يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟
لكن الرجل كهل خَبِر الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.
تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:
- أَفِق، تنفّس مليّا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسرعوا بالشراب الساخن إلى الملك!
يحدّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطوف المشرف عليه.
- أين، أين قابيل؟
- نسيتَ أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ مِن حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلّا غادر في منتهى القلق.
يتنفّس الملك الصعداء مصليا للعذراء أن تزيد المعركة الرُّبع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجهَ ربّه.
آن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسوَد الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تُخفي ضحكة الصبايا المغرمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.
هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة، والآدمي متعلق أغلب الوقت بآلامه تعلق القمل بشعر المتشرد.
عليّ من جديدٍ التدخّلُ بحزم.
ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصوَر لها مخالب وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذرَ وتُنبّه؟ مَن يضمن له أنّ قابيل لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.
الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأنّها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسقَط في يدي والقصّة تنزلق في المجرى الذي جاهدتُ لإخراجها منه.
يا له من غبيّ. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيَهلك المسكين الذي لم يفكّر في الانقلاب إلّا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الآدمي لينتج السموم التي تهلكه؟
أهمس في أذن الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمُّه تعيد عليه الحكاية التي يحبّ.
- يرضيك هذا؟ يرضيك ما فعله هذا الغبي بنفسه وبعائلته؟ ألا ترى يا "مسيو" أننا نصنع القنابل الموقوتة التي نحملها داخلنا، أنّنا نمسرحها في فضاء الخيال، ثمّ بعدها نرحّلها إلى فضاء الواقع، لأنّ فينا رغبة متواصلة في التمثيل على أنفسنا وعلى الآخرين، ربما لما نجد في التمثيل من إثارة هي كل ما نبحث عنه. للّه درّكم أيّها الآدميّون!
- شت،سيلانس مون بون مسيو، سيلانس!

-ألا يثيرك يا مسيو نفاق الآدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدّعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيّتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

لماذا يرفض هذا الآدمي أن ينتبه لأخطر نظرياتي عن الآدميين؟ كل هذه المشاكل التي يفتعلونها لمجرّد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير. أليس الآدمي أفيون الآدمي وأيضا المنبّه والمنشط؟

تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكآبتك وأن يسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها! ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أمّا أن ترمي بأمّك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض. وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفّذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "ألزهايمر" وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينَين. وأنتِ يا وليّة! كل هذا بسبب مَلَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذع الألم. هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل.

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبيس الآدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيافيليا فما يحرّك أغلبَهم غباءٌ بهيمي. أنظر إليهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، فاشلة، كأنْ لا دور لها غير قيادتهم بخُطًى ثابتة باتجاه الكوارث التي يَضجّون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورّث كَلَون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس التخبط. حقّا كم هم مقرفون!

شماتتي فيهم: أن آدمي توجه لقارئة فنجان لتنبؤه بالمستقبل الذي يأمل. نظرت الدجالة طويلا لخطوط القهوة المترسبة ثم قالت ببطء مدروس: عشر سنوات مؤلمة جدا أمامك. فرح الرجل ظانا أنها ستخبره بأنه سيخرج من النفق المظلم ولو بعد هذه المدة الطويلة. استعجلها لتكمل. نظرت اليه طويلا وقالت: ثم تتعوّد.

كيف البقاء مستيقظا؟ بتفحّص إمكانياتٍ لم يتجاسر عليها المخرج الجبان.

تَدخُل هاملتة تتثنّى لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضيّعها صغيرة وحمّلها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصّة بما يعرف عن الإناث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنونٍ مراهِقٍ ومُكلف لصناديق الضمان الاجتماعي. تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملتّة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ. يموت القاتلان فتتزوّج هاملتة في نفس الليلة صديقتها أوفيليا. ثمة إمكانية أخرى إذا أصررتَ على أن هاملت رجلٌ وأوفيليا غير مثلية جنسيا.

تندلع مشادّة بينهما فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنّني بطلة آخر زمان، لم يَجدني الدهر أهلا لضرباته؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يَقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضَى بأقلّ من القتل وتحدّثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيّب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضّل التخلّص من حماتي.

- تريد قتل أمّي يا مجرم. وتدّعي أنّك تحبّني!

- يا ستّي لنقُل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردّد تقيس عمق الآلام التي ستحدثها خسارة الخالة. تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستتبجّح عليها بعمق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيّب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

كل هذه الطموحات بالغةِ الصِغَر، كل هذه الشهوات بالغةِ التفاهة، كل هذه الرؤى بالغةِ الغرور، كل هذه المعتقدات بالغةِ السذاجة، كل هذه الخصومات بالغةِ العبث، كل هذه المشاكل سهلةِ الحلّ! ... تعسا لقصص الآدميين، لا يغفر لنا وجودَنا إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضحت الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ هزلية قبل أن نكون كائناتٍ مأساوية.

تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، مَن أعطاك الحقّ في الحديث عن آلامنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قَضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهّل يا هذا في شكّك المزمن في نواياي المبيّتة. لستُ ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضدّ المبالغة فيه.

نعم، هناك آلام حقيقية ولا أفظعَ منها تجارب، وعلينا احترامها شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطيق أي نوع من أنواع الدلال.

السخرية أسرع تقنيات الفكر وأعمق وسائله للفرز بين الغث والسمين، لذلك يجب تحمّلها وتعهّدها ..من طبيعة كل خلل -في شيء، أو كائن، أو فكرة، أو علاقة-أن يستفزّ في الفكر هذه الطاقة المحرّرة لكل الطاقات..كل ما هو قابل للسخرية لا بدّ أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمايته من المنتفعين بالخلل انتفاع الجراثيم بالعفن... قابلية الفكرة، أو الشيء، أو الكائن، أو العلاقة، للسخرية، أصدق دليل على وجود الخلل... الحكيم والذكي مَن يضحك من نفسه والشرير والغبيّ من يضحك من الآخرين... ليس كل شيء قابلٌ للهزل، كل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر.

لم يبق إلا رفع صوت تثاؤبي عاليا وإظهار كل علامات التبرّم للمزيد من إزعاج الناس وخاصة جاري.

أوف! أخيرا مات هاملت ومات معه القاتلان وكم من ممثّل آخر لا أعدهم لطول قائمة الأموات. يتقدّم الممثلون صفّا واحدا يمسكون بأيدي بعضهم بعضا، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا. يصفّقون بحماس لمسرحية تعرض مدى فشل الآدميين! هذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوّة، وذاك فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحبّ، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على الحياة. لا يبقى عليّ إلا أن أصرخ فيهم جميعا مثل بِكَت: أفشلوا أكثر فأكثر، ربما لم نأتِ كلُّنا إلا لهذا، لتحقيق أنجح فشل ممكن.

ثلاث ساعات ثمينة من عمري كان بوُسعي استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: لن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهّد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلِم إشهارُها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم، والثمن الذي يدفعون كلّه للتمتع سويعات في مقعد وثير بالظلام والصمت. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا بقي المغنّون وراء الستار واكتفى الجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها.

يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسته مواصلا لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدّر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلّف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفّق لأنه لم يفهم شيئا من المسرحية. وهذا المتخلّف من وراء البحار آدميٌّ هو الآخر لا يقلّ آدمية عن جاره، ومِن ثم مغالبته لزهوه بتفوّقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة "د" وصحرائها في الاتجاهات الأربع (بلقاسم الخضّار لا يُحسب له حساب شاء أم أبى هو وعشيرته.)

يشتدّ دويّ التصفيق فتَعبرني فكرة مزعجة، أن هؤلاء الأغبياء قد يعيدون علينا كامل الفصل الأخير. من حسن الحظّ أن هذه العادة من ركاكة الموسيقيين وحدهم. لا يكفّ الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسوّلون مزيدا من التصفيق.

أخيرا يختفون عن الأنظار. تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأوفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير. هاملت! المسكين مشغول بشبح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمه الخمج الذي هو بمملكة الدنمرك، فمشكلته حبُّه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "السيدا" الذي شُخّص عنده مؤخرا.

نفس الروائح والبذاءات والهموم الصغيرة لو وضعتَ أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات. أيّ عالم كنّا نجرّب لو كان الذي وراء الستار هو المعروض وما نمثل على الركح هو الذي يتوارى وراء الستار؟

في آخر المطاف، ما هذا المكان المغلق الذي نستعرض فيه مهازلنا ومآسينا؟ ما هذا الذي نسميه المسرح والذي يتبارى الآدميون منذ القِدَم بوضعه في أجمل ساحات مُدنهم؟

إنه المرآة التي نتأمل فيها بعض الأدوار التي نمثل بها على أنفسنا وعلى الآخرين. إنه المجهر الذي يمكّننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا. إنه المختبر الذي نشرّح فيه الذات والوحيد الذي يسمح بتجربة الشطط في الأحاسيس والمشاعر، ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نُعرض ولا نتعرّض لخطر. إنه العالم المصغر الذي نستطيع فيه وضع اسمٍ وصورة على كاتب السيناريو وتوهّمَ معرفة مقاصده نعوض سحريا جهلنا بكاتب السيناريو الكبير وبما يريده منا نحن البشر المساكين.

**

وأنهم كلهم ممثلون يعانون من صعوبة الإخراج والأداء في أدوارهم

أغرق في المقعد الوثير، المشاهدُ الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب، قُل عن ترويض الممثلين.
تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطًى ثابتةٍ نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير.
- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدتُ الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لَكَم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤُني أن أعلم...
يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة متكلفة:
- ما هذه المشية؟ أذاهبة أنت إلى الحلاق؟ أنتِ لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهدد بغضب الله وكلكِ أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الاعتناء!
تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تَبرز منه كالجنّي من قمقمه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدّتان إلى الأمام كأنّها تتضرّع. يصرخ فيها المخرج:
- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.
تبقى الممثلة بين غُدوٍ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إمّا تهرول بكيفية مضحكة أو تتباطأ ببلادة حسّ لا تطاق.
- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!
تعود المسكينة المرّة تلوَ الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهرولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.
- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرّد تعليمك المشي!
يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثّلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها:
- جئتك اللّيلة على عَجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيتُ من المعاصي. لَكَم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ مَن أحببتُ يتعرّض لغضب اللّه. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتفادى غضبا بدأَت مؤشّراته تتجمّع.
ينفجر المخرج في وجهها.
- ما هذا الإلقاء؟ يجب أن يكون كالماء، متساقطا من السماء، منحدرا من أعالي شلّال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. إلقاؤك ماء بركة آسنة. أعيدي من البداية.
تبلع الممثلة ريقها:
- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك! لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهانُ إنقاذه من لعنةٍ أبدية. هذا تفسير نصّ. كأني أسمع النقاط التي تختم الجُمَل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح، أن تكون التعبيرَ عن المشاعر لا التأشيرَ عليها.
تبلع المرأة ريقها، مجدّدا:
- جئتك اللّيلة على عَجَل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. و...
المخرج الآن على أُهبة الاعتداء الجسدي على الممثّلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب القطّ. أيّ غرابة في الأمر وأنت لا تتعرّض لاعتداء إلا وهو مرتبطٌ بخطئك في تأدية مَقطع من دَورٍ في سيناريو ضُبطَت قواعدُه قبل دخولك مسرح الحياة.
- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاءَ الذي يمكنكِ أن تمرّري عبره مشاكلك الشخصيّة. لكنّني غير مهتمّ البتّة بمشاكلك الشخصيّة! ألفيرا وحدها التي تهمّني. ما هي مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنّها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها. لكنها تعاني من تبكيت الضمير، من الشعور بالذنب لِما اقترفَت من حبّ لغير اللّه. أين المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين بها!
تبدأ الممثلة في الشكوى ملمّحة إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للآدمي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي الظروف التي يقررها المخرج وحده.
يفتعل المخرج نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.
- يا امرأة، قلتُ لك كم من مرّة ليس هكذا!
قاعدة كل مَن سيعلّمونك الأدوار: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا.

هكذا سيلاحقك على طول الطريق المربي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون والتلميذ والناخب. كلُّهم ما عَداك يعرفون كيف يجب أن تكون الأمور وكلهم يصرخون فيك "ليس هكذا." بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياءَ ودعاةٍ. هُم أيضا يصرخون فيك "ليس هكذا التفكير"، ليس هكذا الشعور، ليس هكذا كل ما حاولتَ لحدّ الآن!

يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة؛ ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! يتنهّد مطوَّلا، يمطّط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبتني بالقرف والغثيان، ليس هكذا!

كم من مرّة صرختُ أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وأخطر التمثيليات.

يصبّ البوليسي المكلّف بدَور البشع مخزونه من الشتائم البذيئة عليّ: قل لنا كل شيء. يحدّق فيّ زميله المكلّف بدور الطيّب بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغبيّان لا يعرفان أنني لا أكفّ عن تقييم الأدوار التي يلاعبني إياها الناس، بحسّ الناقد المجرّب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ -للأسف-فيه القليل من الابتكار.

أرفعُ الصوت وإصبعَ الاتهام.

- ما زلتم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائبنا!

أتوجه إلى المكلّف بلعب دور الشرير، أُمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعمن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومَن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبتسم المكلّف بدور الطيّب. مؤكّدٌ أن طرافة الوضعية جدّدت لديه الانتباه. يَفتح المكلّف بدور الشرّير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحه بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطِّيبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا. ثم ينفجر الرجل في وجهي:

- أنا الذي ألقي الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصوَر وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجا، أنت المتهَم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلّها، وأنا مفتش بوليس المخابرات المرعِبُ الذي لا يَرحم أحدا. برأس أمّك العَب دَورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بدّ من أن يلعب كلٌّ دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن مَن قال لهذا الممثّل الرديء إنني لستُ المكلّف بدَور المحرّض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

مهما كنّا من أنصار الفوضى ومن المعجبين بها فإننا لا نقبل من ممثل أن يعتلي الركح ليقول أي شيء يخطر بباله. فالدور محدّد دوما بنص سُطّرت فيه التعليمات، لكي يقول هذا الممثل كذا ويفعل كذا، وحتى أن يشعر بهذه الكيفية أو تلك.

كم صعبة هي هذه الأدوار التي نُجبَر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظّارة!

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه،

يستشيط المخرج غضبا غير مفتعَل:

- كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردّد لك أن ما يعنيني آلامُ ألفيرا لا آلامُك أنت، أعيدي، أعيدي!

كم يتكلّف المسكين من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا، ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته؟

تتلعثم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

هي الآن بصدد الإعداد لنوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين -وكل واحد يريد أن يكون مخرج أدوار من حوله-نموذج ل"كيف هو الهكذا " وإنّما مقاييسُ تُنافس مقاييسَ ومقاييسُ تُشرّع لمقاييسَ هي الأخرى بحاجة إلى من يشرّعها.

مما يعني أنه بوُسع أي واحد منا أن يصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج. للأسف هو الآن سيّد الموقف وعلى ضحيته المسكينة الخَيار بين الفرار أو الهجوم. ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل امرأة على وشك الإتيان بما لا يحمد عقباه. يتوقّف عن الصراخ ليلعب الآن دور المربي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثّلين مَن يمثّل ناسيا أنّه يمثّل. لا أرى شيئا من هذا القبيل.
تهدأ المسكينة. آخر محاولة.
- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...
انتهت نوبة الطيبة عند المربي. يَجب العودةُ إلى دَور البوليس الشرير.
- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!
همُّ المخرج -على ما أفهم-اعتصارُ أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيّب والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.
- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببتِ وهو مهدَّد بالعقاب الإلهي. يجب أن يضجّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفزع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكنَ إنقاذُه لا لشيء إلّا لأنّ نبرةً ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتّخذ طريقُه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهدّج صوت.
لا يزيد الوعيُ بالأمر الممثلةَ إلا اضطرابا على اضطراب.
- جئتك اللّيلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...
- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكلّف، ألم م-ط-ل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!
قال أحدهم: المخرجون من نوعين: مَن يظنون أنفسهم آلهة ومَن هم على ثقة من الأمر. ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقحامها في الدور الذي يريد وإجبارها على تأديته بالطريقة التي ترضيه في نصّ يريد التحكّم فيه ونموذجُه المخرجُ الأكبر.

"با" و"ما" و"ح" و" الذي منه كل وحشة" وكل نقمة وكل نعمة وكل نشوة، أدوار قارة في مسرحيات مسترسلة تستكشف جزءا من طَيف علاقة الأبوة والبنوة، الحب والكره، التنافس والتعاضد، القوة والعجز، السعادة والشقاء. كل هذا حسَب ظروف تتحكم فيها الصدف والضرورة، فتنطلق الأحداث في كل اتجاه ترديدا وتجديدا.

تُرى هل أضفتُ شيئا لدور الابن والأب والحبيب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحِقّ وهو يصرخ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟

يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمّص الممثلة.
يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنّه حيوان تحت سكّين الجزّار.
- جئتك اللّيلة على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى اللّه وانتهيت من المعاصي، لَكَم...
حَصلَت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخّرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدفّق الكلمات بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويَّ الماء وهو يتساقط من علو الشلّال ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الآدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمرُ بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!
يخرج المخرج من التقمّص لاهثا ماسحا عرَقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:
- دور الممثّل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللّاوَعي فيكِ، ليحلّ فيك ال...!
ليحلّ فيك مَن، أو ماذا؟
على فكرة، ألا تعني اللغة بالكلمة شيئين جدّ مختلفين: التمثيل بمفهوم المسرح والتمثيل بمفهوم الدبلوماسية. ثمة ممثّل مسرحية هاملت وممثّل صاحبة الجلالة في بلد صديق.
هل نمثّل بالمعنَيَين للكلمة؟
إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، السؤالُ هو لماذا لا نستطيع تحقيق غاياتنا إلا بالتمثيل المتواصل على أنفسنا وعلى الآخرين؟
إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، يصبح السؤال مَن أو ماذا نمثّل؟ خاصة ما المهمّة التي أوكلَت إلينا عندما تسلّمنا أوراق الاعتماد؟

**

بخصوص الأدوار الكبرى ودورها في تشريح أعمق ما بداخلهم من مشاعر وأفكار

تتصاعد من جانب قصيّ من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطبلة.
يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناعَ راهبٍ عايَشَ القصة الحقيقية بل ويعرف كل التفاصيل. يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.
- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خِلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.
يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته.
- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟
يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.
- يا ربّ البيت، أنا مسافر قادمٌ من بداية الزمان والطريق أمامي طويل.
مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.
- وما الذي حملك على تكلّف هذه المشقة؟
- قدَرُ كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلّا توقّف به الطريق.
- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟
- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمِن الأحسن أن يبادر هو.
- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟
- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.
- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلّا أزهقت روحك.
الممثل لابسا قناع الراهب متوجها إلى النظارة المنبهرين:
هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجَب بنفسه. لم لا ألعب على هذا الوتر؟ قد يكون الْمَخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان، كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنّك تعرف الأسرار في العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لِما حدث بالضبط لآدميّ يحمل سرًّا لي حاجة ماسّةٌ إلى معرفته. إنّه مَلك قَتل شقيقَه واستولى على مُلكه وزوجته، فجُنّ ابن أخيه وجنّت خطيبتُه. يقال إن القاتل انتهى به الأمر هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمّة من يدّعي إنه تنسّك في بعض كهوفها. ثمّة من يقول إنه ما زال يدور في أدغالها باحثا عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تَشفي غليلي! إنّني أجري وراء الرجُل منذ زمنٍ عَلِّي أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوما. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محضُ افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجلّاد، ربّما لجرائمه ظروفُ تخفيف. لا بدّ أن أعلم مَن هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقة السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.
يواصل الراهب روايته همسا.
- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأني أعملتُ المفتاح المناسِب في القفل. أجابني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.
- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه مِن قديم الزمان.
- هل وجدته؟
- نعم
- أين هو؟ كيف هو؟
- تمالك نفسَك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.
يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشفَ الأرقَ والحزنَ والخوف وتبكيت الضمير وكيف استحالت حياتُه جحيما وكلُّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة. كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها. هنا يتبادر الشكّ إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعَت لغيره. هل يكون صاحب المكان؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو، لا تكن سمجا، طبعا إنه هو.
يشتدّ القرع على الطبل والنفخ على الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلينا صارخا لاعنًا، متشمتا، هازئا ومحتقرا: لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. القصّة سخيفة وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيلٌ مِن أردأ صنف.
كأنه يصرخ فينا: أفيقوا، لكن إلامَ ونحن لا نفيق من حلم إلا لندخل حلما آخر.
يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرّج.
مهلا أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرتَ اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركح ثم خلعِه لتقمّص دور آخر. تفضّل والبس أقنعةَ أهمّ الأدوار التي يعشقها الآدمي والتي تتردّد من جيل لجيل بثبات مُلفت للانتباه. أمّا أنت المكلَّف بالصراخ لا "تصدقوا شيئا"، الزَم مكانك سنستدعيك كلّما عاد التبلّد.
أول قناع سنجعل الراهب يضعه قناعُ روبنسون كريزوي.
كيف سيواجِه الغريقُ الذي لَفظه المحيطُ وضعَه؟ طبعا بالبحث عن شبيه قد يعينه على الورطة التي وَجد نفسه فجأة يتخبّط فيها.
يخلع الراهب قناع روبنسون ليلبس قناع سيجموند.
أخيرا بعد طول التشرّد في الغاب الموحِش الخطِر، كوخٌ قد يجد فيه الآدمي المسكين ملجأً يقيهِ من الذين يركضون وراءه. تَفتح له سيجليند الباب. يتردّد لحظة في الدخول كأنه شَعُر بالذنب: الشقاء يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي. تتنهّد الأخت التي لا يعرف والحبيبةُ التي ستحمل قريبا طفله في أحشائها: لا عليك، دَخَله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. عالم لا مأمن فيه من الشقاء، أكنتَ خارج البيت أو داخله! يجب الفرار منه حالا وعلى وجه السرعة.
يخلع الراهب قناع سيجموند ليلبس قناع فراشة.
الفرار، لكن إلى أين؟ فالجزيرة جزء من أرخبيل تُجاوِر فيه جزيرةُ الشيطان جزيرةَ شيطان أخرى والنفيُ هو النفي والأشغال الشاقة المؤبّدة هي الأشغال الشاقة المؤبّدة. وعلى كل حال أيّ مَنفذ للآدمي وهو من البداية إلى النهاية السجينُ والسجّان والسجن؟
إذن من الأفضل الثبات والمواجهة.
يخلع الراهب قناع فراشة ليلبس قناع سيكفريد.
الآدمي الآن بطل لا يرهب لا القزمَ ميم ولا فافنر التنين ولا حتى الربّ وطان. هو أتى العالم لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار. يا للمسكين! مِن الأحسن ألا نروي له بقية القصة، وأنه بعد تحريرها من نومها السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة نفسها.
بداهة هذا عالم مبتدِئ وعلى الآدمي إتمام الشغل الذي أخفقَ في إكماله. لكن فيمَ أخفقت الآلهة بالضبط؟ طبعا في صنع الآدميين. ربما أُخرجوا من فرن الخَلق قبل أن يَنضَجوا. لا خيار للآدمي غير إتمام الإنضاج ليعرف الآدميُ ما الحق والخير والعدل، ويلتزم بهم.
يخلع الراهب قناع سيجفريد ليلبس قناع موسى حاملا وصاياه العشر.
يَثب الممثل المكلّف بالصراخ فينا ألا نصدّق ما نرى وما نسمع، فنطرده بغلظة قبل أن يكمل موسى جملته بخصوص الوصية الحادية عَشر التي حَذفَتها الرقابة.
على كل حال نحن لَسنا بحاجة إلى تنغيصه المشهد.
كلُّنا نعلم أن الذين لم تكن لهم أدنى حاجة إلى الوصايا واصلوا تلقائيا عَدم القتل والسرقة والتعدي على نسوان الإخوة وحميرهم. أما الذين كانوا بحاجة إليها فقد ضربوا بها عرض الحائط وسيواصلون أبد الدهر أفعالهم. لا يُغفَر لها وجودٌ إلا لأنها توَفِّر كَمْ من مَوطن شغل في الشرطة والقضاء والمحاماة والمؤسسة السجنية. تصوّروا ما الذي كنا سنفعله بخريجي كلية الحقوق -كما يسمونها-وماذا كنّا سنفعل بهم، ومستوى البطالة عند حاملي الشهادات العليا على ما هو عليه.
خَلاص، يئسنا من إصلاح الآدمي المكلّف بإصلاح العالم.
ماذا لو جرّبنا العبّ من لذّاتٍ يوَفّرها العالم وهو كبائع المخدّرات لا يوَفّر لنا المتعة كالطُّعم المسموم للفأر.
يخلع الراهب قناع موسى ليلبس قناع ينج-لو ليتمتع الآدمي بمطلق السلطة والشهرة والحرية والجنس، وحتى ليُعبَد كما لو كان حقًّا إلها. عبثا. حتى في هذا الدور غيرُ قادر على أن يملأ الفراغ الذي تعاني منه الذات. تهاجم الآدميَ وهو في أوج سلطانه الظنونُ، تؤرقه الشكوك، تعذبه المخاوف، تعيث الأمراضُ في جسده فسادا. لمزيد السخرية منه تَضرب الصاعقة قَصره الذي أراد أن يُبهر به سفراء المنافسين، فتُحيله رمادا. نهاية محزنة لجلالة الامبراطور ابن السماء، لا تختلف كثيرا عن نهاية رعاياه الذين أَلِف ألا يراهم إلا بين ركوع وسجود.
ما الحلّ؟

يخلع الراهب قناع ينج-لو ليلبس قناع المنتقم الأعظم الذي سيدفع ثمنا باهظا كل من أذلوه ولو كان العالم نفسه. هنا يجب التذكير أن أخطر كائنات الفضاء الحسي للعالم الآدمي وذروة الخطر الآدمي الذي يتعرض للإذلال. ألا يحسب الآدمي يحسب نفسه من طينة الآلهة وهل ثمة إثم أعظم من إذلال إله.
من ثوابت السيناريو طفل يتعرض لكل أنواع الاذلال ناهيك عما يعانيه أهله وعشيرته وشعبه من أصناف الإذلال. يا للطلقة الهائلة التي يشحنها هذا الاذلال في الفرد وفي الجماعة. تتطور فصول القصة لتصف كيف تسلق البطل قمة المجد على جبال من الجثث ا وكيف أنتهى أخيرا مكتمل الثأر لطفولته السليبة ولكرامة قومه المهدرة.
إنه السيناريو الذي سيلعبه على مر العصور ما لا يحصى ولا يعد من الممثلين ممن حفظ او سيحفظ التاريخ أسماؤهم.

من كل قاضية بالموت شفرته   ما بين منتَقَم منه ومنتقِم (المتنبي)

لأحسن استغلال للطاقة الجبارة للثنائي الجهنمي اذلال /ثأر وحتى تتوصل أروع الملاحم، يجب أن يذلّ جنكيز خان أقصى قدر ممكن من الأفراد والشعوب. هكذا لن تنقطع الثورات والحروب التي ستعتصر من الآدميين أروع وأفظع ما فيهم وهكذا ستتواصل القصص التي بدونها لا نعيش.

للعمل الآن بالتفصيل يخلع الراهب قناع جنكيز خان ليلبس قناع الكونت مونت كريستو.
لنتمتّع بشماتتنا أمام صراخ ‘‘ الذي منه كل نقمة’’ الذي اذله بأربعة عشر سنة سجنا ظالمة وهو لا يعلم من أين تأتيه الضربات القاتلة.
سواء كان الانتقام بالجملة أو بالتفصيل لم ينتقم الآدمي في الواقع إلا من نفسه تاركا العدوّ الحقيقي يتشمت فيه من وراء الستار.
مَن هذا العدوّ؟ إبليس طبعا...
يخلع الراهب قناع مونت كريستو ليلبس قناع سوبرمان قاهر الشرّ والشرّرين.
حتى هذا البطل غير قادر على فعل الكثير وذرّية إبليس كالنباتات الضارة، ما إن تستأصلها حتى تعود أقوى من أي وقت مضى. ثم إلى متى سيبقى سوبرمان يصارع الشريرين وعمرُه محدودٌ وعمرُهم غير محدود؟
آه الموت؟ أليس هو الآخر أكبر أعداء الآدميين، حتى وإن كان في نظر أمثالي صديقَهم الوحيد؟
يخلع الراهب قناع سوبرمان ليلبس قناع شرلوك هولمز.
في نصوص كونان دويل هو ذلك الرجل الذي لا أقدَرَ منه في الكشف عن قاتل اللورد أو ابنته أو كلبه. في هذا النصّ هو الذي قرّر أن يترك لهركيل بوارو وصغار المفتشين البلجيكيين والفرنسيين مهمةَ إيقاف قاتل سوبرمان وبِصِفةٍ عامّة العمل بالتفصيل على صغار القتلة. ما يهمّه تتبع القاتل الكبير الذي يزهق أرواح كلللللل الآدميين بكلللللّ الوسائل، لا يفلت منهم واحد. ينطلق المفتّش الهُمام في شوارع لندن يرصد المارة بأم عينيه دون إغفال استعمال كاميرات المدينة المبثوثة حتى في المراحيض. ها هو يجد أولى القرائن، لكن لا بدّ من التثبّت. ذات صباح يدخل وهو في قمّة الهيَجان على واطسون صارخا في وجه الطبيب الغارق في قراءة تفاصيل آخر جريمة: حدّدتُ هوية المجرم الأكبر...
- آه ومن هو؟
- اسمه عزرائيل!
- عجيب، أليس كذلك!
ثم يعود إلى جريدته وقهوته غير عابئ بالشرلوك وهو ينقضّ على درج المكتب يخرج منه الكلبشة مسرعا لإلقاء القبض على الجاني بعد أن عرف اسمه.
بقية القصة؟ مِن يومها اختفى شرلوك هولمز وبعد عقد من الزمن قرّر واطسون مغادرة بايكر ستريت للبحث عن شقة وحبيب آخر.
آخر محاولة لإنقاذ الآدمي المسكين مِن إبليس ومن عزرائيل.
نبعث له ابن الربّ لا غير، ليخرجه من الورطة التي أفاق فيها وأمواج العتمة ترميه عاريا، بائسا على شواطئ جزيرة الشيطان.
يضع الراهب قناعه الجديد وفوقه إكليل شَوك. يروي الراهب ظروف وصول المنقذ وكيف هبّ لاستقباله الملوك والنجوم. بدايةٌ مبشّرة بكل الخير. لكن القصّة تنزلق مرّة أخرى في الاتجاه الذي نَكرهه أشدّ الكره. مُنقذٌ آخر لم ينقذ شيئا، بل وعجز حتى عن إنقاذ نفسه.
يخلع الراهب قناع المسيح. يرمي بغضب الإكليل ليلبس قناع المتنبي صارخا أنه لا أحد قادرٌ على مقارعة الدهر ولا نَصرَ عليه إلا أن تلقاه غير مكترث.

نعم، أحسن حلّ وقد استعصت كل الحلول الأخرى معاملةُ العالم بكل الممكن من عدم الاكتراث، شريطةَ أن تُغسل الروح من كل حفيظة ضدّه ليكون عدم اكتراث صافي ومن درجة أولى، مثل الزيوت الفاخرة التي لم يغش فيها البائع بمزجها بالماء.
أمرٌ فوق طاقة الآدمي، على الأقلّ هذا الآدمي الذي يصمّ آذاننا بجعجعته الفارغة منذ قرون. إذا أردنا الاكتراث الصافي غير المغشوش فلا بدّ أن نبحث عنه في دَور آخر.
يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع بوذا.
يبدأ الآدمي بتنظيف شامل يكنس من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقد. ها قد أصبح الآدمي في وضع يمكّنه من مواجهة ضربات القدَر لا يرفّ له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. الانتصار على الطمع والطمّاع والمطمّع، بالجملة وبالضربة القاضية.
انتصار؟ ونحن نَبتر جزءا من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتينا من ارتكابها لذةُ الإثم مِن خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبنيا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟
اللعنة! لا المواجهة، لا الفرار، لا إشباع الشهوات، لا التخلّص منها، لا التنبؤ، لا التأله ولا حتى عدم الاكتراث (المفتعل منه والناجح) حَلٌّ لمشكلتنا. ما الذي يبقى؟
الدور الأخير
يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المغنّي سارج قانسبورغ. ها هو يهذي أمامنا بَعد أن حرق ورقة نقدٍ غالية الثمن، يستعمل نارها لتوليع سيجارته: الرحلة عبثٌ مَحض، لندمّر حياتنا بالكحول والمخدّرات إلخ.
إنه دور البطل العدمي، الآدمي الذي لم يعد ينفع فيه لا دِين ولا سياسة ولا طبّ ولا شِعر أو موسيقى.
يقفز على خشبة المسرح رجل من الدهماء صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا من هذا الكلام، أنا وحدي أقول لكم الحقيقة، لا مصلحة لي في الكذب، فهل تسمعوني أخيرا؟
نعطي لثقيل الظلّ الكلمة شريطة ألا يُطيل. ماذا يزمجر؟ أن الآدمي الذي يختلق قصصا يتقدم فيها كالمظلوم الكبير والضحية البريئة لمؤامرات الآلهة والطبيعةِ والدهر، هو أكبر نصّاب، أنه يمارس التعذيب والتصفية العرقية وإبادة الأشجار والحيوانات، أنه مَن اخترع جرائم الشرف، أنه من سَجن ابنته ربع قرن في سرداب تحت البيت واغتصبها يوميا وولدت له سبعة أطفال عاشوا في الظلام إلى أن اكتشفهم البوليس وهم يكادون لا يتكلمون لغة آدمية، أنه يبيع البشر ويغتصب الأطفال ويمارس التجارب على الكائنات الحيّة، لا يرفّ له جفن، أنه يأتي مِن المنكر ما يَحمرّ له وجه إبليس، أنه -خلافا لما يدّعي- ليس ضحية عالَم بشع وإنما هو البشع الذي راح ضحيتَه عالم بأسره.
لنصرخ في راهب متزايدٍ عصبيةً: وصلَت الفكرة، داهمنا الوقت، فلنكتف بهذا القدر. قلنا: داهمنا الوقت.
هنا يرمي التعيس بقناعه ويتوجه مباشرة إلى الحانة ليَقضي الليل في شرب الساكي والشجار مع الحطام الآدمي اللاجئ فيها، الهارب من فظاعة القصص التي لا تتوقف أبدا.
ما الحصيلة في الآخر؟
يجب تجاوز الانطباع أننا عبر الأقنعة التي نلبس والمسرحيات التي نمثّل كائنات تراجيدية -كوميدية يحقّ لنا أن نبكي على وضعنا وأن نضحك منه وشرّ البلية كما علمتنا الحياة ما يضحك.
ماذا لو كان هدف الأدوار والقصص التي نمثل ونعيش في الواقع وعلى خشبات المسرح استكشاف الطيف الواسع للأحاسيس والمشاعر والأفكار والأفعال التي تقدر عليها الذات وداخل كل إحساس، كل شعور، كل فكرة، يتواصل استكشاف التنويعات اللامتناهية التي لا تبلورها إلا أفظع القصص وأغرب الأدوار؟
أَنصِت مليا لمعزوفة ضوء القمر لبيتهوفن والعازفُ أحد الفنانين المشهورين مثل بارنباوم أو آرو أو هوروفيتز.
ابحث في الفضاء الافتراضي عن عازف آخر واستمع جيدا للّقطعة الموسيقية الرائعة. ثم ابحث عن تسجيل آخر لها بأنامل عازف ثالث ورابع وخامس. يمكنك أن تتوقّف عند السادس أو السابع وقد اتضحَت لك حقيقةٌ على قدرٍ كبير من الأهمية. رغم أن المؤلِّف واحد والقطعة الموسيقية موثّقة بنفس النوتات، فإن الأداء يتباين من عازف إلى آخر في جملة من الفوارق، منها التي تتعرف عليها بسهولة كالسرعة أو التثاقل في العزف، وأغلبُها فوق وخارج كل توصيف ولو كان توصيف أكبر علماء الموسيقى.
إنها نفس الظاهرة في كيفية تأديتنا للأدوار القارة التي نَصنع منها قصصَنا، لكن على نطاق أوسع وأكثر تعقيدا.
كأنّ وراء الظاهرة أَمرُ'' لمخرج مجهول: نَوِّعوا، جدّدوا، ابتكروا، اتخذوا كل الممكن من المواقف، من السلوكيات، من التقاليد، من الطقوس، من الرؤى من الفنون ومن الأوضاع. عيشوا فاحش الفقر وفاحش الغنى، مطلق السلطة ومكتمل العجز، أروع تجارب السعادة وأفظع تجارب الشقاء، الإخفاقات المريعة والنجاحات الرائعة، السقوط المدويّ والنهوض الجبّار.

كأنّ وراء تَبايُن القصص والثوابتُ واحدةٌ إرادتَه لاستكشاف ما تزخر به كلٌّ ذات آدمية من إمكانيات الفعل في العالم والتفاعل معه...من إمكانيات الوجود كما نبلوره نحن البشر.

بداهة كل ما نمثل من أدوار وما ننسج من تمثيليات وقصص مجرد تجارب كيف وما معنى أن تكون آدميا.

**

عندما يلعبون دور نظارة ينتظرون خاتمة لا تأتي أبدا للمسرحية الكبرى.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات أدوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدّد شيئا أو أحدا.
في ركن مُنزوٍ من الركح كاتِب هذه السطور بصدد التركيز على النظارة وخربشة بعض الملاحظات من حين لآخر، على دفتره الصغير الذي لا يفارقه أبدا.

يُزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عَرضا في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون، والموضوعُ عنصر قارّ وإن بِنِسب متفاوتة في أغلب قصص البشر: الانتظار، انتظار الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو قدوم الحبيب، أو قدوم المخلّص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت. كلهم يَفضحون بما ينتظرون الشيءَ الذي جعلوه أولوية أولوياتهم، خرجوا للبحث عنه لكنهم لم يجدوه فلم يبق لهم إلا انتظار أن تجود به الأقدار عليهم. كل هذا والعالم يسرّ فيمن يريد أن يسمع: وَهْم، وَهْم، وَهْم.
يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملا أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.
- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.
نفس الديكور لكن الليلة الموالية.
يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة.
- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.
لا خيار غير مواصلة الانتظار والتشبث بالأمل في قدوم الموعود يوما ما. عبثا، فلا حياة لمن تنادي. نفس المعزوفة كل ليلة.
- طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
ليس من الغريب أن يتدافع النظارة إلى مثل هذه المسرحية وهي تعكس تجربتهم مع عالم لا يكفّ عن مطالبتهم بالصبر عليه قليلا حتى يعطيهم ما يريدون وفي آخر المطاف ينطلقون نحو العالم الآخر يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها.
يتأخر راعي الماعز الصغير. يتبادل الممثلان جملة تُردّد نفسَها كل ليلة بثبات مملّ.
- لم يأت، أليس كذلك؟
يواصل راعي الماعز الصغير في الليلة الموالية ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منّي السيد Godot إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.
يَبلغ التوتّر أقصاه على الركح. يصرخ الممثل الأوّل، لم يعد يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:
- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.
يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:
- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟
- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.
- (بلهجة التحدّي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟
- ماذا فعلنا؟ لا نضيّع وقتنا في خُطَب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمّة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللّحظة، البشريّة هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرّة واحدة الجنس الذي حُشرنا فيه.
هذا الجنس الذي حشرنا فيه! هل يقدّر الرجلُ خطورةَ هذه المقولة؟ الجنس الذي حُشرنا فيه! إذن الشكل الآدمي غلاف! مَن حَشرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟
يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة:
- طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
يصرخ المنتظِر الأول في المنتظِر الثاني.
- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.
- لماذا؟
- لأنّنا سنضطرّ للرجوع غدا.
- لنفعل ماذا؟
-انتظار Godot.

مَن هذا الذي لم يأت ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ وصفة السعادة الأبدية؟ الترياق الواقي من الموت؟ الظرف المختوم بالشمع الأحمر وداخله هدف المهمة التي بُعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟

- فلنذهب في حال سبيلنا.
- نعم فلنذهب.
- وإذا جاء؟
- سنكون قد نجَونا.

نجونا!

نعم المسرح معبد آخر تمارس فيه طقوس دينية مخفية وهذا المسرح لا يشذّ عن القاعدة... هذه المسرحية تنويعة على نغم قديم قدم الآدميين متواصل معهم إلى نهايته... هنا يستحضر البشر مرارة طول انتظار المخلص وخوفهم ألا يحضر أبدا ... كم من معابد-مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلّص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صُلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة انعتاقه! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص لم يأت لحد الآن لكنه سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الانسان! وكم من معابد-مسارح أخرى قرر سيناريو المسرحية التي تعرض فيها أن المخلص جاء وقام بواجبه ورحل وما على المرسل إليه إلا اتباع الهدى!

يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجدّدا السؤال سيد الأسئلة.

لمغالبة ملل بدأ يتسلّل، تَشردُ الخواطر تتفحص إمكانية كتابة قصة من الخيال العلمي قد تقبل بها مجلّة مغمورة.

أخيرا الكوكب الأزرق الذي كان يسمى الأرض قبل بضعة ملايين من السنوات... الموطن الأصلي لجنسنا الذي استطاع الأوائلُ الفرار منه قبل أن تلتهمه الشمس. كم مؤثر أن أعود في هذا الحجّ إلى منطلق الطريق الذي قادنا نحن ذرية آدم إلى إعمار ما لا يحصى ولا يعدّ من كواكب أبعد المجرّات. ماذا أرى؟ كائنات من الحديد والأسلاك تحاكي أجسام الأوائل كما نعرفها من أقدم الصور! آه مؤكّد أنها الروبوتات التي تقول الكتبُ المقدسة إن أجدادنا تركوها وراءهم قبل الفرار. فجأة يمسك بي ذراعٌ من حديد بدأ الصديدُ يغطّيه والرأس الغريب المثبت فوق الجذع يصرخ في اتجاه هذه الكائنات:" إنه المهدي المنتظر! إنه Godot !إنه Godot !!! أخيرا وصل المنقذ الذي وعدنا به إنجيل الأوائل قبل صعودهم إلى السماء... إنه المخلّص الذي سينبئنا مَن خلقنا مَن نحن، وماذا نفعل في هذا العالم، فلنصدح جميعا باسمه المقدس!

يقطع عليّ صراخ الروبوتات داخلي صراخ راعي الماعز خارجي.

- طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرةُ المقبلة سآتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتّى يَتلقَّى واحدة منها، أو حتّى بيضة إذا كررّها ثانية.

ضرورةً التدخلُ الحازم في القصة وإنهاءُ مفعولها المدمّر للأعصاب، بدأ بالبتّ في قضية هوية اللعين. أهمس في أذن الممثل الأول بما يجب أن يصرخ به.

- أنا أقول لكم من هو. إنه عزرائيل.

أهمس في أذن الثاني بالردّ، لكنه يبادرني قبل أن أكمل الجملة.

- يا غبي هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.

بدأت الأمور تفلت من يديّ.

- الغبي هو أنت. ألم تتعلّم بعد من طول مشاهدة البشر أنهم يرهبون ما يترجّون ويترجَّون ما يرهبون؟

أهمس من وراء الستار في الممثلين بالاقتراح الثاني فألقى منهما الموافقة غير المشروطة.

ينظر الممثل الأوّل إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحبّ مَن لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضّل حالًا فسأتخذ ضدّك الإجراءات الضروريّة.

تنطلي الحيلة على Godot يفهم أنه حُشر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه. يدخل على الممثلين ضاحكا وممازحا:

- هلّو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!
يتسمّر الممثل الأوّل. يفتح الثاني فمه ثمّ يغلقه. ينفجران بالضحك.
- Godot زوجتك؟
- بل زوجتك أنت.
- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوّس.
- يا رجل، إنّها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. وَيحك خرفتَ إلى هذا الحدّ، فلم تَعد تعرف حتّى زوجتك.
عرض ثالثٌ أملا في أن تفضي خصوماتكم بسببه لحرب مقدسة جديدة تقضون فيها كلكم شهداء: راعي الماعز الصغير هو Godot. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى.
ماذا؟ حسك الطبقي المرهف يرفض بكل قوة أن ينتمي المنتظر-المخلص–المنقذ من ورطة الوجود إلى الطبقات البروليتارية، خاصة لرعاة الماعز. دبّر رأسك وهات الحلّ إن كنتَ عليه من القادرين.
تقول وقد بلغ بك ضيق الصدر أشُدّه: لماذا لا نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان-ما يكفي من الكفاءات.
نعم، من هو Godot يا صامويل يا ابن بِكِت وإلا لا تَلُم إلا نفسك. يأتي الردّ الشهير: لو كنتُ أعلم لَما بخلتُ عليكم بالردّ.
كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَق كائنَين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف أو يدّعي أنه لا يعرف؟
المساكين بحاجة إلى أيّ ردّ، هم كالمرضى الذين لم ينفع فيهم أي دواء والمستعدين لتصديق أي دجّال.
طيب، لنعوّل على أنفسنا ثانية. ما رأيك في هذا المخرج؟
يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب منّي السيد Godot، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها لزحف ظلامٍ غير معهود السواد.
هنا يدوّي صوت لمجهول: طلبَت منّي الشمس أن أبلغكما أنّها لن تأتي هذا الصباح، غدا بكلّ تأكيد،
(ضحكة شامتة)
فقط للتذكير بأن أهمّ ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الآدمي يتمتّع مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أقنعتُ معافًى بالنعمة التي يتمتّع بها وأنا أردّد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى". لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلٌّ همَّه واهتمامه منصبّان على ما لا يملك من توافه الأمور.
يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السّيئة مرددا: طلب منّي السيد Godot أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.
يقول الآدمي لنفسه أو لتوأمه في الشقاء:
- ماذا لو تخلّينا عنه؟
- قد يعاقبنا.
ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحيّة.
- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟
- حزام البنطلون.
- إنّه قصير.
- تجذبني من القدمين.
- وأنا من يجذبني؟
أين المكلّف بالصراخ فيهم "لا تصدّقوا حرفا واحدا مما يقول هذا الرجل. القصّة سخيفة من الأساس وكاذبة من أوّل حرف إلى آخر نقطة. كل هذا تمثيل بل ومن الصنف الرديء! "
تنتهي المسرحية.
ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول Godot، وكأنّ على رؤوسهم الطير، ولا أحد طالب بتعويض ثمن التذكرة، والكل مقتنع أنه قَصّر في شيءٍ ما بالغِ الأهمية، أنّه أخلف موعدا بالغَ الخطورة لكن مع من؟

كم من الآدميين على قناعة أن وكالة الأسفار الربانية التي سفّرتهم إلى هذا العالم لا تردّ على صرخات الاستغاثة لانقطاع في شبكة الاتصالات. منهم متفائلون على ثقة أن بعثة الإنقاذ انطلقت تبحث عن التائهين، مسألة وقت فقط وبعدها يصل المنقذ.
أغلبهم متشائمون على قناعة أن الوكالة أَفلست وأغلقت أبوابها من زمان.
تعسا للمتشائمين والمتفائلين على حدّ السواء.
هل أقول لهم أنه لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تائهين إلا في أوهامنا والمهمة التي جئنا من أجلها "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

مجمل القول في طبائع الآدميين.

قد تكون أهم خاصية فيهم تناقضات تبدو عصية على الادراك والتبرير.

"صغيرٌ يطلبُ الكِبرا — وشيخٌ ودّ لو صَغُرا (العقاد)
وخالٍ يشتهي عملا — وذو عملٍ به ضَجِرا
ورب المال في تعب — وفي تعب من افتقرا
وذو الأولاد مهمومٌ — وطالبهم قد انفطرا
ومن فقد الجمال شكي — وقد يشكو الذي بُهِرا
ويشقى المرء منهزما — ولا يرتاح منتصرا
ويبغي المجد في لهفٍ — فإن يظفر به فترا
شُكاةٌ مالهم حَكَمٌ — سوى الخصمين إن حضرا
فهل حاروا مع الأقدار — أم هم حيّروا القدرا"

في نفس السياق وتأكيدا لصواب ملاحظة الأديب الجليل، بعض ممن حاروا مع الأقدار وحيروا القدر :
الدجالون الذين يتوهمون ويوهِمون أنهم يعرفون الحقيقة، الكُسالى الذين لا يريدون إلا تصديقهم.
الذين يبحثون عن حلول للمشاكل، الذين يبحثون عن مشاكل للحلول.
الذين لا ينطقون إلا بآراء تمعّنوا فيها سنين، الذين يكتشفون أفكارهم وهم يتكلمون.
الذين" يملكون "كل الأجوبة، الذين ليس لديهم إلا الأسئلة.
الذين يريدون إجبار العالم على إعطائهم ما يريدون بالتسوّل والابتزاز عبر الصلاة والنذور
الذين يفتكّون ما يحرّك جشعهم بالحيلة والقوة والعنف.
الذين يعتقدون أنّ النجاح في السّطو والتملّك، الذين يعرفون أن النجاح أقصى البذل والعطاء.
الذين يعيشون مبادئهم، الذين يتعيّشون منها.
الذين يتحكّمون في مسار حياتهم، الذين تذروهم رياح الحياة كورقة الخريف في مهبّ الريح.
الذين دينُهم طقوس بلا أخلاق، الذين دينُهم أخلاق بلا طقوس.
المتأكدون من عظمتهم وهم أخطر المجانين، الجاهلون بوجود أيّ عَظَمة لديهم وهم وحدهم العظماء.
الذين يعانون من عقدة النقص أو عقدة التفوّق،
الذين صَفَّوا عقدتَي النقص والتفوق وهم وحدهم الأسوياء في عالم ضجّ من كثرة المرضى.
الذين استغَلّوا ما وَضَعَه العالم فيهم من طاقات أحسنَ استغلالٍ، الذين أهدروها لا يَعون ما ضيّعوا.
الذين يضحون بأنفسهم من أجل قضية والذين يضحون بالقضية من أجل أنفسهم،
الذين يموتون لتحيا الملايين والذين يقتلون الملايين لكي يعيشوا هم.
الخ ...الخ

هذه الثنائيات البسيطة ظاهريا هي التي نتعلمها بالتجربة من طول معاشرة الآدميين. حقا هي دوّخت ولا تزال الشعراء والفلاسفة والمحلّلين النفسانيين بكل ما فيها درجات وأصناف وتناقضات، لكن لا معطيات أثمن من التي تعطينا ولا مدخل أحسن منها لفهم هذه الكائنات التي تصاحبنا من المهد إلى اللحد.

مثلا ثنائية الأعداء والأصدقاء.
بخصوص الأعداء، ثمة الذين لهم شرف -وهؤلاء للتعهّد لأن الصراعَ معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر-والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم خَوض في الوحَل وصلحهم من نكد الدهر.
نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم، الذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداءً.
ثمة الذين نثق فيهم والذين نحتاط منهم، وأهمّ ما نحن بحاجة إليه أن نطمئن لرفاق الطريق.
انتبه، إن وثقتَ في الآدمي أو أَمِلتَ فيه، كنت على خطأ، وإن لم تثق فيه أو يئست منه، جانبتَ الصواب. تَظلِمُه إن ركّزت على موبقاته وتظلم ضحاياه إن ركّزت على فضائله.

ثمة ثنائية المحبوبين والمكروهين.
ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُحَبّ طويلا، خاصة إذا عرفته عن قرب،
ما تُعلّمه التجربة أنك أمام كائن لا يُكرَه طويلا، خاصة إذا عرفته عن كثب،
ما تعلمه التجربة أنه لا خيار لك غير تحمّل كل ما يُبغّضك له والتمتّع بما يحبّبك فيه، وفي كل الأحوال قَبول تقلّبه مثلَ قَبولك تقلّب الطقس.
إنها نفس الصعوبة في التعامل معهم أكانوا من صنف العقلانيين أو اللاعقلانيين.
مبدئيا الآدميَ اللاعقلاني هو الذي يرفض أنه جاهل وعاجز في مواجهة العالم، فيجسّر الهوّة بين الرغبة وتحقيقها بالصلاة والسحر. الآدمي العقلاني فهو الذي يقبل أنه تجاه العالم جاهلٌ عاجزٌ فيسعى إلى تجسير نفس الهوة بالعلم والعمل.
هنا يجب أن نتذكّر أن نيوتن كان يمارس السحر، أن عليك انتظار لحظةَ يُصاب أكبرُ عقلاني بمرض عضال لترى حدودَ عقلانيته وكيف سيركض نحو كل الدجالين بحثا عن علاج وهمي، علما وأنه يصبح عندما يتعلق الأمر بسجلاته التجارية-من أساطنة المنطق والحساب.
الاستنتاج الوحيد أن العقلانية واللاعقلانية من خصائص كل آدمي وموزّعَةٌ داخل كل واحد بالعدل والقسطاس فكيف تحسن تصريف أمورك مع كائن كهذا؟

هناك ثنائية الأذكياء والأغبياء.
عن آدمي يُدعى الخليل بن أحمد: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناسٍ فذكّروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالِب فعلّموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".
في نفس السياق تصنيفٌ لا أكثر منه موضوعيةً أخذتُه عن آدمي يدعى سيبولا وقد يكون أحسن من فهم البشر.
هو قسّمنا وفق محصّلة أفعالنا كالآتي: الذين تُنتج أفعالُهم المنفعةَ لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضَرّة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.
حتى ولو افترضنا أن "الأعراق" الأربعة متساوية عددا، فالحصيلة أن ثلاثة أرباع الآدمية تنتج أفعالا مضرّة بالآخرين، أي بك وبي وبنا جميعا. أليس هذا هو السببُ الأولُ للحالة التي عليها عالمنا اليوم والبارحة؟
وراء هذا التصنيف خبر سيء وخبر أسوأ. بأيّهما أبدأ؟
الخبر السيء أن نسبة الحمقى هي نفسُها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأميين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكياء لا يقدّرون خطورة هؤلاء الحمقى (خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفضالة). لكن حتى لو قدّروها ما استطاعوا فعل أي شيء والآلهة نفسها عاجزة أمام قدرتهم العجيبة على إلحاق الأذى بأنفسهم وبالآخرين.
الخبر الأسوأ أنْ لا شيء سيتغيّر في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قارّة لا تَقدر عليها تربيةٌ أو دِينٌ أو سياسة.

هناك ثنائية المزاج المحدّد للجوّ العام للرحلة.
ثمة المتفائلون ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للآدمي الضاحك المضحِك، المرِح، الشره، النهم، السكّير، العاشق، المبذّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأَكول للدجاج المحمّر.
نحسب منهم كل القائلين بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بَعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.
في الصنف المقابل يوجد المتشائمون ونستطيع أن نعدّ من بينهم إجزياس الذي اضطر ملك المدينة الإغريقية الصغيرة إلى منعه من إلقاء دروس فلسفةٍ كلُّها قدح في الحياة ومدح للموت، وانجرّت عنها موجة من الانتحار بين السكان. مِن هذا الصنف أيضا الذين عُرفوا تحت أسماء أبي العتاهية وكيركجارد وتشايكوفسكي. شعارُ كل هؤلاء الآدميين المثَل الصربي: ماضينا مظلِم وحاضرنا لا يُطاق، مِن حسن الحظّ أنْ ليس لنا مستقبل.

هنا سأُقحم الصنف المزاجي الآخر الذي سيجعل من ثنائيتنا البسيطة ثلاثية صلبة: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بِجود العالم، وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه في أي شيء.

هذا ما يقودنا لثنائية الخيرين والشريرين وما يتبعها من استنتاجات بخصوص ما نسميها الاخلاق.
لنضع من جهة، ليفيا وهي تدمّر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمّم الأقارب والأباعد، لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضّع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سَويّ.
نموذج آخر كاليجولا خلَفه الذي بنى إسطبلا من المرمر لحِصانه، وسماه عضوا في مجلس الشيوخ، وقتل كل من كان يطمع في ممتلكاتهم.
أيضا ميسالين التي راهنت كبرى مومسات روما أنها تستطيع أن تهزمهن في عدد الرجال الذين تستطيع مضاجعتهم في ليلة واحدة، وكان النصر حليفها.
حدث لا تسل عن بشر أمثال نيرون، بول-بوت وهتلر وستالين وكل من قتلوا بكل راحةِ بالٍ الملايين من البشر.
كلهم نماذج للآدمي الذي تَرَك الحبلَ على الغارب لأغرب غرائز الجنس والعنف والتسلّط المكمونة داخل ما يُسمى الطبيعة البشرية.
وفي المواجهة، الجزء الآخر من طيف نفس الطبيعة التي أعطتنا غاندي وبوذا واشوكا والأم تيريزا ورابعة العدوية.
لستُ ضد هذا التصنيف شريطة تحسينه كالآتي. من جهة، كلُّ مَن تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشهم بأن يكونوا مؤدّبين نظيفين متعلمين إلخ. وفي المقابل من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، إلخ.
ملاحظة بخصوص إشكالية الأخلاق التي تطرحها آليا هذه الثنائية: أيا كان الآمر-سمّيناه الإله أو الضمير أو القانون-الذي نعهد إليه بأن يكون مشرّعَها وضامنَها والمعاقبَ على انتهاكها والمكافئ لاحترامها، فإننا نرتطم دوما بقلةِ فعاليته، والمأمور يتعامل مع أوامره نادرا بممارستها عن صدق، وأغلبَ الوقت بافتعال الطاعة أو بضربها عرض الحائط.
هل ثمة عيب هيكلي في طبيعة المأمور ومن ثَم ما جدوى الأوامر وحتى ما جدوى الآمر؟
هل هناك خلل في تركيبة المجتمع يمكننا بمعالجته أن نرفع العامل المعطّل لبروز أخلاقية الآدمي "الطبيعية"؟
لكن ماذا لو اتضح أن طبيعة المجتمع لا تعكس إلا طبيعة الآدمي، وأن من طبيعة هذا الأخير أن يكون أخلاقيا-لاأخلاقيا، لأن الأخلاق واللّأخلاق -بالنسبة إليه-مجرد استراتيجيات لقضاء الحوائج وأولها البقاء، يستعملها تباعا أو بنسب مختلِفة حسب الظروف والحاجة، دون أن يضايقه في شيء تناقضُهما.
لنُضف إلى كل هذا أن الأخلاق مدوّنة المواقف والتصرفات التي تحاول السباع المشدودة إلى بعضها فرضَها بالحسنى على نفسها وعلى الجميع لتفادي التهلكة، لكن فشلها يجعلها تلجأ إلى القانون، وهو مدوّنة المواقف والتصرفات المفروضة بالقوة.
القاعدة الأولى أنه كلما ضعُفت الأخلاق كثُرت الحاجة إلى القانون، وكلما قويَت الأخلاق تناقصت ضرورته، مما يعني أن قوة القانون في أي مجتمع هي الدليل على ضعف مستواه من الأخلاق.
القاعدة الثانية أنه لا قدرة للأخلاق أو القانون -غُلّفَا في شكل دِين أو أي أيديولوجيا أخرى-على استئصال الشرّ وإنما أقصى المؤمّل كبحُ جماحه وتخفيف أضراره وبكل صعوبة، في إطار صراع أزلي كلُّ نصرٍ فيه مؤقّتٌ.
هذا ما يجعل من رحلتنا مغامرة في أدغال مجهولة المداخل والمخارج لا نزهة في حديقة عامة معروفة الجغرافيا ومن ثمة ضرورة الشجاعة ومعها النقيض الذي لا توجد إلا بوجوده أي الجبن.

يمكن رصد هذه الثنائية باكرا عند نوعين من المرتحلين.
ثمة الآدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، ثم يدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثمّ يخرجه من جديد يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. ها هو-ها أنت-ها أنا، على الطريق كالغزالة وسط الأعشاب العالية تتربص داخلها كل أسود العالم.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدّة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

لا شكّ أنه سيكتب على ملفّهم: للإحالة على مستودع الخردة.

يخرج الآدمي من النوع الثاني رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرجه من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشدّه الخوف. يتغلب عنده الفضول وكله نفاد صبر وحتى تسرّع في مغادرة الوكر. لا بدّ أن أهدّئ من نفاد صبري ومن حماسي، أن أنظّم تنفّسي وقد تعالى داخلي منسوب شهوة القتل وأنا كالفهد بصدد القفز للإمساك بعنق الغزال. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم، تستفزّ أنيابه ولا درع يحميها سوى الجرأة والتحدي. ها أنت-ها أنا-ها هو الآدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنثى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاظم الأخطار تتعاظم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل"...وأحيانا تصبح الإبر أثمن من الشهد. لا شكّ أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعيّن لمهمّة أخرى في عالم أخطر.

في نفس السياق، تجد الآدمي المبحر في وجه عاصفة الحياة وهو كالربان الجسور المتزايد الخبرة في رصد الرياح والتيارات، الرافع مرة شراعه والمرة الأخرى خافضه، المتسلق جبال الموج إلى حيث الغنائم.

على الطرف الآخر الآدمي المتشبث بخشبة تطفو على سطح الموج المرعب تطوّح به الرياح في كل اتجاه وهو بلا حول ولا قوة، ينتظر كل لحظة خلاص الموت غرقا.

قد يشتمّ من كلامي أنني أفضّل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية.

تأمّل الحالة التي نسميها الشجاعة.هي فضيلة الفضائل ظاهريا، لكن لو دققت فيها لاكتشفت أنها-أغلب الوقت-خليط من العيوب كالسذاجة والتهوّر والمجازفة والجهل والخفة والغرور والتمثيل والبحث عن التصفيق وتصديق القصص الملفقة عن الأبطال المزعومين، ومحاكاتهم لتنفيذ مخططات الجبناء الساهرين على حشو الأجيال الجديدة من القرابين بهذه الفضيلة المسمومة لتتحقق مراميهم وهم في راحة وطمأنينة.

والآن تمعّن في مشاعر كل آدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الآدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

*

يجب المرور الآن من التصنيف إلى التفسير.

لا تفهم هذه الطبائع إلا في كتفاعلات وأفعال في علاقة مع الظروف الموضوعية للرحلة.

أولى هذه الظروف المكان والمكانة داخل قافلة بني سفر.

كأنّ طاولة القمار تسحب لكل قادمٍ جديدٍ رقما يضعه إجباريا في إحدى أربع درجات يقضي أطباء الصحة العمومية حياتهم في دراستها ومحاولة التعامل معها.

الدرجة الأولى هي التي ترتحل فيها الإناث الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة، من فرط تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء.

وراءهن في حسن الطالع الذكور الأغنياء ويعيشون أقل لبعض العادات السيئة مثل شرَه التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلّف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم لا يأكلون إلا ثمار البحر، لا يشربون إلا الشمبانيا ،لا يلبسون إلا الحرير،لا يركبون إلا الطائرات الخاصة ، أنهم يموتون بأمراض التخمة ليُدفنوا في مقابر رخامية. أغلبهم لم يرَوا الحرب إلا على شاشة التلفزيون، لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام وهم مَن يعطون الأوامر ولا يتلقّونها.

إنهم مَن يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدّعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العلية الرأي بالتنصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات قافلة الرحلة التي نسافر فيها جميعا الإناثُ الفقيرات. هنا تتعقّد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبُها مَسغبة وشقاء ومرض نتيجة تقتير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهن حتى هنّ من رحلة الآدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة؟

هؤلاء البشر الذين سماهم أكثر من أديب في أكثر من ثقافة " المعذبون فب الأرض " أو Les Misérables لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أُحدّثكم عما يعانون طوالها.

القاسم المشترك بين ذكور وإناث هذا الصنف أنهم الآدميون الذين يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرد الجماعي

لأسباب اقتصادية. يأكلون من فتات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقٌّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايِد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوَّر من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأديان والأخلاق والنقابات والثورات الفاشلة. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة النساء والرجال الأثرياء) بأنهم جَهلة، قذرون، لصوصٌ، مجرمون، أوباش، رعاع، عوامّ، إرهابيون ومخرِّبون.

إجمالا يمكن القول إن مثل هذا الوضع يخلق من جهةٍ الآدمي الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرُّ على تخليصه من القسوة والفظاعة والقبح والظلم. مِثل هذا الصنف في حربٍ لا تضَع أوزارها أبدا لتغيير ما ليس قابلا للتغيير، ومن ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمّن هو ساخط عليه ولا يحبّ من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقةٍ متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمّم حياة الضيف وحياة مُضيّف يَزفر غيظا من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه.
على النقيض هناك الآدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه الساذجَ يبكي ويصرخ. لنقُل حتى لا نتهمه ببلادة الحسّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مقاسه، وأنه اكتشف -بطول ممارسته له-أن الحِكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرقٌ هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرُ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يَقبل بامتنان ما يجود به عليه العالم الكريمُ ولا يُزعج العالمَ البخيلَ بالشكوى والشتم. تقول إنني أقسّم ما لا يجوز تقسيمه، إنك تتحول باستمرار من الصنف الأول إلى الثاني ومن الثاني للأوّل، كالطقس لا تدري كيف ولماذا تتلبد سحب الروح ثم تنقشع. فعلا وهذا ما يجعلنا نستنتج أن هناك شيء ما داخل الآدمي -أو قُل داخل العلاقة التي تربطه ببقية الآدميين-يتحدّى المعرفة التي نتوهّم امتلاكها عنه.

هل التركيبة الرباعية -وما ينجر عنها من ردود فعل على طرفي النقيض-نتيجة أخطاء هيكلية أي طبائع مطمورة عميقا وراء ما يدّعيه الآدميون من فضائل ومحاسن؟
يقول راوٍ اسمُه برنارد فربر إنك إذا وضعتَ ستّة فئران في دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا على الغذاء، فإن الوضعية تفرز بسرعة تنظيما يتشكّل من سيّدَين يستحوذان على جلّ الغنيمة، وعَبدَين في خِدمتهما، ومُتمرّد، ومُتسوّلٍ يعيش على الصدقَة وفُتات الآخرين.
المثير في التجربة أنك إذا جمَعت ستّة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس الهيكَلية: سيّدان وعبدان ومتمرّد ومتسوّل. إن أخذت ستّة مستضعفين أو ستة متسوّلين من عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.
مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دَوما، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.
لقائل -اشتمّ مني سوء النية-أن يقول إن البشر ليسوا فئرانا. ردّي أن المدهش ما تُظهره الفئران من طبائع آدمية. المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الآدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على العكس يَدعمه. مَن يستطيع إنكار توزّع الآدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومتمرّدين ومتسوّلين؟
مَن ينكر سرعة عَودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد أصبح فيه العبيد سادةً يسومون رفاقَهم القدامى نفس الخسف، علما أن هؤلاء لا ينتظرون غير أن تدور الدوائر للانتقام مجددا. كل ما في الأمر أنّك لا تستطيع التنبؤ بموعد الثورة المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة على الإيذاء الموصِل إلى التمرّد.
أيّ عجب بمثل هذه الاستعدادات الغريزية أن يتشكّل المجتمع دوما من ملوك وعبيد وثوار، أو أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناتُ سادةٍ ودياناتُ عبيد ودياناتُ متسوّلين وديانات متمردين، وبنفس الكيفية آدابُ وفنونُ سادةٍ وعبيدٍ ومتسولين ومتمردين؟
السؤال الآن لماذا سيّدان لا سيدٌ واحد؟
ربما اعتمدت السلطات العليا هذا الخَيار لتَحكُم على السيّد -حتى وهو في أعلى المناصب-أن يُواجَه بالمحنة والامتحان، ورمزُهما الغريمُ. فائدة في العملية والمهدَّدُ مضطَرٌّ إلى الانتباه المستمرّ والمهدِّدُ مجبَرٌ على الطموح الخلّاق. بهذا يضمن التنظيمُ تَواصل الحركة وولادة القصص الطريفة للانقلابات والحروب.
لماذا اختارت أن يكون هناك عبدان لا واحدٌ. ربما لأنه يجب إعطاء بعض الحظوظ للعبيد لقلب موازين القِوى، فعبدٌ واحد لا يقدر على سيّدَين ولا بد له من حليف.

ماذا عن المتمرّد؟ هو بحاجة ليكون وحيدا للتحرك بسهولة وحتى لا يُختَرق التنظيم الثوري. أُسارع بالقول هنا إن تصنيفي لا يَقتَصر صفة المتمرّد على الإرهابيين، بل يشمل اللصوص والمحتالين والكذابين والمزوّرين والكفرة ومخترعي الفن المعاصر والموسيقى الإلكترونية، أي كل الخارجين على قوانين سَنَّها السادة تجبّرا واستكان لها العبيد جُبنا وضعفا.
والمتسوّل! ربّما اكتفى مُتعهّدُ التجربة بواحد حتى لا يُثقل كاهلَ العبدَين وهما مُجبَران على تغذية سيّدين لا يَشبعان، إضافةً لمتمرّد غيرِ منتِج بطبيعته.
والآن لنتفحّص وضعية الكل ليتبيّن الغُبن اللّاحق للجميع، ربما باستثناء واحد.
السيد -كما رأينا-مهدَّد طول الوقت بالغريم وبالعبد وبالمتمرد. كل هذا يُفسد مزاجَه ويجعله يعيش على أعصابه إلى نهاية الرحلة. لا تقلّ وضعية العبد بؤسا وهو يعيش في خَوف يُسمِّم عيشَه؛ وفي تسميم حياة السيّد وهو خائف من تبعات خوف عبده.
أما المتمرّد فكُلنا نعرف مصيرَه البائس وكيف سيُقطع رأسُه بالسيف أو بالمقصلة أو ينتهي في جوانتانامو ويأخذ عقوبة مدى الحياة، هذا عندما لا تصل المأساة ذروَتها وهو مَن يعذِّب ويَقطع الرؤوس، انتقاما مما لقيَه وتمهيدا لعَودة الرقّاص إلى نقطة الانطلاق.
لم يبق إلا المتسوّل. هو الوحيد الذي أنقذَ رحلتَه. تَذكّرْ كلَّ الوقت الذي يُضيعه السيّدان في معارك افتكاك السلطة والحفاظ عليها والوقت الذي يُضيعه العبدان في العمل والشكوى، والوقت الذي يضيعه المتمرّد في إعداد الثورات الفاشلة.
يُفلت المتسوّل من كل هذا وقد فهِم مِن أين تؤكل كَتِف العالَم. فمَواقفه مَبنية على حيادٍ هادئ رصينٍ يُخفي لامبالاةً بالوضع، بالمنتفعين منه وبالثائرين عليه. لذلك نادرا ما يزعجه سيّدٌ أو عبدٌ أو متمرّد، فلا أحد يطلب منه شيئا أو يلتفت إليه أصلا. حتى قطعة النقد التي تمكّنه من سدّ الرمق، تُرمى له بتفادي النظر في عينيه. هكذا يمكنه التفرّغ للشؤون الهامة، لا عمل يرهقه، لا سلطة يؤرقه همُّها ولا مؤامرة يدبّرها قد تكلّفه حياته. لهذا هو قُدوَتي لا السيّد الذي أرثي له، والعبد الذي يوتّر أعصابي، والمتمرد الذي يُضحكني عبثُ ما يقول وما يفعل. قد أذيع سرّا هائلا إن قلتُ إنني أخطط لأكون متسوّلا. قد لا يحملني أحدٌ على محمَل الجدّ أو يحملوني إلى المستشفى إن وجدوني على قارعة الطريق في بلدي أتسول قطعة خبز والابتسامةُ على محيّايَ. لا حلّ غير الفرار بعيدا ربما إلى بلاد سيتا وهي منذ القدم وطنُ أرقى أنواع المتسوّلين.
حتى المتسوّل معرّضٌ لكل أصناف المنغّصات، والحروبُ المستعرةُ على طول الطريق تمنعه من التركيز على جمال الجبال والسحب، ناهيك عن إمكانية سقوطه في فخّ قاتلٍ نَصبه له متسوّل خانَ السلك، ولا أتحدث عن الجوع الذي يمزق أمعاءه وعن القمل الذي يرتشف دمه بِنَهَم. ممكن، لكنه على الأقلّ الآدمي الوحيد الذي لا يؤذي شيئا أو أحدا وهذا في حدّ ذاته أكبرُ نعمة داخل قطيع السباع التي شُدّت بالسلاسل لبعضها، تتعرّض فيها طول الوقت للعضّ وفي أحسن الظروف لزئير التهديد يلاحقك في النوم وفي اليقظة.
لقائل إن يقول هل معنى هذا الكلام أن البشر فعلا كائنات مسيرة لا خيار لها أمام الجينات التي غرست فيها أو المكان من القافلة التي تسحبه طاولة القمار لكل مولود جديد.
كما هو الأمر دوما بالنسبة للآدميين (وحتى لغير الآدميين) الحقيقة دوما أكثر تعقيدا من استنتاجات اللحظة.
على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث.
هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي.
فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدو جريح.
من سيجهز على العدوّ مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمدّ له بقربة الماء ليبلل شفتيه؟
يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذاك؟
المهم أنك لو أخذت كل وقت المشاهدة لرأيت التصرفين المتناقضين يتكرران باستمرار والكائن هو نفس الكائن والتجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان.
خذ آدميا وضَعهُ في أقسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتحِل. اجعله منذ نعومة أظافره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.
هل سيصبح قاتلا بالجملة أم قديسا أم بليدا يتحمل كلَّ مصائب الدنيا لا يَرفّ له جفن؟
اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووفّر له منذ نعومة أظافره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. هل سيصبح شيطانا أم مَلاك رحمة أم بليدا يرى فيما وَهبَته الحياةُ وحَرمَت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟

تَوقّع دوما المفاجأة وأنت تُراهن على مستقبل لهذا أو ذاك، تصيب مرة وتخطئ مرّات. ذلك لأن الآدمي ليس روبوتا تشحنه ببرنامج وتعليمات لا بدّ له أن يتصرف وفقها. هو كائن لا تضبطه مائة في المئة برامج جينية مخزّنة في خلاياه، ولا ظروفٌ خارجية يفرضها عليه أي تنظيم مجتمعي.

كل ما نحن متأكدون منه اتساع طيف التفاعلات والأفعال -أو بلغة علماء النفس والاحتماع المواقف والتصرفات-التي يقدر عليها الآدميون...وايضا الكم الهائل من التناقضات التي تسكنهم وقد تجمعت داخل كل واحد منهم خصائص الذي منه كل وحشة والذي منه كل نقمة والذي منه كل نعمة وطبائع الفارس والفريسة والمفترس.

*

ما نحن متأكدون منه أيضا أن هذه المواقف والتصرفات المتناقضة المتحركة طول الوقت هي محرك قصص الآدميين من أتفهها إلى كبرى ملاحمهم التي تعبر القرون.

تصور فقر قصصنا لو كنا كلنا ملائكة -أو شياطين مائة في المائة-بل وهل يمكن للملائكة ان يكون لها قصص أصلا وهي في حالة توازن نفسي تام بينها ومع العالم ومن ثمة في حالة عدم الحاجة إلى أي حركة، إلى أي أفعال، إلى أي قصة؟

والآن تفحص فحوى قصص الآدميين التي تحركها طبائعهم الموجوعة الموجعة.

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين الخ.

لن تظفر إلا بشكل أو آخر من التفاضل وله في بعض الآداب ركن قار اسمه شعر الفخر ومقابله شعر الهجاء.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فواحد يصرخ أنه من ‘‘ شعب الله المختار’’ والآخر أنه من ‘‘ خير أمة أخرجت للناس’’ وثالث أنه من " قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"‘...الخ.

جلّ معاركهم في كل فضاءات العالم تحوم حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وعن الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها خلافا لكل الأخريات.

وعلى مستوى الحياة العادية الصراع دوما حول من الأحق بالريادة في هذا الميدان أو ذاك وأي امرأة هي الأجمل وأي طفل هو الأذكى وأي نظام سياسي اقتصادي هو الأنفع وكيف أن زيد يتميز عن عمر بمكارم الأخلاق التي يخلو عمر منها تماما ... الخ.

حتى لا نضيّع الكثير من الوقت والجهد في تتبع كل خصوماتهم حول من الأفضل -بما معناه في آخر المطاف الأجدر بالوجود والتواصل-لنسأل بعض المفكرين منهم الذين يتعاملون مع القضية بالجملة لا بالتفصيل.

حسب آدميّ اسمه سان سيمون يمكن تقسيم البشر إلى صنفين: من يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة على المجتمع وحتى إلى نهايته، ومَن يؤدي اختفاؤهم إلى تواصله كأنّ شيئا لم يكن.

يضع في الصنف الأول العلماء والفلاحين والمهندسين والبنائين وكل المهنيين من أرباب الحرف الشريفة (أضف الشعراء والفنانين والمهرّجين الذين يحبّهم الأطفال).

في الصنف الثاني يضع الملوك والملّاكين وكلَّ الساهرين على سرقاتهم من عسكر وبوليس وجواسيس وجلّادين وقضاة ورجال دين.

تصوّر حالة العالم، لو أخطأَ القدَر، فعِوَض أن يمحوَ هذا الصنف، زلّت يده فَمَحت مِن الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية. لاحِظ أن مثل هذا العالم قد لا يخلو من إثارة، والعسكر يصطادون البوليس بعد انقراض الجلادين، والبوليس وراء جواسيسه، والجواسيس يتبعون أثرَ القضاة المختفين داخل أنقاض الخراب، ورجال الدين يصرخون بالفتوى وراء الفتوى أنّ أكلَ الفقهاء حرامٌ دِينا وشَرعا، فلا ينفع ذلك كثيرا والكل يعلم أنه لا أطيب من فقيه، خاصة بالبصل المشوي، شريطة أن يكتشف الصيّادون أين اختفى الفقهاء وأين أُخفي البصل.

للتلخيص ودون تضييع الوقت في التفاصيل: نوعان من الآدميين يعكسان الإشكالية المركزية: الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا، الذين يجب أن ننوح عليهم لتَواصلهم أحياء... الذين ربح العالم فيهم رهانه، الذين خسر فيهم كل ما في جعبته من عبقرية ومن جهد.

بعبارة أخرى لبّ الموضوع ومحور كل هذا الجدل إشكالية ضخمة: قيمة الآدميين في عيونهم...ولو كانت المعرفة ممكنة قيمتهم عند العالم الذي فتح لهم أبوابه على مصراعيها.

قبل محاولة الردّ، هل للسؤال نفسه أدنى ...قيمة؟

نحن لا نتفق على معنى موحّد لقيمة الأشياء أو على الأدوات الفكرية والمادية الأصلح لقياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الآدميين وبأي أدوات سنقيسها؟

أضف لهذا أنه لا خيار لنا في قضية الحال غير التعويل على آراء الآدميين أنفسهم نظرا لاحتفاظ الأشجار والفيلة بالصمت وعدم تفضّل كائنات ما وراء مجرة العقرب لحد الآن بزيارتنا لمدنا برأيها فينا.

أي مصداقية –أي ما قيمة رأي زيد في زيد ورأي عمر في عمر؟

ثم من يضمن للقارئ مثلا أن كاتب هذه السطور لن يغتنم -رغم ما يدعيه من موضوعية وحيادية والبحث عن الحقيقة المطلقة- الفرصة لتصفية حساباته مع بني جنسه أو أن شفقته عليهم ستدفعه لإعطائهم أكثر مما يستحقون.

نعم، كل هذا صحيح ومع ذلك سأحاول.

تصور أنك تنظر للآدميين المتزاحمين حولك في الساحات العمومية يعيني عالم الجيولوجيا وزمنه الذي يحسب بمئات الآلاف من السنين. أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون-حتى ولو كان فريدا كأجمل زمردة أو ياقوتة-مثل حبة رمل على أكمة ما في صحراء مترامية الأطراف.

حاول تخيل كم تتابع منهم على هذا الكوكب منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة -العمر المفترض حاليا لبشريتنا-وما الآثار التي تركوا.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حيّة تتابعت على سطح كوكبنا هذا طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت هي الأخرى لم تترك إلا بعض الرميم الذي تفاخر به بعض متاحفنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الآدميين الذين يتراكضون من حولك وستأتيك صورة ذرات غبار يطوّح بها الريح لا أكثر من هذا ولا أقلّ.

القاعدة الأولى: بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية التي تتابعت وستتابع على سطح هذا الكوكب، ليس للآدميين أدنى قيمة.

تصوّر الآن أنك تختار عيّنة من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسمالهم، (أو من القديسين وعتاة المجرمين)، أنك تضعهم في أكثر المختبرات العلمية تقدما لدراسة أعضائهم وكيفية عملها وتصوير أدمغتهم وهي تشتغل والتعمق في أدق تفاصيل الأنسجة والخلايا.

أي استنتاج أمام اتضاح أنهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة ونفس القدرات المثيرة لدهشة أكبر العلماء؟ كم ستستغرب غباء سؤال من نوع أي الفريقين له قيمة أعلى.

أنت في هذه الحال كمجوهراتي توضع أمامه أحجار كريمة نادرة لا تقدّر بثمن لُفّت في خرقة قذرة لا تسوى فلسا وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لفّت في ورق ملون لا يتكلف أكثر من بضعة قروش... ويقال لك ما الأغلى قيمة؟

القاعدة الثانية: بمقياس الخصائص والطاقات الأصيلة التي جاءوا بها هذا العالم، للآدميين، لكل الآدميين دون استثناء نفس القيمة.

أنت الآن عالم من علماء البيولوجيا الأكثر تقدما في ميدان المورثات التي تشكّل وصفة صنع كل الكائنات ومنها الآدميين كما نعرفهم.

بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تقترب من الذكاء الصامت قل من العبقرية المخفية التي تغذي كل مظاهر الكون كما تغذي العصارة الأشجار. كيف لا تعقد منك الدهشة اللسان والذات تحت طفرة التعجّب والتهيّب والخشوع.

أضف لهذا أن هذا الذي بين يديك نسخه يتيمة تختلف عن كل الموجود من الكائنات ولو كانوا بعدد حبات رمل ألف صحراء وصحراء. كأن العبقرية المخفية تكره التكرار الممل حتى وإن كانت تخلق كائنات متشابهة في كبرى الثوابت. هكذا تراها تتدبر أمرها لكي يكون لكل كائن جملة من الخصائص ومن ظروف الوجود تجعله في ادقّ التفاصيل لا يشبه ولا يشبهه أحد.

القاعدة الثالثة: انطلاقا من كون الآدميين يحملون في أدق تعليمات صنعهم بصمات قوة عجيبة وضعت فيهم كل عبقريتها وأن كل واحد منهم نسخة يتيمة، فإن لهم قيمة ليس فوقها قيمة.

لقائل إن يقول كيف للآدمي أن يكون بلا أدنى قيمة ...وفي نفس الوقت أن تكون له قيمة لا تضاهيها قيمة ...علما وأن له نفس قيمة كل ما وجد وسيوجد من آدميين وكائنات أخرى؟ !

لم لا؟ هل هذه المفارقة الوحيدة للآدميين؟

لمواصلة سبر أغوار هذه الكائنات العجيبة التي يتعايش داخلها الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار، لم يبق لي من باب أطرقه سوى التدقيق في أحسن من أعرف منها ...هذا الآدمي الذي أسميه أنا.

**

الكتاب الخامس

الغريب

جبت مشارق الأرض ومغاربها
فلم أجد مسقط رأسي
ولا وجدت من يعرفني ولا يسمع بي
وسأبقى غريبا
حتى تخطفني المنايا وتحملني إلى وطني.

جبران خليل جبران

مقدّمة الكتاب الخامس

منذ زمن بعيد وأنا أقلب أمرَ "اعرفْ نفسَك" لأحد الحكماء. نعم، لكن كيف؟
من أين أبدأ والمجهول الذي يسكن داخلي لا يبدي أيّ رغبة في الكشف عن هويته؟
من هذا الذي نسميّه الأنا ولا نعرف من هو؟
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و" هو" يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي، كأنك مجرّد طردٍ يُسلّمه مجهول إلى مجهول. مَن قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني أريد أن أموت أصلا؟
على طول الطريق "هو" الذي يحدّد وقت الجوع والعطش والحب والنوم والحلم، ناهيك عن وجهة المسار. هو مَن يفكر ومن يتذكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم وساعة الموت.
نعم ألا يدهشك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها مثل ضيف لمضيّف مجهول!

"من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)
عندما لا يكون الأنا؟
من يحلم داخلي عندما أحلم؟
من يوقظني على العدم؟
نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا
نشقى لمغادرتها
وكأننا كنا يوما أصحابها"

كيف لا يتعمّق الإحساس أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطيّ والكتمان.
تَكلّمْ يا من يسكن بين الضلوع دون عقد كراء أو موافقة من صاحب المحل.
ما نَسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القربى بيننا؟
هل تَقبلُ لِذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرُها، بمثل هذه المظلمة؟
كم مرّة صرخْتُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته، فكنت كمن يحدّث الجبل!
كم مرّة تحايلتُ على صمته بشتمه والتملّق الرّخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملّق للبحر!
طرقنا بابه بالعلم فلم ينفع، بالتفلسف فلم ينفع، بالفنّ فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.
لا نَتيجةَ أيا كان البابُ الذي تَطرق، والشيء أطرش لا يسمع، أبكم لا يتكلم.
أواصلُ مع هذا معابثتَه وتعذيبي: هل يمكن على الأقلّ أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من أعماقك لألم أو لأمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.
يخيّل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسانُ حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض ولا داعي للإلحاح.

إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)
وأرى ذاتي شيطانا وملاكا
هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذاك اشتراكا
أم تراني واهما فيما أراه
لست أدري!

ما يواسيني بعضَ الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذه الورطة.
كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون: جرّبت إغراقه بالخمر، إطفاء لهيبه بهذا المخدّر أو ذاك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثا.
ما الحلّ وقد استعصى التفاهم والتعايش؟ الطلاق طبعا، كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق.
أين القاضي الذي سيُصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضدّه هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟ ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملا بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكى.
كأني أسمعه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئا، يسمع ولا ينصت أبدا. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأنا. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أُنَظفها دوريّا فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا

تحفظ لروائع الرحلة أثرا. أشير عليه فلا يسمع. أنبّهه فلا ينتبه. أعلّمه فلا يتعلّم. أهدّئه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولا أو نصحا. آمره بما هو في مصلحته فيتنطّع. أدفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيُمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقها بعناد الطفل المدلّل. ألفُ لعنة على هذا الشكل الذي قبلتُ التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّقٍ مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّ القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعا، لا طلاق ممكنا والأنا الظاهر والأنا المخفي توأمان مشدودان من عظم الصدر.

تَدخل فِراش النوم هاربا من سيّدك الوحيد فتجده يتربّص بك داخل ألف كابوس. تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك. تتنكّر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع. تبغي قتله فإذا به اليدُ التي تربط الحبلَ والرجلُ التي تدفع بالكرسي.

ثمة إمكانية لحل جذري. أدخل إحدى الدور المظلمة التي تحب الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى ومشاكلها التي لا تنتهي مع ذاتها. في فضاء خيالي المفتوح لضيافتك بوسعك أن تخاطب المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا معطف لي، لكنني أودعك" نفسي" للسهرة، لا حرج إن ضيعتيها وهذا بقشيش محترم لأجلّ الخدمات.

كم ستشعر بالخفّة مقدّرا كم كان اللعين أثقل من جسم عملاق على رجلي كسيح.

سيناريو آخر.

تتوجّه للمرآة وأنت تحلق: ما رأيك في الاحتفاظ بجيكل وهايد معا. خلّصيني من الاثنين. وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبك المرآة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص جيكل وهايد.

تبرز من الغد الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام مرآة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيرا للظاهرة."

كم لنا من أنا؟ أنا الخير، أنا الشرّ، أنا مخفي عن الأنظار، أنا معروض عليها للخداع أو للإبهار أنا يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، أنا يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، أنا يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، أنا سيسكن فضاء الذاكرة إن قيّض له السفر بعيدا في قافلة الزمان... أليس من الأصحّ أن أكتب من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن، وليفسّر الأغبياء هذا بجنون العظمة.

اللعنة، ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضجّ بالشكوى، وجزء في الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفّذ صاغرا وآخر يأمر دون تَكلّف عناء التفسير، لجزء يجهل تقريبا كل شيء وجزء يعلم تقريبا كل شيء، لجزء بلا ذاكرة تُذكر وآخرُ يبدو وكأن له ذاكرة العالم بأسره؟

قد تكون الصعوبة الأساسية أن الذات كطبقات الجيولوجيا: على السطح ما تظهر وما تدّعي لتموّه به وتخادع، تحته طبقة ما تخفيه بمهارة وبوعي، تليها طبقة ما تخفيه بلا أدنى وعي، أخيرا الطبقة الحاملة لكل الطبقات أي كل ما تجهل حتى وجوده في أعمق أعماقها. محكومٌ على وعينا بذاتنا أن يكون مثل أشعة الشمس التي لا تضيء إلا سطح البحر وبعض الأمتار تحته أما الأعماق فمحرّمة عليه إلى الأبد.

طوال بحثك عن وفي هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللّامتناهي وبقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرآة، أنه صورتك في المرآة تتأملك أنت.

ولَمّا تتصوّر أنك أمسكت به كنتَ كمن تنغلق قبضته على الريح.

ومع هذا... أي خيار لك غير مواصلة الجري وراء الشبح الذي يسكنك وتسكنه.

**

لمّا ينخرط بحث الآدمي عن ذاته في طريق مسدود.

أوّل تشريح كامل لمريض كان في عهدتي والطبيبُ الشرعي الذي سأعمل معه صديق قديم من بلاد الشام.
يبادرني الرجل ضاحكا وأنا أُحكم لبس القفّاز.
- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقّك أن تعرف بماذا قتلته.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. طلبتُ التشريح للتأكد.
- انظر ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تَقدرون عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
كم من أطباء عُلّقوا في المشانق لتجاوزوا المحظور وهم يشرحون في الأقبية جثثا مسروقة من المقابر. يا للمساكين وقد شاء حظهم العاثر أن يرتحلوا في أزمان تخلط بين العلم والسحر! يا لبختي وأنا أشرّح هذا الجسد المسجّى على الجليز لا مشاكل لي مع شرطي وجلّاد!
- هيا يا جزّار، أرني ما تقدر عليه.
يرسم زميلي بسكينه أخدودا عميقا ينطلق من تحت الحلق إلى الصرّة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلّا بفظاظة ودفعة واحدة اللّسان والحنجرة والمريء والقصبة الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله عضلة بحجم اليد. أخلع القفّاز لأمسكها بيدي لأعرف بحاسة اللّمس هذا العضو الذي تقول قصص العصر إنّه آلة امتصاص وضخ للدم، وقصص قديمة إنه معقل الحبّ.
ننزع بغلظة كيسين من الهواء يحتلّان جانبَي قفص من العظام يمتلئان بأوّل نفس يستنشقه القادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل.
يرمقني الزميل ساخرا.
- مالَك؟ هدّئ من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.
كأنّ هذا الغبي يعلم... كأنّه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي!
- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟
- ها ها، نكتة بائخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!
يواصل الزميل هذرا يغالب به اضطرابا لا يتلاطم كأمواج السطح مثل اضطرابي وإنما كالتيارات السرية في عمق المحيط.
يصرخ متكلفا مزيدا من الاستفزاز:
- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

المسكين لم يتوفّر مثلنا جميعا إلا على نسخة وحيدة من الأجساد تفضلَت بها عليه القِوى المبهمةُ المتحكمةُ في المصائر عند الإحرام ولسانُ حالها يقول: ذنبك على جنبك إن أعطبتها باكرا أو أصابها مكر الدهر وخبث الزمان.

ثمة على ملامحي ما يثير عند الرفيق مشاعر ليست كلها تَصنّعا واستفزازا.
- يا ولد، منظرك يَرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظةً لتتنفّس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.
- قلت لك واصل.
نواصل ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتلاع والتقطيع والكلمات البذيئة. لم تطلق شفتاه آها واحدة. لم يثب شاهرا في وجهنا سكاكيننا مدافعا عن حرمته الترابية. هل نحن أوّل من اعتدى عليها؟ هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك تفعل به ما تشاء، هو منذ الإفاقة ملكٌ للأبوين والمجتمع والثقافة والدولة والزوج والأطفال، للطبيب والغاسل وحافري القبر... ثم للجراثيم والدود.

"السقم يحفر سراديبه في ذاتي العفنة (عبد اللطيف الإدريسي)
كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي
الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:
- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم.
- بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟
يغمزني مرافقي وكأنه فهم قصدي:

- لا يهمّك، فكبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف. لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط القفة من يديك أمام الممرضين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عربٍ لتزويد حوانيت شاورمة المدينة.
- كفى ثقل دم. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل الأعراض كانت السرطان في الجهاز الهضمي.
أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.
- ترى شيئا؟ وجدت هذا الورم اللعين؟
- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لننتظر المعلّم، إمّا يبرئك وإمّا... الويل لك من لسانه... والآن ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتنم فرصة رَوَقان مزاجي لسياحة في أعماق المسكين.
نأخذ في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم بالإمساك بمنشار ونشر الجزء الأعلى من العظم، ثمّ اقتلاعه من القحف لنواجه أخيرا بعضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلّفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكّين.
ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّه من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.
إذن هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل "النفس" و" الفكر" و" العقل".
كل الأشلاء بين يدي الآن. انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. الشيء المبتذل الفريد الآن مثل كتاب مزّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيَت منها كلُّ الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقير... مثل أثمن لوحة زالت منها الأشكال والألوان ولم يبق منها إلا إطار الخشب وقطعة القماش... مثل لعبة نجح الطفلان الكبيران في فتحها وبعثرة كل مكوناتها.
ها هي مكونات الجسم مصطفّة على الجليز الأبيض ونحن أمامها كأطفال أُطلقوا على آخر كمبيوتر أَنتجته أكثر الصناعات تطورا، فهشّموا غلافه وبعثروا محتوياته لرؤية ما ينغلق عليه.
لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ إزعاجا عن تقطيع جثّة للبحث عن سبب إخفاق الطبيب والمريض على حدّ السواء.
كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحّصها من وراء نظّاراته السميكة باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكلّف الممثل. كان يقلّبها بقضيب حديدي يتأكّد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجلّيز الأبيض، أننا صففّناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر فشل الشكل في المحافظة على ذاته.
يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة.
- انظر إلى هذه الحبّة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شُخّص في الإبان... آه كم مؤسف...
لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النبرة التي يتفقه بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد.
لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.
- يا " مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت.
يفتعل الرجل الترفع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.
- يا حيوان لقد جرحت "المعلّم" وقد ينتقم مني.
هل يظن هذا البليد أنني لم أُجرح؟
- اللعنة عليك وعليه وعلى التخصّص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكنشتاين!
- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزوّدك مجانا بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. المعلّم لم يقصد تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثّة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.
- جزارون وخياطون أيضا. يا له من تخصّص!
- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثثنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.
يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.
- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخياطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحيةً. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.
يخرج من قاعة التشريح طبيبٌ، يدًا فارغة وأخرى لا شيء فيها، والطفل الذي بداخله متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم هذه الروح التي خرجت من جسد حسين فتركته جثة هامدة ترفض مواصلة اللعب معه.
ثنائية الروح والجسد! إرث السحر مرّرها إلى الفلسفة التي لوّثت بها العلم... كيف الخلاص منها بعد كل هذه القرون من الجدل العبثي؟ بالعودة إلى البديهيات. هل ثمة موسيقى دون آلة حسنة الصنع تبلور هذه الموسيقى؟ هل ثمّة فكر دون دماغ سليم؟ عندما نجعل هذا الفكر الوظيفة القصوى للدماغ وهو في أوج عطائه، تنتفي ثنائية الفكري والمادي. عندما نعتبر الروح الخاصية الأرقى والأعقد للجسد الحي -أيّ جسد حيّ-تتبخّر ثنائية السحر والروحُ لم تعد شيئا مضافا إلى الجسد مستقلا عنه ومن طبيعة أخرى وإنما خاصية منه وإليه لا توجد إلا بوجوده.
تصرخ الممرضة: أسرع يا سيّدي! صَرعٌ متتابع النوبات منذ ساعات.
أواجَه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانتفاض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقزّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائيا وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى. البنت في خطر الموت. مِن حسن الحظّ أن دواء "الفاليوم" سائلا في الشرايين أنفع من التعاويذ.
- يا آنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟
- بالتباعد وبالغرابة. كأنني في حلم. تقول أمّي إنني أمشي وأتكلّم أثناء النوبة ولا أتذكر أنني مشيت أو تكلمت.
كيف لا تأتي الآدميين فكرةُ التقمّص وكأن الذات التي تسكن الجسد تخرج في هذه الحالة من وكرها، أو كأن ذاتا أخرى خرجت من وكر مجهول لتحلّ محلّها؟
أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متثاقل الخطى:
- سيّدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟
يلقي الجرّاح المحنّك على الصور نظرة المهني مقيّما ما سيلقاه من صعوبات.
- المسكينة! سأحاول أن أفعل شيئا. أدخلها حالًا إلى غرفة العمليات.
حول طاولة معدنية سجيت عليها المريضة المبنّجة، يتجمع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر. يحلق شعر الفتاة لتتناثر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شفّاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الذات وعرينها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن، منتبها أشدّ الانتباه، حذرا أشد الحذر، حاضرا بكل حواسّي، خاصّة و "المعلّم" مشهور بصرامته لا يرضى إلّا بمطلق الإتقان والانضباط.
ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث. كم من علماء جهلة من الماضي علّموا بكل جدّية أجيالا من الطلبة أن بطيناته معقل الروح. البطين الأوّل والثاني معقل الإحساس باللّذة وبالألم، البطين الثالث مركز الفكر والعقل. الرابع موطن الذاكرة... والحال أنها لم تكن مليئة إلا بالماء!
مسكين أيضا ذلك العالم الجاهل المسمى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعيا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدّة يتيمة تتوسّط العضو الرّخو ومنها تخرج كالهواء من بالوننا المثقوب لتذهب إلى مكان آخر يواصل فيه المحتوى قصته دون الحاوي الذي أصبح فجأة بغير حاجة إليه.
دوما نموذج العلبة للرؤى غير المتقنة... على طريقة الدمى الروسية العالم أكبر العلب وكل كائن داخله علبة- جسد داخلها علب- أعضاء من الطبيعي أن يضع فكر التعليب الروح داخل هذا العضو وكان وضعها في السابق في علبة القلب وعلبة الكبد... قد ينقلها غدا داخل علبة الخلية، فعلبة الصبغيات فعلبة شوارد الذرّة... في أي علبة سيضع أصغر العلب؟
يلاحظ "المعلّم"، ونحن نقترب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهرني بفظاظة فأنتبه محرجا. تتصاعد الحدّة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.
ينفصم العقل أو الانتباه أو سَمّه ما تريد، إلى جزء يأتمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتّرا. بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحقّ كل جهل الآدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!
كأنّ العالم هو الذي هزّ كتفيه.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعرُ الحريري يُرمَى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ" المعلم" وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:
- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.
- سيّدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟
- لا تتهرّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بدّ أن تتدرب عليه.
تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.
ألوذ بالفرار لأرمي بجسدي المرهَق على أول كرسي أصادفه في الممرّ. أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدميّ. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء ""النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنتُ أنتصب لولاهما؟ هل تمتّعتُ يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صَلَف الجهلة أن القدمين معقلُ الذات؟ نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الآدمي. إن أصبحتُ من الرجال الذين تُنحَت لهم التماثيل، ليقتصر تمثالي على قدمين التحمتا بالطريق. يمكن للنحّات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّفَ في أروع أعماله عند قصبة الساق لا يعنيه كلُّ ما فوق... كلُّ ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين... جسدي والنسخة الوحيدة التي أملك منه.
أنتبه فجأة إلى أنه ما زال متماسكَ الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة الفكّ وتقديمه غذاء للكائنات السافلة، أنه ما زال النمرَ الذي أروِّض، الخروفَ الذي أَحمي، الحمارَ الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزيرَ الذي أمنع من التمرّغ في الوحَل، الجملَ الذي يحمل كل الأثقال بانتظار القشة التي قصمت ظهرَ كَم من بعير، النسرَ الذي أُحلّق به عاليا لأرى العالَم من أرفع موقع.
بينما أنا جالسٌ أواصل تدليك قدمَيّ، يمرّ أمامي عجوز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية، لفحصٍ روتيني قبل كل عملية على الدماغ.
فجأة يتضح لي طريقٌ آخرُ لمواصلة "الركض وراء الفرس التي أركب" كما يقول ببالغ الفطنة أتباع دين بلا إله.

**

عن كون الذات ذاكرة متعددة الطبقات سطحها الذي يحفظ تجارب "الأنا دون سواه "

من طبيعة الكوابيس -قُل من مهامّها-كشفُ أخشى ما تخشاه الذاتُ... ما تحاول عبثا رَميَه بعيدا في أعماق اللاوعي.
في أحدها، يتوجّه عجوز ذاهل نحو نافذة الغرفة ليتسمّر محدّقا في شجرة زيتون علاها الغبار. يَلتفت إلى بابٍ يُفتح وامرأةٍ ترتدي الأبيض تُبادرُه مُفتعِلة المرح:
- صباح الخير يا سيّدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيّبة. هلّا تبعتني لمقابلة الطبيب.
مَن هذه الأنثى؟ لماذا تبتسم لي؟ مِن أين تعرفني؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ أين أنا؟
تواصل المرأة المجهولة كلاما لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئا:
- انتبه دوما إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكّر الطريق. انظر إلى أسماء الأطبّاء والممرّضات فهي مكتوبة بوضوح على أعلى الصدر. هذا اسمي. ردّد معي: الآنسة زهور. وصلنا إلى العيادة. لن أقدّم لك بنتَيك طبعا، ستَحضُران معك الكشف للردّ على بعض أسئلة الطبيب.
طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر بربع ابتسامة تفضح تهكّما مزمنا يحاول إخفاءَه؟ اللهم إلا إذا كانت تتستّر على بقايا خجل قديم. مَن هذه المرأة ذات الشعر القصير الفاحم ومَن التي تمسك بذراعه كأنها تتشبّث به خوفا من غرق؟ لماذا تتفحّصانني بهذه النظرات الدامعة؟
تجيل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تَداخلَت الحدود وامّحت الفواصل في نصٍّ يرفض الالتزام بالحيَل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجيلان البصر بين الشاب الذي لم يَلدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفَت رحلتُه على الانتهاء بأفظع كيفية.
يتفحّص الطبيب الشاب المريض المرتعش مغالبا قلقا لا يَفهم تفاقمه ثمّ يستجمع شجاعته.
- هل يمكن، يا سيّدي، أن تقول لي ما اسمك؟
اللعنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟
تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكا وتوتّرا:
- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!
تتدخّل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:
- خطيبٌ مُفوّهٌ لا يجد اليوم أبسط الكلمات، فيستشيط غضبا ويدخل في حالة من الهيجان تبثّ فينا الرعب. لا أصدّق أنه "بابا".
كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسيَ أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.
تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:
- معقول ألا يتذكّر أنه قابَلَنا البارحة! أننا نحن مَن أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي.
تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:
- الشهر الماضي رأيتُه يمزّق ديوانه المفضّل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضا.
يريدون العجوزَ مهذّبا وهو يتابع لحظةً بلحظة تسللَ الظلام وانطفاء الأنوار في فكره، وذاكرتُه تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم.
ذاتُه تعيش اللّحظة بعد اللّحظة بعد اللّحظة، ولا رابط بين اللّحظات. أصبح كلُّ فعل يمسح ما مضى من أفعال، وكل شعور يمسح الذي سبقه، لتتجمّد تجربة الوجود في جليد حاضِرٍ أزلي لا يسبقه قَبلٌ ولا يتلوه بَعد. مَحَت يدٌ غيرُ مسؤولة تجربةً يتيمة فريدة لم تحصل ولن تتكرّر، على كثرة ما عَرف العالم وجرّب من القصص. مزّقَت صفحات كتابٍ رَمَتها في كل اتجاه فإذا بالنصّ غير مفهوم لا للقارئ ولا لكاتبه. تبخّرت الحمولة من ظهر الحامِل وهو لم يصل بعدُ إلى حيث يجب أن يوضع الحِمل.
هل من نهايةٍ أفظعَ لرحلةٍ ظنَّ الآدميُ أنه خَبِرَ كلَّ فظائعها؟
كابوس البعض، حالة الكثيرين: تَلاشي الذاكرة شيئا فشيئا ومعها تلاشي الذات.

في آخر المطاف ما الذاتُ دون الملفات التي أُودعَت فيها تجاربَها منذ بداية فعلها في العالم وتفاعُلها معه؟ أليست هي التي تَحفظ عقد اللغة متماسكا ومعها تصوراتنا للعالم، للآخرين ولذاتنا؟ أليست هي التي تفرض الترابط والتواصل بين معطيات الحواس والفكر والخيال، ولولاها لأصبح الواقع الذي تَصنعُه مثلَ ضَوءٍ تَشتّتَت ألوان طَيفه ولم يعُد يضيء شيئا؟ أليست هي التي تنظّم هذه المعطيات وفق خطّ زمني فيه القبل والبعد، لتكون لنا قصّة ببداية وسلسلة من الأحداث وخاتمة نرجو دَوما أن

تكون سعيدة؟ بَداهة هي كفعلٍ (التذكّر)، وكمَادة (المعطيات المحفوظة)، الشرط الضروري لوجود الذات حيث لا وجود لفِكرٍ أو لمفكّر في غيابها؟

والعالم... ما العالم هو الآخر دون ذاكرة جبارة تحفظ تماسكه وتواصل مكوناته عبر الزمان؟

يجب أن أنعزل في مكان قصيٍّ من القارب، أصمُّ أذنَيّ عن صخب السّيل، عن هرج مَن هم معي على المركب، غيرَ عابئٍ بصراخ مَن ألقت به الحركة الهوجاء في الأمواج المتلاطمة، لتجنيد هذه الذاكرة في آخر جهد، علّها تشعّ بكل نورها وتضيء الأعماق التي خرجت منها قبل أن يُطفئ الموتُ فَتيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الآجال مرضٌ حقير اسمه العته.

أنا الآن ضيف ذاتي، أتوسّط "مكتبةً" فتحَت لي كلّ أروقتها وكل خزائنها، أدخلُها لاستعراض ما تملك من الوثائق وليس لاستدعاء هذا الملفّ أو ذاك، كما دأبتُ على الأمر منذ بداية التدوين.

"هنا" تَحفظ القوة المجهولة معطياتٍ حان وقتُ التمعُّن فيها علّها تقول لي شيئا ذا معنًى عن الغريب الذي أتخبط داخله أو يتخبّط داخلي.

تَحضُر موَظّفة مثقلة بطلباتي الأولى. تسرّ في أذني وهي تضع القهوة فوق المنضدة وترمي فوقها بحزمة من الملفات.

- التعليماتُ ألا نزعجك وأن نتركك تأخذ الوقت الذي تحتاج.

أفتح أول ملفّ فتَنفجر في وجهي جُمَلٌ أبَى النسيانُ محوَها:

لا تضع إصبعك في أنفك... قل للمعلّم: صباح الخير يا سيّدي. أغسل أسنانك قبل الذهاب إلى الفراش... أورام البطين الرابع عند الطفل تؤدّي مبكّرا إلى ظهور ارتفاع الضغط داخل القحف العظمي... لا يُخلّص هذا العالَم مسيحٌ واحد... كُلٌ دون إحداث صوت، خاصّة مع كبار القوم... جئتُ لا أعلم من أين ولكنّي أتيت وسأبقى ماشيا إن شئتُ هذا أم أبيتُ... إنّما يُخلّص العالمَ كلُّ واحد منّا شريطة أن يتذكّر أنّه هو الآخر المهدي المنتظر... ثلاثة في ثلاثة يساوي تسعة، تسعة في تسعة يساوي واحد وثمانون... يولَد جميع الناس أحرارا وقد وُهبوا عقلا وضميرا، على الأقلّ نظريا... إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بدّ للقيد أن ينكسر، المشكلة أنه سلّم أنه لا حياة بلا قيد... الحوامض الأمينية واحد عشرون، منها ثمانية لا بدّ أن ننهشها من لحم كائنات حيّة أخرى... كلُّ هذا غلطةُ الحجارة الكبرى التي ضَرَبَت الأرض لخمسة وستين مليون سنة خَلَت، وحَكمَت على الديناصورات بالانقراض، مما سمح لكائنات خسيسة مثلنا بالتكاثر متسببة في كارثة لنفسها وللعالم... ما لهم كلهم مع الكذب؟ ... أليس هو الوظيفة الثانية للّغة، مثلما النسيان الوظيفة الثانية للذاكرة؟ ... أيّ عاشق أوكاهن أو طبيب لا يكذب... لا تريَنّ الناس إلّا تجمّلا نبا بك دهرٌ أو جَفاكَ خليلُ... البقاء للأصلح في النظرية، وفي الواقع للجبناء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف... السمك أغنى بالفسفور من بقيّة لحوم الكائنات... انطلاق الرحلة الآدمية كان من الساحل الشرقي لإفريقيا... تُفتَح قبضة الباب من فوق إلى تحت... سرعة الضوء أعلى سرعة ممكنة... العنف مَظهر من مظاهر القَسوة عند مَن هم فوق، ومظهر من مظاهر التمرّد عند من هم تحت... خطّ البنطلون المكوي يمرّ فَوقَ وسط الركبة لا من جانبها... نبحث عن الحبيب ثلاثة أشهر، نُحبه ثلاث سنين ونتخاصم معه ثلاثين سنة، ثم يأتي دور الأطفال لتكرار السيناريو... السيّدُ مَن يُعطِي المثَل لا من يُعطي الأوامر... الاعتدال فضيلة الفضائل وهو تنازلٌ مِن موقع القوة عن الكبرياء والمصالح، لكنه رذيلة الرذائل إن كان تنازلا من موقع الضّعف عن الكرامة والمبادئ... معدّل السكّر في الدم غرام في كلّ لتر... المافيا دولة بصدد التكوين والدولة مافيا نَجَحَت... الرجال قوّامون على النساء لأسباب يعرفونها هم وحدهم... كلما اقترب العدل من قطب التعويض وابتعد عن قطب العقاب، كان راقيا... كلما ابتعد عن التعويض واختزل نفسَه في الانتقام القانوني، اتضح ما ينضح به من إرادة التنكيل، من قسوة ومن عجز عن المغفرة... اللغة هي النور الذي يضيء لنا الطريق والظلام الدامس الذي يمنعنا من الرؤية... كن ودودا وانبذ العنف مهما كان مأتاه... مَن صفَعك على خدّك الأيسر أفصِلْ رأسَه عن الجذع... الاستبداد مُصادرة أوباش لحرية ومصالح شعب، بكل وسائل العنف المادي والرمزي... هو رهان خاسر والمستبدون يحفرون دَوما قبورهم بالوسائل التي أوجدَت مؤقتا تَسلُّطهم... الديمقراطية توهّم إمكانية انبثاق الصالح العام من الإرادة الحرّة لشعب تتناقض فيه المصالح ويتجاور فيه بِنِسَبٍ مجهولة الأذكياءُ والأغبياء، المتعلمون والجهلة، الأخيار والأوباش، الأحرار والعبيد... رهان خاسر وهي تفرز أغلب الوقت خيارات تضرب الصالح العام وتهدّد الحرية... الخيار بين الرهان الخاسرِ دوما، والرهان الخاسر أغلب الوقت. تبّا له من خيار... من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟ ... أنا سرجاي بافلوفيتش، جئت من بيتي وذاهب إلى خمارة البلد... أين هذا من كفر الذي قال "لا أؤمن بالله، أؤمن بما هو أعظم"، أو استفزاز الآخر "الله موجود لكنه ما زال غير جاهز لمهامّه". أو الذي تجاوز ألَمُه كل الخطوط الحمر "موجود أو غير موجود، الموضوع ليس هذا وإنما أنه من الأفضل له ألا يكون موجودا، من يغفر لربّ شقاء كل هذه العوالم؟ فاز باللّذة الجسور... "لا تستوحشوا المشيَ على طريق الحق لِقلّة سالكيه" ... هذا عالم غير قابل للتنبؤ، للفهم، للتطويع، وكلُّ محاولة لا تزيد إلا من عصبية الفرس ومن علوّ سقطة الفارس الغبيّ... مِن الغباء محاولة تغيير البشر ومن الإجرام عدم المحاولة... لا شيء يدفعك إليه العالم بكل قوة قدرَ العمل على تغييره ولا شيء يرفضه لك بكل

إصرار غير تمكينك من شيء كهذا... وجد الأوروبيون طريق قارّة قديمة اكتشفَها الآسيويون قبل عشرين ألف سنة، وسمّوها مع هذا "العالم الجديد"... يا بُنَيّ ستكون كارثة لو كسّرت مرّة أخرى نظّاراتك... واحد زائد واحد يساوي اثنين مهما كانت سرعة الريح... العين بالعينَين والسنّ بكامل الفكّ... الحياة مرضٌ خطيرٌ والموتُ علاجُه الوحيد... الأنانية ليست أن تحب أناك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... العنف ليس قوةً والقوةُ ليست عنفا... حافظ على نظّاراتك لأنه ليس لي ما أشتري لك به بديلها... "لا تنسَ سوطك عندما تذهب إلى المرأة"... كُرة القدم هي اليوم أفيون الشعب... لا تستفزّ الأقوياء إن لم تعدّ لهم ما يجب من القوّة... الأسبرين دواء رائع لا يؤخذ مع قرحة في المعدة... يريدونني أن أؤمن بأفكارهم وأنا بالكاد أؤمن بأفكاري... في كل لحظة قد تنقلب الأمور رأسا على عقب، في الاتجاه الذي ترغب والاتجاه الذي ترهب... الماضي الذي تترك وراءك، نسيج من الأساطير... المستقبل المفتوح أمامك نسيج من الأوهام... حاضِرُكَ نقطة نور تتحرك من الضباب إلى الضباب، ووضعُك دوما أسوأ مما تعتقد وأحسن مما تظنّ... أحسنُ لونٍ لطلاء بيوتنا، الأبيض لأنّه يمتصّ أشعّة الشمس... يوجد في العنف من قوّة ما يوجد في البورنوغرافيا من حبّ... التاريخ رواية المنتصِرين... أنا السجين والعالم سجني وسجّاني... أفضل ما اخترع الآدمي الكسكسي بالسمك... يا بُنَيّ ستكون كارثة الكوارث لو كسرت مرّة أخرى نظّاراتك... مَن عرَف الدهرَ يخشى شدّاته ويرتقب... يجب على المرأة إرضاع طفلها على الأقلّ ستّة أشهر... مَن عارض السلطان زهد في الدنيا... الخطأ الهيكلي في الدين افتراضه قابلية الآدمي للإنقاذ وكل التاريخ دَحضٌ لشيء كهذا... الديناصور كائن انقرض منذ خمسة وستين مليون سنة بضربة لحجارة من سجيل جاءت من الفضاء وأفسحت المجال للجنس الوبش الذي حُشرت في شكله... يجب أن أترك بصماتٍ لا تمحى... يجب ألّا أترك أثرا على أرض ولا حتى ظلا على حائط... الكوكب الأزرق في خطر من آلاف الأجرام التائهة حوله وهي أملنا الأخير لنرتاح ونريح... مَن قال: الملل كثيرة مختلفة ليس منها شيء إلا وهو على ثلاثة أصناف: قوم ورثوا دينهم عن آبائهم وآخرون أُكرهوا عليه حتى ولجوا فيه وآخرون يبتغون به الدنيا... إذا كان قانون لاوتسو صحيحا وأن كل اسم له ليس الاسم، فمعنى هذا أن كل طريق إليه ليس الطريق ولو كان الطاو، أن الحقيقة ليست الحقيقة، أن الخطأ ليس خطأ، أن الخطيئة ليست الخطيئة أن الشيطان ليس الشيطان، أن الأنا ليس الأنا. ما الدعامة التي يمكنني إذن أن أبني عليها الرؤيا؟ ... قل الحق ولو على نفسك... كن ولدا طيبا ونطاسيا وتقدميا وثوريا ومناضلا وصادقا ومخلصا ونزيها، لتنتهي فقيرا ووحيدا... حذار من الصداع عند الأطفال فاحتمال ورم الدماغ كبير... لا هدف نَصِل إليه لأن الحياة دورةٌ في حلقة مفرغة، ولا منفذ في هذا العالم لأحد... لا تضع إصبعك في أنفك... لا عيشَ لكريم في بلد شعبُه غنم وحاكمُه ضبع... أين أضع هذا الحُبّ الذي بداخلي والذي لا يريده أحد؟ ... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقعة الواحد إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم بطبيعته واحد-عدد، عدد-واحد... نعم الشفقة، لا شيء نستأهل أكثر... قل للمعلّم: يا سيّدي... إياك أن تكسر نظاراتك مرة أخرى... نعم كم صدق أناكرسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزّقها الكبار... إلخ...الخ...الخ ...الخ ...الخ ...

يداهمني شعور كالذي تجربه عند الاختناق والتخمة.

خلاصة تجربتي هذه الفوضى!؟

هل من الممكن أن يَستوعب ذهني كل هذا الشلّال الصاخب من الصور والأحاسيس والمشاعر ولا ينفجر، وأن يَستخرج منها صورة متناسقة لرحلته، وأن يمكنه الردّ على السؤال سيد الأسئلة: ماذا أفعل في هذا العالم؟

كم أنا محظوظ بأن وظيفة المحو ما زالت سليمة وإلا كان مصيري كمصير أولئك المساكين الذين يُسمّونهم العباقرة المتخلفين ذهنيا. الواحد منهم قادرٌ على استرجاع أجزاءَ كاملةً من الموسوعة البريطانية بعد قراءتها مرة واحدة، أو حفظ كل أرقام الهاتف لمدينة كاملة، أو رسم شكل مدينة كاملة بعدد نوافذ عماراتها بعد المرور مرّة يتيمة فوقها بحوامة، لكنه عاجز عن ارتداء ملابسه أو تناول طعامه دون مساعدة.

تتعاظم الخشية وأنا أستعرض بقية الملفات وكأنني كالمقْدِم طَوعا على فتح جروحٍ غائرة جاهدت سنينَ لتندمل.

هذا أضخم ملفّ عن مرارة الحياة وأقسى ما يُجرّب فيها الحيّ من آلام، وأيضا عن أن كل ذات مصنوعة من قصص متباينة في التفاصيل داخل التفاصيل... وفي الجوهر دوما نفس القصة عن تجربة الحبّ.

تتدافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة... المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الآدميّ أذنيه عن كلِّ نداءٍ، وقد اقتنعَ أنه لا ذكاء يبرّر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقّة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحه مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضّل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم الأزلية:

- إنّها لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تُحرّك ساكنا.

دَخلَت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟
أحاول فتح مَنفذ للقلعة المغلقة.
- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.
تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامتة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيٍ كان.
يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:
- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.
يَرفع الألم كل تحرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.
- طبعا البنت ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقتُه للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميتة وموتها على حسابك وحدك.
كذبوا، من شابهَ أباه فقد ظلم. هل للرجل ما يدافع به عن نفسه؟
تنتهي تفيحه في غرفة إنعاشٍ قناعُ الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفظعُ ما في العالم لامبالاتُه لا ما يُلحقه بنا من ألم.
يا إلهي أيّ شيء جئتُ من أجله هذا العالَمَ يستأهل كلَّ هذا الألم، والباقي الذي ما زال ينتظرنا في كل خطوة إلى نهاية الطريق؟
هذه المرّة فاقت ضريبةُ الوجود قدرةَ الدفع. ليَنتَه كل شيء. لتمت تفيحه ولأمت حذوَها.
الموت! وهؤلاء الأغبياء الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه والحال أنه وليمة من الفكر واللاشعور... "شبعة" من اللاوجود... تخمة من العدم... طفرة من السلام... نهاية كوابيس النوم واليقظة... الراحة الأبدية.
"لم نجن بدنيا الكرب دنيا المحنِ (عمر الخيام)
إلا غصص الروح وغم النفسِ
ما أهنأ من مات بهذا الزمنِ
ما أسعد من لم ير نور الشمسِ"
كم يخيّل لنا أحيانا أن العالم أعدّ لنا شمسه وقمره وبشره وفرصه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذوات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغبي أو الرصاصة الطائشة أو المرض الحقير لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهمه من أمرنا شيئا. أفظع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واعي أو مبالي لا بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتكّ منه كل ما يملك. أي معلّقة سأضع على باب العالم وأنا أصفّقه ورائي خَلّصني منه الموت أخيرا؟ حذار، حذار، قاس، فظّ، لئيم، بخيل، خادع، مرهِق، محبِط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك العقبة فالحاجز فالحفرة فالمستنقع فالدهاليز فالحائط الشاهق، وعلى طول الطريق إلى لحظة السقوط في البئر التي ليس لها قاع... حذار، حذار، عالم تأتيه خاوي الوفاض، ترحل عنه يدا فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضيّعا ما كسبتَ رغم ما دفعتَ فيه من باهظ الثمن... حذار، حذار، عالم قَدَرُك فيه جوعٌ لا يُشبع، ظمأٌ لا يطفأ، حبّ لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوما بما لا تشتهي السفنُ... حذار، حذار، عالم لا يعبأ بك، لا يلتفت إليك، لا يهمّه من أمرك شيء، سيّان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، كلُّ معاركه بلا نصر وكل منتصِرٍ فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزومٌ.
أقرّب يدي من اليد المتدلية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفّق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلّا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جَفّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أُقدّم غير كل ما يقدر عليه الإنسان من حبّ عاجز.
كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبغض البشر إليّ وهي سبب أفظع ما أعيش من آلام. على العكس حُبِّيَ الآن لها لا تَسَعه السماوات والأرض.
قد يكون أحسنَ مَن فَهِم طبيعته الأعرابي الذي سُؤل أيُّ أطفالك أَحَبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاظم الأخطار التي تهدد كلّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعَينا لحمايته بأثمن ما نقدر عليه: الحبّ.

حتى المعلِّم لم يدرك طبيعة مَن يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه... الحقّ ليس هشا ضعيفا مهددةً حياتُه لا ضمان لتواصله إلا حبُّنا له... اللهم إلا إذا قَبِلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنّ حب الذوات التي تبلور فيها طريقتُنا الوحيدة للتقرّب ممن هو فوق كل عبادة وكل حبّ.
أتوجه للراقدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تَبادلنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرّضع.
كأنّ شيئا ما نفذ أخيرا إلى شيء ما... لمس شيئا ما... حرّك شيئا ما... أثّر في شيء ما... غيّر وجهة المسار. أيكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمَت بما فيه الكفاية... أنها تأكدت أخيرا من شيء كانت تريد التأكد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوما بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمَت أن عليها أن تجد في أعمق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلَها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرف الإثنين.
لا أصدّق أذنيّ وأنا أسمع تفيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.
تتجدّد فيّ شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.
- هل... هل؟
- ن.، ن.، نعم. نعم. نعم.
تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقلق في عينين بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.
- "با"، هل ستبقى معي هذه اللّيلة، كم أكره هذا المكان الموحش.
- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟
- نعم
- لمواصلة المشوار؟
- لمواصلة المشوار.
- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته؟
- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته.
من الغد تعود تفيحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئا قدر فسخ الكابوس من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.
إنها قصة من بين ما لا يُحصى من القصص عن آلام الآدمي المزمنة وطَيفِها الواسع. إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص المراهقين والآباء وحب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لآبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرَص تَدارُك ما مضى من أخطاء.
حقا عَرَف الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتُ. لكن هذه التجربة بتفاصيلها وبالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل لم تحدث إلا لي... لي أنا فقط. مما يعني أن ما يُعطي للذّاتِ خاصيتَها التي تميّزها عن الذات الأخرى، جملةٌ من الأفعال والتفاعلات مع جملةٍ من مظاهرَ وكائناتٍ وحالاتِ العالَمِ لم تَحدث في تفاصيلها الدقيقة وفي تتابعها الزمني إلا لها هي. إنها الفوارق البسيطة والجذرية في آن واحد، التي تصنع تبايُن القصص، ومن ثم تباين الذاكرات، أيْ في آخر المطاف تباينُ الذوات.

قصتي إذن في الثوابت قصة كل آدمي آخر...وفيها من أوجه الاختلاف ما يجعلها لا تشبه قصة أي آدمي آخر...منها دخولي العالم من مكان واحد دون سائر كل أماكن الكون...في زمن دون سائر كل الأزمان...بأب دون كل الموجود من الآباء ...بأمّ دون كل الموجود من الأمهات... بأدلة آخرين دون كل المتوفّر من الأدلّة ... بتجارب تستكشف نفس طيف أحاسيس ومشاعر كل الآدميين وتختلف عنها في ألف تفصيل وتفصيل... ما أعجب أن ترتطم الصدف بالصف والضروريات بالضروريات والصدف بالضروريات لتحدّد لكل رحلة مسارا ولكل مرتحل قصة لا تشبه أي مسار أو أي قصة أخرى ... كل هذا لتكون لي، لك، لكل آدمي قصة فريدة تنويعا إضافيا آخر لتجربة الوجود آدميا ...

لنُسمّ هذا المستوى من فضاء الذاكرة الحافظ لقصتي: ذاكرة الأنا دون سواه... وإن استهوَتنا صورةُ الشجرة: ذاكرة ورقة الشجرة أيام الربيع.

**

وكيف أن لذاكرة الآدمي طبقة وسطى هي ذاكرة الآدمية جمعاء

عندما تتفحّص أخصّ الملفات التي تُميّز الذات، تكتشف دَوما استحالة فَصلِ قصتها عن قصص عدد غير محدّد من الآدميين. تؤدي بك كل سفرة داخل الذات ضرورةً إلى سفرة داخل الذوات الأخرى.

هكذا تَجِدني دوما أرتطم بقصة "با" لأكتشف يوما أنني لن أفهم قصتَه إن لم أربطها بقصة الشاعر الذي جَعل من قصائده الكلامَ المقدّسَ والقدوةَ والمثالَ في كل ما يقول وما يفعل.

لماذا جعل من هذه الذات بالذات قدوَته؟ هل لتَعرُّفه في آلامها على الآلام التي عذّبَته طوال حياته؟ تُرى هل سأجد مَنبع آلامي في منبع آلام دليل الدليل؟

أعود إلى قصائدَ لا تُلقى وإنما تُزمجِر، باحثا عن السبب الدفين لعربدة التفاخر والغضب.

هل ذروة مأساة الرجُل وُقوفُه اضطرارا على أبواب الملوك يَستجدي مَن يَحتقرُهم، هو الذي كانت بنفسه أَنَفَة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوَته المزعومة، أم لأنه رَفض له شهواته أو بالَغ في التقتير؟

يَنتبه للسبب أديبٌ أَعمَى عرّيف بالآلام وما تفعله بالمعذَّبين في الأرض. غريب! كيف لم يسترع انتباهي يوما أن الرجل فاخَرَ دوما بنفسه لا بقومه خلافا للمألوف... أنه بكى وأبكى الأجيال على جدّة، لا على أب أو أم أو أخ أو ابن... أن ديوانه لا يبدأ بذكر حَسَبه ونسبه. ثمة إذن منطقة مظلمة في قصة الرجل ربما وجد فيها "با" شيئا عزّز به الصلة. لكن "با" كان معروف الحسب والنسب وكان له أب معروف وأم معروفة.

أمّ معروفة! لم أسمع "ما" -على كثرة مدحها للناس-تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جَدّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها... أخيرا لا آخرا، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خَير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته... أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه!

كل ما يحتويه ملفّ هذه المرأة اسم يحفّ به صمت مشبوه. تحين فرصة الحفر في سرّ قد تملك "ما" بعض مفاتيحه.

- ألا تعتقدين أنه لو كان له أشقاء علَّموه باكرا أن يُقاسِم لَما أَفرَط في دلاله علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمُّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعني "ما":

- لم تُدلّله يوما أم.

تعضّ على شفتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرٌ تحريكُها. فضولي أهمُّ مِن ترفّق يحضر ويغيب.

- لم تدلّله!؟ ربما كانت مريضة أو أن مرضَها أثّر في طبعها وفي طبعه... ربما المرض سببُ عدم إنجابها لغَيره.

يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

-كلّا لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟

- لا تغيّري الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتياب ميتة. حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.

تَستَكينُ "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهرُه إلى الحائط ولا مصلحةَ له في مواجهة خصم مصمّم.

-كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضَت له ضيفا من عمره فَخَرج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.

عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنِع أو غير مكتمل. يجب أن يكون رَفضُها استقبال ضَيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شِدّتُها التي التصقت باسمها؟ حِرمانُه من حب بقي طوال حياته يركض وراءه؟ هل هذه الجدّةُ التي لم أعرفها هي سببُ الوجع الذي جعل "با" طول حياته كائنا متألما مؤلما؟ كم تسبّب لي وللآخرين من أوجاع؟

- ماذا أيضا؟ تكلّمي.

تنسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمة شيء لا يمكن لأمّ أن تحادث فيه ابنَها... شيء ربما تهامست به النساء يوما بعيدا عن آذان الأطفال!

لأحاول الجَمعَ بين مختلف قِطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأنْ لا أحد تَخبّطَ في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداوُه للنساء وتنكيله بكل أنثى رماها الحظّ العاثرُ بين ذراعيه مكدِّسا الخليلات والحليلات يشبعهّن إذلالا وخيانة وطلاقا.

هل مَحبّتي للنساء وتَرقّبي الدائم بهن مُجرّدُ ردّة فعل على ردّة فعل على رَدات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقَت؟
كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جِدُّ مُستبعَدٍ. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد.
مفهومُ رجال ذلك الزمان والمكان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا يهمّ أن تكون أختا أو أما أو زوجة أو بنتا-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبُهم زناة، إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.
ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكرا ما تهامست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنها ضيفا، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟ هل تقديسي للأخوّة مواصلةُ قصّة حزينة لطفل حُرم أخوةً بقيَ طول حياته لا يكف عن البحث عنهم؟ هل غضبي صدًى لغضب طفل وَجدَ نفسَه يتخبط في مشاكل لم يكن له أي دخل في وقوعها ولا ناقة لي ولا جمل فيها؟ ما أغرب أن تُشكّل أحداثٌ لا دَخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب! ما أغرب أن يقول البعضُ بِحريتِه وكلُّنا مُسيَّرون بأحلام وكوابيسِ مَن سبقونا.
الاستنتاج المذهل: ما أسميه الأنا في جزء أساسي منه مُكوَّن من الأنا الآخر. هذا الآخر موجود خارجيٌّ حقا لكنه موجود أيضا وخاصّة داخلي، أواصِل تاريخَه وقصصَه وقد أصبحتُ تاريخي وقصصي. طبعا هذا الذي بداخلي ليس صورة طبق الأصل للآخر الذي هو خارجي والذاتُ تعمل باستمرار على ملامحه وخصائصه ومراميه حذفا وإضافة وتحويرا، سلبا وإيجابا. إنها مثل مرآة تعكس الصورة حسب خصائصها وحاجياتها هي، آخرُ همها "موضوعية" الآخر أو "حقيقته".
وفق نفس القانون فإنني آخر الآخر، مما يعني أن ذاتي ضرورةً المادةُ الخام التي يتكوّن منها نسيج كمْ من ذاتٍ تُواصلني وتُصارعني وتُقلّدني ولا تشتهي إلا ما أشتهي ومني تتعلم، وتدخل معي في علاقات حب وبغض، ومن هذه العلاقة تكتب جزءا من قصتها.
وأيضا... أن أفكاري ومواقفي وتصرفاتي، كما أراها وأريد الناس أن تراها، تتحول داخل هذه الذوات إلى صوَر فاعلة مستقلة عني، منها التي في صالحي ومنها التي أُفضّلُ جهلَها.
إذن أثّرَت قصة جدتي بكيفية جذرية في تكوين شخصية "با" لتطبَعني بها من خلاله إلى الأبد. لكن ماذا عن الأحداث التي صَنعَت قصتَها هي وتُفسِّرُها؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدّتي "كالي"؟ ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، مَن ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفَت به، صدقا أو تجنيا، أو عن قلة فهم وتفهّم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟ الأهمّ من هذا كلّه، هل كانت اللعينة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبّب في سلسلة من المصائب لِكمْ من نساءٍ وأطفالٍ أبرياءَ على امتداد أجيال؟
حتى لو عرفتُ تفاصيل قصة الجدة المعذَّبَة بِسرٍّ ما وبوجَع لم يفهمه أحد، لأحالتني قصتُها بالضرورة إلى قصة الذوات التي صَنعَت قصتَها، مما سيحيلني على الذوات التي صنعت القصص التي صنعت الذوات التي صنعت قصتها، مما يحيلني على... إلخ.
كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي، لا البيت يعلم ولا الأشباح. تُرى أيّ أشباح لي تسكن كم من ذوات لا علم لي بتأثيري فيها ولا علم لها بمن كنت حقا!
ماذا لو كان الأنا مجرّدُ أداة تنسيق بين قصص تتصارع داخلها؟ لكن إذا كانت ذاتي نسيجا من الذوات الأخرى فهي ضرورة موزّعة داخل كم من ذات تساهم في النسيج الذي يكوّنها.
آه هذا ملفي عند "با"، كم أسأتُ به الظن دوما! يا للدور الهائل الذي تلعبه قصتي في قصة تفاحة وتفيحه؟!كم من ذات أخرى أَوَت أو ستَأوي جزءا من ذاتي لا هي ولا الأنا يعلم بالتفاعل الصامت الغريب؟
قصتُنا إذن كقطعة نسيج نَسَجها مجهولون من مواقع جِدّ متباينة زمانا ومكانا، صَنعوها عبر ما لن نعرفه يوما من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عبثية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية... ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة.
وأيضا: نحن إذن ضحايا تصورات بيروقراطية للذات، نتخيّلها مثل بلد له حدود واضحة وعاصمة تحت حكم سلطان واحد هو الأنا المكلف بالقيادة والتنسيق والتمثيل الدبلوماسي لدى الكيانات الأخرى المبنية على نفس النموذج. كم من سذاجة وسطحية في هذا التصوّر! الذات أشبه بأمة الإغريق في العصور الكلاسيكية، واحدة، لكن موزّعة على قارة وجزر ومستعمرات مبعثرة على كم من ساحل بعيد.

الآن وقد أمسَكنا ببداية الخيط لا بدّ من مواصلة تتبعِه على أمل أن نفكّ كل كبّة الغزل وأن نمسك بالطرف الآخر من الخيط.

ومما أمكن اعتصاره من الخليط المبهم للروايات عن أجداد الجدّة التي رفضت أن تلد بعد " أين في الناس" ، أن مَلِك الماشينَ وراء أذناب البقر، أهل الماء والطين، أطمَعَهم يوما في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء، فيها سبايا بيض البشرة لهن عيون بِلون البحر بارعات في فنون الحبّ، أن هؤلاء الأجداد افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر، أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجرّون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير، أن جدّة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها بعثت لاستكشاف الطريق بطلا أسمرَ اسمه من اسم الهلال جَمَعَ الجرأةَ والدهاء، أنه رسم العلامات لتتدفق جحافل الفرسان، أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجدادُ يشقون الطريق بسيوفهم، أنهم كانوا يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فظاعة ما عاشوا وما فَعلوا لا يصدّقون أنّهم ما يزالون أحياء، أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقتلة، أن السيف عاد لغمده يومَ تَبيّن أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثَم فكل مكان هو المكان.
كيف لا يكون "با" الرجل الذي لا يستقرّ في أرض وقد وُلد من كل هذا التشرّد؟ كيف لا يتواصل حبّ الرحيل داخلي أنصب في فضاء الخيال خيمة سوداء على سطح أبعد كوكبٍ والكونُ برمته صحرائي رملُه نجومٌ وكثبانُه مجرّات؟
لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجدول الذي تشكلَت منه ذاتي.
ما تجود به ذاكرة اللغة أن أجداد الأجداد كانوا قوما سكنوا أرضا بعيدة شرقا تحاذي شواطئ خليجٍ يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيع في مجاهل لا يتخيّلها خيال. كم م قصص تتحدث عن إبل وخيام وصحراء مترامية الأطراف ورجال يبتهلون لآلهة اسمها ذو الخلصة وهبل واللات والعزى. كل الملفات ترنّ بقعقعة الشعر وترنّم السلاح. كل الصور لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده اللّيل، لرجال لهم وجوه كأنّها نحتت بالسكين، صورُ قومٍ إذا شجعوا تهوّروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثأروا كفروا وإذا حنّوا ذرفوا الدمع مدرارا، لا يضاهيهم بشر رقّة وتوحشّا.
ومن بين كل القصص التي عرفوا قصةَ شاعرة لا تشبهها شاعرة اسمها الخنساء.
الخنساء! لَم يُعطِ "أين في الناس" صدفة لابنةٍ له ماتت في سَنتها الأولى اسما سَقطَ منذ قرون من التداول، مثلما لم يعطني صدفةً اسم مَلك مات مَنفيا. مما يقال عن هذه الجدة الأسطورية الأخرى إنّها ظلّت تندب طول حياتها موت أخيها البطل، إنّها ظلّت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محوَ اسم صَخرٍ من ذاكرة القبيلة.
الشاعرة الأنثى الوحيدة التي قال عنها بشّار إنها غلبت الفحول.
يَقيني أنّ "با" قرأ الخنساء، أنّه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أنّ مناهج ومسالك فُتحَت داخل ذاته، أنّ أهدافا قاهِرة تحدّدت لها والشعرُ منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صُنع ذوات أطفال الصحراء.

"يا عَينِ ما لَكِ لا تَبكينَ تَسكابا	*إِذا رابَ دهرٌ وكانَ الدهرُ رَيّابا*
فابكي أخاكِ لأيتامٍ أرملةٍ	*وأبكي أخاكَ إذا جاورتِ أجنابا*
المجدُ حُلَّتُهُ وَالجودُ عِلَّتُهُ	*وَالصِدقُ حَوزَتُهُ إِن قِرنُهُ هابا*
خَطّابُ مَحفِلَةٍ فَرّاجُ مَظلَمَةٍ	*إِن هابَ مُعضِلَةً سَنّى لَها بابا*
حَمّالُ أَلوِيَةٍ قَطّاعُ أَودِيَةٍ	*شَهّادُ أَنجِيَةٍ لِلوِترِ طَلّابا*
سُمُّ العُداةِ وَفَكّاكُ العُناةِ إِذا	*لاقى الوَغى لَم يَكُن لِلمَوتِ هَيّابا".*

بداهة الشاعرة البدوية هي التي رسمت ل "با" نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سمّ العداة وفرّاج كلّ مظلمة.
فجأة والخيال يتوغل بعيدا في عمق الزمان ينقطع الخيط الرفيع وقد أصبحَت القصة تتكلم لغات غير مفهومة.
مما يرويه بعض الثقات ممن نسميهم العلماء أن أجداد أجداد الأجداد خرجوا منذ عشرات آلاف السنين من ربوع سواحل قارة اسمها أفريقيا، أنهم ولّوا وجوههم نحو الشمال بحثا عن صيد يأكلونه وهربا من صياد يأكلهم، أنهم مشوا قرونا وقرونا يتبعون الشواطئ متوغلين من حين لآخر في أعماق الأراضي البكر، حافزُ الروح الفضولُ، وحافزُ الجسم الخوف والجوع والعطش.
أي قصّة سأنتقي لي من بين كل التي تملأ الفضاء المثير لتكون منطلَق قصتي؟ لنختر تلك التي فقد فيها جدٌّ ما من سلسلة الأجداد رِجله اليسرى في معركة مع الفهد. وهذا جده قبل أن يأكله الأسد وهو في ريعان الشباب. أين في الناس جدّ مثل جدي ذلك الصياد الذي كانت تفرّ أمامه الأسود؟ انظر إلى هذا البطل الذي كان جدّه وهو رابض وراء أكمة، وترُ القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المغطّاة بالعشب حذو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحمك الذي سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة.
لهؤلاء الأجداد بالضرورة أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكّلت منه ذاتك وذاتي.

يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الآفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأوّل مرّة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة تَعِد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصّدها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

لا بدّ من مواصلة الحفر، فلهؤلاء الأجداد أجداد هم الجداول التي صبّت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبت في الجداول التي صبّت في الجدول الذي تشكلت منه ذاتي.

تتعطّل كل أدوات الفكر والخيال وقد استنفدا كل الوثائق واعتصرا كل ما فيها ولم يبق أمامهما إلا الإبهام داخل الغموض داخل طبقات متراكمة من ضباب التاريخ.

عن نقطة من هذا المسار وفي مفترق جديد من ذاكرة الخيال وخيال الذاكرة. تقترب أنثى وَجِلة بحذر من غدير تربض التماسيح على ضفته. إنها لوسي وربما سِلام جدة كل الأجداد... تلك التي تسميها القصص حوّاء... في وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربع ابتسامة على وجهٍ هادئ وقور، وملامح ابتسامة واسعة وضحكة مرحة دائمة، كأن صاحبتها سمعت لتوها نكتة أعجبتها. وكلُّ الأحاسيس والمشاعر التي سنتوارثها جيلا بعد جيل لا نتصرف إلا في طريقة الأداء أو في تفاصيل التفاصيل.

مواصلةُ الحفر والأداةُ عملٌ جماعي تتجنّد له كل الطاقات الذهنية لخيرة المستكشفين، تواصل جمع معطياتها من كل حقول المعرفة تنقّب في صخور الجبال وفي رمال أعماق المحيط وفي الهواء المحبوس في جليد العصور الماضية وفي رميم كم من حيوان خرافي، ذاكرة تجمع قطع "بوزل" ماضٍ سحيق تخلق منها -بما تكتشف من آثار وما تتخيّل-شكلا آخر لِما حدث لَمّا وجدنا وحتى قبل هذا الوجود.

يستقبلني مدير المتحف بكل أدب ملقيا نظرات الريبة على جحافل أعوان الأمن الذين شاء حظي العاثر أن يتبعوني معارِضا يخافون مني، وحاكِما يخافون عليّ. يا للفرصة الثمينة وأنا أستطيع على هامش اجتماع يوصَف بالهامّ وحتى بالقمّة، أن أزور هذا المكان لسماعي بما يحتوي من أشياء لها بالغُ الأهمية في نظر كل الباحثين مثلي في الشؤون الإنسانية. لا بدّ أن أستعيد أنفاسي المتقطعة قبل أن أستطيع التركيز على ما يقوله الدليل. اللعنة، نسيتُ أنه لا يجوز الركض في مدينة على هذا الارتفاع وأنا لم أعش أغلب عمري إلا في السهول بين الصحراء والبحر.

- سيّدي الرئيس، نحن جدّ فخورين بأننا نملك في هذا المتحف أقدم الآثار عن بداية الإنسان. كما نفخر بأن بلدنا هو اليوم بشهادة كل العلماء مهد الإنسانية.

ادعاء مشكوك في صحته وأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن مجرد محطة من بين كم مجهول من المحطات. لكنني لا أريد حرمان الرجل الوطني من فخر ساذج وكلنا على نفس عيوب الأطفال.

على طول الحائط خزائن حديدية كالتي تُخبّأ فيها السندات والأموال المسروقة. ما بداخلها بلا ثمن وهي تحتوي على رميم أوائل اوائل الأوائل: الكائنات التي انتصبت يوما على قدميها تطبع على الثرى أولى خطوات طريقٍ ستتتابع عليه أجيالُ العابرين على جسر الوجود.

كم غريب أن ترتيب الذاكرة ليس من فعل الماضي فقط وإنما من فعل المستقبل، وكلُّ اكتشاف جديد وكلُّ نقلة نوعية في خلق التصورات تقلبُ كل ما تراكم داخلها رأسا على عقب.

مهما توغّلنا في عمق الماضي، نحن لا نستطيع التوقف عند أي محطة لنقول هنا منبع السيل، فكل بداية لا تنبثق من فراغ. لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بدّ للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها ...وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية... إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفهومين. ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سراب من صنع اللغة.

لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة "نحن جميعا" أو في صورة الشجرة ذاكرة الأغصان والجذع.

**

وكيف أن التوغل عميقا في آخر طبقات الذاكرة مثل الغوص في بئر بلا قاع.

ليلتها تراجع الموت كالنسر، انقض على شحرور لم يلمسه إلا بجناح.
من الاتجاه المعاكس للطريق داهمتني فجأة دابّة الحديد بسرعة مرعبة. وبينما الأنا في حالة ذهول وشلل مسلِّما بنهاية الحياة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرتُ به يُملي على العضلات المتشنّجة أوامرَه فلا يخطئ الحساب ولا هي تتوانى عن طاعة، وقد تعرّفَت على سيّدها الحقيقي.
هي الآن تتدافع إلى عمل سريع، فعّال، منسّق، ناجع، منفذّة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.
تنصاع الآلة التي كنتُ أقودها، كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات. هكذا شعرت بها تثب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، تستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثمّ تتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.
في ظلمة اللّيل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت الآلة التي كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيَه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر، ليتجدّد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والعجب.
كم من تجارب مع هذا الذي يعرف داخلي كل ما أجهله!
فجأة يميد العالم بي وقد أصبح بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت. كأنّ الجسم أسلم قيادته إلى عاصفة هوجاء تكوّنَت داخلي ترفعني مرّة إلى عنان السماء وترميني أخرى في أعمق هاوية. عُدتُ الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرّب لذّة دوارٍ حَضرَ هذه المرة ولا لذةَ تصحبه. إن كان لا بدّ من الموت فليكن وقوفا. هيهات، لا مجال للانتصاب والعاصفةُ الهوجاء داخلي ترميني كل مرة على الفراش: تأتيني أوامر "الشيء" بالكفّ عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ به يعيد ترتيب البيت دون أن أفهم كيف يتصرّف. لستُ من الآن فصاعدا غير مجرّد مُشاهد يتابع قِوًى تتصارع داخله منتظرا حسمها.
شيئا فشيئا ودون تدخل أي طبّ أتى اليومُ الذي استطعتُ أن أقف فيه مجددا على قدمَي، أن أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنّحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على الطريق. كل هذا لأن شيئا داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحًا ما أفسده عطب غبي، وأنه هو صاحب القرار في موتك أو في مُهلةٍ إضافية من الحياة.
وفي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلّال من سائل أحمر لزج ساخن كريه الرّائحة يُخرج الأمّ من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في غياب سيّده. وممّا بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلّم معه باحترام شديد، أنها كانت تأتمر بكل ما يقول، أنّ الغريب عبس وقطّب الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال، أنّها اعتذرت بفقرها، أنّني كرهتُ الرّجل لما أحدثه في "ما" من حَرج وأنّني أحببت تلك اللّحظة أن أكون مَن يعرف كيف يوقف تدفّق الشيء الأحمر لأكون رجلا يدخل البيوت ليلا، يعامَل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.
كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفّق من أخي إلّا بعد تدخّل الغريب، والحال أنّه خرج منّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة إلى أحد؟
يومَ بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد دَرسَه عن السائل الأحمر وكيف يتدفّق ولماذا لا يتخثّر في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من الويلات، أصختُ السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حواليّ انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.
لم أحمل يوما على مَحمل الجدّ مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا" لا لشيء إلا لإدراكي الغريزي أن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بكثير من الأشياء.
يا لهذا الكم الهائل من المعلومات التي يختزنها أكبر جاهل فينا !
هو يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده ضد ما يزخر به العالم من فيروسات وجراثيم وطفيليات، كيف بنمو تدريجيا، كيف يشغّل بكل سهولة أعضاءه كما لو كان أعظم المهندسين، كيف يتمكن من إيقاف نزيف من أنفه بكل فعالية، كيف يتدارك التهابا في الأذن الداخلية دون حاجة إلى طبيب، أو كيف ينجح في استعادة توازنه كل لحظة وهو يضع الخطوة تلو الخطوة، فيمشي مستقيما لا مترنحا كالسكران.
ألا يختزن كل واحد منا داخله تجربة الحياة التي أخذت ملايين السنين لكي تنضج!
ما أغربها وضعية والمرءُ كالجالس على كنوز قارون، يَقضِي عمره في البحث عن المفتاح والذي في جيبه لا يفتح شيئا!
لهذا عليك أن تُذكّر كل متحذلق ينشد "يا من تدّعي في العلم معرفة إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي نختزنها كلُّنا.

حتى معرفتنا الواعية على قلتها بالغة الأهمية.
ما أنا متأكد منه أن في العالم الذي أفقنا فيه ثوابتَ ومتحركاتٍ، أنه محكوم بقوانين أزلية كتواجد الأضداد، أنّ من خصائصه التعقيد، التغيّر، الخلق المتواصل، المفاجأة تلو المفاجأة تلو المفاجأة، أنه دوما أغربُ مِن أغرب تصوراتنا له، أننا نعي أننا نخطئ ونصيب. أليست هذه معارف لا تُقدّر بثمن وينتهي إليها كل واحد منا مهما كان نصيبه من المعرفة، لأننا جميعا دَرَسنا وتَخرّجنا من نفس أرقى جامعة: الحياة.
متأكد أيضا أن كلّ رؤيا للعالم نتاجُ مجموعة بشرية محددة في الزمان والمكان، أن كل رؤيا تعكس جهلها ومعرفتها مثلما تعكس مخاوفها وآمالها، أنها تبدو إلى أصحابها نهايةَ طريق البحث وهي مجرّد منعطف فيه، أنها مبوّبةٌ في أحسن الأحوال لتغييرات جذرية
وفي أسوئها لدخول متحف الفكر يوما.
الأهمّ من هذا كله معرفتي بأن لي علما أوسع من كل ما أتصوّر، حتى ولو كان أغلبَ الوقت محرّما على الوعي.
بديهي أن الذات لم تعرف طريقها إلى الوجود ولم تحافظ عليه إلا لأنها تعلّمت كيف توقف النزيف وتصنع العين وتشغّل الذهن... إلا لأنها تعلّمت كيف تبقى وكيف تفنى.
يعني كل هذا أن لها ذاكرةً توجد فيها كل الوصفات وكل التعليمات لتدبير حالتَي العيش والموت.

"قد كان يدور دوما في خَلَدي (عمر الخيام)
أن أخرق درع الفلك الدوار
كي أعرف معنى قلم يسطر ما
باللوح وسر جنة ونار
حتى هتف العقل بأن قد جمعت
في نفسك كل هذه الأسرار"

السؤال، مَن أو ما هذا الذي يَعلم داخلك ويمنع علمه من الوصول إلى فكرك الواعي؟
يا ما حلمت أنه فتح لي خزائنه، أنني وجدت طريقة ما لأقنعه أو لأجبره على صبّ ما تعلّمه في وعيي فيعود الارتباط بين العمق والسطح. كم مرة نفد صبري لا أتحمل أن أكون الحمارَ يحمل أسفارا، إلى الصراخ العقيم ولمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتك تعرف كل أسرار هذا الجسم اللعين وأنا أحصِلُ على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتك تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدّل. لو كنتَ ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فأُصبحَ أنا العبقري لا أنت لوحدك.
قد يكون للمجهول الذي يسكنني أسبابُه الوجيهة في إسدال ستارٍ كثيف بين مستويات الذاكرة. أيّ جدوى لذاكرة مطلقة قد تغمر وَعيَنا السطحي كما تغمر موجة التسونامي سبّاحا غير ماهر. مَن بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها على ظهره كل لحظة من السفر بحجة إمكانية احتياجه إلى هذه المعلومة أو تلك. جهلُنا الذي نشتكي منه خيارُ العلم الذي فينا... لحمايتنا؟!

إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجابا (إيليا أبو ماضي)
نزل السِّتر عليها وأنا كُنت الحِجابا

مواصلة لاستعمال صورة الشجرة لنسمّ هذا المستوى من الذات ذاكرة الجذور التي تنطلق منها العصارة المغذية للجذع، للأغصان ولكل الاوراق...أو ذاكرة " الشيء" هذا المفهوم الغريب الذي سنحتاجه لاحقا ليشكل دعامة بيتنا الروحي وأهمّ لبنة فيه.
الذات إذن طبقات متراكمة من ذاكرة ترمي بجذورها في مجاهلَ محرّمة على الوعي تسمّيها الرؤيا العَتَمة، لا ندرك منها إلا ما ندرك من محيط نُبحِر على موجه والأعماقُ التي نطفو فوقها مستعصية على أخصب خيال.
عندما ينقشع التبلّد تحررت الذات فجأة من سجن الذات ثمة فينا من يصرخ في قمة الجذل:

"لَمّا رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)
الذي أسميه الأنا
أصبحت كل العالم الشاسع"

**

الكتاب السادس
الملحمة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في الفوضى
ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدّمة الكتاب السادس

في 1-1-2000 بالتقويم السائد

اليوم 20075 من الرحلة

حقّا إني لمسافر جدّ محظوظ وقد سَحبَت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة ولم أُبتَل كالملايين قبلي بالرحيل في أزمنة بليدة ركيكة ليس فيها ما يستحق الذكر.

هذه الليلة ستَشهد أضخمَ حفلة نظّمَتها الآدمية في تاريخها الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس والمبرِّرُ الاحتفاء بليلة ترمز في رزنامة بعض المرتحلين لدخول ألفية جديدة من زمن لا فواصل فيه إلا وكانت من نسج الخيال.

تأتيني أخبار الحفل العظيم من جهاز تلفزيون صغير كأنه سعيد بما ينقل فقط وبعودته إلى الحياة وهو المغلق أغلب الوقت.

يفتتح مراسيم الاستقبال مَلِك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" توجد في أقصى شرق الفضاء الحسي.

يا له من شرف أثيل أن يكون المرء أول الآدميين لاستقبال الضيف الكبير. تَرنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيفُ تسلّله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئا فشيئا. تتصاعد الهتافات من مكان يُدعى موسكو. يواصل الشبح زحفه ليغمر مدينة اسمها روما. يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الآدميين عجوز مَهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجرّبة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

فجأة تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مَرحة أحالت أنوارُها الليلَ نهارا. يتدافع بَشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يُرزقون.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار والصخب.

يتعالى صراخ ملايين الحناجر تعجّبا وإعجابا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

أي صورة للعالم أبلَغ من هذه؟ على سبورة الوجود تَفجّر ما لا يُحصى من نقط النور ترسم ألواحا مُبهرة. كل نقطة مَلحمة كائن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر إشراقا، تَفجُّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها. أي أهمية للأمر، يكفيني شرفا أنني دُعيت يوما لأكون جزءا من العرض.

كأنّ القوم قرّروا الافراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفيّ لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار، ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنواتٍ آخِرَ حربٍ عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟

هل كل هذا الإفراط على أمل إسقاط القرن الجديد كما كانت تَسقط الطائرات والصواريخ فيما سبق من الزمان؟ هل سأرى فجأة انطفاء الأنوار في كل مكان وإغلاق المسرح المفلس إلى الأبد؟ بداهة فشلت المؤامرة لبعض الفوضويين المصممين على الانتحار ونَحرِنا جميعا.

هكذا استطاعت الألفية الغازية مواصلة طريقها وعبور المحيط لتستقبلَها في ساحة اسمها تايمز سكوار نفسُ الحشود الآدمية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمان الجديد ببَسط ظلاله على كامل الكوكب وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسّي.

تَصمُت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمَته منذ الأزل فرشاة الفنّان الأعظم.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا ثم أجلس شاخصا إلى السماء.

أناجي القرن الجديد أتملقه علّه يكون أرحم بي وبنا جميعا من الذي ولّى غير مأسوف عليه.

أكيدٌ أنك قرنُ ابن حلال لا كالذي نغادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخٍ آخِرُ ما نَقَصَه سفكُ الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيتَ وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية لبني حرية وآل ثبات.

لم السخرية والشكّ؟ لماذا أحمّلك أكثر مما تتحمل؟ هل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

المشكلة أن تفاؤل القوم نوعٌ من التدجيل على الذات، وأكثرُ التاريخ تكرارٌ مملّ. هل سيفيقون من الغد بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الدائنين وقد انتهت نوبة السكر؟

يا للمساكين! ما الذي يخبّئه لهم المستقبل؟

كيف لا يداهمني السؤال بقوة، خاصة هذه الليلة ومستقبلي مضمّن في مستقبلهم وقصتي لا تُفهم خارج قصتهم.

قصّتهم؟! طبعا قصة الآدمية التي تشكل قصتي وقصة كل آدمي على مر العصور قطرة من سيلها المتدفق منذ بداية التاريخ.

**

بخصوص السؤال الذي يقضّ مضجع الآدمية منذ انطلاق رحلتها

يصل بي الطريق يوما إلى أرض سيتا حاجّا لقبر رجُل اسمه غاندي علّم البشرَ أن العنف ليس القوة بل الضعف في حالة هستيريا... وقَتله آدمي مُصاب بتلك الهستيريا.

أتوجّه بمنتهى الأدب لأحد المتدافعين بالأكتاف:

- سيّدي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهرة؟ أنا مجرّد زائر غريب مررتُ بالصدفة من هنا. لا أريد أن أجد نفسي محشورا في اضطرابات طائفية.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يومٍ عاديٍ، ماذا لو جئت في الأعياد؟

تعود فجأة إلى الذاكرة أمام المشهد المثير دهشة طفلة في الرابعة.

داخل إحدى الملفات ونحن نتمشّى في شارع تجاري مكتظ تصرخ تفيحه متعجبة امام كثافة تدفق البشر: "با"، ماذا يفعل كل الناس هنا؟

وقبلها سأل نفس السؤال الطفل الذي سيصبح والدها امّا تردّدت قبل أن تتخلّص بإجابة ما.

نعم، ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟ سيّد الأسئلة والبنت ألقته يومها كما ألقاه أبوها قبلها بنبرة: متى نذهب إلى السيرك؟

ها قد بلغت من العمر عتيّا ولا إجابة مقنعة في الأفق..لماذا عاد هذا السؤال الى الوعي بمثل هذا الالحاح؟ ... هل لأنني بدأت استشعر قرب نهاية الرحلة والبتّ الضروري في سببها ومعناها لم يقع إلى اليوم؟ ...هل رميت السؤال في أعماق اللاوعي وسخرت منه كل هذه السنين كلما عاد للسطح حتى لا اواجه فكرة مزعجة أنه لم يكن للرحلة أي غاية وفكرة رهيبة أنه إن كان لها هدف فإنني مررت بجانبه مرور الكرام؟

تُرى ما السبب لتدافعهم في هذا المكان وكم من مكان آخر يملئون عالما لم يعد يجد لهم موطأ قدم على اتساعه الهائل؟

أخبار مضلّلة عن هذا العالم؟ ماذا لو جاءوه مجبرين لا مخيرين! من أين أتوا وأين سيذهبون بعد مكوث يطول أو يقصر في ما سماه بعضهم وادي الدموع؟

تتخذ الهواجس وجهة جديدة تزيد من التنغيص على معنويات ليست دائما على ما يرام.

كأنيّ أسمع موظّفي مركز الشحن السماوي يصرخون في بعضهم البعض:

- كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيَهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمّني هذا الغبي آد3100 -2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو نواة كل هذه القصة.

إذن السيناريو كالتالي:

- تُرى كم من رشاوٍ وتدخّلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي آد3100-2154879365 تأخّر وسيفوته مَوعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

سواءً أتوه طَوعا أو كرها، الثابت أن عدد الداخلين هذا العالم بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الآدميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشبعانين بإرهابهم وبمظاهراتهم وثوراتهم التي لا تتوقف.

لهذا نشرتُ منذ مدة على موقعي في فضاء الصِّفرِ والواحد، إنذارا صادقا وإنْ بتوقيع مزيّف.

"نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار وذلك إلى أجَل غير مسمّى".

وجودي الآن وسط هذه الهريسة الآدمية هو الدليل الساطع على عدم نجاعة هذا الأسلوب.

لم يبق إلا نصحُ من أستطيع نصحَهم عَلّي أنقذ فردا على الأقل، وقد استعصى عليّ إنقاذ هذا الجنس المسكين برمّته.

أسلّط النظر على امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدّد بمولود جديد عالَما شبع من المواليد الجدد، ناهيك عن الكثرة المقرفة فيه للمواليد القدامى.

أتوجه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد:

لم تقرأ الرحلة؟ لم أبالغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدّقني، مِن الأحسن أن تبقى في دنيا الغَيب إلى أن تحين

فرصة أخرى. ربّما ستنجح العتمة في تخيّل عالم أقلّ خطرا وفظاعة، أمّا هذا! ثم هل فكّرت في ضرورة وقف هذا الزحف المهول، لمجرّد ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلا ما في قولي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثمّ أشعر بالجاهل يهزّ كتفيه.

يجب ألا أُحبَط وأن أواصل تحمّل مسؤولياتي والقيامَ بواجبي الإنساني.

يا مجنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن. ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريبة كأنها أحسّت أنني أريد بِذُرّيتها شرّا.

قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أذنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها أن تطلب بوليس النجدة. يا غبي، لا أريد بك إلا خيرا. وأنت لا تريد بي إلا شرّا! آه منكم يا أولاد حواء.

يجب أن ألوذ بالفرار ف قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، في هذا العمر ويعاكس النساء الحوامل، النجدة!

صدق من قال: مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمّهاتهن.

أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حالَ ظهور بوادر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلّم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخورة بما اقترف المبيض والرحم.

هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

لم يبق لي إلا الإسراع في البحث عن مَنفذ أهرَب عبره من سَيل بشري لم أرَ له مثيلا من قبل. تتابع الأفكار وكأنها هي الأخرى اكتسبت من هذا الزخم حيوية متجددة.

فرضيتان بخصوص كثرتهم وتعدديتهم أرفض الخيار بينهما وقد داهمتني موجة من الجبن والهلع.

الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.

كما لا مفرّ من غربلة أطنان من التراب للحصول على شيء جد قليل من التبر، لا بدّ من مئات ملايين النجوم لولادة ملايين الكواكب التي تدور في فلكها حتى توجد حفنة منها تفي بشروط ظهور الحياة أو لا بدّ من القبول بتبذير مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة.

لا منا ص إذن من وجود عشرات الملايين من البشر الذين لا يُضيفون شيئا للحياة أو للحضارة، ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ أو شاعر اسمه إيسا أو آدمي أصبح إنسانا اسمه ابن عربي.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدا في أي خانة يصنفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالحي وصالح كل قرائي والبشر أجمعين هي التي تقول إن المهمة التي كُلّف بها الآدمي من قِبل قوة مجهولة (أو كَلّف بها نفسَه مفتعلا أن هناك قوة مستقلّة عنه كلّفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهّد بها آدمي واحد ولا حتى أعداد صغيرة. لذلك كان من الضروري نسخه أكبر عدد ممكن من المرات وتجديد الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون للتقاعد عندما تخور قواهم لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق اللعين.

طيب، لكن ما هذه المهمة العظمى التي تحتاج لمثل هذا التجنيد، لمثل هذا الجهد جيلا بعد جيل، لمثل هذا الثمن الباهظ من امتحانات ومحن تستهلك منا جل زمن الرحلة؟

ترتفع الأيادي ويتعالى الصراخ من هنا وهناك: نقطة نظام، نقطة نظام...هذه مواضيع حسمت فيها كتبنا المقدسة فعد اليها...لا، لا...القول الفصل لكتبنا نحن، أما هؤلاء فجهلة أو كفار ...الخ

كم من السهل ادعاء كشف سرّ الاسرار بالنزر القليل من المعطيات وبقدر كبير من الغرور والجهل!

أوف، خرجت من الزحمة المرعبة، لم يبق حولي إلا بعض المئات من المتدافعين الراكضين المهرولين لغاياتهم المبهمة.

يتوقف أحدهم لغريب تائه يسأله عن أقصر طريق لغايته.

أغتنم الفرصة والرجل المبتسم يبدو على غير عجلة من أمره.

- عفوا، يا سيّدي هل تسمح لي بسؤال آخر. نحيّي في بلادنا ملوّحين بالأيدي ليتبيّن أنها خالية من السلاح. نصافح الآخر نتحسس راحته للتأكد أنه لا يحمل خنجرا صغيرا ثم نُقرِئه السلام. إلامَ ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه وما معنى "نماستي"؟

- معناها نحيّي المقدّس الذي فيك.

يضمّ الرجُل راحتيه اتسعت ابتسامته. يختفي داخل الزحمة.

المقدّس الذي فيّ!

أنا؟! أيسخر مني هذا الآدمي؟ اللهم إلّا إذا كان...

**

كيف أن الآدمية بحاجة لقصة حاوية لكل القصص تردّ على سيد الأسئلة وأن لها أكثر من رواية

تأتيني ليلةً فكرةٌ لقصة ما قبل نوم البنتين لم تخطر على بال قَصّاص.
أليس الآدمي مصنوعا من الكلمات والأفكار مثلما هو مصنوع من الدم واللحم؟
أتوجه لتفاحة تفرك عينيها ولتفيحه تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.
- أنا الذي سأقود القصة. جاءت الساحرَ الخبيثَ فكرةُ مَسخ الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهرَ في وجهها كلمة نار.
تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر!
- أشهر الساحر كلمة مقصّ.
- لنهرب جميعا، نركب كلمة زورق.
تصرخ تفيحه: فتأخذنا كلمة نهر.
تأتي الأوامر من المطبخ بوَقف الضجيج. لا أحد يحملها على محمل الجدّ. لا حتى صاحبتها. تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يقلّد الرقص. تحتدُّ لهجة أوامر نافدة الصبر فأنصح البنتين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخُ المتزايدُ عصبيةً من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوَشةً وقَرصًا وتجاذبا بالأيدي.
تهمس تفاحة وعلامات التآمر على وجهها: "با" أين سنصل بزورقنا؟
سؤال وجيه. أين يحملنا الطريق وهو في هذا البُعد من أبعاد العالم مرسومٌ بالكلمات مصنوع منها؟
طبعا إلى "فضاء" جبالُه نصوصٌ، غاباته نصوص، أنهاره نصوص، مستنقعاته نصوص، وجلّ المادة ما يقوله الآدميون عن الآدميين، تعلق الأمر بآلامهم، بآمالهم أو بخلافاتهم التي لا تنتهي حول كل شيء والباقي.
يتصاعد التنفس البطيء من البنتين. أغوص في الأريكة واضعا رجلَيّ على فراش البنتين، مستمعا بتنفّسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهمّ الأفكار لا تأتيني إلا وأنا على تخوم النوم واليقظة. أخيرا المكتبة العظمى. أيضا ساحة معركة كالتي توجد في البعد الحسّي لعالم لا يتخيّله خيال خالٍ من الصراع.
"هنا" يتناطح "صحيح البخاري" مع "الإعلان الشيوعي" وكأنهما ديكان غَيوران على حريم من الدجاج. ما إن تكتشف كتب الفلسفة المثالية بدايةَ تحرّك كتب الفلسفة المادية، حتى تقرّر الدفاع عن مواقعها ووَقف زحف العدوّ ثم الالتفاف حول جناحه الأيمن والإجهاز عليه قبل التفرّغ لتصفية الجيوب الباقية. تأخذ كتب المادية بخناق كتب المثالية وترتمي كتب المثالية على كتب الجدلية وتنشِب كتب الجدلية صفحاتها المدرّعة بكتب الأساطير التي تبعث بجُملها المسمومة في كل اتجاه، تقصد بالأساس مقولات الداروينية البيولوجية والداروينية الاجتماعية والداروينية الميتافيزيقية، فتُصيب خطأً الهيكلية الأدبية، والحال أنه لا ذنب للهيكلية الأدبية في صراع العقائد حيث هي جنس مسالم من النقد الأدبي. تفتعل كتب الميكانيكية النيوتونية الحوار الهادئ البنّاء مع كتب الميكانيكية النسبية، ثم تفقد أعصابها أمام صلَف العدوّ ووقاحته لترتطم الصفحات بالصفحات. تصرخ الكتب الصغيرة وهي تترنح تحت لكمات المجلدات. تَهبّ إلى نجدتها المجلدات التي هي على نفس الموقف... إلى ما لا نهاية، ولا رأي يبرزُ إلا ووَجد مَن يخالفه ويسفّهه ويهاجمه.
كأنني أسمع الصراخ المتصاعد من الوقار المتكلّف: يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلّف، يا ملحد، يا عدوّ الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أؤمن بما هو أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا نؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غلّفها بدائيون بأساطير ساذجة واستحوَذ عليها كهنة خبثاء وملوك قُساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يَسلم إلا إذا أُريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... مَن الغبي الذي قال اعرف نفسك؟ يا للهول لو عرفنا حقيقتنا، أيّ جحيم كنا نجرّب لو عرفنا ما يوجد حقا في أعماق الذوات الأخرى؟ ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُوِّل... أعيدوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيّدا وفهمنا كيف نُحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... آه يا أوباش، حقا لا نبيّ في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن - خلافا للأغراب-نَعلم عنك كل شيء.
في هذا "الفضاء" صَيحاتُ آلامهم نثرا وشعرا.
"هنا" زبدة علومهم الصحيحة والمغلوطة سحرا وتنجيما وشعوذة... معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمّة الإبداع الفني عند البشر.
"هنا" قوانينهم التي تعكس لهم صورةَ محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين مرتشين.

"هنا" تواريخهم، قُل أساطيرهم التي يموّهون بها على أنفسهم وعلى الآخرين.
"هنا" مخططاتهم للسّيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.
"هنا" تواريخهم، أي روايةُ المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفضوح والتضخيم والتقزيم والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفبركون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح مموّليهم، وآخرون يفكّكون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح مموّلين آخرين.
"هنا"رواق صور عظمائهم التي صَقلتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور. كُنْ على أتمّ الثقة أنها مصطنعة سَهرَ على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعّشون من صيتهم.
"هنا" ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكدس كل الآدميين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم. كن على أتم الثقة أن أغلب المرميين فيها ضحايا صوَر نمطية معاكسةٍ روّجَها الأعداء ومَن يتمعشون من تواصل العداء.
ماذا عن طبيعة المعنيين بالأمر وراء ما أُلبسوا من أقنعة الجمال والقبح؟ إنه الغموض التام وقد ضاعت حقيقتهم من فرط المبالغة في التقديس أو في التدنيس. وحيث أنه لا يوجد آدمي يَختزن الخير المطلق وآخر يختزن الشر المطلق، وأن كل آدمي مزيجٌ دائم ومتحرك من الخير والشرّ، فإن بوُسعك أن تُراهن على أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقدّيسات لقلّ إعجابنا بهنّ ولو عرفنا القصة الحقيقة للمومسات لما كان حُكمنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة الإهانة.
فجأة يتعالى الصراخ من كل حدب وصوب. إنه صراخ باعة المنتوج الجديد الذي لا يكفّ عن التدفّق والكُلُّ يحاول استغلال جهل المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: مِن هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ لدِين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين مَن لا يشتري بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجدّية على الأسئلة اللعينة... لا غشّ عندنا في الأمر مثلما يفعل الآخرون! يقترب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتردّد، عندنا برنامج للرحلة وكيف تؤديها على أحسن وجه وبأرخص الأثمان. تعال، من هنا الصراط المستقيم. لم لا أتبعه؟ قد أعثُر أخيرا على ما بحثتُ عنه منذ إفاقتي.
إنه الركن من "السوق" المختصّص لبيع رواياتهم المتناقضة المتناحرة لما يجب أن نفعل لكي نجعل من الآدمي إنسانا.
"هنا" سرادق الآلهة المتجهمة وكهنتها الذين يعاملوننا كالأطفال، يصرخون فينا دَوما: افعلوا الخير وستكافَؤون بكثير من الشوكولاتة، وإن عصيتمونا سلَخنا جلودكم دُنيًا وآخرة. لا، شكرا لستُ معنِيا بمثل هذه السلعة.
"هنا" سرادق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجُل الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلّمنا أثمن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة، الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة عن أنيابها أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.
"هنا" سرادق ديمقريط وبروتاغوراس وابيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيّــرا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبورا ونافعا! لماذا يصرّون كلهم على أن أضيّع وقتا ثمينا في مهمة بعبثية استئصال جزء من ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جئتُ لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي، وكأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي؟
"هنا" الواجهة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور ونجحوا في فرض بضاعتهم. أجيل البصر أقرأ لافتاتهم الضخمة: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاقوريون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير.
كم صدق الحكيم:

نهاية إقدام العقول عقال — وأكثر سعي العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)
وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

هل سيجد الحالم ضالّته في الأزقة الخلفية؟ مؤكَّد أنها تعجّ بمزوّري النصوص وبمهرّبيها، أنني سأجد فيها أشدّ مَن تتشوّق لهم نفسي. قد أسقُط بالصدفة على طورانطيوس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولةٌ جُلّها لأن الرجُل كان يتبجح بأن أروع ما رسم كان بِهُدًى وتَوفيقٍ من الشيطان.
آه لو أمكنني ملاقاة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم -ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة- أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسبّه وأُخبِره أنني سأختم به نصّي أذِن أو لم يأذن.
هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلّف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا إذا كان امرأة-تدبّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إماطة اللثام عن هويته(ها).

كتّاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجذام.
قد ألاقي صاحب مخطوطة "فوينيتش". كم من ليالٍ لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستميتون ستة قرون لفكّ رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.
آه هذا أنت! أيّ وقاحة هذه؟ كل الذين يكتبون يفعلون ذلك لتُخلَّد أسماؤُهم وليتناقل الناس كلامهم ويعملوا به وأنت! لا، لن أُزيل القناع عن وجهك ولن أطلب منك ترجمة. هكذا يكون الكاتب وهكذا يكون أحسن ما يفعل.
ربما أكبر مقاول في السوق -بساحاتها الكبرى وأزقتها الملتوية-ذلك الذي كتب أعظم نص، ولما أعاد قراءته ضحك ثم بكى ثم مزّق الورق ورمى بالقلم بعيدا عنه وتوَقف عن التنفس إلى أن جاءه الموت. نصوص لم تر النور أو لم تُكتَب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائقَ يجب أن تبقى مخفية! هل من الممكن أنّ كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثرثرة مجرّد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الآدميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعبهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟
تصرخ البنتان بالاحتجاج:
- "با"، لا تتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا.
ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه!
إنّها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحمّلة ببضائعك التي لم يسمع بها شارٍ أو سمسارٌ، يحدوك -مع هذا-أمل كل المبتدئين أن تتحسّن الأحوال يوما فتفتح لك دكّانا صغيرا ثمّ أوّل مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضا من كبار مقاولي الفضاء. نعم، لأزاحم أنا أيضا لعرض أححححسن الأجوبة عن أسئلة لا يهمّ أن تكون فاسدة الصياغة أصلا. ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصيح مغنّيا أو أغنّي صائحا: "الرحلة"، "الرحلة"، آخر وأجمل الرؤى عن العالم وفيها تقنيات عبوره والخروج منه سالما ومظفّرا. كل من يشتري "الرحلة" نعطيه مجّانا "المدخل إلى الطبّ" شرط ألّا يستعمله للفّ السمك أو لإسناد طاولة المطبخ العرجاء.
تنخرط البنتان بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عِوض أن تصرخا: مَن لم يقرأ رحلة "با" مات غبيا، ها هي تفاحة تغنّي: تعالوا، اسمعوا قصّة بينوكيو ترويها لكم أحسن راوية، وأختها تصرخ بصوت أعلى: بل تعالوا لسماع قصّة سندريلا والأمير الجميل ترويها لكم تفيحه المشهورة.
طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الآدميين الملاعين يحرّك عضلة إلّا لحسابه الخاصّ. أمّا ما يدّعونه من أثرة وعمل لوجه "با" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايضة تجارية يخرجون منها إذا لم تغطّ المكاسبُ ثمنَ تحريك العضلة آنفة الذكر.
كل هذا الضجيج ولا مشترٍ أغشّه. إن بارَت البضاعة فما عليّ إلا تركها للفئران.

كيف تجوز السخرية من هذا الفضاء؟ حقا هو مستودع نفايات خيال الآدميين وافكارهم بما فيها من هذيان مضحك، لكنه أيضا مستودع القوى الجبارة التي تمكّنهم من حفظ وجودهم وتواصله في أصعب الظروف... فيه تتراكم وتُخزّن وتُعالج وتُنقل الأفكار والقيم والتقنيات من جيل إلى جيل، الشيء الذي يمكّن الآدمية من رفع طاقة التأقلم السريع في مواجهة عالم لا يثبت لا مزاجه ولا مناخه على حال، الأمر الذي لا تقدر عليه أي من الكائنات التي تقاسمنا الفضاء الحسي.

إن ثمة ملجأً من كل هذا الضجيج ففي عين الإعصار: المنطقة التي تنطلق منها الحركة الهوجاء الخلاقة المدمّرة... النافورة التي لا تنضب أبدا بالمشاكل المطروحة للبتّ فيها جيلا بعد جيل.
سيّد هذا الفضاء أهمّ من كل الحروف. إنه رمز له شكل مُنجلٍ ووظيفته الأولى رميُنا بالتحدي وراء التحدي لكي نبقى دَوما منتبهين نبني عالما متواصل الخَلق.
السؤال هو الساهر على سلامتنا الذهنية والأداة التي تمكّن فضاء ا من البقاء حيا متجددا. إنه من يذكّر أن المعرفة مثل جزيرة وسط محيط من الجهل، وكما قال أحدهم: بقدر ما تكبر الجزيرة بقدر ما يتوسع المحيط.
إنه لشيء مُطَمئن أن الآدميين كائناتٌ متسائلة لا تتوقف أبدا عن طرح السؤال وراء السؤال. قد يكون الأمر مُكلفا وهو دوما مصحوب بقلق دفين، لكنه يبقى أقوى دليل على وجود طاقة خلّاقة لا تنضب.
كم من ملفات تتراكم جيلا بعد جيل في مكتبة المكتبات وكلها محاولات لا تتوقف للرد على ما سماه أحدهم الأسئلة اللعينة.
كم تعاقب من بني آدم على هذا العالم؟ لماذا أتَوه بهذه الكثافة؟ لماذا يرفضون مغادرته على أهواله؟ هل وُجدوا قبل الوجود؟ وهل سيوجدون بعده على شكل آخر؟ هل هم حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها "الطبيعة"؟ أم كائنات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصهم؟ هل رمت بهم الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل هم تائهون في محيط اسمه "الكون" ينتظرون بعثة

إنقاذ لم تسمع بغرقهم ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأوا إليها؟ هل هم مستكشفون بَعثَتهم العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقدّم في ربوعه ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفر منه إلّا بصدى صوتنا؟

يا الهي كل هذا الكمّ هائل من الأساطير ...من الديانات.... من الفلسفات... والنتيجة دوما أنك أمام آراء لا أكثر!

تَجري على رِسْلِها الدُنيا ويتبَعُها (الجواهري)

رأيٌ بتعليلِ مَجراها ومُعتقَد

أعيا الفلاسفةَ الأحرارَ جهلُهمُ

ماذا يخبّي لهمْ في دَفّتيهِ غد

طالَ التَمحُلُ واعتاصتْ حُلولُهم

ولا تزالُ على ما كانتِ العُقَد

قف. كفى من هذه العقد اللعينة. لماذا لا أكون أنا من يصيغ الأسرار بدل تضييع العمر في البحث لها عن أجوبة " صحيحة". لماذا لا أستأنس بنصائح بعض الكبار الذين خلقوا قبلي عوالم من محض خيالهم لا زالت تنبض بالحياة...لم لا فالميكي الشاعر الذي جعل أمة كاملة تسكن مسرحيات هو كاتب ومخرج جل أدوارها!

كيف سيعيرني اهتمامه رجل انسحب من العالم الحسي لما أكمل خلقه للأسطورة العظمى غير مبال بفيالق النمل تتسلّق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين المفتوحتين ومن المنخرين؟

أخيرا ينتبه فالميكي لوجودي. يبادرني بانزعاج:

- ماذا تريد؟

أوّاه يا سيتا، بربّ عشق طفل تهجّى في حبك أجمل روايات القصّة المقدّسة، تدخّلي!

أهمس بالطلب بين رجاء واستحياء فيلمع الاستنكار في نظرة باردة لا تنذر بخير.

- كيف؟ ما هذه الوقاحة!

وقاحة! صحيح أنها لا تكاد تُذكر بجانب وقاحة الآخر: فياسا شاعر المهابهاراتا ملحمة المائة ألف بيت الذي لم يتورع عن تهشيم ناب "قانيش"، الاله-الفيل ليستعمله قلما يكتب به رؤياه.

يتفطن فالميكي لنفاد صبري. ربما انتبه لكوني أعرف أكثر مما أريد البوح به وكلّ ما في الأمر أنني أتلطف معه وأتأدّب. مثلا: أنني أعرف ماضيه المشبوه وأنه كان في حياة ماضية قاطع طريق وبوسعي الوشاية به للسلطات وحتى اتهامه بتمويل الإرهاب الدولي. كأني به يحاول ربح الوقت، لا يعرف هل أنا جادّ أم ساخر.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

- من أمّي. هي الوحيدة التي وثَقت بي دوما وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكي بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم يبتسم.

- لم اخترتني من دون بقية الصنّاع؟

- أنت الوحيد الذي لا يُخفي سرا مفضوحا يتشارك الكل في ادعاء الجهل به.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- قل، أقنعني.

كما الذات بحاجة إلى بيت في الفضاء الحسّي يوفّر لها الأمان والراحة ومتطلبات الجسد الأخرى، هي بحاجة إلى بيت في الفضاء الفكري –الخيالي يوفر للفكر والروح ضرورياتهما. لذلك خَلقت الآدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسّي لتلبية حاجياتها المادية الحسّية وخلقت مهندسين معماريين في الفضاء الفكري-الخيالي لصنع الأساطير والأديان والفلسفات والآداب والفنون. كما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا طاقة للآدمي على سكَن نفس البنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتهالك دعاماتها أمام مطرقة الزمان، أو لتغيّر الذوق العامّ وارتفاع مقاييس الجودة عند المتساكنين، عادة لحبّ الآدميين استكشافَ وخَلقَ الجديد.

-واصل

- ليس لنا لاكتشاف سبب ومعنًى وجودنا إلا تصورات يصنعها الذهن البشري، والأمر سيتواصل إلى نهاية الملحمة البشرية.

- وماذا أيضا؟

- التقدّم في طروحاتنا حول العالم ليس اكتشاف حقيقة أزلية موجودة منذ الأزل خارجنا وفوقنا وإنما استبدال تصورات ساذجة بأخرى أكثر تعقيدا، كما الأمر عندما نطور تقنياتنا من القدرة على بناء الأكواخ إلى القدرة على تشييد ناطحات السحاب.
- وماذا أيضا؟
- لا يوجد إلا نوعان من الرؤى: التي تعترف بخَلقها الأسطورةَ المؤسِّسة والتي تتستّر على الأمر.
- وماذا أيضا؟
- لا أدلّ على ضعف تصوّر يبني أسطورة أو دينا من كونه لا يحفظ بقاءه إلا بالقضاة والجلّادين.
- وماذا أيضا؟
- أحسنُ صناع الأساطير المؤسِّسة مَن يسهّلون الحياة والموت ولا يزرعون الألغام على طريق الأجيال القادمة.
-آخر فرصة. انتبه.
-ألا تقول كتبكم المقدسة "لا نفع لأحد من هذه الحياة إن غادر الدنيا ولم يخلق عالمه الخاص"؟ أتريدني أن أغادر الدنيا دون القيام بأهمّ واجباتي؟
-فرصة التدارك وستكون فعلا الأخيرة.
- كل رؤيا مطالبة بأن يرضى بها القلب ويقبل بها العقل وإلا فهي هذيان في أحسن الأحوال وفي أسواها تدجيل.
ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة. أكاد أرقص طربا فهذا الذي انسحب بعد أن أكمل مهمته ولم يعد يعير شيئا أو أحدا اهتماما رضي أن أكون له تلميذا.
- تعال، هذا واقع من الأزل مصنوع من العقل ومن الخيال فأخلق لك منه العالم الذي تريد.
الذي أريد؟ طبعا الأجمل، الأغرب، الأخطر... الأكثر جدارة بالوجود..ذلك الذي يتشكّل ببطء داخل فكري وخيالي ...ذلك الذي سيسمّيه النص الرؤيا.
يتعالى فجأة صوت تفاحة: "با" أنت غير منتبه لي ...أنت لا تستمع لقصتي ... لن اروي لك أبدا نهايتها ...وهذه الغبية التي نامت وسط قصتي...
لماذا لا يكون لي تصوري الخاص لقصة القصص، هكذا يمكنني أن أقرر-لا حسب هذا وذاك وإنما من موقع " سيادي" بحت-هل كانت حصيلة رحلتي" أذى ووبال" أم هل حققت كل أهدافها وزيادة؟ ألم آخذ رخصة من فالميكي نفسه، علما أنه حتى لو رفضها لي هو أو غيره لما توقفت عن البحث! طيب، لكن كيف سأصوغ هذا الرؤيا؟ طبعا باستغلال كل ما تراكم في ذاكرتي من قصص الأوائل واساطيرهم، بتفحص كل القيل والقال حول السؤال سيد الأسئلة، بتركيب كل التصورات الممكنة للرد عليه، بتفكيكها وإعادة تركيبها إلى أن تكتسب شكلا مقبولا شريطة ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

**

إعادة الرؤيا استعمال اسطورة شهيرة مع تغييرات جذرية فيها

أجمل إخراج لأشهر أساطير الآدمية عن انطلاق تغريبتها في هذا العالم:

"وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)
فضاء أنقذه الإله من الظلمات
أرض خصبة معطاء
وسهول تسكنها حيوانات صديقة
متعة بلا إسراف
سعادة لا تتخللها الأشجان
وغَد بلا خطر
فجأة طُردا من الحديقة"
(الحديث طبعا عن آدم وحواء)

نقطة نظام. *يجب تحيين نظرتنا لأساطير كل الأوائل الذين ارتحلوا قبلنا. أيا كانت، هي ليست شطحات خيال بدائيين كانوا أقل منا ذكاء. هي بحث أخذ هذا الاتجاه أو ذاك يدفعه حدس صائب انتبه لجانب من إشكالية بالغة التعقيد والمستويات وعبّر عنها بلغة وصور زمان ومكان. ومن ثمة ضرورة الخروج من ثنائيات الكفر /الإيمان، الحقيقة /الكذب، الموضوعي /الخيالي، فنحن لا نكتشف عقائدنا وإنما نخلقها لكي تساهم في خلق عالم متواصل الخلق. لا شيء إذن أكثر عبثا من تقديس عقائدنا وتدنيس عقائد الآخرين. كلها عقائدنا. كلها نتاج العقل البشري وكلها تجاربه. كلها ملك للبشرية جمعاء ومن ثمة هي تراثي وتراثي يحق لنا أن نغرف منه ما نحتاج نضيف ونغير ونحسن لبناء بيوتنا الروحية الخاصة.*

طُردا من الحديقة!

الرواية الشائعة أن ثعبانا خبيثا زيّن لآدم وحوّاء أكل تفاحة واللّه لا يحبّ من يقطف ثمار أشجاره فعاقبهما بالطرد من حديقته العزيزة عليه. شخصيا لا أستطيع أن اصدق أن الها كامل الأوصاف مثل يافيه بهذه الدرجة من البخل وأنه يسلط عقابا بمثل قسوة النفي من الجنة لمجرد سرقة تفاحة؟

بصراحة كنت أفضّل أن يجدوا سببا أحسن من هذا.

مثلا كنت أفضّل أن تكون التهمة التدخين في المراحيض.

أي غرابة في معاقبة التدخين في المراحيض بقسوة الطرد من الجنة لخطورة الجنحة حيث كان يمكن للعملية أن تتسبب في حريق يأتي على أخضر الجنة ويابسها إن كانت جنّة أرضية أو أن يفجّرها في الجو إذا كانت جنة طائرة. لكن عقابا بمثل هذه الخطورة لمجرّد أكل تفاحة!؟

للمتمسك بصدقية هذه الرواية مخرج من نوع ثمة بالضرورة حكمة في اختيار تهمة أكل تفاحة.

ممكن لكنني بصراحة لا أفهمها.

هل لتندلع خصومات بين أهل العقل وأهل النقل؟ بين اللفظيين والمجازيين؟ بين القائلين إن التفاحة المعنية بالأمر هي الفاكهة التي نأكل، وبين المصرّين على أنها رمز لمفاهيم لا يرتقي إلى مصافها الأغبياء الذين لا يدركون من الكلمات إلا غلافها؟

هل سيتدخل في هذه القضية أشدّ من أكره أي الممسكون دوما العصا من الوسط ليفسروا بجبنهم المعتاد وعجزهم عن أخذ موقف واضح أن التفاحة هي في آن واحد الثمرة التي نعرف وأيضا أنها رمز للحكمة وأن أكل الرموز الإلهية ممنوع.

أوف!

أقولها متحملا كل مسؤولياتي: يجب رفض حكاية الطرد هذه جملة وتفصيلا لأسباب تتعلق بأعزّ ما يوجد وما نملك: الكرامة. إنه تصوّر يتعدى على كرامة الآدمي وهي تجعل رحلته تبدأ بركلة في مؤخرته. هو يتعدى على كرامة العالم عندما يجعل منه ساحة للعقاب الإلهي. هو يتعدى على كرامة الخالق عندما يجعله صاحب ضغينة وعقاب وتنكيل بمخلوقاته لسبب بتفاهة معصية ما والنتيجة ما نعرف من التهاب المعاصي ومنها الكفر بالخالق نفسه.

يجب إدخال تحوير ضروري ينقذ ما يمكن إنقاذه من هذه القصة لمواصلة استعمالها في بناء تصوري الخاص.

على كل حال، هذا النقاش بغير معنى فمعلوماتي الثابتة تؤكد أن آدم غادر حقا الجنة مع حواء لا مطرودا وإنما... لائذا بالفرار.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كل آدمي، حتى ولو كان الأول، لا يهرب من الجنة وإنما يهرب إليها.

تضيف لمواصلة إزعاجي: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

نعم سيكون من الصعب على الرؤيا تبرير هروبنا من الجنة ونحن نحلم بتحقيقها في هذا العالم والخلود فيها في العالم الآخر...اللهم إلا ...

ردّي أولا أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع "آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة" وأنت أعلم منّي بطول باع الآدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات. تبقى حجّة استحالة الفرار من مكان محروس مثل الجنة.

فعلا يستحيل الفرار من مؤسسة جدّية مثل الجنة لا شكّ أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة.

لا بدّ إذن أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهم، ربما بإيقاف تشغيل الكاميرات اللعينة لحظة الهرب. لكن مَن؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟

مِن المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تَخدع يافيه وهو قادر على معرفة الأحداث قبل أن تقع.

التفسير الوحيد إذن أن النصير المجهول كان... يافيه نفسه.

صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

ها قد بدأت تتجمع كل مقوّمات قصة القصص...على الأقل بدايتها ثم سنرى فيما بعد.

إذن أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واعٍ بمن أوحى له بالفكرة.

ذات ليلة صارحَ حواء بالفكرة، فمطّت شفتيها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن وأنها أحجمت لحظة أمام الثمن الباهظ. لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها.

في نسخة خاصة للقصة موجهة فقط لكل مناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الصدى بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أرهبته صور آتية من أعماق المستقبل لِما ينتظر أطفاله وأنه رضخ وحوّاء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجرّب الجِماع مع إبليس أو الثعبان.

المهم، يحسم الأمرَ لصالح الفرار.

هكذا اشتعلت شاشات المراقبة -المكلفة بقراءة الأفكار-برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جدا". وعِوَض أن يبرق الإله ويرعد وتنفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم يافيه بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، أخيرا قرّ قرار هذين الغبيين، مَن يدري؟ ربما هما من سأحقق بهما جزءا مما بحثت عنه دوما.

تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا يافيه ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لآدم ناهيك عن علاقة الاثنين ببعضهما البعض لعدة أسباب. أولا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية -نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

أخيرا وليس آخرا لأنني أريد لكتابي أن يقرأ إلى نهايته وألا يرمى به من صفحاته الأولى كما افعل مع الكثير من الكتب التي أشتري.

بقية الأحداث كما تصفها شاعرة ملهمة:

"سارعا إلى تغطية عريهما بالجلود (أندريه شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا يرتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيّق من الجلد

يواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدّا له

تجاوز آدم ضغينته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنّه كون يتلعثم بأولى كلماته
عالم مقيّد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي
عالم تحت مطرقة الزمان
يجب تعلّم الموت فيه
عالم غير مفهوم
بتبذيره الرائع والمروّع
معا سيتملّكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار
معا سيلدان آدمية الشرّ والجذل.
تعبر الفضاء والقرون.
ومن خلال ضباب الزمان
تابعهما الصدى بالأمر"

تهمس تفاحة تغالب آخر محاولة للبقاء مستيقظة:

-" با"، ماذا قال الرب لآدم وحوّاء وهما يفرّان؟

- خذا معكما ابليس.

ربما تنهّد هامسا لنفسه: لا بدّ منه لهذه التجربة وإلا كيف سيعرف الآدمي الخير والحرية والمسؤولية.

**

ارتطام الأوائل بالعالم واكتشافهم ثمن خيارهم الجسور

وراءهم الآن باب الجنّة والعالم بأسره أمامهم.
تدير حوّاء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرَها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه الروائع... شلالات متدافعة من أعالي الجبال... أنهار متدفقة بين الروابي... بسط مفروشة بما لا يحصى من الأزهار... كثبان من ناعم الرمل... جبال مكلّلة بمهابة الشيب... بحار تهشّ الريح فيها على الموج... غابات تناطح أشجارها السحاب... سماء مرفوعة بلا عمد...
يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا وسترى الفرق.
تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح بعض الوقت الذي لا تستطيع تحديده بما أن الساعة ما زالت لم تُخترع: أنا جائعة ولا أكل جاهزٌ هنا.
ينتبه بطلُنا إلى التغيير الجذري وأن هذا العالم لا يوفّر شيئا عدا وجوده، أما تدبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم.
كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت بالمجان، أما هنا فهي على حسابه هو. هل أخطأ في حساباته.
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمتُ العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا يعوّل إلا على جهده، لا مكان عندي إلا لآكل ومأكول، كل آكل مأكول، كل مأكول آكل... وأنا آكل الجميع.
على فكرة، كم غريب أنْ لا أحد من المفكرين الكبار والصغار انتبه إلى أن آدم وحواء أخذا قرارا غير ديمقراطي بالمرة. حيث لم يقوما بتنظيم استفتاء يطرح الخيار بكيفية واضحة على كل الأجيال التي ستُبتلى بعبور هذا العالم.
كان عليهما مواجهة ذريتهما بما ينتظرهم أفرادا وجماعات في مختلف تقاطعات الزمان الطويل الذي ستدومه رحلة الآدمية.
ألم يكن حَريا بهما أن يواجها المسافرين في القرن العشرين بما ينتظرهم: العيش في عالم الماكدونالد والكوكاكولا والكاجيبي والبنك الدولي ومحتشدات أوشويفتز والطغاة الدمَويون والقنابل الانشطارية وبرامج "اربح المليون" ومرض ألزهايمر والموت بسرطان الثدي للنساء والإسهال والحصباء والسعال الديكي للأطفال؟
نعم كان عليهما مصارحة الأفراد فردا فردا: أنت، نعم أنت، هل تقبل بقضاء جلّ أعوام الرحلة في منجم مِلح أم في معمل رخام أم في حقل أرز أم في حقل قطن أم على الرصيف بقرب محطات القطار لتغتصب ويمرّر إليك فيروس قاتل؟ ماذا تقول في قضاء جلّ عمرك في مخيّم لاجئين أو في الرحيل محشورا بين الآلاف منهم تتقيؤون على بعضكم في باخرة لها مَوعد مع جبل من جليد ومع عمق المحيط؟ ... وأنت الغبي الآخر، أترضى برحلة تنتهي -ضع سطرا أحمرَ تحت الخيار-جريحا في ساحة معركة، مشنوقا، مقطوع الرأس بضربة سيف بارعة، في فرن للتصفيات الجماعية، تحت الأقدام إبان حجّ ميمون، بالتخمة، بالجوع، في سريرك عائما في إفرازاتك من فرط خوفك من قرب حضور عزرائيل؟ ...وأنت الذي تحاول الاختفاء وراء الظهور!؟ لا فائدة من المحاولة، اعلم أنك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخطّ "ب"، مما سيضطرّ الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعمّ الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشاتمون والجميع -ومنهم كاتب هذه السطور- يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد ما تنتقم به غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهَقين الجائعين أمثالي. آه نسيتُ أن أقول إن عمّالا في قمة التقزّز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق القاطرة سيُعطَى أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسُّوّاق المساكين ضحايا أمثالِك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.
نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك يوم تشق الطريق على قمم الجبال وفي حضيض المستنقعات وأنت كالدابّة تجرّ الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزّق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعضّ... وكل ما تصلّي من أجله حضور الموت المنقذ من الحياة.
آه لو نبّه آدمُ هابيلَ أن بإمكانية طاولة القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبدّ، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوَّه، المعاق، الثائر الفاشل.
تصوّر لو طَرحا لتصويتٍ حرّ نزيه وشفّاف سؤالا واحدا: تقبلون بالوجود أم لا تقبلون؟
لا شكّ لديّ أن أنصار "لا" واضحة ومدويّة، كانوا سيحتفلون عشية الإعلان عن النتائج بانتصار باهر على "نعم" هزيلة ضامرة لحفنة من المغامرين الطائشين. لو حصل هذا لوفّرت عليك مشقة قراءة "الرحلة" ووفرّت على نفسي مشقّة كتابتها،

ولكنّنا الآن نتمطّى داخل العدم وقد لفّتنا العتمة بفائق فراغها، وفي أسوئها نتثاءب بكسل تحت شجرة التفاح في جنة متعة الملل وملل المتعة، لا نطلب ولا نطالب بشيء.
هيهات، هيهات، رُميَ النرد ولم يبق إلا تدبير الوضع الجديد.
يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح.
تتجاهل حواء رجُلا ستبقى تعاني منه على مرّ العصور وككل مَن ستلد من الإناث تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، والبحيرات الزرقاء والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، والجبال الشاهقة لنشر الغسيل. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوّها من الحُفَر والشياطين حتى لا يُصاب الأطفال بأذًى. الستائر الملوّنة من حرير الصين على مدخل أوّل كهف يوم تغزل، لوحة "موناليزا" على الحائط.
يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.
ينفد صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيبتين المتحركتين.
- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجّة أنّك جائع. هذا فِعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجليك من كل هذه القاذورات ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلّة طاعتك.
يصرخ هابيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدّة الطبع وسرعة الانفعال:
- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.
هذه المرّة، لن تأخذه "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبّل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب عالم.
يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. آن الأوان للمرور لفصل آخر من القصة.
ذات يوم تصرخ حوّاء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي ولا ترجعوا إلا بما خرجنا نبحث عنه ولا تحدثوني عن آلامكم، إنها آلامي قبل أن تكون آلامكم.
يصرخ أحدنا: لنتّجه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.
يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي وجود الليل المخيف.
يصرخ ثالث: بل إلى الشمال بلدان الجليد فربما الشيء هناك مطمور تحت أمتار من الثلج.
يصرخ أجبننا أو أعقلنا: أريد البقاء مع أمي.
يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم:تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخانقة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

"الأرض لكم (جبران خليل جبران)
تبتهج بملامسة أقدامكم العارية
الأرض لكم.
وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح
الأرض لكم
وأنتم الطريق"

أي شاعر عبقري مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي لإلياذة الجنس البشري برمّته تتغنّى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشردين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض والبحر ولا حتى عفاريت الظلام!؟
ها نحن ولمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاءً لا يُحدّ بحدود، نجري وراء الريح والسحب، يجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعا، ومِن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نؤكل ونقاتل الآدميين وقد أصبحوا أخطر الكواسر حتى لا نُقتل.
إنه عالم لم يُخلق للجبناء، عالم صارم القوانين أولُها أنك تولد فيه جائعا، تعبره جائعا وتغادره جائعا، أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموتُ يتغذّى بالحياة وكل الباقي حَشوٌ وتفاصيل.
ربما لهذه القوانين مغزًى يبرّر وجودها وأسبابٌ قاهرة تبدو أمامها احتجاجاتنا كاحتجاج الطفل على أمّه وهي تلقي به أول يوم لأوّل سنوات الصراع غريبا وحيدا في ساحة مدرسة مكتظة.
توقّف على الصورة.

ألا تلحظ شيئا بخصوص هؤلاء الأوائل الذين خطَوا أول خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسنّين الذين تجاوزوا الثلاثين.
ماذا تقول وأنت تحرّك يدك أمام أنفك؟ آه الروائح التي تنبعث منهم.
حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعا، وحتى أجداد ملكة انجلترا التي تموّه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها لأنها توقفَت عند شجرة أجدادها حيث يجب التوقف، ولو طلعت إلى أعلى لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج النتنين.
ملاحظة ثانية. لا أحد منهم يجرّ حقيبةً تُصدر صريرا مزعجا. كل هذا يدلّ على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يئنّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.
ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ آه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون. تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.
يأتي يوم يئن فيه أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!
يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكفّ عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعُه أخرق، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاة؟
يا لهذه الصحاري الصفر نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس! يا لهذه الصحاري البيض وخناجرها التي ثبّتت في فكّ البرد والدبّ!
يا لهذه الصحاري الزرقاء تهددنا بالموت رعبا قبل أن نموت فيها غرقا! فاق الألم كل قدرة التحمّل.
تحمّل! أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل تجربة الحياة وفكرة الموت؟
لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بخوفهم وبعجزهم والتوجه لمن قد يقدر على إغاثتهم.
صلاة الآدمي: *يا من أوجدنا في هذا العالم المبهر المرعب... حنّن علينا قلب الأرض والبحر... ضعنا في حماية الشمس والقمر... أحفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمنا لها شرابا حلالا ...وفّر لجوعنا اللحم والشحم... فجّر لعطشنا عيون الماء الزلال... يسّر أمامنا الصعب والوعر... ضمّد جراحنا... جدّد فينا كل فجرٍ شجاعة الأبطال.*
صدى القوة المبهمة التي تتوجه لها صلواتنا منذ الأزل: *يا أحلام أحلامي... يا آلام آلامي... يا آمال آمالي. يا أفكاري وخيالي... يا لحمي تقطّعه أنيابي...... صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي.*
قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في قول الصدى: نبرته. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأن وراء القول قولا مسكوتا عنه ربما يكون شيئا من هذا القبيل: ستنسَون كل آلامكم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحققون لي المهمة التي شرّفتكم بها مع مخلوقاتي الأخرى.
لنفتعل التصديق، على كلٍّ هل لنا خيار آخر؟
تواصل المعنويات انهيارها. يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشبت قدماي من المشي، غُصتُ إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقَت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفيّ من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفّ العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريقُ اللعينُ طريقَه دوني. خارت قوايَ. لن أتقدم خطوة أخرى.
أوّل إضراب عامّ: الإضراب عن المشي، وليفعل الآخرون ما يأمرهم به جنونهم.
ليسمح لي القارئ هنا بمشاركة المضرِب الأوّل أولَ إضراب، وقد جُبلت على دعم كل المحتجين على تجاوزات السلطة ولو كانت أعلاها.
لا بدّ إذن للقصة أن تتواصل ولا بدّ أن أواصل السهر عليها بما أَقدرُ، لا لشيء إلا لأنها تحوي في طياتها قصتي.
أهمس في أذن تفاحة: أفيقي، الآدمية بحاجة إلى إغاثة عاجلة
تفتح البنت عينيها وفيهما بريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.
- "با" ماذا يجب أن نفعل؟
- الآدميون في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيديّ لتجبراني على الركض والصراخ والرقص
يستيقظ المستكشفون من الغد وبهم جذل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!
- غريب. أنا أيضا!
- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.
- لا بل أنا المختار، تسلّق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفيّ، صارخا ضاحكا ومُغنّيا أنْ أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو الآخرين للركض وراءه: هيا لا تخافوا ولا تحزنوا، الليلة لكم موعد مع هدية ملكية ستغيّر حياتكم.
تصرخ تفاحة: القصةُ عندي أنا: تلك الليلة نزل الثلج كثيفا فقالت البنت الكبيرة لأبيها: يجب أن نجد حلًّا فلا ترتجف ''ما'' من البرد ولا تبكي الطفلة الصغيرة التي تسكن معنا.
تصرخ تفيحه: أنتِ الباكية والبائلة، أما أنا فلا أبكي أبدا.
ثمّ تنفجر باكية لتقرر في نفس اللحظة أنه من الأفضل ألا تترك الكلمة لأختها وما على البكاء إلا الانتظار قليلا.
- ''با''، إنها تتكلم طول الوقت ولا تترك لي قيادة القصة.
- هذه قصة يرويها أكثر من راوٍ. تكلمي. ماذا فعل الآدمي المسكين لكي يدفأ ويبعد أنياب الذئاب؟
- خرج الرجل وابنته الصغرى -التي كانت المفضَّلة عنده كما يعلم الجميع-إلى الغابة للبحث عن الحطب والنار. أما الحطب فقد كان موجودا بكثرة وأما النار فلم تكن موجودة. فما كان من تفيحه إلّا أن صلّت للّه ليبعث بها فاستجاب لدعائها إذ زمجر الرعد ثمّ لمع البرق وضربت الصاعقة حزمة من حطب اشتعلت فيها النار، فهرع إليها ''با'' وأخذ منها عودا ملتهبا وعاد مع ابنته فرحا مسرورا ليشعل المدفأة.
- يا غبيّة، وكيف استطاع ''با'' من الغد أن يشعل النار؟ هل يجب أن يخرج كل مرّة ينتظر الرعد والبرق.
- أنت الغبية وليس لديك قصّة أحسن.
- بلى، إذن خرجَت تفاحة مع ''با'' لتدلّه على مغارةٍ اكتشفَتها وهي تلعب، وكانت هذه المغارة عميييييييييقة جدّا جدّا لا يمكن الدخول إليها إلّا زحفا على البطون. وكانت هذه المغارة في جوف الأرض والنار فيها دوما مشتعلة، فاستطاع ''با'' أن يأخذ جمرة منها وأن يضعها في إناء حملته تفاحة.
- يا غبيّة، وفي الطريق سقط المطر على جمرة تفاحة فانطفأت النّار.
بعض العضّ الخفيف وشيء من جذب الشعر، وهو أمر تسهل السيطرة عليه من قبل قوة حفظ السلام، خلافا لما يحصل عندما تسمح الإمكانيات لنفس الأطفال الشرسين بالتراشق بصواريخ الغواصات الذرية.
مَن كان يتصوّر أن اكتشاف النار في هذا النصّ سيكون بمثل هذه الصعوبة؟
- أنا الذي أقود. وبعد أن اعتذرت تفيحه عن البلل الذي أصاب جمرة تفاحة وقبلَت أختُها الاعتذار وتصالحتا وانتهت المعركة مؤقتا، خرج آدم، ساخطا إلى الغابة يبحث عن النّار. ما إن انقشعت السحب حتى وجد نفسه وجها لوجه مع علبة كبريت بحجم بيت وبجانبها سيجار فاخر من نوع هافانا بطول شجرة سيكويا.
تصرخ البنتان بالاحتجاج الصاخب أن الأمور لا تقع هكذا. أطفالٌ يفهمون قاعدة كهذه وكهل يَدّعي في العلم معرفةً وتَغيبُ عنه مثل هذه الأشياء!
- "با"، لا تغشّ.
بجدّ؛ ليس لديّ أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الآدميون حدود إفريقيا مَهدِ الجنس البشري، إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والثلج وهم لا يملكون فرو الدبّ للصبر على ما لا يُتحمّل من البرد.
كم من تصورات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة! ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.
ثمة قصة بروميثيوس الذي أخذته الشفقة بالآدمي فتصدّى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك والسرعة والخفة وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء... وهو ما كلّفه العقاب الشهير.
هذه أيضا قصة يستحيل الاستيلاء عليها، حتى ولو أن النصّ لا يستنكف من حين لآخر عن استعمال قطع الغيار البالية.
ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسَته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها وهي كما هو معروف موجودة في فضاء خيالِ جلّ الآدميين جنبا لجنب مع الجنة.

يتطلب هذا العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الآدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصّة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي تؤهله للبقاء في جهنم هذه. أمّا أن تقوّلوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالما، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقرّاء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكِل الكاتبُ الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصّل الآدمي على النار ومن أين سرقها. لماذا أتكلّف كل الجهد وأنت تتدلّل عليّ فالقصة، قصّة الجميع. ما الذي يجعلني مسؤولا عنها أكثر من حضرتك؟

المهمّ أن الآدمية مجتمعة الآن حول اللهب المقدس وكل حواسها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكنها من التغلب على الحيوان على الخوف من قدوم الليل وعلى التقزز من اللحوم النيئة ...الذي سيمكنها من ان تضرب في الأرض ذات الطول والعرض تستكشف كل تخفي وتستعرض.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لتُولّيَ مُدبرة تَرتمي في أحضان ''با''. يدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدّدا من النار. ترفض تفيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن ''ما'' لتقف بجنب تفاحة تقرّب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّتا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمّدة ألما مستديما، ثم ترقصان حول النآر إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفنةٌ من الآدميين وآدم لأول مرة ملء الجفون، أَبعدوا لبضع ساعات الخوفَ والجوعَ، والمساكينُ لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصدهم في كل منعطف منه.

تعود تفاحة للصراخ: ''با''، لماذا أنت صامت؟ نريد البقية، البقية، البقية!

تهزني ''تفيحه ''من كتفي: ''با'' استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ أي قصة الذهن مشغول بسؤال واحد لا غير. لموصلة السرد يجب أن تكون لديّ فكرة عن هذا الذي خرجت الآدمية تبحث عنه: الخلود؟ العلم؟ الحكمة؟ المتعة الأزلية؟ الراحة الأبدية؟

كل هذا كان متوفّرا إلى درجة القرف في الجنة التي هربنا منها. ماذا إذن؟

**

وكيف أن الموت في أفظع أشكاله سيصبح رفيق الآدمية طوال الرحلة وهل الأمر عقاب ام ضرورة؟

من أين لي الزمن الكافي لأصف لكم حروب الآدميين؟ حروبهم على تلك الأنثى، على ذلك الذكر، على القطعة المتاخمة للغوط التي افتكها الورثة غير الشرعيين، على مساحة الصيد المخصصة للقبيلة والتي اعتدت عليها القبيلة الأخرى، على المكاسب والمغانم والأنفال والسبايا عشية الصدام الأخير مع أبناء العمّ، على مونوبول تجارة الحرير واللبان والعاج والعبيد والتوابل والمعادن والبترول ، على أراضي الدولة المجاورة التي تطمع فيها هذه الدولة أو تلك، على أحقية هذه الديانة و تلك الايدولوجيا بالنطق وحدها باسم الحقيقة المطلقة ، على حدود الإمبراطورية العظمى التي لا تغرب الشمس عليها، على صراع مكونات نفس الشعب على السلطة والثروة والاعتبار... الخ ...الخ ...الخ

كأنهم لا يعشقون شيئا قدر الحرب.

هم يعدّون لها أطفالهم باكرا، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم حول أمجاد أجدادهم، يقبّحون كل الذين لا يشبهونهم، يزينون القتل والموت من أجل الزعيم الأوحد والوطن المفدى والدين الحنيف.

أضف لهذا حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق يسمونها اكاديميات عسكرية يدرّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والقفز كالقردة، والاختباء كالحرباء، والزحف كالثعابين، والافتراس كالكواسر.

كم يحبّون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يومها خصّصت المدينة المغبرّة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفّت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم الألعاب واللّعب.

حقا ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبة لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنّني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الآدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوما نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيء والأخضر البليد. كأنّ دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلّف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص خيطت به حتى أزياء كبار العارضين بالمقارنة مع جلود النمور والتماسيح التي كان أجدادنا يرتدونها؟

لحسن الحظّ أنقذ مخرج الاستعراض سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزوّدهم برماح زرقاء.

كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدرعات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سرقاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكأن الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

اختتم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى "ساري" وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيّتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد واع آنذاك أن المرأة – التي كانت تحمل ويا بسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبعبع الذي تعبّدت له ذلك اليوم.

من أين لأحد أن ينكر أنه لا توجد ظاهرة صاحبت الآدميين منذ انطلاق ملحمتهم قدر الحرب يقودونها في كل الفضاءات يتعهدونها بكل ما أوتوا من عبقرية.

لقائل إن يقول توقف كفى تجنيا على البشر. هم لا يكرهون شيئا قدر كرههم للحرب والدليل ...

يصفّر الربّ كريشنا على المحاربين ليتقاتلوا تحت بصره فيبقي السيف في الغمد. يومها قطّب جبينه باغته السؤال: بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟

وفي هذه الأسطورة التي تضع ككل أساطير البشر أعمق المسائل الفلسفية في قالب شعري، يصرخ البطل أرجونا في ربّ لم يجد إلاّ ساحة معركة للتجلّي: "لكنهم أساتذتي وآبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي الآخرين كلّهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض التعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهريتا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليائسين".

الآدمي واع إذن أن حروبه صراع اليد اليمنى ضدّ اليد اليسرى...صراع الأسنان واللسان في الفكّ الواحد!

يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب.
- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".
يمرّ للتهديد.
- "إن لم تقاتل فستكون خائنا يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيل أفظع من الموت".
كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.
يتمسّك أرجونا برأيه؛ عيّره الربّ بالخوف أم لم يعيّر.
- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومنّة؟ أفضّل أن يقتلني بنو دهيرشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".
الرب مجرّبا الوعود البراقة.
- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض ".
يتمسّك أرجونا برفضه مذكرا الرب بأنه لا زال كائنا عاقلا.
- " ألن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا"؟
- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر."
موجة من الإشفاق. مجدّدا تناقضاتي.
أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته هو. إن كان سيّان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطمعك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.
لم يبق للربّ سوى التحريض الخسيس:
- "تغتمّ لمن لا يستأهلون الغمّ ".
أي تفسير لإصرار الرب على إفناء الآدميين؟ هل يئس هو الآخر من إصلاحهم؟
يلتجئ إلى الجمل الرنانة ينافق بها ويزيّن مطلق الشرّ.
- "إنّه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".
يتكثّف صمت أرجونا ثم:

يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)
حزينا، القلب يطفح شفقة
كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

لنتفحّص المعركة التي يدخلها أرجونا منذ بداية التاريخ" حزينا القلب يطفح شفقة" لا يغرّنا لا حزنه ولا شفقته.
وفي مثل هذه المآتم الصاخبة التي تعتري الآدميين دوريا تراهم يرتكبون أفعالا ما كنت تصدق أن بوسع جيرانك الطيبين ارتكابها مثل سحق الرؤوس وسمل العيون واقتلاع الضلوع وبقر البطون وفتح الصدور وتقطيع الأطراف واستئصال الأمعاء والذبح والسحق والقطع والحقن بالسموم والصعق بالكهرباء والرمي من الطائرة وفي فرن القاطرة وتحت عجلات الدبابات، ناهيك عن إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات؟
في سجلّ الفظاعات " الطريفة" ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون.
ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثمّ ذبحهم والقفز فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "ايشا".
جولة بين الجثث التي راكمتها الحروب على مر التاريخ، ويقال إنه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطّا يصل الأرض بالقمر.
تمعّن معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للآدمي... وانظر النتيجة! أيضا كم من آباء وأمهات ومربين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين الآدمية ... وانظر النتيجة! بالله عليك، أليس من الطبيعي أن يشعر المرء بالعار لانتمائه للآدمية كما يخجل من به شمم أنه لقيط ثمرة خطيئة عاهرة وسفّاح؟

كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر ولا زلت حيا يرزق والحرب تزأر حولي في كل مكان. كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الخيالة برماحهم مضارب قومي لكن في زمن غير زمني... وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمونه "التلفاز" بينما مزّقت ولا تزال تمزّق كل يوم أجساد مساكين وجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه.

فعل الأفعال! أيكون قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه بكل الوسائل التي تتبارى وتتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشي فعلنا الأوّل نحن وبقية الكائنات الحية الأخرى حتى وإن كنا أفظعها في فنون القتل؟

لنبدأ بتصفيف الفرضيات في محاولة يائسة لفهم أخطر ما يفعله الآدميون ابان رحلتهم في هذا العالم.

ماذا لو كانت الحرب هي الشيء الذي ركض الآدميون في مشارق الأرض ومغاربها بحثا عنه؟

قبل المسارعة بالاحتجاج والاستنكار، لنتفحّص الفرضية بكل هدوء ودون أحكام مسبقة.

من البديهي أنهم لم يفرّوا من الجنة إلا بحثا عن شيء جد ضروري. أليس هذا سبب كل الهجرات الجماعية والفردية على مرّ العصور وإن اختلفت طبيعة المبحوث عنه المطلوب لتلبية حاجيات ماسّة؟

طبعا كل شيء كان متوفرا في الجنة بما أنها الجنة باستثناء الحرب بما هي حمّالة كل المصائب والالام التي لم توجد هذه الجنة إلا للشفاء منها وتلافيها.

لكن لأي هدف يضحي البشر بحياتهم بمثل هذه الأعداد وفي مثل الظروف الرهيبة للحرب؟

تقول أحدث الروايات عن الثلاثمائة ألف سنة الأخيرة التي نعتبرها اليوم مدة تاريخ الانسان، أن البشر تحركوا في هذا العالم جل هذه الفترة جماعات قليلة متفرقة تائهة في فضاء يبدو لا متناهيا يركضون وراء الصيد أو يفرون من أنياب الكواسر والجفاف...ثم انهم في العشرة آلاف سنة الأخيرة تقريبا استقروا حول كبرى الأنهار في مخيمات وقتية أصبحت قرى ...ثم أن قرى القش والطين هذه تحولت مدنا صغرى ...ثم أن هذه المدن بعد بسطها سلطتها على الأرياف المحيطة بها تحولت إلى امارات...ثم أن الامارات تحولت إلى ممالك...ثم ان الممالك تحولت الى امبراطوريات.

ما يرصده التاريخ منذ بدأنا تدوينه أن المدن الأولى بقيت لمئات السنين دون أسوار ثم فجأة ظهرت الأسوار والخنادق تحيط بها احاطة السوار بالمعصم.

ما الذي حصل؟ ظهور الحرب طبعا وانتشارها ثم دخولها عالم الانسان كعنصر قار من حاضره ومن مستقبله.

قدر كل مدينة بالأسوار وبدونها، كل دولة، كل امبراطورية أن تنشأ بالحرب وان تنتهي بها.

لا تنهض قرطاج إلا لتحرقها روما. لا تنتصب روما سيدة للعالم إلا ليدمرها برابرة الشمال. لا تسود بغداد إلا ليذبح سكانها هولاكو...والحبل على الجرار إلى اليوم ولا أحد يتجاسر على التفكير في فظاعة وتكلفة حروب المستقبل.

حتى آداب البشر وفنونهم وأديانهم طرق عيشهم هي من أسباب أو نتائج للحرب التي لا تضع أوزارها بين الأجساد إلا لتتواصل في العقول وفي القلوب.

كأنّ السلام مجرد مرحلة يستريح فيها الادميون من اهوال الحرب الفارطة ويستعدون فيها للحرب القادمة وهي القابلة المكلفة بولادة طفل ثمين ولو بنهاية ام المولود.

نعم ، كيف يمكن تفسير ظاهرة بمثل هذه الفظاعة والتكلفة والدوام على مرّ التاريخ؟

داخل الكيانات السياسية المؤقتة مهما طال عمرها، تطورت تقنيات اشباع الحاجات المادية من فلاحة ورعي وصناعة وتجارة مثلما تطورت أيضا تقنيات اشباح الحاجيات المعنوية من اساطير وأديان وعلوم وتكنولوجيا.

كأن وراء العملية أمر لا يعصى: مزيد التكاثر من التعقيد من الترابط...ومن التجديد.

كيف يكون التجديد بما هو فعل جذري وشامل بغير تدمير الموجود من القديم البالي وهل ثمة طريقة أنجع وأسرع من الحرب؟

طيب، لكن ما أهمية التجديد حتى نقبل بالحرب تكلفة له؟ طبعا تواصل الخلق. ألسنا في عالم نعرف أنه ليس معطى وإنما مشروعا والمشروع لا يكون إلا بتواصل الخلق. هل ثمة خَلق لا يسبقه التدمير؟

نعم ولكن ...

ما نسبة التبرير في مثل هذا التفسير والآدمي لا يرضى إلا بالمعنى يضفيه على كل ظواهر العالم خوفا أن تكون عبثا في عبث؟ ماذا لو كان التجديد لا يعني التطور والتحسن وإنما فقط التغيير وهل يستأهل التغيير كل هذه الدماء والدموع؟

ثمة فرضية ثانية تتناول الإشكالية من زاوية الفرد.

استمع للصراخ المتعالي من أرجاء ساحة الوغى-كما يسمونها -وقد اختلط صهيل الخيل بقعقعة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات تحيا أمتنا العظيمة، يحيا ملكنا المفدى، يحيا دين الحق، يحيا جيشنا الأبي وحتى – ايه والله – يحيا الموت.

تأمل كل هذه الحيوية والآدميون ينقضون على بعضهم البعض بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بالهراوات، بحاملات الطائرات، بسكاكين المطبخ، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق، بقبقاب الحمام، بالحجارة المدببة، باليدين العاريتين وبالأظافر والأسنان.

بيني وبينك أليس الموت وسط هذا الديكور الفخم أجدر بالآدمي من انهاء رحلته على فراش مستشفى عائما في العرق والبول؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعمق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

نفس الشيء مع الصياد وقد شحذت هرولته وراء الطريدة كل طاقات حواسه الخمس غفر له العالم كل تبلّده العادي.

هل ثمة حالة يدرك فيها الآدمي كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يعيش وهو بين المخالب والأنياب؟

لنقل إذن بانتظار تطور القصة أن تجربة الوجود لا تصل أعلى درجة الحدّة والصفاء إلا وهي وجها لوجه مع كل الأسباب التي تهدد بإنهاء هذا الوجود...مما يعني أننا نبحث عن الحرب ككل المغامرين الذين ينطلقون بحثا عن أقسى المتاعب بحثا عن توهج تجربة الوجود وهي تراقص الموت في أقسى مظاهره.

إلى حدّ الآن نظرنا للموضوع من وجهة نظر الفرد، لكن الحرب قتل بالجملة أي مسألة تهم البشرية ككل.

ثمة إذن قراءة أخرى للظاهرة. يجب البحث لجذور الحرب خارج الذات تحديدا في تاريخ تغريبه البشر.

المستوى الأخير للإشكالية المرعبة.

حتى ولو كانت من منافع لحرب على الصعيد الفردي دفع تجربة الوجود لذروتها وعلى الصعيد الجماعي تجديد البالي ومواصلة عملية الخلق.... ماذا لو كان مجيء الآدميين أكبر كارثة عرفها العالم وهم يلوثون جماله ويدمرون جلّ الأجناس الحية الأخرى التي تعيش فيه بعنف لم يعرف له من قبل مثيلا؟

**

وكيف تأتي الآدمية دوريا رغبة إنهاء الرحلة علما وأن العالم الذي ضاق بها ذرعا لا يرى مانعا في الأمر.

يتجدّد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطتين الشرستين امتحانا عسيرا لأعصابٍ لا ينقصها التوتر. لأفتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عمليّة مسرحية لا تتواصل إلّا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقّف سريعا بغياب المتفرّجين أو بتصاعد تثاؤبهم.

حتى هذا لا ينهي الخصومة. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محميّة بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرّة أن تنظر من نافذتها، فلها نافذة بجانبها هي الأخرى. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلّا النظر من نافذتي.

أليست أغلب المشاكل التي يحفل بها التلفزيون كل ليلة نتيجة أن الرئيس زَيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة طائرات مكتظة بصواريخ عابرة للقارات لتدمير مُدنه عقابا لأنه نظر من نافذته بدل أن يكتفي بالنظر من أكثر من نافذة في بيته؟

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول مبارزة العيون خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى.

وعند فتح باب السيّارة أجد تفاحة واضعة ذراعيها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه تغتنم فرصة إدارة أختها لها الظهر لكي تخرج لها لسانها.

مشاعر متداخلة فيها التهكم وبراعم القرف وخاصة الكثير من نفاذ الصبر.

من أين لي تحمّل المزيد من صراعات البشر وهي لا تتوقف داخل هذه السيارة، داخل العائلة الواحدة، في المستشفى، في الجامعة، في كل مؤسسة تجمع أكثر من شخصين، في الحيّ، في الوطن، في العالم بأسره.

من حسن الحظّ أنهم لم يصلوا المريخ وإلا لكانت أهم ما في نشرات الأخبار حروبهم بين الكواكب.

أخيرا الليلُ ووقت الرحيل إلى الضفة الأخرى من العالم.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، البقية ن البقية!

- قصة؟ بعد كل ما أظهرتما طيلة السفرة من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد. على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحه شريطة أن تكف عن الرقص على السرير.

- تفيحه لا تعرف شيئا، "با"، أنت من يقود القصة وأنا بعدك.

إذن وفي إحدى أهمّ فصول روايتي الخاصة جدا لقصة القصص، يتداعى كل آلهة البشرية لاجتماع خارق للعادة بعد أن أمضى الثلثان القانونيان عريضة استدعاء المكتب السياسي للنظر في شكوى ضدّ تواصل التجربة الآدمية.

ينطلق النقاش بصرخة غاضبة من إينتي كبير آلهة الأنكا.

- يا لهذا الكاتب الغبي! كدنا أن نخلص من هذه القصة، لكن تواطؤه المخفي بمهارة مع أبناء جنسه جعله يراوغ في الإسراع بخاتمة يبدو أنه كان يترجّاها بقدر ما كان يخشاها. حتى كريشنا مصدوم من موقفه. أليس كذلك يا ربّ كريشنا أنت الذي كنت أوّل من أوصى بالحلّ النهائي لهذه التجربة الكارثية؟

- أنا أردت نهاية الآدميين! أنت متأكّد؟ بصراحة أنا من المعجبين بقدرة هذه الكائنات على التأقلم مع كل المصائب التي نسلطها عليها.لا نرميهم بقرون من الجفاف أو من الصقيع إلا ووجدوا حلا بل وكأن هذه المصائب محرك تطورهم من الحسن إلى الأحسن.

- كم فيك من تناقضات يا زميل. ألم تقل ذات سهرة غير بعيدة إن الصدى انتبه إلى الغلطة التي ارتكبها وهو يشاهد تقدم الأدمية في ملكوته وهي كفكّ رهيب بصدد التهام الجبال والصحاري والغابات، بصدد شرب مياه الأنهار والبحار والمحيطات، بصدد نهش الشموس والمجرات؟ ألم توحي بأنه بدأ بمراجعة حساباته خوفا من إفلات التجربة من كل تحكّم، إنه فهم أخيرا أن آذم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكه لا مملوكه.

يتدخّل زوس بقوة:
- حقّا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الآدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظّها العاثر أن يضعها على طريقها؟ قلتها وأرددها أكثر من أي وقت مضى: لا لهذه التجربة، الآدميُ كائنٌ لا يَصلح ولا يُصلح.

نعم كم من غابات حرق الآدمي ودمّر واستأصل من جذورها! كم من أجناس حية أذلّ واسترق وأباد قتلا بالهراوات، بالسهام، بالسكاكين ببنادق الصيد والمبيدات الحيوية! كم اصطاد وذبح وسلخ وشوى والتهم وتبرّز من كائنات ضعيفة! لكن أيضا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصدته بالملايين عبر العصور يجرب منها كل طيف الرعب والعجز والألم. مجرم لا جدال في ذلك، ضحية بما لا شكّ فيه.

ينفجر بعل ضاحكا:
- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجّرت على رؤوسهم بركان "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.
تصرخ إيزيس في وجه بعل:
- أنت سبب تلك الكارثة العظمى التي أبادت كمّا هائلا من الأجناس البريئة وأخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة!
يصرخ أمون-رع:
- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرافة.
يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:
- كيف؟ نسيتَ ما قلته في سهرتنا عند اللّات والعزّى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنَوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالَمٍ يريد الشفاء منهم.
يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:
تعالَوا نفكّر معا ولنتكاتف جهودنا لحلٍّ نهائي هذه المرّة.
- أي حلّ؟
- إغراقهم بالطوفان.
يتدخل ووطآن بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافيين:
- نعم لنغرق الكوكب كله حتى لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".
تسارع آتينا بالموافقة:
- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحلّ يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيتان وخاصة لسمك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.
خطّة ممتازة تحظى بثقتي التامة ومباركتي وصلواتي.
المشكلة هذا اللعين إينكي. ها هو يطلب الكلمة:
[تلخيص المرافعة التعيسة]
"أيتها الآلهة والآلهات، حضرات الزميلات والزملاء: كما تعلمون، التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى-الحق في خمسة ملايين سنة القانونية.
ثم إن قضينا الآن على الآدمية فبماذا نعوّضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونُعدّ المكان للوريث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس ينقرض يستأهل الانقراض؟ وعلى كلٍّ أُذكّركم أن هذه تجربة يراقبها الصدى لا غير، وهو لم يعط أمرا بإيقافها".
يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهدّدة بالانقراض، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكّر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقّر. في الأخير يتّفق الجميع على الحسم بالتصويت.
لا يحصل إينكي إلا على صوته ويتحوّل النقاش مباشرة للتفاصيل العملية.
يخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع لأن المصالح الضيقة بدأت تطغى على المصالح الكبرى.
على كلٍّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته.
بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تنجح خطة زملائه غير الأعزّاء.
"ولما عزمَت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان (نصّ حفريات)
أراد الإله إينكي إنقاذ الآدمية

فاختار زيوسدرا الملك
وعلّمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان
ويقيم في أرض العبور
أرض دلمون حيث تشرق الشمس".

يصرخ إينكي في الآدمي الذكر أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أنثاه قابلا بكل ما تريد حمله من عفش يعرف أنه غير ضروري. أخيرا يصبح زيوسدرا جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من مشاكل الآدميين، بل وهي أولى ضحاياهم.

تصرخ تفاحة:" با"، هذه قصة نوح!

كيف أفسّر لبنت في هذا العمر دون أن أثير فيها غريزة السرقة -بل وأشرّعها-أن البشر لا يسطون فقط على بلدانٍ وبنوكٍ ونصوص وآثار وزوجات وأزواج بعضهم، وإنما أيضا على أساطيرهم وآلهتهم.

تصرخ تفيحه فجأة:

- "با"، ما اسم سفينة نوح؟

- يا بنت متى ستكفّين عن إلقاء أسئلة لا جواب لها؟

تصرخ تفاحة:

- اسمها تيتانيك، "ما" حكت لي القصّة.

- أنا أيضا حكت لي "ما" القصة وأعرف اسم السفينة وليست تفيحه وحدها التي تعرف.

- كفى شجارا فالآدمية المسكينة تحت الطوفان والسفينة لم تكتمل بعد.

وفي مواصلتي للرواية بعد ادماج قصص الحاضر في أساطير الماضي، تنتهي الأشغال ويبحر كل مَن بقي على قيد الحياة وتبدأ السفينة في تسلق الموج والسقوط في هاوية تبدو بلا قرار.

جميل أن تطفو هذه السفينة والأجمل أن ترسو في مكان ما يكون حقا أرض الميعاد وفيها ما خرج الآدمي بحثا عنه.

في الأثناء كيف مقاومة الدوار وتفادي الارتطام بالسقف، والسفينة تقفز إلى السماء، وكيف تَفادي الارتطام بالقاع وهي تتهاوى إلى الأعماق. الغريب أن يطالبك الناس، وأن تطالب نفسك بتصويب الرمح نحو هدف لا يثبت على وضع، أن تلوم نفسك على كثرة الإخفاق والحالُ أن العالم لا يتوقف عن مباغتتك بحركة لم تكن في الحسبان.

لأوّل مرّة تفكّر حوّاء في الانتحار، عافت الدوار وملّت مشاكل لا ولن تنتهي واهترأت أعصابها ويئست من الوصول إلى أي برّ أمان. نعم، حان وقت التخلّص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعها في اليمّ أو أن يجرّب خلق حواء أخرى من عظم الساق.

مَن أدرى مني أن هذه الأنثى تمثّل علينا وعلى نفسها، أنها ستتدبر أمرها، إن أقدمت على الأمر فعلا، لتكون العملية مجرّد انتحار خفيف لا تبعات له سوى تسميم ليلة طبيب الحراسة.

ككلّ انتحار أنثوي خفيف لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر قبل افتعال رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم، أن تخترق أشعة القمر كثافة السحب ليراها آدم فيقترب منها وهي تفتعل عدم الانتباه.

أصرخ فيها: هيا خلصينا، اقفزي؛ فترمقني بنظرة سوداء.

حقا لا أفهم كيف أحبّتني "ما" طول حياتها ولا أتحدّث عن "ح"؟

البنتان بصوت واحد متثاقل:" با"، لا نحبّك إذا واصلت هكذا. ثم ترحلان إلى الضفة الأخرى للعالم.

يمكنني أن أواصل القصة لنفسي غير متيقن حتى الآن إلى اين اريد الوصول بها.

إذن تنفّس "إينكي" الصعداء وهو يشاهد تراجع حوّاء عن فكرة الانتحار وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلّة خبرة الربان. كل الأمور على ما يرام. كيف لا والصدى يدعم خطّه حتى ولو فضّل البقاء وراء الستار.

المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من صغار الآلهة -ومن بينهم عدد لا بأس به من الانقلابيين -إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرّد وإحالته على المحاكمة، وخاصة مواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.

ومما أسرّت به كالي في أذن أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:

- مسكين إينكي، لا شكّ أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثا عن الأرض الصلبة التي ستصلها السفينة. آه لو يعرف ماذا أعددنا له؟

ينقضّ جبل من جليد من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة نجاة الآدمية. ها هي تغوص في الأعماق وقد أصبحت التابوت والمحيطُ هو المقبرة.

هل يُعقل أن تموت حواء في اللحظة التي اقتنعت فيها بضرورة الحياة؟ وآدم المسكين الذي لا يعرف السباحة! ثم ماذا عن الحيوانات البريئة؟

أشعر بيد تفاحة على ذراعي وبضغط ينذر بتصاعد الرهبة داخل حلمها وحلمي.

يمسك آدم بشعر حواء يجرّها إلى الخشبة التي يمتطيها صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟ ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشدّه؟ تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟ يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبّين على متابعة الوضع باستغراب متزايد.

- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الآدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدّى، أصرّ، تمسّك، تشبّث بالحياة؟

تتضرّع حوّاء للمبهم المطلق: أعطنا فرصة أخرى. سنُنجح المهمّة هذه المرّة وسنعود لك بهذا الذي بعثتنا نبحث عنه.

إينكي على زورقه يجدف ببطء شديد متحسّسا طريقه في الظلام الدامس.

تصرخ فيه تفاحة: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، نعم هكذا، والآن ترفّق في جذبها وغَطِّها بسرعة؛ إنها تموت بردا، لا تنس إيتي وإلّا سترفض الصعود. والآن جاء دور "با"، ثم "ما"، ثم بقية الكائنات وأنا آخر من تصعد في الزورق. "با"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألستُ رائعة؟

بل أنتِ أروع من رائعة يا حبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برافو لك وللرب إينكي.

كأنّ صبرك نفد من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة.

مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والآدمية منذ انبثاقها مقسّمة بين إغراء لا يقاوم للوجود وحنين جارف للعدم الذي هربت منه.

**

عن الواحات التي تسترجع فيها الآدمية أنفاسها قبل العودة للطريق جريا وراء مهمتها المجهولة

آن الأوان لغلق ملف التجارب البشعة. لنورّق ببطء شديد صور البوم العائلة والعالم الآن بيت ضيافة نُستقبل فيه على الرحب والسعة.
تستيقظ تفيحه باكية، تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دميتها إيتي.
-" با"، حلمت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء وسرير مستشفى وأنت جالس حذوه تبكي... "با"، دثّرني.
تكفّ عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.
تتدخّل تفاحة بحزم:
- لن يكون في قصتنا إلا "كثيييييير" من اللعب والفرح. أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربتُ بالقصة إلى غرفتي.
في العالم الآن، قُل طوال حالة هدوء عابرة، تتواصل الملحمة وقد جمع الحبّ كائنَين رقيقين يَمزجان روحهما وجسدهما يفتحان وهما في ذروة النشوة طريق الحجّ للحاجّ الجديد والشاعرُ كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

"في ليالٍ كتمت سرّ الهوى — بالدجى لولا شموسُ الغـــرر *(لسان الدين بن الخطيب)*
مال نجم الكأس فيها وهوى — مستقيم السير سعد الأثر
وطرٌ ما فيه من عيب سوى — أنه مرّ كلمْح البصرِ
حين لذّ الأنسُ شيئاً أو كما — هجم الصبحُ هجوم الحرسِ
غارت الشهبُ بنا أو رُبّما — أثّرت فينا عيون النرجس
ساحرُ المقلة معسولُ اللّمى — جال في النفس مجالَ النَّفَسِ
سدّد السهم وسمّى ورمى — ففؤادي نُهبة المفترسِ"

وفي هذا العالم -بل قُل طوال حالته المباركة هذه-يتكوّر بطن حوّاء شيئا فشيئا فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقات القلب وأذنُه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.
تأمره بإعداد القهوة لأنه يتبجح دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق.
ثمّ ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذاقتها.
يفتعل التواضع يستحثّها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيه ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه-يدفع آدم محراثه يُخصّب الأرضَ السوداء ليحصد ما زرع، راضيا عن نفسه وعن سنابل القمح.
ينحني أمام الخبز الساخن الذي جادت به الأرض -الأمّ شاكرا حامدا.
يدخل إلى الإسطبل يمسح بعطف على ظهر البقرة الوالدة يهنّئها، يشكرها ويعِدُها ألا يأكل أحدٌ لحمها ولا لحم مولودها.
تصل تفاحة وتفيحه إلى العالم وهو في حالته المباركة هذه لا يعرف غيرها، والوصولُ كلَّ مرّة مثل حطِّ الفراش على عشب الصباح.
-تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحاب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما" قالت: ليس الآن، فلا بدّ من طبخ الكعكة في الفرن وأنا بحاجة إليكما. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": إذن خذا "با" معكما فهو سيزعجني إن بقي يتفرّج في إعدادي الكعكة وسيزعجني أكثر إن حاول إعانتي. والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ، لا أريد أيا منكم بين رجليّ قبل أن أدعوكم إلى الحضور. آنذاك لا يتلكّأ أحد فالكعكة لا تؤكل إلا ساخنة.
-تفيحه: ما هي إلا دقائق معدودة حتّى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "با" رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذوَ الجدول الرقراق متّكئا على جذع شجرة يصرخ: لا تذهبا بعيدا وإلا فسنأكل الكعكة باردة وستحتجّ علينا "ما". "با"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس تحذيراتنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا خوف من أي انزلاق وأنا أسكن الآن الوجه المضيء من العالم، ذلك الذي نعيش فيه أروح الأحاسيس والمشاعر وتأتينا فيه أروع الأفكار.
إذن كان آدم لا يريد شيئا غير التمتّع برؤية تفاحة تمرح بين الأزهار وتفيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كائنا لا زالت لا تعرف له اسما في غير عجلة من امره.

رويدا رويدا (إيسا)
تسلق جبل الفوجي
أيها الحلزون.

تفاحة وهي تهزّ والدها بلطف: ‘‘با’’، ارتفعَ شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعتُه لتفيحه. الآن أنت الذي ستَصنع لي إكليلا.
هيهات أن تخلص من إزعاج الأطفال حتى في هذا الوجه من العالم. هل من خيار آخر غير النهوض متثاقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعدّل من وضعها.
- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.
تصرخ تفيحه وهي في قمة الجذل:
- المطر... المطر... المطر!
ترفع البنتان عقيرتهما: "أنا أغنّي تحت المطر..."
- تغنّيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.
تلتقط تفيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكلّ مشغول بالشمسية دفاعا عنها وافتكاكا.
تنتبه تفيحه للأوامر القادمة من بعيد.
-’’ ما’’، تنادينا. عجّلا.
تنتبه تفاحة لأمرٍ قد تترتّب عليه بعض العواقب المزعجة. ترفع إصبع التحذير:
- انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضر من فرط الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك’’ ما’’. لا داعي لتتفطن للأمر.
تضع الأصبع بين أسنانها مستغرقة في التفكير.
- سندخل البيت خلسة ثم تعطيني البنطلون أنظّفه.
الحلف الأزلي بين البنت وأبيها ضد الأنثى الأخرى ولو كانت أمّا وزوجة... حلفٌ لا يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أبا وزوجا.
حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!
كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صبره ينفد من طول هذا الفاصل. أمسك بتلابيبه كما تتمسّك تفاحة بتلابيبي عندما تريد شيئا عاجلا. دخيلك انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.
تعود إلى العالم ابتسامته. ربحتُ هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.
هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مُواء القطّ. ربما لا يفعل سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. مَن يعلم أحسن منه أن هذا الآدمي الممعن في وداعته، إنّما يستعيد قواه للانقضاض عليه مجددا؟ على كل حال هذا عالم يفتعل كالآدمي البحثَ عن الاستقرار والتوازن، والحالُ أنه لا يخشى شيئا قدر وصولهما، ربما لأنه يعرف أن أكمل حالتهما ما تعرف المستنقعات والمقابر. المهمّ أن تدوم الأُلفة أطول لحظة ممكنة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الآدمي العالم وشأنه لا يحاول تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الآدمي وشأنه لا يريد امتحانه، أو ترويضه ولا التخلّص منه.
نتدافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجِه منعا صارما بدخول بيت نُظّف لتوّه ونحن بكل هذا البلل والوحل ملء أحذيتنا. تصرخ الزوجة المزمنة والأم الأزلية:
- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم -وخاصة سيادة الأب-مسؤولية الزكام وما ينجرّ عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكرا على الباقة يا حبيبتي إنها جدّ جميلة. سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئا بخصوص الأحذية.
تُنزع كلُّها في البهو ولا مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.
تراوغ تفاحة كسبا للوقت.
- أَعِدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي ليست لذيذة إذا بردت.
- الدلال مع ‘‘با’’ فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدّد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدّيَة الأمر واستحالة تجاهله. أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زَهوها وهي ترى النجاح الباهر لكعكتها.
تحتجّ ضاحكة: كفى قُبَلا بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنّكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال!
تستعيد تفاحة زمام مبادرة أفلتت منها أطول مما تحتمل.
- "با"، الآن نلعب لعبة المدرسة وهذه المرة أنا المعلّمة، وأنت و "ما" وتفيحه التلاميذ.
- طيّب، إذن تفاحة معلمتنا ونحن التلاميذ، تفيحه على يميني و "ما" على يساري.
تقف أمامنا تفاحة تلوّح بعصاها وعلى قسماتها علامات الأمر والنهي.
- سنبدأ الدرس. لا أريد التشويش من أحد. تلميذ ‘‘با’’، كفّ عن الضحك وكذلك التلميذة ‘‘ما’’. تفيحه، اكتبي في كراسك: ذهب قابيل إلى الغابة وعاد بباقة زهور إلى أمه.
تصرخ تفيحه: سيدتي، التلميذ ‘‘با’’ قرصني، قرصني، قرصني!
- بريء والله يا سيدتي بريء.
من يدري ربما أكون فعلا بريئا.
تحتجّ التلميذة ‘‘ما’’:
- أنا من قرص تفيحه؟ يا ولد يا كذّاب.
يشتعل حريق المسطرة في أصابع طفل ذاق الأمرّين من مساطر المعلّمين.
أصرخ آه يا أصابعي، فتأمرني تفاحة بالصمت ثم بقراءة أول صفحة من كتابها. تتبخّر الأحرف أو بالأحرى تصبح هيروغليفات لا أعرف لها نطقا. يتعثّر لساني لا أمثّل أو أفتعل. إنه رفضُ وَعيي الباطني التعرّف على الحروف، بل قُل الاعتراف بها حيث لا مكان للكتب والكتابة في عالم كهذا استعاد أخيرا عافيته. تقول ماذا عن الشعر! حتى الشعر، خاصة هو، فأغلب ما فيه صراخ الألم لا يغفر له حتى أنه صراخ أنيق.
ينفد صبر’’ سيدتي’’ من تواصل قرص تفيحه ودغدغة أمها.
- تلميذ "با"، أنت تشوّش. قف ووَجهُك للحائط. معاقَب لنهاية الحصّة.
أقفُ أمام الحائط وقبعةٌ من الورق فوق رأسي تثبت ما لا داعي لإثباته، فالكل يعلم منذ قديم الزمان أنني حمار القسم. تسترجع الذات بسرعة عاداتها القديمة مع كل الحيطان التي أوقفوني أمامها. ستكون جولة ممتعة في الشروخ والبقع. لكنني الآن في غير العالم الذي كنت أقف فيه أمام الحائط أكفّر عن ذنب لم أرتكبه. هذه حالة خاصة جدا يتوقف فيها العقاب حال بدايته، على فرض وجود العقاب فيه وحتى فكرته.
- تلميذ "با"، عد إلى مكانك ولا تقرص تفيحه مرة أخرى... لا، من الأحسن أن تجلس على الأريكة شريطة ألا تغافلنا فتنام.
تصرخ تفيحه: أنا المعلّمة. تثب على أختها تفتكّ منها العصا. تبدأ في إعطاء الأوامر. تنهمك تفاحة في قراءة النص الذي أُمرت بقراءته. تغتنم "ما" الفرصة للانسحاب وأغتنمها لدخول قوقعتي.
تقطع عليّ عودة الإغفاء معلومات متفرّقة عن نشوب شجار آخر بين سيدتي وتلميذتها المشاكسة، عن يد ترفض بقوّة تسليم أناملها الخمسة لحريق المسطرة، عن لسان يخرج في ظهر المعلّمة يستفزّها. لا شيء جدّي في هذه الخصومة فنحن في عالم لا نريد به ولا يريد بنا شرّا وإنما من الخير أقصاه.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة هذه-يتصاعد صراخ الصبية من كل أرجاء المعمورة يَدفعون بعضَهم بشدة مفتعَلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبّون شيئا قدر شدّ شعر البنات.
والله -يا سيدتي-لستُ أنا، لا بل أنت بشهادة الجميع. يكذبون علي، يا سيدتي. آه يا أذني. والآن كفّ عن الركض أصَبتني بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك. لكنها هي التي دفعتني، وأنت كفّي عن إخراج لسانك لأخيك ومزيد تهييجه، يكفي ما فيه من الهيجان.
أنا قلتُ لا أشرسَ من الآدميّ وهو طفل، لا أعنف من الآدميّ وهو طفل، لا أظلم من الآدميّ وهو طفل، ولا أشدّ أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوبٌ في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. إنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قراصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض.
عزيزاتي الأمهات والجدات والخالات والعمات -خاصة المسجلات في القوائم الانتخابية-والله تَقديمي كمعارضٍ بدائي للرضّع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليلُ أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بوُسعي

إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بفتيحة من النافذة حتى عندما تبولتا عليّ أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقلّ هذه اللحظة-أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحِك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.
وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه-يعكف الطفل على كراس يضيئه نور المصباح. يهرش رأسه، يتثاءب ويغفو. ثم ينتبه فيعود إلى التمرين يتعلّم تصريف الأفعال بانتظار اليوم الذي سيخرج فيه باحثا عن الفعل الذي كان له البذرةَ الأولى. يسقط الكِتاب من يديه ويسقط رأسه على الصدر فتتقدم "ما" على أطراف الأصابع تحاذر ألا يصدر منها صوت. تجمع الأقلام ببالغ الرفق. تحمل ابنها ببالغ اللطف للفراش. تمسح على شعره تُغالب ضحكها. تطبع على الخد الصغير قبلة الحنان والحبِّ واضعةً على جَسده النحيل كمًّا خانقا من الأغطية بحجة قدوم الشتاء وسرعة إصابته بالرشح.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة هذه-يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صوره الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظِّم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى المشمش هذا. تبدأ المباراة بتصفيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها القذفة البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداس نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغشّ. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

وفي هذا العالم -بل قل: طوال حالته المباركة هذه-يجلس آدم وقد هدّه تعب يوم حافل على باب الحوش مع تفاحة وتفيحه وأبناء الأعمام والأخوال والمروحة في أيديهم.
إنّها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة، كم من مواضيع ستشدهم بالحديث إلى آخر هزيع من الليل وهم مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح.
وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصِل العمات والخالات تبادل آخر قصص القرية ومَن تزوجَت ومن أنجبت ومن فطمت ويا لشقاوة الأطفال ونبوغهم المبكّر، أما الرجال فالله وكيلك، لكن "الله يخلّي لنا رجالنا".
كل القصص عن جيرانٍ وَصلوا مواعيدهم متأخرين... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطار الريح غسيلهن فجاءهن به الجيران... عن الزواج الذي تأخّر أكثر من مرّة لعدم توفّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أمرضتها يوما قبل الامتحان فقبل المعلّم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى كاملة للضيوف.
كل الأفعال في هذا العالم -أو قل في حالته المباركة هذه-هادئة، سهلة، بسيطة بلا تكلفة أو رهان... بلا أهمية في عرف ذلك العالم الآخر الذي سنواصل التعفّف عن وصفه.
"الحياة اليومية (رانبو)
بأعمالها المتواضعة السهلة
مهمّة بامتياز
كم تتطلّب من الحبّ"
حقا كدّست السخرة على مر العصور كم من معالم مبهرة اسمها الاهرام وانجكور وآيا صوفيا والتاج محل وبرج ايفل ، لكنها كانت من لعنات العصور المظلمة التي استهلت بها الآدمية رحلتها الصعبة والآدمي يكاد يكون أثمن صيد للآدمي الآخر. لكن في هذا العالم –أو قل طيلة حالته المباركة هذه-لم يعد العمل لعنة تنهك الجسد بكل أصناف الألم وتنهك الروح بالإذلال والقهر والظلم جلّ ثماره للأقوى للأعنف وللأكثر جشعا.
العالم الآن حديقة والآدمي هو البستاني، ورشة والآدمي هو المهندس، شبكة تتحرك داخلها بسرعة الضوء الأفكار والأحلام والمشاريع والآدمي العامل الحرّ الخلاق المبدع.

وفي هذا العالم -أو قل طيلة حالته المباركة هذه-في مستقبل لا نراه بعيدا-تواصل المذيعة الجميلةُ ذاتُ الشعر الأشيَب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خرير ماء السواقي "من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علِمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفّونهم بكل ما يقدر عليه الآدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفرة داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولطفٍ غير مصطَنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصّي الموضوع صرّح لنا سُوّاق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرون وافترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رَفع المسافرون السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل الخلل الحاصل هنا وهناك. والآن نمرّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان. "

وفي هذا العالم -أو قل وهو في حالته المباركة-على الطرف الآخر من المدينة لي موعد آخر مع جحافل تتدافع داخل ملعب لن نحمّله وزر بقية الملاعب.

أمام مدارج هذا الملعب المكتظ الليلة بعشرات الآلاف من النظارة والضجيج في أوجه، يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئا فشيئا يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهبا تحسبه ذراعا مرفوعا إلى الأعلى ينتهي بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسّم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة الشماريخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاخب جذلان وبداهة سعيد.

ينتصب أحد النظارة واقفا. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبد.

إلى من تتوجه صلاة المتفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبّه جل سكّان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاربهم: الرب "كاسلعالم".

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها العالم.

يسحب الصنم بعيدا إذ لا يجوز ابقاءه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التواري بعيدا عن الأنظار ليبقى محفوفا بالغرابة والسرّ.

يتواصل الحفل بفريقين من الآدميين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض يتسابقان تحت أنظار الحضور الكثيف لتسجيل أهداف صعبة المنال ترمز لطول جرينا وتشوقنا للحظة نسجل فيها نحن أهدافنا.

بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي مبتذل طبقة أعمق من الرسائل والمعاني.

الآن وهنا، أخيرا ولو لزمن قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود... لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء... على المدارج لا اثم ولا فسوق... على الساحة لعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للغشّ والظلم...وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفوض من قبل الربّ المخفيّ يعاقب فورا وعدلا كل من يتطاول عليها.

كيف لا يتفجّر الفرح عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الآدميين مأساة مسترسلة أخيرا تحت السيطرة!

نعم، ظاهريا نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في قداس تحتفي فيه البشرية بتحقيق كل ما تسعى اليه جاهدة منذ بداية ملحمتها في هذا العالم.

إنه حفل ديني مكتمل الصفات قد يوصف بالوثني والوصف لا يغير في الأمر شيئا، كم عبد البشر من أوثان قدوا من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار!

كم تغيّرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر.

كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير.

آه لو قيّض لي أن رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة آلاف سنة والمائة ألف سنة المقبلة!

سقف الملعب الضخم مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة قوى الدمار والموت التي تزمجر حولها وداخلها.

في كم من أماكن على سطح الكوكب تتدافع جماهير الفريق المنتصر حالاّ بعد انتهاء المباراة لتفجّر في الشوارع والساحات كل الفرح المطمور داخلها. لألحق بقية الركب أصرخ مع الصارخين ولو بالخيال لا بالجسد. يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرَجا. يجب أن أسخن أكثر فلست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودتُ على وجودهم في الصورة بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهراواتهم الموجِعة.

بخصوص الاحتفالات التي لا تنتهي في العالم -أو قل وهو في حالته المباركة هذه-ثمة أيضا حفلٌ تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملوّنة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفرّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بداهة ثمة في العملية سخرية من الحرب والناسُ ترمي بعضها بعضا لا بالرصاص والغازات السامّة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تسمّم حياة الآدميين وهم أخيرا سواسية صَبغت وجوهَهم وثيابَهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحُهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

الفرح! الحالة التي نخرج فيها للشارع وثبا ورقصا، تفجرت داخلنا طاقة جبّارة تَفجُّر بركانٍ طال خموده... الحالة التي يتعطّل فيها الكلام لينقلب صراخا عند الذكور وعند إناثنا زغاريد... الحالة التي تتوهّج فيها الروح وقد أصبحت شعلة من النار والنور... حالة هناء وهي تركل برجلها اليسرى كرة من المطاط راكضة وراءها تصرخ في قمة الجذل... أثمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... أَبلغُ صور الرؤيا لنجاح هذه المغامرة التي نسميها الحياة... نعم، الفرح هو اللحظة التي هي بِغنًى عن كل الزمن الماضي وعن كل الزمن الآتي وقد اكتملت في اللحظة الراهنة تجربة الوجود.

ألا نجرّب أن كل ما زاد عن حدّه ولو كان الفرح يصيب بالقرف. هذا ما يقودني إلى الحديث عن أفضل الأماكن لديّ في هذا العالم أو قُل في حالته المباركة هذه. إنّه نادٍ اقتطعَه مراهقون داخل عاصفة الضجيج والصخب يُنزع فيه كل ما يشحذ الانتباهَ والفعلُ الوحيدُ المسموح به عدم الفعل. أخيرا يمكنني أن أضع رَحلي، أن استلقي على أريكة وثيرة.

"لا أفكّر في شيء (فرناندو بسّوا)

وهذا الفراغ

لذيذ كنسيم ليل

بعد يوم قائظ الحرّ"

ها هو آدم يترنّم لنفسه بكلمات أغنية تُعبّر أحسن تعبير عن تصالحه مع نفسه ومع العالم.

"أشجار تزهر

زرقة السماء.

ألوان قوس قزح

صراخ الأطفال

أصدقاء يصافحون بعضهم

قلت في نفسي

'What a wonderful world !

وفي هذا العالم – أو قل في حالته المباركة هذه – لا حاجة لك للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن اقاصي الجنوب لأقاصي الشمال لتتأمل معجبا ومنبهرا أهرامات مصر وكاتدرائيات أوروبا وسور الصين والتاج محلّ وكاب كانفيرال وحدائق كيوطو والحمراء وفيلاندري وشومون ومراكش.

أنت الآن في عالم أفضل الأماكن وما أكثرها على مرمى حجر.

تصرخ تفيحه أن القصة قصّتها وأنها لن تقبل إلا بأفضل مكان لديها خاصة عشية الأعياد. موافق. لنطلق داخل متجر العاب الصغار نضحك لانبهارهم أمام ما يزخر به من دببة ونمور وفيَلة من الصوف ودُمى من كل الألوان. هل تأملتهم وأفواههم مفتوحة دهشةً وجشعا. كم تغفر لهم أنهم كانوا رضّعا وأنهم سيصبحون من جنس المراهقين بعد سنوات ستمرّ بسرعة البرق. على كل حال العالم كله في حالته المباركة هذه حديقة ألعاب للصغار والكبار على حدّ السواء.

ألم يصنع لنا الأمواج نسرجها ألواحا نمشي فوقها كالمسيح بلا عنت؟

ألم يخلق لها سطحا وأعماقا نسبح فيها كالدلافين نسابقهم ونبزّهم في القفز فوق تلاطم الزبد؟

ألم يشيّد لنا جبالا نتسابق مَن يَصِلها الأول ننزل منها تزحلقا على الجليد يدفعنا الريح والجذل.

ماذا لو أخذنا برأي حواء: حديقة عمومية تدفع فيها أم جميلة عربة رضيعها تجلس بالقرب من البركة الصغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنضف إلى الصورة العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تتدافع إلى نصيبها من الحَب ومن الحُب.

تقول: لا تنسَ أن للرجال أيضا حقوقا. لنخصّص لهم مقهى صغيرا على الضفة الأخرى للبركة يسعدون فيه باحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر النكت. حتى أكون داخل الصورة سأجلس على العشب والظهرُ مسنودٌ إلى جذع أرزة أملأ عيني من كل هذا الجمال الوديع، أتنفس ملء رئتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوّه.

يا بَشر، ذلك الوجهُ البشع للعالم، تصارعوا، تنافسوا، تصايحوا، تخانقوا، تقاتلوا، لكن رجاءً تبخّروا من وعيي ومن ذاكرتي، لا تفسدوا عليّ هذه اللحظات.

الخطأ الكبير تَوهّمنا أن هناك محطة للراحة سنضع فيها رحلنا نهائيا... والخطأ الأكبر عدم الانقضاض على ما يجود به العالم على طول الطريق من عطايا الآن وهنا.

نعم الأسواق أَحبّ أماكن الفضاء الحسّي لي والعالم في حالته المباركة.

أحبّ الوانها، أحبّ روائحها. أحب صراخ الباعة يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر.

أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأي عنف أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي إلى ما بعد فسحة الروح والجسد. أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ.

أحبّ أكثر التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار وشتى أصناف التوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي بعناية ما سيمكنني من طبخ الذّ طبق تطرب له براعم التذوق ولا بأس أن يساهم في الحفاظ على صحتي وعلى معنوياتي.

كذلك الأمر مع أسواق الفضاءات غير الحسية التي تعرض ما تجود به العقول والقلوب.

أحب التجوال فيها عندما أغلق العينين ما تراكم داخل ذاكرتي من قراءات لم تتوقف منذ أن بدأت أفك طلاسم الحروف.

ما يميزها عن تلك التي تزيّن الفضاء الحسي أنك قلما تعثر فيها على باعة لطاف. جلهم عصبيون متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين المساكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تتبضع عندهم فالويل لك والثبور.

لم أعد آبه لصراخهم منذ زمن طويل أشيح البصر عن اجتهادات تقادمت صلاحيتها مند قرون تسمم الفكر كما تفعل الخضر الفاسدة عندما تصيب الجسم بالإسهال والحمّى. كم تراكم على العصور من الفاسد والقبيح والمضرّ منها.

ثمة ولحسن الحظ منتوجات الحدس الصائب والرؤية الثاقبة هي التي سأغرف منها بكل امتنان ما سأحتاج يوم تتقدم أشغال بناء بيت الروح الذي اسميه الرؤيا.

على ذكر ما تزخر به أسواق الفضاء الحسّي من طيبات الأكل والشرب، أقولها متحملا كامل مسؤولياتي: لا وجود لمكان يستأهل أن يكون مركزَ عالمنا وهو في حالته المباركة هذه إلا ذلك المكان الذي تتوسطه ثلاجة عامرة تطمئننا أن عهد المجاعة ولّى إلى الأبد...خاصة عندما يعبق برائحة القهوة الساخنة وبعطر نسائي خفيف.

المطبخ؟ طبعا! المطبخ وما أدراك ما المطبخ.

تُبدي تردّدا في الاعتراف بوجاهة خياري! بربّك أليس هو أولُ مختبر تمعّن فيه الآدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه علومنا ونحن نسحق الأشياء، نذوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبرّدها ونسخّنها ونتمعن في النتائج، تارة هي كوارث وتارة أخرى هي ألذّ المفاجئات؟ حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، لكن مَن يجادل في كونه المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلَتنا إلى الاستنساخ.

هنا لا يَفوت النصَّ تقديمَ بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطُررنا -مع بالغ الأسف-إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لما عَرف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظّة مُعتبِرا زلّة لسان لا تُغتفر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا.

أغتنم الفرصة هنا للتقدّم بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.

تقول، نسيتَ الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. مَن مَنعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسببَ في آلاف قتلاها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة. بجدّ من أعانك أكثر أوقات الشدّة؟ البقلاوة والمقروض والغريّبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية وبصفة عامة السكر والعسل والزبيب والفستق واللوز والبندق... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر ونابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

كل هذا لا يمنع من القول-من وجهة نظر الآدمي طبعا-أن كل الأفعال التي تمارَس في المطبخ حلالٌ لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأَخصُّ بالذكر منها أفعال أكل، تذوّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمدّ قيمتها من عالمٍ عَبَره أغلبُ المسافرين وفِعلُ جَاعَ أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروص، بريك بالتن، طاجين جبن، بسيسة بزيت الزيتون والحلوى الشامية والمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست بِربّك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الآدميةُ النهمةُ تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسطيلة والمعكرونة بفواكه البحر والسوشي والكرّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق والسيبوجن؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

مواصلةً في نفس النسق الذي قد يعتبره البعض استفزازا.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحا أنه إذا مات المستهلك بالتسمم فإنه لا يتّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شك في السلامة العقلية للطباخ؟

أخيرا لا آخرا، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة، أو تعدّل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرّ القرون تجرَّب بإصرار تقتل الناس وتصيبهم بالإسهال الحادّ ولا من مجال للتخلص منها ومن أصحابها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟

تصور في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف المتدينون والسياسيون كما يتصرف الطباخون.

وفي هذا العالم – أو قل في حالته المباركة هذه – ثمة حائط للبكاء على حالنا وأيضا للضحك منه.

يا رجل ما هذا البكاء المحتشم؟ خذ المثال من النساء. سهولة بكائهن من أسباب طول أعمارهن بالنسبة للذكور المعوقين بكائيا.

لا تجبرني أن أصرخ فيك: ليس هكذا. استحضر كل أحزانك المخفية. استرجع كل الإهانات، كل الأوجاع، كل الأحلام الضائعة، كل الفرص التي لم تسنح، كل الأخطاء والخطايا، كل المصائب، كل المحن، كل الإخفاقات. اترك كل ما دفنت من حقد ومن غضب ومن نقمة يتصاعد من أعماقك. لا تخش ولا تخجل ولا تتحرّج فكلنا في الألم سواء. ارفع كل القيود. اضرب صدرك، تمرّغ في الأرض، مزق جيوبك ولا تهتم بمنظرك فلا أحد يهتمّ، لكن رجاء لا تندب وجهك. نعم هكذا. جميل جدا. والآن كفى. قلنا: كفى، أصبح الصراخ تمثيلا.

يمكنك المرور للجزء الثاني من الطقس. ضع رأسك على صدر من تطهّر قبلك يمسح بلطف على شعرك يواسيك ويداعبك إلى أن تهدأ كل الشجون.

تجعلني معرفتي بالآدميين شبه متيّقن أن البعض سيغتنم الفرصة، إذا كان الصدر أنثويا لمصّ الثدي، وإن كان لذكر اختلاس حافظة نقوده... حوادث فردية لبعض السفهاء لا يجب أن تثنينا عن تبني تقنية كم فيها من منافع للباكين والحاضنين.

بقية العملية منقولة عن كل حمام يحترم زبائنه: الماء البارد بعد البخار الحارق. توجّه مباشرة للحائط المقابل. إنه حائط المضحك. هذه آخر نكتة عن الوجهاء الذين بنوا حائط مبكى من المرمر لا يبكي حذوه إلا من دفعوا اشتراكا باهظا فيه معلوم التمرن على أصناف جديدة وأنيقة من البكاء الارستقراطي. ما الجديد بخصوص آخر التعليقات على المتدينين والقضاة والأبطال وأجهزة المخابرات والمضاربات؟ آه إنه اليوم مخصصّ للتنكيت على النصّ وعلى صاحبه. أما والله إنكم لا تستحون.

أرجو أنك تطهّرت بما فيه الكفاية، أنكم تطهرتم كلكم من عيوب تنبت باستمرار كالأعشاب المضرة ولا حل-ولو جزئي ومرحلي-غير تعهدها الدوري بمقصّ السخرية.
آه هذا جزء صغير من نفس الساحة خصّصته ليكون ساحة شرف لمن يحبون الحرب. إن كنت منهم لا تنس أسلحتك من بالونات ضخمة ورشاشات ألوان فاقعة ومخدات غرفة النوم. أطلق العنان لغرائز العنف فيك. كل من تصيبه بضربة بالون بارعة أو تمكنت من رشّه بالألوان، عدوّ بغيض خلّصت العالم من شرّه، لكن احذر أن تستشهد كثيرا. تسأل: ماذا نفعل بكبار العنيفين الحالمين بالتصفيات الجماعية والمحتشدات الضخمة؟ حتى هؤلاء فكّرت فيهم يا من تسخر من النصّ ومن صاحبه. نأخذهم إلى مكان خصصته لهم فيه دمى من البلاستيك شبيهة لأقصى حدّ برؤسائهم وأزواجهم وأطفالهم، وعموما بكل البشر الذين يكرهون، ثم نمدّهم بسكاكين لتقطيعها، وإبر لوخز عيونها، وأخيرا بصفائح بنزين وولاّعات لحرقها وذرّ رمادها في كل اتجاه.
تقول كم أشعر بالتحسّن أخيرا، لكن ألا يخشى من قيام انشقاق مذهبي خطير بخصوص من يقف على باب حائط المبكى لإرشاد الحجاج. ثم لمن سيعهد بمهمة مراقبة من يضحكون من السلطات العليا؟ ماذا لو تحوّلت ساحة المعركة برشاشات الألوان إلى معركة برشاشات الرصاص إذا غضب الحكام من انتشار عادة حرق دماهم في حفلات صاخبة؟ مشاكل لا معنى لها إلا في الوجه الآخر للعالم ومن ثمّ لا داعي لأن نشغل بها بال خالي من كل المنغّصات والهموم.
وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا مَوجة من الرعب لفظاعتها ومن التثاؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للقوم طقوس تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرّة إلى فارس العدوّ؟ من؟ المهرّج الرسمي!
الذي يرافقه في حلّه وترحاله ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدوّ، أو ليضحك من مضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهرّجون... أو كقرار غبيّ من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار.
يستعطف أبو دلامة مولاه مذكّرا إيّاه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ.
عبثا.
آخر استعطاف: بما أنه قُدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شبعانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟
يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمّنا في قرارة نفسه قيام المهرّج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله.
يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغى".
من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدّي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما.
داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه.
ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبُه شاهرٌ... دجاجة محمّرة.
المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شيئا يشبهه:
أبو دلامة: أتعرفني؟ ا
لفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.
-هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفّ بعد؟
- لا والله.
-هل هتكتُ لك عرضا؟
-لا واللّه.
-هل قتلتُ لك أبا أو أما؟
-لا واللّه.
-هل ظلمتُك يوما؟
-لا واللّه.
-هل سرقتُ منك شيئا؟
- لا واللّه.
-هل جاءك واش بكلام قبيح يَدّعي أنني قلته فيك؟
-لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العَن الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز.
ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس تتفرّج في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهم الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.
للّه درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأدعياء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، ورَبّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسما وروحا.
أنت من أدرك أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في العيش والدفاع عن الحياة ... أن البطلات هن النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهن على الطفل المريض وفي طول صبرهن عليه سنوات وعقودا...أن الأبطال هم الرجال في خروجهم للصيد الخطر، للحقل الغارق في الوحل، للمنجم الخانق وللمحيط المرعب... ومع هذا ترى من يتدافعون لساحات المعارك يريدون إثبات ما لا حاجة لهم لإثباته وما لا يثبت في كل الحالات بهذه الكيفية وإنما بعكسها.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة هذه-يخترع الجنود الإضراب عن القتل يغتنمون فرصة عيد الميلاد للخروج إلى العدوّ الغارق مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفئرانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصبّون سخطهم على أكلٍ لا أبشع منه إلا ضُباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة فتنقلب ساحة القتال إلى ساحة لعب يتدافع فيها كهول استعادوا إنسانيتهم باستعادة قدرة اللعب. يتعالى صراخ المرح والضرباتُ البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين مرمى الخصم بما أنه لا أحد يعرفه ولا يعرف حتى مَن هو الخصم. المهم الجري وراء الكرة ودفعُها في كل اتجاه ليفيق الطفل داخل الكهل. ينتبه اللاعبون لجثث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمّرون عن سواعدهم لدفن مَن سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع هؤلاء المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

وفي هذا العالم -أو قل طوال حالته المباركة-نهايةُ الحياة كبدايتها مجرّد انتقال من وضع إلى وضع.
يختار الشيخُ الموفورُ الصحةِ مَوقعا مريحا وسط الأعشاب والأزهار. يستلقي على ظهره يتابع -كما فعل دوما-مرح قطعان السحاب. ينتبه إلى شبح شيخ منحنٍ على الأرض يعدّ بمسحاته القصيرة المعقوفة الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر. يرفع الشبح رأسه يجيل حوله البصر انتبة لوجود الخيال الحبيب. يمسح جبينا بَلّله العرق ثمّ يعود إلى مسحاته يضرب بها الأرض ببالغ اللطف كأنه يخشى عليها من الوجع. ينتصب مجددا ينظر للذي يلاحقه بالنظر. يرفع يده مودّعا ثم يختفي.
تأخذ سحب عابرة كل ألوان الورد تحضّر لمراسم الغروب. تضع السماء نقاب الليل وتلمع في الأفق أولى النجوم. يتضح مغزى الوصية التي حاول الطفل فكّ رموزها يوم كان واثقا أن سماء الليل سبورة الكون والنجومَ أحرفُ رسالة كَتبها له صديقه الله.
يُغمض الرجل عينيه وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكارٍ قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلاوة أصوات النساء. تصل الصلاة ذروة الجمال والجلال تتضرّع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه:" ابق معنا، ابق معنا" كأنّ الصدى نفسه ينفخ بقوة في منديله هامسا: تطالبونني بالبقاء لا تعلمون أنني كنتُ دَوما معكم" بين الضلوع تقلّبه الأنفاس جنبا إلى جنب."
لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته العتمةَ والمطيةُ نغم.
نعم، كم صدق الشاعر:
"ثمة شيء محبّب (شيكي)
في هذا العالم
الذي جئناه للموت" **

هل تكون المهمة التي خرجت من أجلها الآدمية إعادة خلق العالم عبر ما تسميه الفنّ؟

تهمس الأم في أذن ابنها أصبح مراهقا.
- يا بُنيّ إنك تصمّ آذانَ الجميع والجيرانُ يتذمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تَسمعُها ليلا نهارا؟
- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.
ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئني نصفَ عارٍ، منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان أقود بمسطرة الحساب الأوركسترا الضخم في فضاء لا تراه لا هي ولا مَن يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.
- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقّا بدأتُ أخشى أنك...
لوثة من الجنون؟ كلّا وإنما موجات متتابعة من الفرح الغامر والروحُ في وصال مع مستويات مجهولة من الموجود.
تخامر المراهقَ يوما فكرةٌ غريبة، الوحيدةُ التي نجحَت في إخراجه من الإدمان على نفس الأنغام الساحرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة، ومَن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا لو!
يتوجه المراهق لبائعة الأسطوانات:
- سيدتي، هل لك سمفونيات أخرى لبتهوفن؟
- آسفة لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي
- مَن؟ لا أريد إلا بتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيَت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تتّسع ابتسامة العجوز وهي تمدّ إليّ كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلّف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة تبغ.
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغنِّي ليس بتهوفن.
تتجدّد المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى مَن يتوجّه بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزءٌ من الشكر لامرأة رَحلت منذ زمن بعيد ورفضت إلى النهاية أن تُصدِّق أن صبيا بذلك العمر ومن أمّة أخرى يمكن أن يهيم حبّا بكل سمفونيات بتهوفن، أن يجعل من التاسعة ملجأه المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.
تمرّ السنوات ويمكن للمراهق وقد أصبح كهلا أن يحضر حفلا تُقدَّم فيه السمفونية الخالدة.
يومها تَأجج الانتباه بالغا أقصى قدراته لتترسخ قناعة أنه لا شيء يبرّر وجود الآدمية ويغفر لها موبقاتها عدا قدرتها على إيجاد الموسيقى.
القاعة غارقة في صمت مَهيب والكل يحاذر من الكلام أو من السعال والعطس.
الآدميون جالسون جنبا لجنب وأيديهم خالية من كل سلاح.
كلهم انتباه، انتظار، تشوّق إلى شيء يعلمون أنه سيحرّك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجرّونه إلا نادرا.
أين تَرى تصرفات كهذه إلا في المعابد؟ لكن ألسنا فعلا في معبد وبصدد ممارسة طقس قدسي؟
تَأمّل العازفين. هم خلافا للمثّلين لا يواصلون صراعات ما نسميه الواقع، لأنهم خرجوا منه وعليه.
تأمل تلك المرأة التي ستعزف على الناي. إنها لن تغرس أظافرها في عنق زميلة لم تَعد في هذا المكان منافسة.
ستواصلان الانتباه كل واحدة لِما تفعله الأخرى وستتعاونان تعاونا وثيقا صامتا.
لا وجود الآن وهنا لصراع نرجسيات. لا عازفَ ضرب أو سيضرب عازفا آخر لأنه يشوّش عليه ويسرق منه الأضواء. لا أحد خرج أو سيَخرج غاضبا بعد رمي آلته على الأرض لأنّه لم يأخذ حقّه من العزف.
المهمة الآن وهنا موَزعة بكيفية مَرْضية لا تحتاج إلى قاضٍ أو محامٍ. هي مبنية على انضباطٍ حرّ، على ثقة متبادلة، على تظافر الجهود وكلُّ فرد يعلم أن نجاحه مرتبط بقدرته على التناغم مع كل الآخرين.
كم هم مُدهشون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان!
كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون!
أين ومتى ترى شيئا كهذا في علاقات الآدميين ببعضهم بعضا؟
تأمّل الآن الآدمي الواقف مديرا ظهره للمستمعين وعصاه المرفوعة إلى الأعلى، ستَرسِم في الفضاء أوامره ونواهيه.
لا أحد سيصرخ أنه غير متفق على ما يَأمر به. لن ينهض أحد ليَفتكّ عصاه بحجّة أنّه أصلحُ للقيادة. هو لا يستبدّ بقرار أو بأحد عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخرَ برفع الصوت ورابعا بخفضه.

هو مُطاع لأنه يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده همُّه الوحيد مهمته الكبرى، إبرازُ المواهب والتنسيقُ بينها. إنه السيد الخادم الكفء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون نموذجُ كلِّ مَن يملك سلطةً هذا الآدميُ الذي تُنَفَّذ أوامرُه ونواهيه وهو لا ينطق حرفا ولا يهدّد أحدا.

إن نظرتَ إلى طيف التنظم عند الآدميين تجد العصابة في طرف وفي الطرف الآخر الجوقة... أقصى الهمجية والفوضى، أقصى التحضّر والانضباط ووراء المعجزة الموسيقى.

فجأة يرتفع صخب يدشّن به العازفون كل حفل، ربما ليذكّروا بما تصدره الآلات من أصوات مُنكَرة عندما لا يَفرض عليها الآدميون الانضباط.

ثم يصمت النشاز لتتصاعد من آلاتٍ بالغة البساطة أنغامٌ لم ولن تفقد سحرَها أيا كان المكان والزمان.

نصيخ السمعَ للتأكّد من غياب خطر ما، والأصوات، أَصَدرَت من الكائنات أو من الأشياء، إنذارٌ، تهديدٌ أو طلبٌ.

الآن وهنا، الأصوات المتصاعدة من الجوق لا تنذر بخطر، لا تهدّد بعقاب بل ولا تطلب شيئا وهي قمّةُ البَذل.

على أقصى طيف التجربة البشرية: صراخُ الرعب والألم المتصاعدُ من ساحات الحرب... على أقصى الطرف الآخر أنغام ساحرة تشفي أوجاع الروح والجسد من معابد الجمال والفنّ. مطلق الصراع والفشل هناك، قمّة التعاون والنجاح هنا.

في علاقتها بهذا العالم الذي تبلورت فيه وانبثق فيها تعبّر الذات عما يعتمل داخلها من عواصف ومن هدوء بالألوان فيكون الرسم، بالكلمات فيكون الشعر، وبالأصوات فتكون الموسيقى.

ها هي تتحرّك بنسقها، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى حيث النور ولا شيء غيره.

انطلقي يا روحي إلى ما وراء الحواس، إلى ما وراء الأفكار، إلى ما وراء أحلام النوم واليقظة، حلّقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترَقّعي، توهّجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق.

يا للمهندس الألمعي الذي جَمع هذه الأصوات وفرض عليها النسق والنظام مستخرِجا من فوضاها شكلا، من تفرقها وحدة، من تنافرها تجانسا، من بلاهتها ذكاء، ومن قبحها كل ما يزخر به العالم من جمال!

العالم الذي نعبر معطى أفعال الآدميين يملئون جيلا بعد جيل دون كلل أو توقف الفضاء الحسي وبقية الفضاءات الأخرى بما تنتج سواعدهم وعقولهم ومخيلتهم.

تبلور هذه الأعمال بحجمها وتعقيدها وتواصلها عبر الزمان اغرب خاصية عند البشر ألا وهي القدرة على إعادة خلق العالم على ذوقهم وكأنهم لم يجدوا فيه ما يكفي من الطرافة والجمال.

ينكبّ الطفل على خربشة صور كائنات غريبة يملأ بها كراسه ويكتشف الكهل أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا مثله أبدا عن لعبة إعادة التشكيل الموجود.

تنظر للوحات رامبرانت فلا تحصي ما فيها من أشكال وألوان وهذا أقصى الامتلاء. تتأملّ لوحات الفنّ الصيني فلا ترى إلا سطرا ينغلق على بعض النقط وهذا التجرّد الأقصى. يبقى الفنّ يصول ويجول مجربا في كل رسم إعادة تنظيم الأشياء، مرورا من أقصى الفراغ إلى أقصى الامتلاء، من النسخ إلى المسخ...والمبحوث عنه شيء مبهم لم تتضح بعد طبيعته، على افتراض أن له طبيعة ستتضح يوما.

مع بيكاسو، يدير الآدمي ظهره لمشهد العالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلقه هو، وقد أصبح إلها لحسابه الخاص، والعالم الذي ينتظر الخلق اللوحة الفارغة.

كأنه محكوم على الفنّ أن يفتت ويجمع إلى الأبد وكل بحث فيه مراجعة للبديهيات والطموح اكتشاف حالات، إن لم تكن أرقى، فعلى الأقل مختلفة وجديدة.

تسمع الفنان الصيني يعزف على نايه فإذا به يحاور العصفور الذي بداخله والذي يشدو على الأغصان. تسمعه ينقر على الأوتار فإذا بخرير الماء حبات لؤلؤ منضود. تسمع فالسات شوبان وسوناطات شوبرت فيشنّف الآذان التناسق والنظام، لأن الموسيقى، وإن ابتعدت عن تقليد صوت العصفور والرعد، ما زالت تقلّد عالما من قوانينه النسق والنغم والجمال. ولما تنطلق عملية استكشاف النقطة القصوى من ممكن الصنع، تعطيك موسيقى ستوكهاوزن، الفوضى والنشاز، راسمة بالصوت ما يرسم الشاعر بالحرف عن عالم لا تسطع فيه الشمس إلاّ مرّة واحدة، يبزغ فيه نصف قمر أخضر مثلث الشكل، يعوي فيه ذئب مصاب بانفصام الشخصية، وينفخ في أذنك طفل يتمرّن على مزماره.

يدوّي قرع الطبول في سمفونيات بتهوفن فيحضر البرق والرعد داخل الروح لا في السماء.

هذه السمفونية، مَعلمُ بناه الآدمي لا من الحجر وإنما من الأصوات، بَلوَرَه من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور آخرون كاتدرائيات الحجَر من ممكن الصنع الذي تزخر به المادة الصماء.

العمل الفني الآن على مستوى ما حققه الإبداع البشري في كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ ورباعيات الخيام ومعادلات ماكسويل. الفارق معدن الصنع، القاسم المشترك تَوق آدم إلى ما لا يستنفذه اسمٌ أو صفةٌ أو فعل. أي كائنات أخرى قادرة على شيء كهذا؟

هل تكون الموسيقى هي ما خرجنا نبحث عنه؟

تقول عقدة لا تستقيم لقصة القصص، ألم تكن الجنة تزخر بأرقى أنواع الموسيقى كما تزخر بكل الطيبات الأخرى؟

الردّ أنه يمكن للجنة أن توفّر كل شيء إلا الشعر والموسيقى وكلَّ أنواع الفنّ بما أنها المكان الذي تحققت فيه كل آمالنا ورحلت منه كل آلامنا والموسيقى كباقي أشكال الفنّ لا تتفجّر إلا من ذاتٍ موجوعة جذلى تتقلب بين السعادة والشقاء، بين الحزن والفرح، بين اليأس والأمل.

لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحِداد وأن الفرحَ عاد سيّدَ العالم، تَصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاحٌ لنجاح تجربته، راضٍ عن أدائنا وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية، انتهي الصراع بين الكلمة والنغمة تظافرت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها مِن قبلُ فكرٌ أو خيال والشعر من الأزل موسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

"تقدّموا (شلّر)
تسارعوا
بزغت الشمس
وهذه قبلة باسم الأرض كلها
تأتيكم من وراء القبة السماوية
هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات
أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرح
وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس
ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.
ابحثوا عنه. ابحثوا عنه... ابحثوا عنه... ابحثوا عنه".

**

للبحث عنه، شَدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس، والإغريق إلى دلفت، وقبائلُ البريطانيين إلى ستونهانج-درنتون، وقبائلُ الأنكا إلى ماتشو بيتشو، وقبلهم جميعا شَدّت الرحالَ إليه قبائلُ لم يحفظ التاريخ اسمها لأماكن عفا رسمها منذ زمن سحيق.
ثمة من الآدميين مَن يتدافعون الى اليوم بحثا عنه نحو تلّ مربّع تائه وسط الصحاري الحمر،أو جَبل يُدعى طايشان، أو بحيرة اسمها كايلاش، أو معبد على قمة اسمه بوبا أو أماكن اسمها شافين، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، كياف، هاردوار، ارميستار، بنارس، أمارناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك...
يشدّ الرحالَ إليه اليوم بنو قومي يأتونه من كل فج عميق بحثا عنه في مكان اسمه أم القرى وفي زمن معروف منهم يعود سنة بعد سنة في نفس الوقت.
تتنهد "ما":
- كم أنا سعيدة أنّك ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوما.
لي فقط؟ كان الحجّ حُلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت البَوح به حياءً من أن يُعتبر طلبا وتكليفا.
كم ردّدتُ لنفسي أنا جِدٌّ مشغولٍ هذه السنة سآخذها إلى الحج السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أمامنا متسع من الوقت. هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...
- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.
- فات الأوان يا بني، فات الأوان.
- أي أوان هذا الذي فات؟
- نعم. يا بني لم يفت أي أوان.
كيف أهوّن عليّ والسرطان ينهش جسدها والشعور بالذنب ينهش روحي.
تفهم "ما" الذي يختلج في صدري.
- هوّن عليك يا بنيّ... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيرا كل تفاصيل حجّك... لستَ مستعجلا، أليس كذلك؟
نعم، لستُ مستعجلا هذه المرة.
- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تم اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تَعرفُ الإدارةَ وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس. ربما عيّنوني للمهمّة لأتنسّك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء.
- بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوما أسئلتي عن حجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟
خجلان؟ بعض الشيء... قرفان بعض الشيء الآخر؟ أصف كل ما حدث أم أنافق أنا أيضا؟
مما بقي محفورا في الذاكرة أن السعي إلى مكان أهمّ المواعيد يبدأ بالوقوف ساعات مضنية في طابور تسوده الفوضى لتسجيل حقائب ملآنة بالثياب وبما أعدّته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا.
تحشرني مضيفة الطائرة في مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها، ليواصل الشيطان -المكلّفُ بالسخرية من أحلامي- التنكيلَ بي، فالشيخ -وهو بالصدفة الجالس قرب النافذة-مُصاب بمرض البروستات ومضطرّ إلى الهرع للمرحاض كل ربع ساعة يسحقني ببطنه الضخم لا يكلّف نفسه الاعتذار أو حتى بسمة الحرج.
بعد ساعات قليلة تلفظني الطائرة المكتظة في مطار لأعاني فيه الأمرّين من الزحمة والفوضى وعنجهية صغار الموظّفين. يفتشني شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة. أُحشَر وسط التدافع الشرس داخل حافلة مكتظة تتوجه إلى أولى مدينتي الحج.
إغماض العينين. انفصال عن الصخب والحرّ والروائح. الفرار. عميقا داخل فضاء خيالي تتداخل الأفكار وتتسارع الصور.
ها أنا أتحرّك المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى على ظهر ناقة بيضاء عُلّقت في عنقها الأجراس والتمائم، النوم بالنهار والسفر ليلا تحت القبّة المرصّعة بالنجوم. خُطاي في خُطى أجدادٍ كان حجّهم مغامرةَ العمر. عائد إلى وطني فهذا الطريق هو الذي أتى بهؤلاء الأجداد. رحلتي عودتهم إلى ديارهم والطريق كان أطول مما توقّعوا والزمن أقصر مما تمنوا...
مدينة عريقة هي أولى المحطات قبل مكان الموعد... مارّة يتغامزون: درويش من بلاد المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن أخبار ذلك الزنديق. هنا أركبوه البغل. عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة الذبح. هنا جلدوه ألف سوط وهو يردّد: أحد،

أحد. هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى. هنا صلبوه. هنا انتظرَ -ودمه ينزف-إذْن الخليفة بضرب عنقه. هنا علّقوا رأسه. هنا حرقوا جسده. هنا تصاعدت روحه لتلتحق بروح الأرواح. عشية الرحيل معتكف في المسجد. ورائي ملثّم يهمس: يقول لك الشيخ هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم. كم، صدَقَ من قال "للنّاس حجّ ولي حجّ إلى سكني".

محطّتي الثانية مدينة عريقة هي الأخرى. عشية الرحيل وأنا معتكف في المسجد يقف خلفي ملثم هامسا: يقول لك شيخنا هوّن عليك سيقتلك كل هذا الألم. ردّد لهم أن قلب الحكيم قابل بكل صورة له، أنه لا دين لمؤمن أين توجهت به ركائبه إلا الحبّ والإيمان. علمهم ما قصدت عندما أنشدت: عقد الناس في الإله وأنا اعتقدت كل ما اعتقدوا.

أخيرا المكان المقدّس أين ضُرب لي الموعد. نهلت من النبع القدسي. أتممت المهمة. لم يبق إلا للرجوع لأبشّر "ما" أن المنزّه عن كل صفة قبِل منّي إنسانيتي.

قافلة الرجوع ستكون محمّلة بتوابل سرنديب، بحرير الصين، بلبان حضرموت وبعطور سقطرى، محملة بالهدايا لها ولكل البشر البحث عن قطّاع الطريق لإعطائهم منابهم مما تئن بحمله الإبل. على تخوم واحة الآباء والأجداد سأطلق سراحها لتنعم هي الأخرى بالحرية ومسؤولية تدبر عيشها. أنا الآن داعية الشيخين أواصل جهادهما. أمامي السلاطين وفقهاء السلطان في صفوف متراصّة والشرر يتطاير من عيونهم. دمي مهدر أنا أيضا. الفرار! إلى أين والسلاطين والدهماء وفقهاء السلاطين في كل مكان.

فجأة يتوقّف الحلم اليقظان وأنا أسمع زعيق الفرامل وصراخ الركّاب:

- حقيبة سقطت من سطح الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيّدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تنفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أَمرتُه بذلك وكنتُ في ذروة افتعال الأثرة وتبجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أيُعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمتُ بها سنين هذه المهزلة؟ مَن هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل راجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلا على بشر أو إله. ثمة في داخلي من الغضب ما يكفي لأمسك بالحقيبة مديرا ظهري إلى الكل ومتجها نحو المطار.

أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلتُ من الحافلة متوجها إلى حقيبة لم تنفجر لحسن الحظ رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتُها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهرول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبةُ اللعينة تركض ورائي والقمر يحرّضها عليّ.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدّق فيّ مطولا.

- يا بني المهمّ الوصول إلى بيت الله والعودة منه سالما وليس كيفية الذهاب والإياب.

- الطريق بالنسبة لأمثالي أهمّ من... لِنقُل إن للطريق أهمية كبيرة.

بل هو لي كل شيء... آه يا أولى خطوات المغامرة المقدّسة والأخطارُ كامنةٌ في كل منعرج، متى تعودين، متى تعودين... متى تعودين؟

في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار.

يجب أن تمرّ قبل ذلك للسلام على من أشّر لأقصَر الطرق المؤدية إليه.

ومما رويتُه للمحتضرة أنني لم أصبر على اللقاء، أنه حال وصول "المنوّرة" آخر ساعات الليل رميتُ بالحقيبة اللعينة على فراش النزل، أنني هرعت إلى المسجد أترنّح من التعب وبي أملٌ ساذج أن أكون أول الداخلين، فإذا بي آخرُهم.

زحمة مخيفة. تَدافُع فظّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.

حملني تيار الأمواج الآدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرئب المهج والعيون.

فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط!

لكن هل يساس هذا الجنس اللعين بغير السوط، تلوّح به في وجوههم وتشوي به أجسادهم كلما تجاوزوا حدّا لا يحبون شيئا قدر حب تجاوزه؟

لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط يسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم، لا يتركون حجرة أو عظما ليبنوا حولها في شتى أصقاع الأرض قبابا وزوايا يضعون داخلها ما سرقوا وأن لصوصا سيسرقون ما سرقوا، ومزيفين سيزيّفون ما فاتهم من غنيمة.

مَن يتذكّر اليوم في بلدان الغرب العلماني رواج تجارة العظام المزيفة والمسامير المزيفة لصليب المسيح وكلَّ الآثار التي كانت حيازتها جزءا هاما من سلطة الدنيا؟ مَن يتذكّر أن مدينة باري بَنت مجدها طوال النهضة على الحج لرؤية رميم القديس

نقولا... أو أن هذا الرميم سُرق من مدينة قديمة اسمها ميرا كان القديس أسقفها وأن أهل البندقية سرقوا السرّاق ليزينوا به كاتدرائيتهم وأن كل المسروق كان مزيفا؟
نعم ربما ثمة ضرورة السوط للوقوف في وجه جشع لا يشبع.
بقية الأحداث. حاذرت لأبقى بعيدا عنه لأقترب ما أمكن من مثوى الذي كانت "ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي مَن تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له شفاعة.
يصرخ فيّ أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر بمنتهى الغلظة: تقدم مالَك؟ لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة.
هنا يرقد من سيتسمّى باسمه الملايين عبر العصور... الإنسان الذي ستعبر كلماته الصحاري والجبال والبحار والغابات، يتردد صداها من جيل إلى جيل... الإنسان الذي طلع على الآدميين وأتاهم بالخبر اليقين، الإنسان الذي تقدّست معه الكتابة، الذي أقطعَنا وطنا اسمه لغة الضاد.

"وَقيل كل نبي عند رتبته — ويا محمد هذا العرش فاستلم (أحمد شوقي)
خَطَطتَ للدين والدنيا علومهما — يا قارئ اللوح بل يا لامس القلم
أَحطتَ بينهما بالسر وَانكشَفت — لك الخَزائِن من علم ومن حِكم

أجيل البصر مطولا بين مثواه الأخير ومثوى الصدّيق الراقد جنبه."

" الثاني المحمود شيمته — وأول الناس طرا صدّق الرسلا (حسان بن ثابت)
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد — طاف العدو به إذ صعد الجبل
خير البرية أتقاها وأرأمها — بعد النبي وأدناها بما حملا"

وعلى جنبه الآخر يرقد الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء... المنارة "ومن في البرية كالفاروق معدلة".
يا لهؤلاء الموتى، يعلّمون الحشود وهم صامتون، يحرّكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون ولا أمر يصرخون به.
- عد إليّ... كيف كانت الساعات الأولى؟
- تواصلَت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبتُ بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي. قالوا وقد حان وقت الصلاة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان أنني انهمكتُ في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيتُ قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرتَّل في الأثناء. كان حقّا موقفا محرجا للغاية. النجدة يا كلّ من يهمّه أمري!
تتّسع ربع ابتسامة "ما".
- لا تقل إنّك لم تجد مَخرجا وبراعتُك في دخول الورطات براعتُك في الخروج منها.
- مَن استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيّدي محرز" وبقية الأسياد والسيدات... بركتك أنت؟ المهمّ أن ربّنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلٍّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرّض يكسو الشيبُ شعره. علمتُ أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفا متينا. تنحنحتُ بوقار ثمّ توجّهت إلى مساعديّ قائلا: مِن شيمنا تبجيل أكبرنا سنّا، فليتقدّم فلان يؤمّ بنا هو الصلاة، لا فضل لطبيب على ممرّض إلّا بالتقوى.
لا تقوى "ما" على التماسك فتنفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.
- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...
- إنها غلطة" با" لَمّا فرض عليّ الصلاة بالقوة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلّا ما جرّني إليها بالقوّة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأُخرج له لساني. كان يتمتم بالآيات وأتمتم بالمحفوظات. اختبار قوةٍ آخرَ بين طاغية يأمر وينهَى، لا يكلّف نفسه عناء تفسير أسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولَمّا ابتلعَه المجهول من جديد فسختُ كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس.
على فكرة، أتتذكرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتّى ملفّات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسمٍ كان يَدّعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.
تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.
- يا بني حرام عليك. أبوك صلّى الخَمس في أوقاتها منذ رجوعه.
- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أمامه، بل قُولي: يمثّل أمامه ولو كان القطّ.
- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
لا أَحَبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.

- تظنين أنني أغتاب مَن هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما: كن أسدا وكُلني؟

لم يكن لي طوال الرحلة غيره خصما ومنافسا... كلٌّ من لعبوا الدور لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة. يوم خيّل لي أنني انتصرتُ عليه بالضربة القاضية اكتشفتُ أنني لم أركض إلا وراء الأهداف التي حدّدها هو ولم أحقّق إلا مطامحه هو.

من النبرة والقسمات، الأمر ليس الكفّ عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الآدميين، مهما عرفتهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت. من كانت حقا "ما"؟ من أنتِ يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنتِ التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنتُ أضمّ بين ذراعي؟ من أنتَ أيها الرجل الذي تَقدمت إلي دوما تحت اسم "با"؟

- واصل، لا أريدك أن تسكت.

-كيف! ألا تعرفين القصة... لَمّا وصل "أين في الناس" الأراضي المقدسة...

- يا ولد...

- عفوا لما وصل زوجُك الأراضي المقدّسة.

- يا ولد!

- عفوا لما وصل زوجك وأبو أولادك الآخرين...

- يا ولد!!

- طيّب يا لَلَّة، لما وصل "با" الأراضي المقدّسة ونقلا عن الذين رافقوه أنه نزل في أفخر فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك -هو الذي لم تَحمِل أمّه غيره-برعاع القارّات الخمس مدّعيا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تَذكُرين كم مرّة أتى إلى البيت معلِنا أنه دخل النزع الأخير يمثّل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة، وإن كان أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ربع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.

- آه يا بنيّ مِن أمراض أبيك!

- ما أحلى تلك الأيام. كأني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم. كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لَزِمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا. ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرّن على امتحان لا بدّ منه متمتّعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.

آه لو كان مَرضكِ مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحتَ مجدّدا، فيم تفكّر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحجّ في مثل هذه الظروف والحال أن موعدا مع الذات في غرفة الحمام تواجهها مطولا أمام المرآة جدّ كاف؟

تتنهد "ما":

- لَم تَتَغيّر رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرّة كنتَ المخطئ وهو المصيب.

- آه، تدافعين عنه! اعترفي أنكِ كنت دوما تحبّين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبّك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهرك!

- وفي وجهي كان لا يكفّ عن الصراخ: النار لا تخلّف إلا الرماد... النار لا تخلّف إلا الرماد.

- وأيضا كان يردّد لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بِجدّ... أَم الجُملة من اختراعكِ؟

- يا بني، لو تعرف كم كنتَ وأَخالُك لا زلت ظالما لوالدك!

مؤكّد أن الرجل ظُلم بقدر ما ظَلم ولربما أكثر... ظلمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل -كما هو الحال دوما مع الآدميين-لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم... ظلمه أيضا ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات. إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات

لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟ ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف كثيرا عند الآباء والأمهات وأنه نفسُ الحبّ عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدورَ الأجمل هو نتيجة استئثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوّق مَكرهنّ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامّة. هل نجاحهنّ في تسويق صورتهنّ على حساب الذكور المغفّلين أكبرُ عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية ؟! كرجل وكأب، وتحمّلا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لَحِقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، أما عيد الآباء فسنجعله -نكاية في الحركات النسوية-يأخذ ثلاثة أيام كاملة وخالصة الأجر.

المرأة التي تحتضر الآن طفلة تخاف أن يَحرمها هجوم النوم من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.

- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالةً ولا تنس حادثة.

كيف لا أتوقف طويلا عند هذا المقطع من قصة الآدمية وهو عن لحظة مفصلية في تجربتها وفي تجربة كل آدمي.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يَفي بحقه أو يستنفذه وصف؟

أقوام آتية من كل آفاق الفضاء الحسّي بإناثها وذكورها، بشيبها وشبابها، بأقزامها وعمالقتها، بمرضاها وأسويائها. تكاد تشعر بكثافة حضور كل من تدافعوا في هذه الساحة طوال القرون الغابرة. ربما يوجد بيننا أشباح لحُجاج من المستقبل السحيق استعجلوا الحضور لا صبر لهم على طول الفراق. التأم الشمل مُنهيا ولو للحظة حالة التشتّت والتشرذم التي عانت منها عائلة ممزقة تاهَ أفرادها عن بعضهم البعض في عالم الانبهار والرعب.

يظنون أن لهم موعد مع الله داخل بيته والحال أن بيته في كل مكان، في كل شيء وفي كل كائن.

"فإن رمت شرقا أنت للشرق شرقه　　　وإن رمت غربا أنت نصب عيان　　　(الحلاج)
وإن رمت فوقا أنت في الفوق فوقه　　　وإن رمت تحتا أنت كل مكان
وأنت محلّ الكلّ بل لا محلّه　　　وأنت بكلّ الكلّ ليس بفان"

ما الذي أتى بهم إذن إلى هذا المكان دون سواه؟

تهمس "ما":

- عد إليّ ...حدّثني... حدّثني عنها.

- أبصرتها من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ. مشهد ليس كمثله في عالم الآدميين. مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء للملايين وعليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفأ مكعب أسود، بحر أمواجه لا تتدافع نحو الشاطئ لتتكسّر على حاجزه وإنما تحاصره وتدور حوله لا تتوقف لحظة.

إنّه طواف الكواكب حول الشمس، طواف القمر حول الأرض، طواف الشوارد حول نواة الذرّة، طواف الأحياء حول الموت وطواف الأموات حول الحياة، الحركة الدائرية التي هي أساس كل شكل هندسي كاملٍ مكتف بذاته. مَن المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

- سهوت مرة أخرى يا بني؟

هل أحدثها عن الوجه الآخر للحجّ؟ عن الذين جاؤوا لصفقة مع الآخرة دون أن يغفلوا لحظة عن صفقات الدنيا.

-كانت حياتي طوال هذا الحجّ الميمون صراعا يوميا مع الممرضين والأطباء وهم لا يفهمون لماذا أَغضبُ من تغيّبهم عن المستوصف أو أرفض لهم سيارة الإسعاف للتسوّق. كان الحج بالنسبة إلى أغلبهم سياحة تجارية تحت ستار تأدية واجب ديني لم أرَ منه إلا طقوسا قشورية كالتي عرفتها لهم دوما.

- آه يا بُني من شدتكَ على الناس!

شدّتي على الناس؟ هل أنا من قال فيهم:

"عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا　　　وأورثوا الدين تقليدا كما وجدوا　　　(المعري)
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا　　　ولا يبالون عن غيّ لمن سجدوا
والعدم أروح مما في عوالمهم　　　وهو التكلّف إن هبوا وإن هجدوا"

هذا عالم تناظري لا تكتشف فيه مُطلق الروعة إلا وداهمك بنصفه المكوِّن الآخر: مطلق الفظاعة.

ها أنا لأول مرة في حياتي أتحرّك بأقدام غيري وعضلاتُ صَدري تدفع الأجسام الضاغطة بحثا عن النفس. أنا الآن في خضمّ جحافل تتدافع نحو ساحة الطقس الإجباري وهي كأمواجِ أَودية جافة انقلبت في لحظةٍ أنهارا جارفة من الماء والطمي.
تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقي اليسرى معه إلى جاوا. كيف هو يوم الحشر إذن؟
أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسبّ الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس ونحن أمام أقدم وسائل علاج الذات؟
يبدأ الطفل في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيذ منه "ما" طول الوقت. أما المراهق النائم بعين واحدة، فهو على مزاج آخر ورأي جِدّ مختلف. كيف لا يتعاطف هذا المتعطش إلى العدل والمنطق مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طولِب، كما طولب آدم، وكما نطالَب دوما، بالشيء وبعكسه، وكأنّ بممتحِننا نيّة مسبقة لإسقاطنا في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. فلو عصى أمرَ الله بالسجود لأذنب لأنه لا يُعصى لله أمر. لو أطاع لسجد لغير اللّه فكان الذنب أعظم؟ ثم تحميله هو مسؤولية الشرّ! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخيرَ لهم حقًّا لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لِما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لَمَا أغواهم غاوٍ.
تتدافع أفكار المراهق الساخر تتوّجه للكهل المحرَج: كفّ عن رمي هذا البريء وإن أردتَ الرمي فصوّب حجارتك إلى هؤلاء المجانين وإلى صدرك أنت بالذات. أليس إبليس كبشَ فداء ضحية سلطات عليا تحاول عبره التغطية على فشلها، ثم بربّك هل ثمة شيطان غيرُ الآدمي. نسيت أنّ مَن تلعنُ أوّلُ معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لستُ أداة أو بوقا؟ أليس هو جدُّك الأكبر وجدّ كل الثوار على مرّ العصور؟

"رباه لو أن في طول انتظار غد — جدوى لما أسمعتك الريح شكوانا (السياب)
وما كان حتما علينا أن يعذبنا — طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا
النار أشهى فهاتِ النارَ تصهرنا — يوم الحساب ومتّعنا بدنيانا
إن كان لا يدخل الجنات داخلها — إلا شقيا على الأولى وغرثانا
وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا — فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ إنه الوسواس الخنّاس... هذا ما علّمني سيّدي الشيخ وما كتبتُه على لوحي في الكتّاب... ثم لماذا تلعنه ‟ما” لو كان بريئا؟
يرفض المراهق الجدل، على أتمّ قناعة أنه المصيب. لكن ما رأي الكهل؟ ما زال مبهما في هذا الموضع من النص والرؤيا بالكاد تكتسب أولى ملامحها. كم هي معقّدة هندسَتها وبداخلي من المهندسين ثلاثة لا يتفقون أبدا على رأي. كم سيكون صعبا مواجهةُ الآدميين بالحقيقة المفرحة المفزعة. أيها الناس لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعتم فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجذّر فيكم، أزلي، متجدّد، لا يجتثه عنف أو إفساد... أيها الناس لي ولكم أسوأ خبر سمعتموه: الشيطان الذي وضعتم فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجذّر فيكم، أزلي، متجدد لا يصلحه فنّ أو علم أو دين.
ألتفتُ حواليّ وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. لا يبقى عليّ سوى إطلاق أحدّ صراخ لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأننا لسنا هنا لشتم أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات. لا يلتفت إلى حماسي وصراخي أحد وكلٌّ مشغولٌ بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وأولوية الأولويات الآن الخروج حيّا من هذه الزحمة المرعبة، إن أمكن بكل أطرافي.
وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للآدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفاءه تحت ‟مكياج” اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناءة رشيقة حتّى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين للعجوز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبتسمين إذا داسوا على قدمك خطأ.
مجرّد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة، آنذاك ترى لهم عيونا متجهّمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدّة للمشي فوق خدّك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.
هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه اللّه وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

ليمارسوا طقوسهم كالدمى تحركهم التعليمات التي تزرع في الحواسيب أما أنا...

"فَديني كَدينِ الرَوضِ يَعبَقُ بِالشَذى وَلَو لَم يَكُن فيهِ سِوى اللِصِّ مُنسَلّا (إيليا أبو ماضي)

وَدينِي اَلَّذي اِختارَ الغَديرُ لِنَفسِهِ وَيا حُسنَ ما اِختارَ الغَديرُ وَما أَحلى

تَجيءُ إِلَيهِ الطَيرُ عَطشى فَتَرتَوي وَإِن وَرَدَتهُ الإِبلُ لَم يَزجُرِ الإِبلا

وَيَغتَسِلُ الذِئبُ الأَثيمُ بِمائِهِ فَلا إِثمُ ذا يُمحى وَلا طُهرُ ذا يَبلى

وَدينِي كَدينِ الشُهبِ تَبدو لِعاشِقٍ وَقالٍ وَفيها ما يُحِبُّ وَما يُقلى

وَدينِي كَدينِ الغَيثِ إِن سَحَّ لَم يُبَل أَرَوّى الأَقاحي أَم سَقى الشَوكَ وَالدِفلى"

تنهار المرأة البدينة أمامي مغشيّا عليها بين أقدام، بل قل حوافر قطعان بشرية فقدت كل ضابط أو هدف باستثناء البقاء على قيد الحياة. كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلّت به القدم تلك الليلة، وهو يئنّ بثقل الحشود المتسلقة جسده. وهو يختنق ويسحق ويمحق ويتفكّك؟ تُرى ما الذي شعرَت به وهي سجينة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثا لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟ ترنّ صرخة استغاثة إلى اليوم في أذني، والضحية تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوّح بالوداع لعالم غير مكترث. من أين للّغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

اللعنة، كانت مريضة في عهدتي لكني فشلت في منعها من دخول حلبة الموت التي خرجتُ منها لا أدري بأي أعجوبة حيا بل وبكل مكوناتي عدا النظارات.

كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه لشيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من لبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنقذوني فأسارع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك، هذا إفطاري وكلّكم اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.

- هوّن عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعذّب نفسك دوما؟ لست مسؤولا عن موت المسكينة.

تنظر إليّ مطوّلا وفي عينيها مرح خفيف. ها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثمّ... دخلت... البيت وصليت بين جدرانه.

تنتصب تفاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهش وهي على سرير الموت.

تتوقف تفيحه عن القفز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "با"، ماذا قالت جدّتي لما بحت لها بالسرّ.

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بَخلَ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذات صباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. يفتح الرجل الهامّ بابها هامسا في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين. مجددا بباب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّدا بنفس بالجدران الآدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد لا تصدّقه عيناي: دهشتك وأنت تدخل بيتك أفرغه اللصوص من كل أثاث.

الساحة مترامية الأطراف التي لا تفرغ أبدا... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- يومُ غَسل الكعبة. الملك بنفسه من يقوم بالعملية. يُفرَغ فيه الحرم باستثناء نخبة من المدعوين تدبرتُ أمري لتكون بينهم.

يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكّد من الهويّة والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.

يبادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عجّلا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.

يفغر الطفلُ-المراهقُ-الكهلُ فمه لا يكاد يصدّق ما يعيش. في أماكن الآدميين الأخرى، يعبّرون عن انبهارهم بالمقدّس وخشيتهم منه وتزلّفهم إليه بتشييد أعلى وأعقد المباني، بحشوها بكل ما يقدرون عليه من روائع الفن، لا يتراجعون أمام الإفراط وسوء الذوق في تكديس الرخام والعاج والذهب.

إلا هنا. لا شيء على أحجار الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء ولا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرّد. الفراغ. فراغ عين الإعصار. أي رمز أَبلغُ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفنّ على تصوّره؟

تنهار فجأة كل الحواجز كالسدّ أمام جارف السيل.

يا جذر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الغناء، على الضحك، على الصداقة، على الحب وحتى على المحن التي تصلب عودنا. الحمد لك والشكر على هديّتَي الحياة والموت.

فعل الأفعال؟ طبعا عبدّ، صلّى، قدّس، تبتّل.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجرا: الحمد على الجراد، الحمد على القمل، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الجذام وعلى قمل العانة.

يصمت جاءه التهيبّ حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تَطلبُ منه شيئا!

خاصية قارّة في الآدميين. تَراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلّمت أن هناك خارج الذات قوةٌ مُحبّة تستجيب لكلّ طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملّق أو الابتزاز.

كم تشمّتت دوما في كل المتسولين وهُم يعودون من حصص الاستجداء بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، وكم حسبت نفسي من غير طينتهم. متى تكفّفت بشرا أو إلها؟ إنها أنفتي أمام البشر وحيائي أمام الله. أواصل افتعال التعفّف ويواصل الطفل صراخه داخلي وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟

تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جذورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كلّ أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إنني يائس إنني بائس، إنني تائه، دلّني على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء ومن ادعوه يدلني على باب الخروج.

يَرفع الحاجب من نبرة همسه الصارخ: أسرعا، وصل جلالة الملك، يا الله برّة، برّة.

يَعبق الفضاء باختلاجةِ امتعاض فيها من المداعبة أكثرُ مما فيها من السخرية، من العتاب أكثر مما فيها من التقريع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجديني!

إنه "هو" لا غيره، الذي يطردني من حضرته وعليّ الاعتراف بأنني أستأهل الطرد.

معذرة يا مَن أعطى فلم يَبخل، يا من وهب فلم يَمنّ، يا من تَكرم فلم يتبجّح، يا من أغدق عطاياه لا يهمّه نكران أو عرفان. كم غريب أن نستجدي التراب ممن أعطانا التبر بلا حساب، أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلا يُستجدى بسماجة، هو الذي وهبنا عالما بأسره لنَعبره سادة لا متسوّلين.

*

تستحثّني ‘‘ما’’ كما كانت تفعل تفاحة وتفيحه لمواصلة القصة، لا تتحمل مِثلَهما أن أتوقف وقد شرد مني البصر بعيدا.

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد. تتفكك اللحمة. تتفرق الأجزاء ليركض كل واحد في اتجاه. تتحرّك الشرطة بحثا عمن تخلفوا عن المغادرة لا يفهمون أن المكان نقطة عبور فقط وإلا أفرغتها العادة من كل سحر.

- كادت طائرة الرجوع ألّا تقلع بنا لمشاكل الحمولة. ألم أقل لك إن المساكين اغتنموا فرصة الحجّ للتسوّق وفرصة التسوّق للحج. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كانت سَنة أجهزة الفيديو خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة.

- أنت أيضا يا بني رجعت بفيديو.

- أنا! أنا ابن’’ أين في الناس’’ هرّبت فيديو! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجتُ من المطار أزفر من الغيظ لا فقط لأنني دفعتُ الرسوم والغرامة ولكن لأنني كنت الوحيد الذي دفع! من أين سمعتِ هذه الافتراءات الجديدة عليّ؟

- أنت من رويت لي القصة.
قد لا نجرّب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو نحن نقهقه وقد أَسدَلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.
تُسلّط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.
- لستَ بحاجة إلى أن أوصيك بالناس أو بإخوتك، انتبه لهشاشة الناس، خاصة من يبدون لك أقوياء. إياك أن تجرح كائنا، لا تحتقر ولا تنتقم؛ لا كفرَ في هذا العالم إلا الاحتقار والانتقامُ.
تعود إلى ما يشغل بالها منذ زمن طويل
- عِدني أن تُصالح والدَك.
ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارمٌ بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقَتها عقودا وَضعَت أخيرا أوزارها.
- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاغلي مع عصًا أثقل ينزلها الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.
ليكن في علم كل من يهمّه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام يوقّع عليها "با" باسم كل الآباء الطغاة وأنا باسم كل الأبناء المتمرّدين، تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للبوفيه سنتبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثّر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركه لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.
لم أكن أعلم يومها أني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي سميته دوما "أين في الناس"، أن دمعة حارقة ستسيل على خدٍّ سَكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب. أن كل روحي ستصرخ فيه: لماذا لا تثب على رجليك صارخا كعادتك: اغربوا عن وجهي، تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب! كم سيُخيّب الرجل ظني أنا الذي آمنتُ دوما أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجرّده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوِم ولا ينتصر.
كانوا يظنونني أسخر منه وأنا أقصد كل كلمة. أَيْ والله، أين في الناس أب مثل أبي!
سفاسف كل هذه القصص عني وعن الآخرين أخفي بها تعكّر المزاج أيام تجاوز الإرهاق كل حدود ...الحجّ هو الموعد الدوري لتلاقى عائلة بشرية فرقت بينها نوائب الدهر... الحجّ هو ولادة جديدة لذات تخففت من كل مخاوفها وآلامها...الحج هو العودة المسترسلة لمنبع رمزي تُختزل فيه قداسة المكان والزمان ...الحج هو الرحلة المقدسة الصغرى نحاكي بها الرحلة المقدسة الكبرى حتى لا ننسى أننا جئنا هذا العالم من المهد إلى اللحد حجّاجا.
تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدر ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر إليّ وهي أحسن مَن يعلم أنها تراني لآخر مرة.
- أتَعرف لماذا قُدّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟
- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال الحج غير شغلي لا أكثر... بالليل وبالنهار بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذتُه عنك.
- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ اطمئن، هو راضٍ عنك مثلما أنا راضية عنك... دنيا وآخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخشَ أحدا.
يا لضربة الحظ التي وضعَت تحت ذمّتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وتربيتي حتى وهو يلفظ أنفاسه.
ها هي ترحل قائلة: "هو" راض عنك مثلما أنا راضية. آخر هداياها.
تفتح "ما" عينيها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستترك وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى لتموت في بيتها... صرختُها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء ومهابة قوافل السحب: يا وجه ربي!
يتوقّف بَصرها على وجهَين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تُلامس يدي الشعر المجلل بالبياض ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلُها الآخر على الأرض الوجه بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لذاتها وإنّما تدعو فيها للباقين على قيد الحياة. ترفع الأمّ الأزلية ببطء وصعوبة يدَها في حركة آتية من أعماق التاريخ تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين. قبلة على يد لن ترتفع لتعمل وتبارك. شكرا على كل شيء. تنطفئ الشمعة التي احترقت من طول إضاءتها لطريق الآخرين.

"نفد الزيت (كبير)
صمت الطبل
استرخى الراقص
انطفأت النار
لن يتصاعد منها دخان
لم يعد هناك اثنان.
دخلت الروح في الواحد".

كلّا لم يمسح الموت من شفتَي "ما" ابتسامة بوذا وموناليزا، بل كأنّه زادها تألّقا ونورا.

كانت حياتها صراعا لم يتوقف لحظة، مع كمّ هائل من المحن تتابعت على طول الطريق، كأنها تمتحن فيها جدارتها بتجربة الحياة. أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الرمزي طقوس فرائض الحج الأكبر. تتلقى "الباتشاماما" رفات "الماما" والداخل للأحضان المفتوحة دوما سماد الحصاد المقبل. هيهات أن تخفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درّة ما رضيتها لجسمكَ، إبقاء عليه من الدفن (المعري)
ولو أودعوكَ الجوّ خِفنا مَصيفَهُ وَمَشْتَاهُ، وازداد الضّنينُ مِن الضَّنِّ
فيا قبر واهٍ من ترابك، ليّنا عليه وآه من جنادلك الخشن"

آخر حفنة من الثرى ثمّ صوتُ المرتّل: اللّهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فَتُردّد كل روحي: آمين.

حولي كلّهم يردّدون: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنّا لله! ... وإنا إليه راجعون!

مَن إنّا هذا؟ ومن هذا الذي إليه نرجع؟

**

الكتاب السابع
الرؤيا

لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص.

بريهادار انياكا اوبانيشاد

مقدّمة الكتاب السابع

هذا عشاءُ انتهى بسلام. فرصةٌ لإلقاء سؤال لم أجسر يوما على طرحه على أيٍّ مِن البنتَين.
- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يَكتب الزبائنُ رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتَوصيةٍ أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟
تبتسم تفيحه:
- أصوّت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟
أسلّط نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم بمكر:
- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.
تستعدّ تفاحة للنهوض وهي دوما -مثل والدها، وقَبله الذي كان أبا لأبيها-في عجلة من أمرها.
تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بذراعي ونحن نعبر باب خروج المطعم الصغير.
- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.
- تقصدين!
- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جَدّا.
يا إلهي لا أصدّق أن كل هذه الأعوام مرّت وبهذه السرعة.
تُفلت مني الجملة.
- آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.
تصدر تفاحة صرخة تدّعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهرة في وجه باسم.
تتدخل تفيحه:
- يا أطفال كفى ضوضاء على قارعة الطريق.
تمرّر تفيحه يدها أمام وجهي:
- "با"، عُد إلينا.
أتوجه إلى طفلتي التي ستصبح "ما" وقد عاد النص إلى نقطة السطر.
- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تأريخ "ما" وقومها ل.... طيب سنرى فيما بعد... الوصول تقريبا في...
تضحك تفيحة:
اترك هذه الحسابات للنساء. المهمّ أن تغتنم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقادم الجديد.
تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:
- كانت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما عزمت عليه.
تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكاك الكلمة، لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.
- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء، آخر من تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعم الخير.
- اعترفا أنها كانت قصصا مسلّية وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي كان بوسعها إعدادكما لمصاعب الحياة.
تقاطعني تفيحه:
- لسنا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة قديمة.
- خشية في غير محلّها. لا أكرهَ عندي بعد التبلّد إلّا التكرار... أعدك سأضع قصة لم تُروَ من قبل لأطفال وفيها أجمل بطل وأكثر العقد تشويقا.
يشرد نظر تفيحه:
- كان يا ما كان، طفل همّه الأوحد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّه الأوحد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى الأسرار أسرارا.
-آه، أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أفظع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبدا أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاقّ التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقّا استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل الآن بوقتنا وقد اكتشفناه.
والآن كفى تهربا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعوّل عليكما بخصوص الشهادة... لكنني أريد تسبقه.
يمدّ الدليل يده للبقشيش. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدقة. تهزّها تفاحة بحرارة تقلّد الشكر المبالغ فيه.
تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحها حتى لا تختنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة. أعبري كل الفضاءات. حطّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة باركتني وباركت في ذرّيتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب، تنقّلي من راحة شبح إلى راحة شبح آخر تتسلقين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجدات، تحملين الشكر لكل من عبّدوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحوّاء مَحبة وامتنانا.

تهمس تفاحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "با"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

الحرية! مع المسؤولية أثمن ما تعطيك الحياة... والاحترام لكل مظاهرها أنبل علامات الامتنان والشكر.

يا إلهي، أبهذه السرعة مرت كل هذه السنين، كل هذه العقود لا انتبه لتراكضها! تحضرني فجأة صورة شيخ جليل تعلمت عنه أن المهنة التي اخترت أخلاق قبل ان تكون علوم وتقنيات. تعود للذاكرة ما قاله لي يوما: ما زلت شابا لا تنتبه لعمر طلبتك. ذات يوم ستفجأ كم هم ثابتون على نفس العمر...وأنك وحدك الذي يهرم. ايه والله صدق الرجل! لا أدخل المدرج المكتظ سنة بعد سنة إلا وأردد لنفسي: فعلا، كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي أهرم.

ها أنا في العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك الذي كنتُ أستفزّ به طلبتي: " تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه سوى المرضى ‘‘وأيضا وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير، العمر الذي تكفّ فيه الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت... العمر الذي يتسارع فيه خراب هذا الذي كان مَطيّتنا على طول الطريق.

كأنّ الحياة إبحارٌ على محيط تُسلّمُنا العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقواربَ كَسَّر الدهرُ صواريها وتدافع الماء من ثقوبٍ حَفَرنا الكثير منها بأظافرنا.

أي طريق أطول للبيت حتى أبقى ماشيا أطول وقت؟ لست في عجلة للرجوع و"ح" على فراش الألم تخفي وراء ابتسامتها الدائمة وجعها حتى لا تزيد في أوجاعي.

مسكين جسدها الذي كنت أولّع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم... الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أستلّ منها أحلى الأنغام، الذي كان حديقتي السرية، الذي كان جنتي وجهنمي، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن رخوة، أسنان صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد، نهدان مسكينان لم يعد يشتهيهما فم نهم لرضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض همّه اكتشاف بداية سرطان.

ها أنا أتمتم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

‘‘المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل’’

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طويييييييل.

حان الوقت -أو قُل هي آخر فرصة-لأستجمع شجاعتي المزعومة.

سآخذ ‘‘ح’’ بين ذراعيّ أضمّ حطام جسد إلى حطام جسد لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتُها لها ولنفسي عن حياء غبي: أحبّك.

كم نخلط بين الحب والشهوة، لا يتضح الفرق إلا والحبيبُ فقَد دفعة واحدة الجمالَ والصحةَ والشباب.

كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الآدمي، على فراش الولادة نسخة جديدة له... تَواصلُ مشروعٍ لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.

ماذا قالت تفاحة؟ إن ولدت بنتا ستسميها حرّة. فأل طيب، ماذا أيضا؟ يجب أن أعدّ لها أجمل قصة لم تُروَ من قبلُ لطفل؟،أي قصة سأروي لحرّة؟ طبعا القصة التي توقفتُ عن تأليفها لنفسي منذ عقود شغلَتني عنها هموم الطريق.

طبعا لن أسمح لرحلة آدم في روايتي وفي رؤياي أن تكون سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهَضة، من المتع العابرة، من النجاحات القليلة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الآلام العبثية، ومن النهايات المحزنة.

ألم نطبخ دوما أساطيرنا وأدياننا تلبية لنَفس الحاجيات الروحية وبنفس الآليات الذهنية؟ هل ثمة رؤًى لم تبسّط المعقّد، لم تجزّئ الموحّد، لم تجمّد المتحرّك، لم تحاول استنفاذ ما لا يستنفذه فكر؟

أيُّ غرابة في الأمر ومهمّةُ كل رؤيا تَحمّلُ الواقع لا وصفُه.

كما الأجسام بحاجة إلى بيوت في الفضاء الحسّي توفّر لها متطلباتها الحسية من حماية ورفاه، الأرواح بحاجة إلى بيوت في الفضاء الرمزي والخيالي لتحقيق راحتها النفسية، أساسا الاطمئنانُ للحياة والقبول الرضَى بالموت.

هكذا خَلق العقل الجماعي على مرّ العصور المهندسين المعماريين في الفضاء الحسّي لتلبية الحاجيات الحسّية للذات، وخلق مهندسين معماريين في الفضاء الرمزي الخيالي لتلبية حاجياتها النفسية.
وكما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم بيوت الفضاء الرمزي، إما لتوفّر العقل الجماعي على مواد بناء أمتن، أو لتزايد خبرته في فنّ البناء، أو لتغيّر ذوقه... عادة لحبّه استكشاف وخلق الجديد. نعم لم لا أخلق لي بيتا خاصا أفصّله على ذوقي لتلبية حاجياتي ويكون مفتوحا على الرحب والسعة لكل من يريد
على فكرة أين توقّفت في روايتي الخاصة لقصة القصص وفيها كل أسس مثل هذا البيت؟
آه، تذكّرت. هرب آدم من الجنة بمحض ارادته لمهمة غامضة ... ضرب في الأرض ذات العرض والطول يستكشف ما تحفل به من روائع ومن أخطار ... فرخ ذرية شرسة لا تحصى ولا تعد ملأت أرجاء عالم أصبح ساحة تجارب لا تنتهي من الدمار والخلق... صارع الكواسر صغيرها وما لا يرى بالعين المجردة، تفتك به ويفتك بها في عالم مكتظ بالكواسر وهو ليس اقلها ضراوة. اختلق الحرب لترفع فيه طاقة الانتباه يستكشف عبرها هشاشة الحياة ومتعة مراقصة الموت. بنى له على طول طريق المسامير والشوك واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم مبهر مرعب ... يشدّه الحنين دوريا لأبيه الذي في السماوات فيصطفي من أماكن الأرض مكانا يتخيله باب الرجوع الى البيت.
ما الذي بقي عليّ إذن لتكتمل الرواية؟ لبنات أساسية ما زالت للصقل حتى تستقيم بناية الروح: سبب هروب آدم من الجنة... طبيعة المهمة التي خرج من أجلها إلى هذا العالم... مصيره بعد انتهاء الرحلة... وخاصة الهوية المخفية لبطل قصة القصص.

**

كيف يبنى الفكر بيوته الروحية وكيف تدبّر أمره في هذا البناء لربط نسبه بأنبل نسب ممكن

لتحديد هوية بطلنا هناك ما تقوله عنه الأسطورة الشهيرة التي انطلقنا منها.
هناك اجتهادات أخرى تضعنا على طرق تصورات أكثر طرافة وثراء.
ثمة اسطورة اغريقية معروفة تتناول بذكاء شديد أولى مستويات الإشكالية.
في هذه الأسطورة يرضى الآدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة التمثيل.
ترفع يدك نافد الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.
تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت...فثالث فرابع فخامس فسادس.
تتراكم عند قدميك الأقنعة والذات الأخرى تتباعد تباعد الأفق عن الراكض.
آخر قناع.
ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.
تنطلق منك صرخة العجب وأنت تكتشف...وجهك أنت لا غير.
لأتثبّت من الأمر.
ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يختفون وراءها ... لأكتشف كل مرة وجهي.
ثم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرّة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما ...وجههم لا غير.
ها هم ينقضون على بعضهم البعض والنتيجة دوما واحدة: كل ذات هي نفسها في مرآة الذات الأخرى.
مغزى الأسطورة؟ بسيط وبالغ الغرابة: كل آدمي هو أنا لكن في قصة أخرى... أنا كل آدمي يتخبط في ورطتي...
هذا التصوّر للأسطورة الإغريقية من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة وفي كل العصور بكلمات أخرى.
أجمل إخراج الذي تجده عند المتصوفين والشعراء.
"وتخفق في قلبي قلوب كثير ة (بدوي الجبل)
فقد كان شعبا واحدا فتشعبا "
إنه نفس موقف العلم الحديث الذي أعاد اكتشاف الفكرة الموغلة في القدم ليخرجها بلغته هو.
فالآدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتاب-يسميه برنامج المورّثات.
الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.
من حسن الحظ أن البرنامج الجيني أوجد التشابه شبه المطلق كما أوجد أيضا ما يكفي من الفوارق ليكون الجمع باقة ورد، لا تجاور نفس الروبوتات.
إذن أنا، أنت، هو، هي، نحن ... كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة وفي ظروف وحالات متباينة؟
قد يتسبّب لنا قبول هذا التصور-والتصرّف على أساسه-في لخبطة حياة لا تنقصها اللخبطة. تخيّل.
ها أنا أتوجه إلى موظفة النزل: ما أحلى لون عينيّ هذا الصباح. هل هاتفني أنا؟
ثمّ إلى النادل الذي طلبت منه عاشر فنجان قهوة: قلت دون سكر، ألا تعرف عاداتنا بعد كل هذه السنين.
ليس من الصعب فهم اندهاش "نسختيّ" أو "أنائيّ" إذ يكفي أن أتصور موظفة النزل تواجهني من الغد: هذه قهوتك، آن الأوان لتغيير هذه النظارات، ما أبشعها على أنفي. أو أن أتصوّر موقف النادل: هذا كل البقشيش؟ اطلع بكل ما في جيبي.
ماذا لو صرخ فيّ كل عابر سبيل:
- ما هذا التهوّر؟ متى ستكفّ عن كل هذه الحماقات؟
- وما دخلك أنت، شؤوني الخاصة.
- يا رجل احترم الآراء التي تتلهى بها على الورق ولا تقدّر عواقبها. كيف تتصرف في أناي بهذا الطيش وتقول شؤوني الخاصة؟
انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبستمولوجية"-مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.
هي جعلت من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت، أحسنها من تحثّنا على حبّ "أخينا" الإنسان وأردؤها من تجعله العبد والأنا سيده مع تبادل متواصل للدورين اللعينين.
بالتصوّر الجديد-القديم ينتقل التركيز من فوارق الصفحة الواحدة إلى تشابه ال 999 صفحة.

معنى هذا إنك عندما تنظر للآخر واضعا على أنفك نظارات هذا التصوّر فإنك لن ترى إلا نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق.
يمكنني الآن أن أواصل ببالغ الحذر.
القول بأن أي آدمي هو كل آدمي لا يردّ على أهمّ ما في السؤال عن الهوية.
ماذا لو كان هو الآخر قناعا يجب خلعه لكشف من أو ماذا يوجد تحت القناع؟
لمواصلة بناء بيتنا الروحي أحسن ما يتوفر في السوق الفكرية الخيالية للرد على هذا السؤال اسطورة فيشنو الاله الثالث للديانة الهندوسية.
تقول الأسطورة المؤسسة أن هذا الكائن العلوي قبل بالنزول إلى عالَمنا الحسي والتجسّد في كائنات -تسميها الأفاتار अवतार) – وأنه لا يفاضل بين أصغرها واكبرها، بين أبسطها وأكثرها تعقيدا، بين هذا الشكل أو ذاك.
هكذا تجسّد تباعا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه راما، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... والحبل على الجرار لأن التجسّد العاشر مبرمجٌ عند نهاية العالم.
الآدمي إذن "أفتار" من كل هذه الآفاتارات " -سواء كان المحارب أو النبي أو القزم أو المسخ.
لكن من فيشنو هذا؟
مهمة الأساطير وسبب وجودها تجسيد المفاهيم الفلسفية أو الدينية المعقدة أي ربط حزمة أفكار بالغة التجرّد بصور مفهومة للجميع من أول وهلة. نموذجا عزرائيل المفهوم المجسد للموت أو ابليس المفهوم المجسد للشرّ.
ما المفاهيم أو المعاني التي يجسدها فيشنو؟
ثمة في البداية الفكرة الأساسية أن هناك قوة جبارة قبلت طوعا أن تتجسد في كائنات ضعيفة فانية مثل الآدمي والسلحفاة والخنزير البري... بعبارة أخرى أنها قبلت بأخطار ومشاكل الوجود وفضّلته على حالة متقدمة عليه لا نعرف بالضبط كيف يمكن تخيلها.
يجب أن نذكّر أن لكلمة الأفاتار المأخوذة من لغة الهند القديمة السنسكريتية معنى داخل المعنى: المحنة، الصعوبة والمغامرة التي قد لا يحمد عقباها. هل من الممكن أن يتجسّد بسهولة ودون ألم الكامل في الناقص، اللاّمحدود في المحدود، الأزلي في الفاني.
المعنى الثاني أن كل الكائنات التي تنتشر على هذا الكوكب (ناهيك عن التي تملأ ما لا يحصى ولا يعدّ من كواكب هذا الكون) هي تجسيد لنفس القوة. كل الاشكال التي يتجسد فيها فيشنو إذن متساوية القيمة والكرامة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى.
أخيرا لا آخرا أن فيشنو ليس معطى وإنما مشروعا بما أنه لم ينهي عملية التجسد حيث لا زال هناك في المستقبل شكل آخر وقد لا يكون الأخير الذي سيتبلور فيه.
هل يمكن الآن رفع القناع عن فيشنو نفسه؟
استبدل كلمة فيشنو أي الصورة الأداة التي ترجم بها الأوائل حدسهم بكلمة الحياة التي يستعملها بشر هذا العصر لتلمّس ومقاربة نفس الإشكالية.

أليست القوة الوحيدة القادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو زمنا محددا في كائنات جدّ متباينة مثل الآدمي والشمبانزي والقط والفأر والخسّ والخميرة والطفيلي ناهيك عن كل الأزهار والأشجار.
لنرصد أهم صفات هذه القوة الخلاقة المبدعة.
هي موجودة بنفس الكم والكيف في الجرثومة والفيل، في الوردة وفي الزيتونة، لم تقتّر على أحد ولم تميّزه بشيء، وإن اختارت في هذا وفي ذاك أشكالا-حالات جدّ متباعد
هي لا تتوزّع عند ولادة الأجيال الجديدة كما تتوزع تركة محدودة على كمّ هائل من الورثة.
هي التركة التي يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون -ولو قسّمت ملايين المرات-كاملةً من نصيب كل وريث.
معنى هذا أنّ الآدمي لا ينطوي على نوع من أنواع الحياة، أو على جزء منها، أو على حياة خاصة به تكون أرقى وأجود أصناف الحياة. هو ينطوي على نفس الحياة التي تُحرّك جميع الأحياء، والموجودة فيهم بكامل مقوّماتها وعبقريتها.
هي مشروع متواصل حيث لم تتوقف عبر تاريخها الطويل التبلور في أغرب وأعجب الأشكال...والحبل على الجرار إلى ما نعرف من طول الزمان

دوما عند وعدي لروح الناسك الهندي ألا أبني تصورا إلا وهو ملتزم برضاء القلب وقبول العقل، إن غاب شرط واحد فما بالك بالشرطين لا مناص من اعتباره هذيانا في أحسن الأحوال وتدجيلا في أسوئها...
للتخلص سريعا من مثل هذا التصوّر والعودة للتصميم مرة بعد مرة بعد مرة بعد مرة إلى أن يتمّ تربيع الدائرة.
آخر طبقات الحفر:
والآن ماذا أو من وراء أو ما هي هذه القوة الخلاقة المبدعة؟
نبّهنا لاوتسو لاستحالة أن يكون لهذه القوة اسم واحد وهي كل الأسماء، أن يكون له شكلا وهي كل الأشكال، أن تكون لها صفة وهي كل الصفات، أن تكون لها حالة وهي كل الحالات، وحتى أن تكون كائنا وهي كل الكائنات.
رغم التحذير نرى لاوتسو يسقط في الفخ الذي حذّر منه وهو يسمي هذه القوة التي لا يسمّى "الطاو".
مظلم وبلا قاع (لاوتسو)
سابق للزمان والمكان
فوق وخارج كان ولم يكن
إنها حقا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهام وجود مسمًّى خارج المسمِّي، من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصةً لا تكون إلا ببطل محدّد الهويّة.
المخرَج الوحيد هو الذي وجده الخوارزمي أي تسمية المجهول الضروري: "الشيء".
بهذه الطريقة نحن نوجِد كلمةً تُمكّن من مواصلة البحث، وفي نفس الوقت نجعلها تنطق من البداية بجهلنا بهذا الذي نتحدث عنه وبأننا لا نتقدم له إلا بتصورات ناقصة ومؤقتة.
ولأننا لا نختلف عن الأوائل في حبّ اختزال أصعب الأفكار في صور تنعش العقل والعاطفة...ولأننا نريد صورة ما تقرب لأذهاننا وقلوبنا هذه القوة المجهولة الخارقة، فإننا سنعود لصورتنا المفضلة نستنجد بها في المواضع الحرجة من رحلتنا نحو الفهم والطمأنينة: الشجرة.
وفي الرؤيا "الشيء" هو كل شجرة. ..
في كل شجرة هو الجذور والجذع وكل الأغصان...
هو كل ما تحمل هذه الأغصان من أوراق وثمار...
وهو العُصارة التي تمكّن هذه الأوراق والثمار من الحياة ومن التجدد عندما يقطفها الموت.
مما يعني أن آدم بلغة الرؤيا وصورها ورقة –ثمرة من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من الأوراق –الثمار على غصن من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأغصان على شجرة من بين ما لا يعدّ ولا يحصى من الأشجار.
أخيرا لا آخرا هو أيضا من هذه العصارة التي تتدفق في كل جذع لتصل أبعد وأصغر ورقة.
هو إذن شكل اتخذه وحالة اكتسبها إبان لحظة من الزمان هذا الذي تسمّيه الرؤيا "الشيء"، تاركة لمن يريد المزيد من تخيّل هويته كل الحق -وكل الدعم -لمواصلة البحث في موضوع لم ولن يستنفد ابدا.
كم من صور وأفكار راكمَتها الثقافات البشرية على مرّ العصور ولا واحدةٌ استنفذت أو ستستنفذ يوما هذا "الشيء".
كم صَدَق المعلّم الأسمى وهو يوصي بعدم تضييع الوقت في المفاضلة بينها.
لقد صار قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٌ لرهبان (ابن عربي)
وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
كلُّ ما نظفر منه شعورُنا بوجوده الدائم فينا وحولنا.
كم يبدو بعيدا لا يدرك وفي نفس الوقت كم هو قريب. ألم يُذكّرنا المعلم الأول:
بأنّ الذي تهواه بينَ ضُلوعكم تقلّبهُ الأنفاسُ جنباً إلى جنبِ (ابن عربي)
إذن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضمّ راحتيه يسلم عليّ كأنّه يصلّي أمامي.
هل كان يعرف ما كنتُ أجهلُه أو كان يتذكّر ما أتناسى باستمرار؟

**

هندسة الرؤيا للبنة المهمّة التي خرجت الآدمية من أجلها

كأنّ هناك رجع الصدى بين الأسطورة الشرق أوسطية التي ينزل فيها آدم العالم مطرودا ومنفيا عقابا على خطيئة لا تغتفر وأساطير الهند التي تجعل همّ آدم فعل الخير في كل لحظة وكل ميدان أملا في التخلص من لعنة البعث من جديد في هذا العالم الجهنمي.

هل تذكّر وهو يسكن وتسكنه هذه الأسطورة كيف تبلور لأول مرة، تائها في فضاء أخرق الاتساع، يرعبه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تميد به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين، طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة؟

هل تذكّر كم من جيَفٍ أكل، كم من جثث استخرج من قبورها أيام المجاعات، كم بعثر من قمامات في شوارع مظلمة لمدينة مترامية الأطراف بحثا عمّا يسدّ به الرمق؟

هل تذكّر أنه جلس في رحلات أخرى القرفصاء يبكي حبيبا خانته قواه مجبَرا على تركه جيفة للكواسر والطريقُ لا يرحم مريضا أو جريحا؟

هل تذكّر أنه كان عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة نتنة عائما في البول والبراز والقيء، يسأل الموت العجلة؟

هل تذكّر أنه كان مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم؟

هل تذكّر أنه كان مريضا يمشي بين تلال الجثث وراء قافلة طويلة من المهووسين يضربون صدورهم، أَفقدَهم حجم كارثة الطاعون كلَّ صواب، يستصرخون رحمة إله يعتقدون أنه عاقبَهم بالوباء؟

هل تذكّر أنه كان أيضا بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم حتى لا يلقي به الرفاق في الموج وقد نفد الغذاء والماء.

هل تذكّر يوم جُدع أنفه وقُطعت أُذناه ليؤكِّد الحاكمُ المجنون لقطيع العبيد أنه السيّد... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنهِ بعد تخبّطه...يوم شُنق على غصن أول شجرة لأن له لونُ الليل...يوم جُرّ إلى أعماق الأرض ورئتاه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثمن معدن...يوم دُفع إلى مواجهة الكواسر يضحكون من رعبه وهو يواجه الأنياب والمخالب بيديه العاريتين...يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارقُ سارقي قوتِ أطفاله...يوم ساقوه للإعدام شنقا وسحلا وخنقا وحرقا وقطعا للرأس بالفأس والسيف...يوم عذّبه رهبانٌ مجانين يتّهمونه بالتستّر على دينه المضطهَد...يوم كُدّس الحطَب تحت رجليه ولا نفع لصلاة أن يخنقه الدخان قبل أن تلتهم النار جسدا ظَن أنه عرف كل الممكن من العذاب...يوم ساقوا والده إلى المقصلة ثم أتبعوه بأمه بعد اتهامها أنها كانت تضاجعه؟

هل تذكّر أنه كان مملوكا وقف أمام خليفة يصرخ مَن أكلَ بطيخي ثم يبقر البطون مفتّشا عن بطيخه وسط الأمعاء الدامية...

هل تذكّر أنه كان مريضة عجوزا تتمتم بكلمات غير مفهومة وتأتي بحركات غريبة لا تستطيع لها دفعا، فساقوها إلى الشنق بتهمة السحر لظنّهم أنها مسكونة بالشيطان؟

ربما تذكر يوم خرج مُحرَجا وهو كهلٌ يخرج من غرفةٍ يرمي لامرأة مخمورة ورقة نقد ضخمة ثمنَ أَنكر فعلة... يوم بكى والمرأة المخمورة التي أجبرها الفقر تبكي من فرط العار على المتاجرة بجسد طفلها...، يوم كتم صراخه وبكاءه وهو الطفل الذي يُغتصب... يوم ترك النص جانبا وهو الكاتبُ ليضع وجهه بين يديه يشهق بالبكاء لم يعد يتحمل مزيدا من آلام البشر.

هل تذكّر أنه كان لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع؟

هل تذكّر كم من مرة كان جنديا يذبح ويُذبح في أفظع الظروف وهل تذكّر أنه قُتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار؟

هل تذكّر أنه كان جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية وأطفال جياع يفتّشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما؟

هل تذكّر أنه كان جارية سجينة إلى آخر العمر في حريم بمشربية تطلّ كل صباح على شواطئ محرّمة عليها إلى الأبد...أنه كان طفلة قال والداها أمام الشرطة -لتبرير موتها-إنها سقطت من السلّم وكلُّ الجيران يعلمون أنها نفقت في آخر علقة، مات منها الجسد تحت اللطم واللكم بعد أن ماتت منها الروح بنقص الحب... أنه كان يتيما سملوا عينيه لأن طفلا أعمى يدرّ مالا أكثر على عصابات التسوّل المنظّم... أنه كان طفلا يساق عبر مسارب جبال مرعبة، حُراسُه يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمته قربانا لآلهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض... أنه كان امرأة وُضعت في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم، أوصى الراجمون بعضَهم البعض ألّا تكون حجارتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا يملّوا طول زفّة الإعدام؟

هل تذكّر أنه كان إمبراطورا مجنونا ماتت له حبيبته فرأى شبها لها في شاب من حرّاسه فأخصاه ليتزوجه وأنه كان شابا أخصاه إمبراطور مجنون وألبسه كسوة العرس عنوة ليغتصبه فوق كرسي العرش...
هل تذكّر أنه كان جارية ذبحت في ليلة ليلاء مع مئات الجواري لأن إمبراطورا مجنونا آخرَ صدّق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين؟
هل تذكّر أنه كان شاعرا صوفيّا معلّقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلتُه هم الكافرون؟
هل تذكّر أنه كان شحّاذا على باب كم من معبدٍ لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء؟
هل تذكّر أنه كان قِبلةَ كل الأنظار والحشودُ تتشبّث بجلبابه وهو لا يقدر على شيء لأحدٍ ولا حتى لنفسه؟
هل رأى حقيقته وأنه ابان الحياة صيد للجراثيم وعند الموت وليمة للدود؟
تكتسب صعوبة الاحرام بعدا آخر وكنا نظن انها مسالة طبية لا أكثر.
هيّا يا بنت، اخرجي من جحرك، يكفي من هذا الانتظار المزعج ومن طول الدلال الذي فَرضتِه علينا في بداية النصّ.
كأني بكلّ آدمية حبلى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفسُ اللطيف الذي تعوّدت عليه في أحشائها فجأة يتوقّف.
تقول توقّف، أنت تنشر الغصن الذي تجلس فوقه، بأي مهمّة ذات قيمة تعدنا وهذا عالم باعترافك لا يرتحل إليه عاقل تحت أي سبب!
مهلا ما زال للحديث بقية.
لنذكّر هنا بخاصية أساسية مؤسسة للعالم انتبه لها كل المهندسين المعماريين الجادين ألا وهي أنه عالم تناظري أي أن كل شيء فيه لا يوجد إلا بوجود نقيضه المطلق. مما يعني أنه إذا كان عالم الرحلة مليئا إلى درجة القرف بالفظائع فلا بدّ أن يكون آليا مليئا إلى درجة التخمة بالروائع.
لأبشّر الآدمي بكل الهدايا التي تنتظره منذ لحظة النزول.
لأفاجئه بصور البحار والبراري والجبال المكللة بالضباب التي ستستخرج منه صرخات الإعجاب والعجب.
والآن إلى النقر على وتر ألذّ الأحاسيس: طعم الزيتون والتمر والتين والعسل، روائح الياسمين والأرض المبلّلة بالمطر والحطب فوق النار ودخان قطار أسود يركض خببا عبر حقول الزيتون والعنب.
بقية الروائع: حفيف الأشجار، خرير الماء، همس النسيم، صفير الرّيح، شدو الناي، زقزقة العصفور، ثغاء الماعز ونقر قطرات الماء على نافذة غرفة النوم.
اللعنة، نسيتُ أنه يسمع أيضا الأصوات المتصاعدة من غرف الولادة والتعذيب ومن ساحات الحروب... أنه يسمع بكاء الأطفال. بكاء ذلك الطفل المغتصب.
لأدفع بصورته وهو طفل آخر ونفس الطفل يُضحك كلَّ مَن حوله، يمشي راقصا أو يرقص مشيا بتلك المشية الراقصة التي لا يعرفها إلا الأطفال... وهو طفلة متقطعة الأنفاس تقفز بالحبل... وهو مسافر في الرابعة من العمر أنفه على زجاج الحافلة يتأمل منبهرا أشجار نخيل خضّبت هاماتها حمرة الشفق... وهو الأب العطوف، الأم الحنون، الصديق الوفي، الحبيب المحبّ، المصحّح لكل خلل، المتدارك لكل نقص، الناهض بعد كل كبوة، الرفيق بأضعف الكائنات، المشيّد معابد للخير والحق والجمال.
ما زالت فيه بقايا رهبة؟
يهمس النص في "أذن" الأفاتار المتزايد ترددا: تأمّل الشكل الذي سترتحل فيه... خاصة أصابع اليدين. صمّمت بدقّة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهمّ قُدرتُها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمعّن فيما ستخلق من أصوات.
تُداهم الصامت الممعنَ في حيرته أنغامٌ تتصاعد لؤلؤا منضدا من بيانو شوبرت وشوبان وشومان.
تتعالى إلى عنان سماء الروح أناشيد ‟باخ” وموزارت تلحقها قوالي فاتح خان لتنتهي الوليمة آذانا بصوت فيروز.
ينتبه فيشنو إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه.
يسرّ إلى نفسه وهو ما زال تحت وقع سحر الأنغام: آه كدت أن أنسى ...
يتبلور في فكر مبهم قرارٌ لا رجعة فيه أنّه قبِل بالمغامرة الجديدة، أنّه سيقمّص الشكل الآدمي لا لشيء إلا لأنه الكائن الوحيد على هذا الكوكب وربما في كل أصقاع الكون القادر على خلق الموسيقى.
لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركا في أعمق أعماق اللاوعي عمدا، بعض الإشارات المبهمة لتذكّره من حين لآخر أنه غير كل ما سيلبس من أقنعة وكل ما سيمثّل من أدوار.
تعود الطمأنينة لكل آدمية حبلى على وهي تكاد تقسم أن الجنين الذي بأحشائها ...يرقص.
نعم ولكن...

حتى طُعم روائع هذا العالم لا يكفي لبناء سبب وجيه لتبلورنا فيه ونحن نعلم من البداية أننا سندفّع للتمتع بها ثمنا باهظا يتجاوز في اغلب الأحيان قدرات الدفع.
لا بدّ إذن من استئناف هندسة لبنة هدف الرحلة ومعنى وجودنا في هذا العالم.
توضيح ضروري عن علاقة الهدف والمعنى والمفهومان جدّ متقاربان.
لا أحد يؤرّقه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالتسوس.
مما يعني أننا عندما نتحدث عن معنى أو هدف لشيء او لأحد فإننا نقصد نفعه لنا أو لذاته أو لأي كيان نضعه فوق كل الكيانات مثل الوطن أو الله.
لكن هل بوسعنا ربط معنى رحلة الحياة بشيء مثل المنفعة.
إن قُلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ تحسين العالم؟ ما نفع العالم؟
ثمة إذن خطأ في سحب طريقة تفكيرٍ تخصّ الأشياء ولا يمكن تعميمها على قضايا من طبيعة جدّ مختلفة.
يجب علينا التفكير من خارج الصندوق إذا أردنا تفسيرا –أو تبريرا-يتجاوز ربطنا الآلي بين الهدف والمعني وبين الوظيفة والمصلحة.
إذا رفضنا القول إن الآدمي جاء هذا العالم ليتعذب تكفيرا عن ذنب أو ليتمتع بخرير الماء وموسيقى شوبرت جزاء على ما يدفع من ثمن وجوده فإن السؤال مجددا هو: ما الذي جاء به إذن؟
لا بدّ أن يكون الردّ مضمنا في أهمّ الأفعال التي يفعلها الآدمي.
لا بدّ ان تكون هذه الأفعال متجذرة في فعل أولي انطلقت منه سلسلة كل الأفعال التي شكلت ملحمتنا في هذا العالم.
الربط الآن مع إشكالية فعل الأفعال الذي تابعنا هاجسه طوال النصّ.
ما أهمّ وأول فعل لا بدّ أن "الشيء" فعله ... وأول وأهمّ فعل فعله فيشنو... وأول وأهمّ فعل فعله الآدمي... وأول وأهم فعل فعلته أنت؟
هو ضرورة الفعل-الجذر لكل الأفعال التي اشتقت منها الأهداف التي حددتها هذه الأساطير او تلك والتي تخاصم حولها المفكرون والفلاسفة والشعراء مذ وجدوا.
لا بدّ لهذا الفعل-الجذر أن يكون لا فقط متقدما عليه وإنما أن يكون متحكما فيها، محددا لها، مانعا ظهورها في حال غيابه، منهيا فعلها بانتهائه هو.
بديهي ان كل هذه الأفعال لا تنطلق من غير الموجود مما يعني ...هل ضالتنا فعل وُجد؟
لكن هذا الفعل يصف حالة مُبقيا وراء الستار مَن أَوجدَ هذا الذي وُجد فجأة.
ماذا كتبت؟
أوجد؟
أوجد!
أوجد! *هل هو الفعل الجذر الذي يجري وراءه النص منذ عقود...فعل الأفعال الذي انطلق البحث في إحدى أثرى سهرات الجدّ واللعب مع تفاحة وتفيحه؟*
مهلا. يجب عرض الفكرة على الحكمين وأولهما العقل.
ثمة فعلا ما يشفع لفعلنا هذا أن يكون أول فعل ومنطلق كل الأفعال.
أنظر ما تفعلُه الحواس الآدمية الخمس بالمبهم الأصلي الذي أُسميه العتمة.
هي تبلور-إي تجعل موجودا ما كان موجودا على حالة أخرى بالنسبة لحواس كائنات أخرى -عالما من مظاهره كل ما تعرف وتجرب الذات: البِحار والجبال والسهول والصحاري والأنهر والغابات... خرير السواقي ونشيد العصافير وهدير البحر... روائح الأزهار والعشب والأرضُ بَلّلَها المطر... طعم التين والزيتون وطيبات الأرض والبحر... أحاسيس البرد والحرّ، النعومة والخشونة، الجفاف والرطوبة، المتعة ولاذع الألم.
القاسم المشترك بين إيجاد الحواس الخمس لمثل هذا العالم أنها لا إرادية تلقائية أي لا تتطلب جهدا أو تخطيطا.
ثمة أيضا الأفعال الإرادية التي تصوغ العالم بما تراكمه العقول والسواعد في الفضاء الحسي من اهرامات وقلاع وقصور ومدن وسجون ومستشفيات وناطحات سحاب ومصانع وموانئ ومطارات وطرق سيارة ومحطات إطلاق الصواريخ وأقمار الصناعية ...وبكل المعالم الرائعة والبشعة التي لا نتصور عالمنا بدونها.

أضِف الآن الأفعال التي تعمّر الفضاءات غير الحسية بالأفكار، بالأحلام، بالمشاريع وبكائناتٍ لا توجد إلا في رحابها الواسعة اسمها الشياطين والملائكة الآلهة.
كل هذه الكائنات الخيالية الرمزية -التي لا تقل تأثيرا في عالم الآدميين عن كائنات اللحم والدم-من إيجاد مختلف الثقافات البشرية وهي بما فيها من ثراء وتنوع في وصف الواقع والتعامل معه عوالم خاصة داخل العالم الحسي المشترك.
أخيرا وليس آخرا: العوالم الفردية التي تخلقها كل ذات نتيجة تباين التفاصيل داخل التفاصيل تعلق الأمر بمكان وزمان التبلور أو الظروف الموضوعية التي تحكمت في مسارقصة المرتحل .
هكذا ترى لكل واحد منا تجربة تتلاقى في ثوابتها مع كل تجارب البشر ومع هذا لها نكهة خاصة لا توجد عند أي ذات مند وجدت الذوات.
بديهي أن العالم الآدمي بكل دوائره الثقافية والفردية لم ينبثق من لا شيء. هو أيضا نتيجة عملية إيجاد تكفلت بها هذه الطاقة المجهولة التي نسميها الحياة والتي ترمز لها الأسطورة الهندوسية تحت اسم فيشنو الاله الذي لم يوجد فقط الآدميين وانما السمكة والسلحفاة والخنزير البري أي كل ما يمكن تصوره من الآفاتار الممكنة.
إلى حدّ الآن نحن على أرض صلبة.
من أوجد فيشنو هذا أو كل ما يرمز إليه؟ هنا يقع التجديد في صقل اللبنة الضرورية لإسناد بيتنا الروحي. التوغل في الأعماق الباقية للخلق والاستكشاف لفضاءات الخيال والرموز.
لنستجمع ما توصلنا اليه منطقيا وما يمكننا مواصلة البناء عليه.
أوجد فيشنو ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية ومنها الآدمية...
أوجدت الآدمية بحواسها وفكرها وخيالها وأفعالها العالم الآدمي...
داخل هذا العالم المشترك أوجدت اللغة والثقافات عوالم بالغة التنوع والثراء...
داخل هذه العوالم الآدمية المتباينة في التفاصيل أوجدت الظروف وطرافة كل ذات عوالم فردية...
داخل عالم من هذه العوالم الفردية أوجد الفكر والخيال "الشيء" جاعلا منه منطلق كل منطلق.
بهذا تنغلق الحلقة على نفسها وتتبخر ثنائية الخالق والمخلوق التي أجهدت الفكر طويلا في كم من أسطورة مؤسسة. فالخالق في الرؤيا أوجد المخلوق لأنه لا يوجد إلا بوجوده والمخلوق أوجد الخالق لكي تكون له قصة مقبولة.
نعم، لا أفضل لحجر الزاوية في بناء البيت الروحي من فعل أوجد...
يجب الآن عرض اللبنة على تقييم القلب. لا شكّ في رضاه عنها.
تصوّر آدم في سرديتنا وهو يخرج من الجنة مكلّفا من ""الشيء " بمهمة إيجاد عالم طريف لنقل أنه متميز عن كل ما جرب من عوالم باكتشاف الموسيقى خصيصا والفنّ عموما.
أي كلمات مفتاحية ستضيئ نص الأسطورة: طبعا التكريم، التكليف، المباركة من جهة الرب ... الحرية، المسؤولية، الشجاعة من جهة آدم.
أليس رائعا أن نسكن رؤيا تجعلنا جميعا أحرارا على أعلى قدر من الكرامة سواسية في اضطلاعنا بأعظم مهمة: إيجاد العالم الآدمي واستكشاف كل إمكانيات الوجود داخله ولو بأعلى تكلفة وكلنا ناجحون بامتياز في هذه المهمة نؤدّي بوعي وغالب الوقت دون وعي كل المطلوب من أنفسنا الأمّارة بالخلق.
انظر الآن الكلمات التي تلقي بظلالها على السردية التي جعلت منا مطرودين من الجنة منفيين في عالم سمته أساطير أخرى وادي الدموع. كلها كلمات بغيضة ثقيلة منها اللعنة والإهانة والعقاب من جهة الرب عقدة الذنب والتذلّل والخوف والطمع من جهة آدم.
بداهة – مع كامل الاحترام للمهندسين الخياليين الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم الهندسي -هم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم حتى لا أقول في رسالتهم.
لكن لماذا بنوا مثل هذه البيوت الروحية وهم لم يكونوا أقل ذكاء منا أو أقل رغبة في تيسير رحلة الآدميين؟
لنقل إنهم فعلوا فعلتهم هذه في ظروف بلغت فيها صعوبات إيجاد العالم الآدمي ذروتها.
ولأنهم واجهوا من الآلام ما جاوز أحيانا طاقات التحمل، فإنهم ركنوا في حالة وجع وإحباط إلى أسهل التبريرات لوضعهم البائس. هكذا خلقوا قصص النفي والطرد والخطيئة ومخلّص وخلاص يفسرون بها ما يعانون ويضعون آمالهم في أوهام.
ما فاتهم أن لكل ثمين ثمن وبقدر ما يكون الثمين ثمينا بقدر ما يكون ثمنه باهظا.

بالعودة إلى تجاربنا الذاتية مع العالم، ألا يمكن القول إن الرعب والخوف والألم والتعاسة والجهد والإرهاق واليأس وكل المشاعر السلبية التي نعاني منها هي تكلفةُ إيجاد العالم الآدمي... أن الفرح والمتعة والتفاؤل والأمل المكافأة على النجاح في أصعب امتحان.

عودة لإشكالية الهدف والسؤال المتكرر في ألف صيغة وصيغة:

ماذا يريد "الشيء" منّا ومن تجاربه التي لا تنتهي في عوالمه هذه التي لا تُحصى ولا تعدّ؟

لنقُل إن السؤال غيرُ قابل للردّ لا لوجود سرّ يجب أن نواصل البحث عنه وإنما لأنه فاسد أصلا.

هل "الشيء" بجاجة لسبب يبرر به أو يفسر به وجوده وتصرفاته؟

طبعا لا. "هو" بغير حاجة ليكون مفهوما، أو مقبولا أو معذورا، أو محمودا، أو نافعا، لا لشيء إلا لأنه "هو" الأصل الذي تتفرع منه كل الأشياء وكل الكائنات وكل ما تُبلورُه عقولُ البعض منها من مفاهيم مثل البداية والنهاية، الحيّ والميّت، النافع والمضرّ، العبثي والذي له معنى.

هو ليس بحاجة لهدف أبعد من الإيجاد لأن هذا الايجاد هو الذي يوجد كل الأهداف ومن ثمة هو خارج وفوق كل هدف.

الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: على عمود قائمة الأرباح، على العمود المقابل قائمة الخسائر. لا النجاح هدف الرحلة ولا الفشل فشلها. النجاح والفشل حالتان –أداتان –فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقلّ...

ألا نصل هدفا ركضنا وراءه إلا ونكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمّنا ؟ ألا نجعل من كل نقطةِ وصولٍ، ولو كانت قمة القمم، مُنطلَق طريقٍ جديد؟

هل هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقتحِمْ أنت الدنيا لمتعة النصر، أمّا أنا فتكفيني منها متعة الصراع؟

يحضرني الآن أنني لم أتكلف جهد الكتابة بحثا عن الحقيقة أو الشهرة أو الخلود عبر الحرف، كما أوهموني وأوهمتُ نفسي زمنا طويلا، إنما للكتابة نفسها لا غير.

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طُـعما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيفُ الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءه. كم صَدَقَ من قال: عندما تحقق هدفك اعلم أيضا أنك ضيّعتَ كل الباقي.

كم من أهداف جَرينا وراءها نَحزن لعدم تحقيقها والحالُ أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماغ لمعرفة أسراره.

في روايتي لقصة القصص ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه، وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزخر به من قدرات في مجالَي الفكر والخيال.

أخيرا يمكنني أن أَجري وراء أي هدف وأنا أعرف أنه مجرّد تِعلّة لتشغيل جسدي وفكري... أو أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعته مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصتُ من رواسب ترويضٍ ماكرٍ ودعاية خبيثة وعقدةِ ذنبٍ مغروسة بدهاء منذ نشأتي، لأكون لهم خادما لا يطلب جزاءً ولا شكورا.

كيف لا أتنفس الصعداء ونفسي لم تعد تطالب نفسي بشيء.

أخيرا الرحلة.

"كالموجة (لاو تسو).
على سطح المحيط
كالريح
بلا وجهة"

**

أصعب لبنات الرؤيا هندسة

في مسرحية شهيرة لقصّاص عبقري اسمه يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علّموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: ‟لا تتمسّك بأظافرك بهذه الحياة إنها منفى وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكّر أنك ستتخلّص من هموم الدنيا. ‟

تتدافع في ذهن المحتضر آخر الأفكار قبل أن تُطفأ أنوار الوعي: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! ما أحلى تذليلها. ماذا؟ عليّ أن أتذكّر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأتسلّق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغبيّة؟ عليّ أن أسلّم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كثبان الرمل!

من أين لهذا الآدمي المسكين أن يرحل مطمئنا وقد سكن طول حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة.

هي جعلت من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية وهي متمسكة بالبقاء.

لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقررت قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أتيت إلى الدنيا (نزار القباني)
وجدت قرار إعدامي
ولم أرَ باب محكمتي
ولم أرَ وجه حكامي"

من يريد أن يسكن مثل هذه الرؤى فهو حرّ ومعذور. أما بخصوصي ....

أكبر الصعوبات التي يواجهها الآدمي على طول الطريق القبول بأن زمن الارتحال قد ولّى وأن زمن الرحيل قد حان.

لنجرّب إقناعه أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعناها في فضاء الرموز ووضعناها في فضاء الخيال فترعرعت فيهما لتعود إلينا بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كائنا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوّره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا ‟يقطف‟ به أرواحنا.

كأني بأحدهم يصرخ ساخرا: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا ".

لنجرّب التوجه إلى عقل هذا الساخر الموجوع: حبّر على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجدّدة، م.ح.د.و.د.ة.

الموت إذن ليس حالة مناقضة لحالة ثانية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة.

كيف يكون جزء من طبائع الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

أضف لهذا أن فكرة الموت تلعب عند المنتبهين الدور الذي يلعبه صوت السوط في هرولة دابة كسولة ... لم يهاجمني التبلّد يوما إلاّ وسارعت إلى استحضارها، فيعود لكل قضية حجمها.

كأنّني أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع.

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرهَ الأحدب لحدبته!

مما يعني أن عليّ إن أردت أن يكتب للرؤيا بعض القبول احترام كره الذات لمحدودية حياتها وبحثها المحموم منذ وجدت عن الخلود. من أين لها تجاهل حاجة بمثل هذا العمق وإن تبدو لا منطقية ومستحيلة التلبية، هي التي تريد تلبية كل الحاجيات؟

ثمة طريقة ملتوية بل ولا تخلو من قدر من الخبث: جعل من أطمح ليسكنوا بنايتي الروحية يخشون الخلود أكثر مما يخشون الموت.

*

أحسن من تناول الموضوع من هذه الزاوية راوٍ عبقري يكتب بالكاميرا لا بالقلم: المخرج السينمائي جون بورمان John Boorman في فيلم لم يأخذ حق قدره من اهتمام النظارة والنقاد ...ربما لأنه صدم الكثير مما يسمونها مقدساتهم.

سيناريو أعمق أفلام الخيال العلمي: فيلم زاردوز.

سنة 2293 أصبحَت التكنولوجيا قادرة على خلق جنّة اصطناعية تُوفّر كلَّ المطلوب من أي جنة تَحترم نفسها، وأساسا الخلود.

إنها جنّة على الأرض وليست التي تنتظر في السماء اتخذت شكل مَحميّةٌ تتحصّن منذ قرون وراء أسوار شاهقة والنعيمُ الأبدي الذي بداخلها وَقفٌ كالعادة على أقلّية. أما قَدَر الأغلبية فالبقاء الصعب الأليم في عالم تحول أكثر من أي وقت مضى الجحيم على الأرض.

لا شيء يثير حفيظة هذه الأغلبية قدر هذه الجنة التي لا يقدرون دخولها لغزوها ونهبها وتدميرها رغم تعدّد محاولات تسلق أسوارها.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا خُيّل له-مَنفذا للمحمية، فيدخُلها هو ومحاربوه شبهَ مقتنعٍ أن ساعة الثأر قد حانت.

ينتبه سريعا أن الوضع غير طبيعي. أين قوى الدفاع، هو الذي كان يظنها ستجبره على أشرس معركة؟

المشهد الأول

يتابع الصيّاد الهمجي ببصره شيخا يتقدم نحوه باسما ممدود اليدين.

شيخ! ألا تؤكّد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم-أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبدا!

يصرخ في الشيخ:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقَب بالشيخوخة الأبدية.

تسترعي انتباه البطل رنة الحزن في كلام الشيخ. يتراجع حقدُه تاركا مكانا لفضول جارف. يجب أن يَحثَّ هذا الكائن المقزّز على الكلام ليفهم أخيرا سرّ قلعةٍ استعصَت على الأجداد.

لا حاجة لتهديدٍ فالشيخ لا يريد إلا الحديث.

قال الشيخ: اسمع منّي القصة أيها المنقذ: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري. هنا لا أحد يعبأ بالزمان. كنا نشعر أن الجشع والغباء بصدد التعجيل بنهاية الآدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعددنا لها العدّة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر البشري. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خِلناها المدينة الفاضلة... الجنة، كما كان الأوائل يتخيّلونها.

يواصل الشيخ عرض أطوار القضية:

- وضَعنا في الزمردة السوداء كل التعليمات لإدارة شؤون الجنة هذه منها أن كل من يخرج عليها أو يهددها، يعاقَب بالشيخوخة الأبدية لا أمل له في راحة الموت. الزمرّدة هي دعامة هذه الجنة وضمان وجودنا. هي حارسة خلودها وخلودنا. لا تقرب ذلك المبنى الذي هو محرابها ومنه تسيّر كل شيء، وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هَولا مِن أفظعِ ميتة.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء وما ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصياد الهمجي محادثا نفسه:

الزمردة مقتلهم إذن! لحظة أدمرها سيتهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ، وسيكون أعظم نصر. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربّة القبيلة.

كأن الربة المعنية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه -هكذا دائما بمجرد الصدفة-فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بالدمقس والمجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- مِن هنا أيها المنقذ.

المنقذ؟ لماذا أطلقَت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا رنّة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوتُ الساحرُ: تعالَ أيها المنقذ الذي فَرغَ الصبرُ من طول انتظاره كلَّ هذه القرون. اتبَعني، أنا دليلك في هذه الدهاليز. الطريق للوصول للحرم من هنا. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنتجح.

تنطلق الفتاة تقود البطل في الدهاليز الغريبة ووراءها من بعيد ذكورٌ وإناث يرفلون في الحلي والحلل، لا يُخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلقا.

من أول خطوة أحسّ بألم لا يُطاق ينهش لحمه وقوى الدفاع المجهولة تنصب له الفخ بعد الفخ.

- قولي لي من نحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو والدليل الجميل أكثر من مرّة.

ثم وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدّة آلام فظيعة لم يجرّبها من قبل.

كانت تضمّه كل مرة إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. ستصل وأصبح لك زوجة.
عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشفّى من عدوّ ستنتقم منه ألذّ انتقام.
من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجه مِن خِلفِ ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّرها عقل.
كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفرج أساريرها: من هنا.
حتى في الجنة مؤامرات ومتآمرون! مَن هذه المرأة؟ مَن هؤلاء الذين يدلّونها حين تختلط عليها الطرق؟
قالت له بعد أن قطعا شوطا طويلا: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفعك في شيء. هنا حَرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحدا واحدا لا يدخلونه. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها الآن. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتنا.
أخيرا الزمرّدة في قبضته.
علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!
رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!
لحظة تردّد.
ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل الزمردة لمصلحته ولمصلحة قومه؟
لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء المخنثين.
يطبق براحته على الزمردة فتنطفئ كل الأنوار.
تتهاوى الأسوار ليقتحم الزمان المحميةَ كما يقتحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

يسمع الصيّاد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.
يَشدُّه منظر الخالدين وهم... يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!
الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد...
الغانيات يمزقن القميص ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلّال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضَحك سمِعَه يوما.
إنه تعجُّبُ مَن يرى غزالا يركض صوب الأسد أو حَمَلا يهاجم الذئب.
يتقدّم الشيخ للهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حيّة شاهدها آدمي.
- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.
- ستتكلم قبل ذلك. مَن أنت؟ مَن هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟
- هذا أقلّ ما يمكن أن أجازيك به أنا الذي سأَدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.
اسمع مني أغرَبَ قصص الآدمية المجنونة.
كانت الجنةُ حقا مكانا مُثيرا في البداية. غرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذة الحواس وإنما أيضا لذة العقل والروح. شبعنا جنسا وعلما وصلاة وموسيقى. شيئا فشيئا اكتشفنا فظاعة الفخّ الذي نصبناه لأنفسنا واستحالة الخروج منه. كنّا كالأطفال الذين يحلمون بأكبر مصّاصة ممكنة. لَمّا صنعنا المصاصة اكتشفنا أنها مسمومة. لم يطُل بنا الوقت قبل أن نكتشف أننا لَما ألغينا الألم، لم يعد للذة معنًى، أنه لم يبق للجمال قيمةٌ بما أننا قضَينا على القبح، أن الحكمة اختفت بما أننا صفّينا الغباء. أن الخير أصبح كلمة فارغة من أي معنًى وقد انقرض الشر. لم تعد بنا حاجة إلى الشعر والموسيقى ونحن لم نعد نعرف لوعة الأسى. ما الذي سنسعى لمعرفته وقد عرفنا كل شيء، ثم بماذا سنملأ الوقت المتوقّف الممتد أمامنا إلى ما لا نهاية، وقد جَعلنا من نهر الزمان بِركة آسنة لم تلبث أن تصاعدت منها الروائح العفنة.
صمت.
يواصل الشيخ: كنت أولَ من قال يَجب إنهاء هذه الموبقة. كَذَّبوا آذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا ادرس أكثر، اسمع الموسيقى أكثر، مارس الجنس أكثر وتعبّد أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تفاقم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتا ثبات الزمان المشلول. كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بَلادةِ حسّ متزايدةِ العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ في آذانهم: ألم تفهموا أننا نعيش أفظع عقاب لرفضنا أول قوانين العالم السويّ؟

هكذا حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوبا في قوانيننا وكنتُ أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبّد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا معنى له.

نعم، كما لا معنى للخلود باللذة القصوى الثابتة ابد الدهر في الجنة لا معنى للخلود وسط النيران أبد الدهر في جهنم... ومن ثمّ وصول العقل الجماعي تدريجيا إلى استنتاج رابعة العدوية وهي تركض حاملة في يدها اليمنى دلو ماء وفي يدها اليسرى شعلة نار فقيل لها إلى أين أيتها السيدة فقالت" إلى الجنة لأحرقها وإلى جهنم لأطفئها حتى لا يعبد الناس الحق (الله) عن طمع أو خوف".

بوركت أيتها المرأة النبيلة لا رسالة أهم من هذه لنرتحل جميعا في هذا العالم أحرارا لا يرهبنا خوف لا يذلّنا طمع.

يتوقف الشيخ ماسحا دمعة خجول ثم يستأنف رواية أغرب قصة للآدميين مذ وجدوا.

تدريجيا نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوما أننا أصبحنا سجناء زنزانة لن يحررنا منها إلا رجوع الموت.

كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول متمرد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاء منقذ لا تعرفه الزمردة وبالضرورة من خارج المحمية. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطيع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذاك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلتُ يجب تكثيف التنكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقدا وتصميما على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندلّه على مَكمن الداء.

كنتَ يا زاردوز آخرَ حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. كم تطلّبت من جهد حتى تكون جاهزا. ها قد نجحت حيث أخفق قبلك كم مِن مُغامر صنديد. بوركت، بوركت أيها المنقذ.

تعديل النص لنفس الرواية للتجديد في اسطورة آدم

الشيخ: وبصفتي أول متمرد، عهد إليّ بالبحث عن حلّ. ما العمل وأنا أكتشف في آخر رحلة تفقدية أن الآدمية انتحرت على أسوار الجنة وأنها انقرضت كليا. لم يبق غير البحث عن حلّ داخلنا. لم يكن الأمر سهلا والأغلبية تعيش في حالة ذهول دائم. ذات يوم واجهته، هو الرجل الذي أعاد لي الأمل. كان، لسبب ما، غير واقع تحت تأثير التخدير العام وكان يتكلم بصفة غير معهودة. يوم اكتشفتُ أنه يخطط للفرار للعودة إلى حيث الزمان، قلتُ لا بدّ أن أُعينه، لكن يجب إقحام تلك المرأة المسماة حواء في العملية فهي أيضا من نفس الطينة. إنهما أمَلُنا الأخير في ولادة آدمية جديدة تخرج من العدم للوجود تعيد لنا هدية الحياة وهدية الموت.

أوحيت لهما بالهروب إلى اين لا سلطة للزمردة، سهلت لهما الأمر بكل ما استطعت من تخريب أجهزة الرصد ومنذ ذلك الزمان وأنا انتظر أن يأتي من ذريتهما المنقذ لننخرط نحن أيضا مجددا في سيل الزمان.

مواصلة الرواية الأصلية للفيلم

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاد صبرٍ دامَ كم مِن أبدية:

- هلمّ، خلّصني من كابوس هذا الخلود اللعين. اهدني الطعنة التي ترجيتها كل هذه الأحقاب. تمهّل لأشعر ببرودة النصل وهو يغوص بين ضلوعي. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيرا حُرا طليقا من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخنا لَزِجا يتدفق كالشلال، أريد أن أملأ نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة.

قالت مقاطِعةً الشيخ برقّة ويدُها على ذراع المنقذ: أنا التي قُدته داخل الهيكل. نصلُه لي قبل كل واحد منكم.

يتردّد المنقذ ثم يأخذ قراره. يغرس خنجره في صدر الشيخ بلطف فائق وهو ينظر إليه مبتسما فيلفظ المتمرّد الأول أنفاسه وكأنه في ذروة الجماع.

تلتفت آدم لحواء ليعلمها أنه يفضل أن تعيش معه تجربة حياة معفاة من الخلود.

تتردّد حواء في قبول مواصلة البقاء. تنتبه إلى أن الزمان الحبيس سيعود للتدفق وأنها ستعرف تتابع الحلو والمرّ إلى آخر العمر. تأخذ بيد حبيبها وتخرج إلى عالم استعاد توازنه لتعيش إلى العمر الذي يصبغ الشعر ببياض المهابة والجلال، لتعرف اللحظة المهابة المهيبة وهي ترحل كما رحل الآدميون بين فرح الراحة الموعودة ورهبة القفز في المجهول.

ولأنه لا بدّ لكل قصة من عظة، فعظة هذه القصة أنه إذا اعترضَك بائع لبق يريد بيعكَ الخلودَ في الجنّة بآخر درهم في جيبك. فكّر مليّا. مؤكّد أن هناك استثمار أحسن لدرهمك الأخير.

*

كل هذا الكلام مقنع ...لكن،
نعم للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان أو فكرة وضع لا يتغير أبدا هو الذي رصد باكرا أن أولى وأهم خصائص هذا العالم عدم الثبات على حال.
لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق شئنا أم أبينا إلى حافة هاوية مظلمة بلا قاع نُدفع اليها دفعا؟
كيف لا نتفهم شدة انكاره أن تتوج الرحلة بمثل هذا النهاية العبثية والمخلّة بالكرامة.
كيف ستواجه الرؤيا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبدا ومن جهة أخرى ضرورة نهايتها وأي بديل للجنة يمكننا عرضه عليها لا يتنكر لقواعد المنطق وقوانين العالم ؟
عودة للأسس التي نبني عليها بيتنا الروحي.
لنعتبر التصور القديم للجنة الذي ذهب ضحيته أبطال الفيلم بكونه مثل العملة المزيفة التي تحاكي وتشوه العملة التي تقضي الحوائج ولا تتسبب في مشاكل قانونية لمستعملها.
كيف سنهندس هذه العملة التي لا تخدع مستعملها ولا تشترى الأوهام ؟
مرة أخرى بالاحتكام للتفكير العقلاني لا لشطحات خيال يهبنا بكل سخاء كاذب ما نطلب وزيادة.
أليست أقصى وأرقى أنواع المتعة المفروض وجودها في الجنة هي راحة البال أي الحالة التي تصبح فيها الذات خارج منطق الجري وراء الشهوات لا تبالي بما تحقق منها أو لم يتحقق.
مثل هذه الحالة لا تعاش كما يعرف ذلك كل مصاب بلعنة الرق إلا إبّان نوم هنيّ لا تتخلله الكوابيس...أو عندما يكون النوم بلا يقظة ترجعنا لنفس المهازل والمآسي. إنها الحالة التي يسميها الفلاسفة في أساطيرهم النخبوية العدم والتي لا مدخل لها إلا الموت.
على فكرة إنه حسب أساطير الهندوس والبوذيين المحطة النهائية للرحلة أين يتم إعتاق المرتحل من كل عودة جديدة للعالم في أي أفاتار كان.
مقاربة أولية لتصور هذا العدم: اعتبار شبيهه في الفضاء الحسي ...هذا الذي نسمّيه الفراغ.
ما يخبرنا به أهل العلم في فيزياء الكم ان الفراغ ليس...فارغا.
حقًا هو الفضاء الذي تتناثر فيه كل مكونات الكون سواء التي ما زالت قائمة الذات أو التي فككتها قوى الدمار. اخرج منه بقدرة الخيال والفكر كل الموجود فيه أكان بحجم المجرات أو بحجم الذرات.
أبقي في "الوعاء" شيء؟
نعم، ثمة دوما في أعماقه مكونات -عوامل-قوى مجهولة بالغة الصغر، بالغة الرهافة، بالغة التعقيد تتحدى كل محاولة التخلص منها. هي ليست بقية بقايا بقايا البقايا وإنما أمور أخرى تتحدى طرق فهمنا وتصورنا للواقع.
هذا الفراغ غير الفارغ -دوما حسب هؤلاء الرواة -هو محضنة القوى التي تخلق باستمرار ما سيطفو على السطح والذي سيلتقطه وعينا كجملة الكيانات والكائنات التي تشكل الواقع.
قياسا على تصوراتهم لنعتبر أن العدم نهاية الطريق أين ستفكك لا فقط أجسادنا وإنما ذاكرتنا التي جمعت الذات فيها كل تجربتها.
لكنه أيضا حاضنة القوى التي تعيد تركيب ما تفكّك وإن في أشكال جديدة لا تكفّ عن استكشاف كل إمكانيات الخلق والابداع.
بعبارة أخرى هذا الذي ينتهي فيه كل وجود هو الذي ينطلق منه أي وجود.
ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين
لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه العدم للذات المرهَقة الموجوعة وعلى بابه توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدّد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد...أي في شكلك الماضي وفي القصة التي عشت". في هذا الجناح الخاص تبلغ راحة البال قصوتها ولا تحديد لمهلة متعة المتع.
في جناح موازي أين الخلود ليس الثبات على المخلوق وإنما الثبات على الخلق، تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية.
عودة أخيرة لأسطورة آدم لتعديل جديد.
لنقل بعد أن نضجت تصوراتنا أكثر أن آدم خرج طوعا من جنة لم تكن جنة الحواس كما تصورها أوائلنا وانما من اللاموجود بما يوفره بسخاء من مطلق الراحة قابلا بالوجود رغم كل مصاعبه وأخطاره مدفوعا من " الشي" الذي يسكنه لأنه لا مجال لوقف عملية الخلق.

هل ثمة حالة نتخلص فيها من عبء الشهوات جريا وتمتعا وحرمانا أروع من راحة البال، الحالة التي لم تعد الذات تهتم فيها بما تحقق وما لم يتحقق من شهواتها؟ وهل ثمة أحسن من النوم ومن الموت للتمتع بهذه الجنة الحقيقية؟ النوم موتة قصيرة! الموت نوم طويل إوالوظيفة في الحالتين واحدة: من جهة إعطاء الذات فترة لراحة البال ومن جهة أخرى تمكينها من فرصة لالتقاط الأنفاس تأهبا لتجديد الذات والعالم!

كما تعسفنا على علماء فيزياء الكم باستعمال بعض مفاهيمهم لنستغلّها في بناء مفاهيمنا سنتعسّف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجرؤون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم.

مثال الشجرة مرة أخرى طريقة أخرى لتوضيح فكرة ليست سهلة الشرح للكاتب أو سهلة الفهم للقارئ.

اعتبر الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة. إنها مجرد وعاء مؤقّت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تَضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.

هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقَطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة.

هي طبعا الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصارة.

هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائل وهي نفس العصارة الموجودة في كل الذوات الآدمية وغير الآدمية.

هذا ما يسمح للرؤيا بالتوفيق بين ما لا يبدو قابلا للتوفيق فقط بالتركيز والتذكير بما نتناسى.

كورقة الخريف تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارتها لا تموت وإنما تواصل ضخَّ طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى. مما يعني أن لكل ذات جزء فان وجزء وإن كان ليس خالدا فإنه قديم قدم الحياة وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف متى ستنتهي.

لقائل إن يقول، لكن البشر ليسوا أوراق شجرة وكل كائن فريدٌ متميز يُضيّع الموتُ طرافته!

ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظَت على نفس الأشكال، نفس الحالات، نفس الأجساد؟ بل ما الذي كنتَ ستجني أنت مِن مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود بفهمه البدائي. أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديرة بأن تُعاش؟

انظر الآن كيف يتحقق -دون التعسف على منطقٍ-كلُّ ما تريدُه الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهَق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف-وقد جفّت فيها العصارة... وخلودها عبر تواصل عصارتها في كل ذات هي بالضرورة ذاتها والذات الأخرى أي نفس الذات الأزلية التي لا تتوقف منذ الأزل عن الموت والبعث.

كم صدق حدس الشاعر

"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)
أنا فيه إن يزبد وإن لم يزبد
مهما تلاطم فهو ليس بمغرقي
أو مخرجي منه ولا بمبدّدي"

**

نقطة على خط الزمان

يتعالى صوتُ تفاحة من وراء باب تصرخ بأوامر لا يعيرها أحدٌ اهتماما ولا حتى صاحبتها. أهمس في أذن البنت:
- حبيبتي حرّة، انتبهي، ستدلف علينا "ما" معلِنة حَظر التجوّل. توقفي عن الصراخ، قد توقظي هناء، لا تَغتَري بعمق نومها!
- جَدّي! هناء شرّيرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و...
- نعم، نعم، وفي السيارة تنظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها.
- جدّي! أريد أن تروي لي هذه الليلة أططططططول وأججججمل قصة.
- شريطة أن تتوَقّفي عن الصراخ والقفزِ على هذا السرير المسكين. عندي لكِ قصة أروع من قصة الجازية وشهرزاد وكل ما سمعت من قصص أمك وجدتك....

بربّك هل ثمة راوية قديمة أو معاصرة أعطت لأبطالها مثل الجذور النبيلة الارستقراطية البالغة القدم التي تعطيها لهم الرؤيا؟
ثم هي تبيّن أنهم لم يأتوا العالم لأهداف صغيرة وانتصارات تافهة او إخفاقات لا قيمة لها وإنما لإيجاد عالم كامل يبلورونه من احاسيسهم ومشاعرهم وافكارهم وخيالهم وسواعدهم ويجربون فيه طيف حالات الوجود بكل ما فيه من متعة ومن ألم، من انبهار ورعب ...وهو الأمر الذي ننجح فيه كلنا دون استثناء أو مفاضلة.
ثم أليس رائعا أن طاولة القمار تُرجع لنا خسائرنا وتسمح بمعاودة اللعب ولا حدّ للمرات أو للمَبالغ التي نستطيع الرهان عليها؟ أليس مُنعشا للأمل أن يعيد لنا الزمان كل مرة عقارب الساعة إلى الصفر الأول ونحن الواحد المتعدد؟
لا يفوتنك أيضا انني خلافا للأساطير السيئة الصنع لم اغلق باب الأسرار وإنما على العكس فتحت لها ما لا يحصى ولا يعدّ من الأبواب.
ألم يتفادى النص الدخول في موضوع من هذا الذي يسميه " الشيء" وماذا يفعل بكل أنواع الأفاتار التي تجسد فيها وبكل العوالم التي بلورها وهل يحفظها في مكتبة أنيقة يعود اليها أحيانا كما نفعل عندما نتأمل بعض الفيديوهات عن آخر سفراتنا أم هل يمحوها غير مقتنع بما جرب من اغرب ما جادت به مخيلة لا تنضب؟
من المفروض إذن ان تلاقي روايتي لقصة القصص نجاحا باهرا لو كان الاعتراف بالجميل من خصائص الآدميين.
من حسن الحظّ أنه بوسعي تسويقها لمن لا خشية أن يضحكوا مني أو أن يكفّروني.

- جدّي، جدّي، جدّي! هيّا، عجّل.
- طيّب، خذي في حضنك "إيتي" لتسمع هي أيضا. شيء بداخلي يقول لي إن هذه الدمية التي ورثتها من أمك متلهفةٌ أكثرَ منك لسماعها. ربما تتجسّس علينا منذ كانت بحضنها على كل حال ليس لدينا ما نُخفيه. إذن...
فجأة، كما هو الأمر عادة فيما نسميه الواقع، تأخذ الأحداث مجرى جديدا.
- جدّي! جدّي أنا أروي القصة، أنا، أنا، أنا!
- يا بنت استحيي، عُمُرٌ كامل وأنا... وأنت تريدين بأعوامك الثمانية أن... مِن أين لطفلة صغيرة أن...؟
- لا، لا، أنا، أنا، أنا!
تعود حرّة إلى القفز فوق السرير تغنّي صارخة: أنا، أنا! أنا أروي كلللللللّ القصة.
- لكنكِ لا تعرفين حتى مَن هو آدم ولماذا هرب من الجنّة!
- أنا أعرف، أنا أعرف، أنا أروي القصة *لا أنت!*

لم لا؟ ما الذي يدعوني إلى الاعتقاد أن روايتي أحسن من روايتها؟ أليست كلُّ تصوراتنا للعالم قصصا يرويها أطفال لأطفال. لأسمعها، ربما لديها أفكارٌ أستولي عليها لتحسين التي أوَلّفها منذ عقود. وعلى كل حال أليس قدر الانسان أن يواصل إلى ما لا نهاية خلق القصص التي تخلقه وهو داخلها الخالق المخلوق ؟

- إن أيقظتِ هناء تتحملين وحدَك مسؤولية تدخّلها المتواصل. الكلمة الآن لأميرتي الجميلة. تفضلي. الرجاء عدم الاختصار وأخذ كلللللللّ الوقت.
تهمس حرة في أذني وقد اكتسبت ملامحُها جدّيَةً مفاجِئة.
- جدّي لا أريد أن تموت أبدا... أبدا... أبدا!
- يا بنت، ماذا فعلتُ لك لكي تطلبي مني شيئا كهذا. على كل حال ما زال أمامي ما يكفي من الوقت لسماع روايتك. انتبهي، قواعد اللعبة- واسألي أمكِ-أن أفتكَّها منك إن أخذتِها في اتجاهٍ لا يُعجبني. يا الله، كلّي آذان صاغية.
تُسلّط حرّة نظرة أخيرة على أخت مغمضة العينين. تتنفّس الصعداء وقد تأكدت أنه لا شبح ابتسامة على محيّاها يفضح تظاهرها بالنوم.
تضع رأس إيتي على المخدّة بكثير من العناية.
تحدّق فيّ مبتسمة ثم تهمس:
- كان يا ما كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان أمير جميل اسمه آدم...

الخبر الطيب أو كيف تجعل الرؤيا رحلتك لا تنتهي إلا لتتجدّد في ما لا يحصى من الإمكانيات

لا أحد يتذكّر كيف كانت مشاعره قبل أن يلفظه الرحم ولا أحد أَبقَى لنا أبلغَ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت.
هكذا حكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به.
لتعويض البياض في أخر صفحة نصوص رحلات كل الذين حجوا قبلنا لهذا العالم، إليك هذا المشهد يتخيل الأحداث أو يستبقها:
يتصاعد من مكبّر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالًا إلى بوابة المغادرة.
يتوجه المغادرون إلى الباب الدوّار وعلى الوجوه قلق لا يَنجحون في إخفائه.
آه هذه الدنيا التي آن الأوان لتوديعها!

تَمَلَّكَها الآتي تَمَلُّكَ سالِبٍ وَفارَقَها الماضي فِراقَ سَليبِ (المتنبي)

بعضهم يَجرّون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهريبها إلى العالم الآخر. عبثا، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة ولا يستثنون أحدا لشدة حرصهم على بقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا اختلط الحابل بالنابل وضاعت طرافة كل عالم.
من مقعد شاغر بغرفة الانتظار أتابع بالبصر وبالخيال الذين وصل طريقهم مثلي لآخر مفترقاته في هذا العالم.
كَم أودّ أن أسألهم واحدا واحدا: ما تقييمك للتجربة؟
أَستقبَل بالعودة لهذا العالم لو عُرض عليك الأمر؟
هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم مُلحدٌ مُطمئنٌّ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدّد الأزلي؟
على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق لمفترق الوداع الأخير، هلّا أشبعتَ فضولي بالرد على سؤال تابعني طوال الحياة دون أن أتجاسر على إلقائه يوما على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبهها كثيرا رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدتَ نفسك فيها وهل هي حقّا -كما أردتُ-في التفاصيل سيرةُ ذاتٍ وفي الثوابت سيرةُ كلِّ ذات؟
يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرة بتخصيصٍ يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء:
الرجاء الآن من السيّد غريب التقدُّمَ لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.
السيد مَن؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أُواصِل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفاتي المبعثرة.
فجأة يتجدّد النداء بحدّة تنمّ عن توتّر عصبي لا زال في بدايته: المطلوب من المدعوّ غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.
تُرى ما سببُ عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يرنّ في غرفة النزل، أو أنه رنّ فهشّمه بقبضة يد نافدة الصبر. ربما لم يُكمِل بحثه ولم ينته من تدبيج تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. بِربّك أيُّ تقرير جدّيٍ يمكنكَ كتابتُه وهذا عالمٌ عَبرتَه كَمَن يزور مدينةً سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... عالم مثل فيلم نَدخله بعد بداية العرض، يُطلب منا الخروج قبل نهايته ولا يُعطَى لنا حتى الوقتُ الكافي لاكتشاف أحسن وضعٍ للجلوس.
يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالًا فسترى ماذا سنفعل بك.
كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداءُ يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار يا ابن الكلب، وبعدها تتحمّل مسؤولياتك.
متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرعَ مما كنتُ أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحتُ في علاج أغلب أمراضي بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد منها لم يتبخر بمحاولة إيهامه أنني لستُ أنا المعنيُ بأعراضه المزعجة.

تفتّ فؤادك الأيام فتّا وتنحت جسمك الساعات نحتا (الالبيري)
وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاحِ أنت من أريد أنتا

يصرخ الآن في المصدح ذَكَرٌ يبدو أنه أخذ الملفّ على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطلّع روحك.
يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشتمه. الكلب ابن الكلب، بعد نهاية الدوام الإداري سيعود هو وكم من غبيّ آخر إلى بيته وأنا من سَيَقضي ليلته الأولى في القبر.

ينفجر الكلب ابن كلب المذكور أعلاه بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة: أنه مِن قَوم حاوَل نبيُّهم أن يُعلّمهم أنه لا أَكْل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع أبدا وها هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنيابه وأظافره بخشب الطاولة.

حقا أغادر الوليمة جائعا؟ كلا يا لكع بن لكع ، نِلتُ من الحياة كلَّ ما بوُسعها بَذله.

"طلبتُ القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)
فأعطاني الصعوباتِ لأقوَى
طلبتُ العِلم
فأعطاني مشاكلَ للحلّ
طلبت الرخاء
فأعطاني عضلاتٍ للعمل
طلبتُ قدرة الطيران
فأعطاني عَقَبات أتسلقها
طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي
طلبت امتيازات
فأعطاني مواهبَ
لم أحصل على أي شيء مما طلبت
لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج " .

نعم، ممنوع على الذات بحكمة ربانية تحقيق كل شهواتها وأهدافها مهما تشنجت وتوترت، إذ لو تحققت هذه الشهوات والأهداف لأصبحت القوى المبهمة التي تعطي لحياتها وهجها تدور في الفراغ.

يزداد الوضع احراجا: صراخ متفاقم الحدّة وبدايةُ تجمُّعٍ حولي.

كم مرّةً يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطولَ للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مختلفة، فيهزون الأكتاف باستخفاف، بل ويصرخون في مكبّر الصوت بقلة أدب: تعال يا روح أمّك طلّعت روحنا.

مهما صرخوا لن أتحرّك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن وفي مثل هذا الموضوع...نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الآدميين وقد حافظ جلّهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أُحبّهم بما فيه الكفاية.

كم بديهي الردّ على السؤال سيّد الأسئلة. كلنا في هذا العالم ليخلق ''الشيءُ'' عبر حواسنا وأفكارنا وخيالنا عالما آخر، لكي يجرب عبر ما نُمثل من الأدوار وما نعيش من القصص كيف يكون الوجودُ آدميا لا يبالي في استكشافه هذا أن يعيش أروع الحالات وهو المحب المحبوب، وأفظعها وهو الضحية والجلاد.

ولأنه هو-نحن، ولأننا نحن-هو، فإن ''الشيء'' لا يجرب فينا إلا على ذاته، ونحن بدورنا لا نجرّب كل ما نجرب من نجاح ومن فشل، من يأس ومن أمل، من سعادة ومن شقاء، من مصاعب الحياة وآلام الموت إلا ... به وله.

مَن هذا الغبي المنتصِب أمامي؟ الغبيّ المعني بالشتيمة، كائنٌ من هيكل عظمي يحمل منجلا يربت به على كتفي: يا الله، أمامي يا فخامة الحاج الأستاذ الدكتور الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوّة.

العالَم الآن يرمي في وجهي قُفّاز التحدّي الأخير: بعد نجاحكَ لا -أدري كيف-في مواجهة صعوبات الحياة، ها هي صعوبة مواجهة الموت، أَرِني براعتك.

عشنا وجسر الموت قدّامنا فشمّر الآن لكي تعبره (المعرّي)

يا رؤيا، حان وقتك. ألم أعدّك طيلة هذه السنين لهذه اللحظة، لا تخذليني.

تقول صارخا أنت الآخَر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو مَلاك خبيثِ النوايا، لَبِنَةٌ مشقوقة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين. كيف تريدني أن آخذك على محمل الجدّ؟

ما لكم كلّكم معي هذا اليوم؟ وعلى كل حال متى كنت متوافقا طول الوقت مع آرائي حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟

هنا أسلّط عليكَ نظرة أتكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلتَ إزعاجي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثول بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله عند الباب في مؤخرته العظمية. آنذاك تَدبّر أمرك معه وحاول تكذيبي إن تَرك لك الوقت.

كل هذا الكلام لا يؤخّر ولا يقدّم. عليّ الإسراعُ بإتمام وصيتي والتأكدُ من خلوّها من الأغلاط.

وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجةُ حالة العالم الذي تغادر!
نعم لكن ألم أجد عند كبار الرحالة ما هداني إلى كم من معلم في مختلف فضاءات هذا العالم كنت أموت غمّا لو لم ينبهني أحدٌ منهم لوجوده؟ يتواصل الشدّ والجذب داخلي حتى في هذه اللحظة كما كان الأمر دوما طيلة الحياة.
ماذا تعلمت أنا نفسي لأدّعي تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب ان يعلم؟
بضعة أشياء ربما قد تعين ولو ذاتا واحدة. أليس من واجبي قبل أن أتبخّر في المجهول الذي انبثقت منه أن أنبّه كل قادم جديد لكون هذا العالَم مُغامرةٌ لم تقرّر بعدُ مسارَها ومَرفَأَها لا مُعطًى حُدّدت له خصائص ومهامّ منذ الأزل ...أن أحذّره من حشره في أسطورة تدّعي من القداسة ما تدّعي والحال أنه لا قدرة لِدِين، لفلسفة، لِعِلم، على استنفاذ ثرائه الفاحش وحراكه المتفجّر...أن أوصيه بقبول بقاءه إلى الأبد لُغزَ الألغاز، المفاجأةُ خاصيتُه وأسلوبُه... أن أكرر له نصحي بأن يستكشف ما تيسّر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل محذّرا بأعلى صوت من تبلّد مزمن يُطفِئ فيه جذوة التعجبّ والاعجاب...أن أهمس في أذنه بأهم نصيحة تأمّلْ هذا العالم الذي ستغادر يوما قد لا يكون بعيدا كالرّسّام ينقل البصر بين غروب الشمس ولوحته البكر، وأي لوحة تستوفي بهاء الشمس وهي على ألف حال وحال!
وأيضا لكل من يريد بناء بيته الروحي الخاص هذه النصائح إن لم تنفعه كثيرا فلن تضره في شيء: أنصت إلى الهمس الذي لا يتوقف داخلك... اترك الأفكار الجديدة تنضج ببالغ البطء والحذر...لا تعجل عليها وإلا فرّت نحو الأعماق تعابثك وتعاقبك على نفاد صبرك بالاختفاء طويلا... احذر من أفكارك قبل الحذر من أفكار الآخرين...استعمل أذهانهم كمطرقة لتفحص متانة آرائك، للمراجعة التي يتضح ضعفها... الفاسدة لسلة المهملات غير مأسوف عليها...التي تصمد لأشرس نقد في ملف القناعات المؤقتة..انتبه عند عرض أفكارك... الجزء المضيء فيك يريد تعريضها إلى أقسى الامتحانات للتأكد من صلابتها... الجزء المظلم فيك يقدّمها طالبا القبول غير المشروط تحت غطاء تواضع كاذب...لا تتوقّف عن تفحّص تصوراتك تحيينا وتحسينا ...إن تماشت مع العقل والعاطفة، وإن لم تكذّبها التجربة، اقبلها مرحليا...إن ناقضتها، اتركها غير مأسوف عليها...كن مسؤولا فالتصورات كائنات حية تزرع في فضاء الرموز، بعضها ينبت فيه كالريحان وبعضها كالشوك..تساءل: هل بوسع التي أقبل و أنشر أن تقلّل من معاناة الكائنات..إن كانت الإجابة بنعم، تعهّدها بالسقي كما لو كانت أندر الأزهار...اجتثها كالشوك بلا تردّد إن كان الردّ بالنفي...كن دوما تلميذ نفسك النجيب، أستاذها العطوف وممتحنها الصارم...كن عاقلا لا ناقلا، مجددا لا مردّدا، مبدعا لا معلّقا.

خَلاص، فرغت من كتابة هذه النصائح على الطاير كما يقال خاصة الأسطر الأخيرة لمعلقتي. لم يبق بعد وضعها في زجاجة ورمي الزجاجة في أوسع البحار غير الإستئذان والتوجه للباب الدوّار.

ترى ماذا أضافت قصتي للعالم؟ ماذا تضيف القطرة للمحيط؟ ماذا تضيف حبة الرمل للصحراء؟ ماذا يضيف نجم يتيم للكون الشاسع؟ لا شيء ومع هذا ...هل للمحيط كيان خارج القطرات التي تكوّنه؟ هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي توجدها وهل للعالم قصة خارج قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

أمام آخر مفترق طريقَ لي في هذا العالم الخيار بين روايتين لِما حدث.
[الأولى التي يجب أن يكذّبها تلامذتي باستنكار شديد] أنني نهضتُ من مقعدي خائفا مرتبكا ،أنني أدرتُ البصر باحثا عن مَهرب، أن عزرائيلهم انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذا بخناقي، أنني أَفلتُّ منه بحركة بارعة حاشرا جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخا أنه مَلّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخا آه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لتُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جرّا من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقي وأنا الممسك بخناقه، أن اللعين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأنني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذا بالله من هذا الرهط من البشر.
[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شُغلُهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفسا الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الورقة، مُصافحا عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتُه إلى المشي أمامي فقال بل تَفضّل فأنت المدعوُّ الشرفي، فتفضلتُ قاصدا الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدِّق أنني لم أعضّه كما كان

يَتوقع، هو الذي صدَّقَ -مثل الكثيرين-كلَّ الإشاعات عني، أنني غافلته لألصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديرا ظهري لما مضى فاتحا ذراعيّ لما سيأتي.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محدّقا بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ آن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثّره، تَتبعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرَّر.

يهمس شبحٌ: لا تَخَف، الجسم مهيأ للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهّل العبور.

ومما يقال أيضا عن هذه اللحظة المفصلية ان المرتحل يستجمع وهو يطلق آخر أنفاسه أهمّ لحظات حياته المنتهية.

تتدافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة ... أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... ... لذّة المشي حافيا على العشب المبلل بِقَطر النّدَى، على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج ... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت..لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب... ...الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! ...هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها... ...كم وقف عند هذا الجبل من رُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة... وأروع شهادة عن هذا العالم أغنية What a wonderful world ... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار! وسط النفق الرابط بين العوالم ألف طريق وطريق. الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مَهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجِنّة في رحم الخيال. تتدافع الكائنات المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لستِ الوحيدة، لا أدري هل أخاطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى ‘‘هنا’’، على كل حال برافو، أحببتُ أداءك... مَن رأى "أين في الناس"؟ ... أخذ ملفّه للمهمة الجديدة غاضبا وشتم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرّة العقرب... آه، هذا أنت من لاعبني دور "ح"! ... لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ ... لأنني كنت أعلم الرد... ولو... والآن إلى أين...؟ صعب عليّ فراقك... رأيتَ في مرآة ذاتك أجملَ صوَر ذاتي وأجمل صور الآدمي...تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم... لمَ لا يكون لنا لقاءٌ جديد في حلم لم يحلمه قبلنا أحد؟ آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة... خلاص، اذهبي أو اذهب في حال سبيلك... رجاء لا عودة إلى التدخين وجملةً إنها سيجارتي الأخيرة... آه، هذا أنت، يا مَن كنتَ لي ابن الخال! ... ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران... غفرتُ لك أنك كنتَ أول من بثّ فيَ هاجسَ الموت... حظًّا سعيدا في رحلاتك المقبلة وحذارِ من حصباء العوالم المجهولة... أنت ‘‘هنا’’! كنتُ أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ ... آه كنتَ تمثّل! طبعا وأنا أيضا، كلّنا كنا نمثل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنتَ لاعبا ماهرا وخبيثا، أجبرتَني على أن أستلّ من أعماقي كلَّ طاقاتي لمواجهة ضرباتك الموجِعة... وأنا أيضا أوجَعتُك كثيرا! شكرا على الثناء... وأنت، مَن أنت، لا أتذكّرك؟ ... آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميلُ أكْلَ كبدك ونحن نشرحُك؟ كنتَ تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركتُك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخيّبتُ ظنّك لَما فررتُ أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي مالٌ كافٍ لشرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنتَ تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم للاجتماع الهامّ! على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على طريدتك أو أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت الغزال الذي يتنفس في عُنقه الأسد، أمرٌ مفهوم. لكن ما الذي دهاك لتُجرّب شيئا بغباء الوجود خروفا؟ آه، لم يكن ذلك مشروعك الأخرق الوحيد. سأفتعل عدم فهم التلميح... تتنهّد أن الوجود لم يكن أسهل في أي من عوالمك الأخرى لكنك ستواصل التجربة حتى بالشطط في ثمنها لِملاحمَ أكثر إثارة وخطرا. موافق، موافق، موافق، خاصة أكثرها خطرا... لا شيء أَحبُّ لديّ من الأخطار... بالمناسبة تهانيّ الحارة وأنت-أنا-هم كلنا تلك السلحفاة المولودة الجديدة تركض نحو البحر والطيورُ الجائعة تنقض عليك لتخطف حياةً في أُولى بداياتها... يا مَا أظهرت-ا ما أظهروا-ما أظهرنا من شجاعة تلك الليلة ثم بقيةَ العمر وأنت –أنا-نحن نصارع محيطا كاملا للبقاء... أنجحُ أدوارك-ادواهم –ادوارنا على الإطلاق...ماذا عن مغامرتي-مغامرتك-مغامرتنا المقبلة؟ الأمر كما تقرر من الأزل لما تجود به شطحات الخيال وعطايا المفاجأة ...

آخِرُ الصوَر التي تَعبُر ذِهنا بصدد إغلاق آخر ملفٍ شَبَح شيخٍ مُنحَنٍ على الأرض يَضرب بمسحاته القصيرة الأرضَ ببالغ اللطف، كأنه يخشى عليها من الوَجَع، يَعِدُ الصحراء لوعد القمح إن جادت السماء يوما بالمطر.

حانت اللحظة القدسية التي تتفكك فيها النصوص إلى الحروف الأولى، التي تتفكّك فيها السمفونيات إلى الأصوات والصمت، اللحظة القدسية التي تُعيد فيها اليدُ الخفيةُ خَلط الأوراق ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل، لتنتظم الحروف في نصوص تجدّد القصص، لتتجمّع الأصوات في أصناف من الموسيقى لم تعرف سحرَها ذاتٌ.

يتسارع التوغّل في أعماق ذاتٍ بصدد إطفاء الأنوار داخلها.

شيئا فشيئا تخفت أصوات قطرات مطر يرتطم بزجاج النافذة.

يتوقف عازف البيانو عن النقر. يبهتُ تدريجيا بريق النجوم. تتلاشى ابتسامة خجول من الأفق. يتعمّق صمت الصحراء. تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج لَمّا يأتيها الأمر من القمر.

انتهى العالَم المنتهي من جمع أشيائه وكلِّ أدوات الإغراء.

دمعة حارقة تسيل على خدٍّ سيسكنه إلى الأبد الصقيع، تذرفها أصعبُ بنت على أصعب أب. لم نعد بحاجة للمشي على خدّ والحبيبُ لا يشاء إلا ما شاء المحبوب، والمحبوب لا يشاء إلا ما شاء الحبيب.

يزداد استرخاء شيخ به الآن شُبه نَفاد صبرٍ مَن يعرف أنه في آخر خطوة لملاقاة الموعود.

الانتباه الآن على أقصاه. فجأة يستأنف الشيخ ذلك الحلم الذي توقف ليلة تسلقه وهو في سنواته الأولى سلما سحريا يروم به وصول القمر والتسلل عبره لما وراء ستار الصمت والنجوم والليل. ألم يكن وحده المدرك أنه الكوة البراقة التي تفتح على عرش فخم يجلس عليه شيخ جبار كان على ثقة أنه سيحضنه، أنه سيلبّي له كل أمانيه، أنه يستجيب لكل صلوات أمه. أخيرا ورحلته شارفت نهايتها يستطيع الحالم حشر جسمه في هالة النور لتعقد الدهشة لسانه .هو الآن وسط فضاء لا يحدّه أفق تتلألأ في كل ارجائه انوار تشع وتنطفئ، تبرق وتخفت، تتجمع وتتطاير كشرار الألعاب النارية. إنها أنوار كل الكائنات التي ارتحلت، التي تتأهب للرحيل...وكلها تنبض وعيا وشعورا، ارادة وذكاء.

داخل الذات الراضية المطمئنة للشيخ-الطفل ثقة مطلقة أنه رجع أخيرا الي مسقط رأسه، الى الوطن الذي لا غربة فيه، إلى اين تشوقت ذاته دوما للرجوع... أنه أمام العرش.

الذاتُ الآن كقطرة عَبَرت السماءَ سحابا عَرفَت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل زَخَم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيع وتتجدّد في أوسع ذاتٍ، في الذات الأوسع.

نعم، إنا لله وإليه راجعون.

افتحي باب شساعتكِ يا عَتَمة، إنني جاهز ويا قِوى الدمار تَرفّقي بأناتي التي أترك، ويا قوى التوازن والتعافي اعطِها شجاعةَ المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق.

يدخل البحّار في إغفاءة تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر.

ثم ينتبه لعودة المدّ انتهى جزر الزمان.

"ما أن جذبت كفني على عينيّ *(هايكو عربي مهدى لروح ايسا)*
حتى تصاعد الصراخ من ألف ألف حنجرة
وأنا /نحن /هو كل مولود جديد"

**

عالم الآدميين، 350.000 جيلا بعد طوماي، 77حولا بعد هيروشيما

مُعلَّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالةٌ-لحظة من العالم،
العالَم شكلٌ-حالةٌ-لحظةٌ من "الشيء"،
"الشيء" هو كل شيء، كل شيء هو "الشيء"،
مَثل " الشيء" كمَثل دَوحة ولّادة يَبلى الزمانُ ولا تَبلى،
ثمارها ما في الكون من كائناتٍ-عوالِمٍ،
نَمْلٌ، نَحْلٌ، قَمْل، فِطر، شَجر، بَشر،
فيض من المخلوقات، تتبارى غرابة وإعجازا،
تتساوى قيمةً وقداسة، أمامها تُحنى الهامات تهيّبا واحتراما،
و "الشيءُ" كالفنّان في أوَج الخلق، كالطفل في غمرة اللّعب،
يستكشف عبرها الطّيفَ اللّامتناهي لإمكانيات الوجود،

هكذا بلورَ من وحي ابداعه عالَمَ السراب هذا،
أقطعه طرفا من المكان، أجازه قبسا من الزمان،
أَرسى دعائمه على قوانين هي إرادته،
سَنَّ ألّاوجود فيه إلا وهو صراعُ-تعاضدُ الأضداد،
ألاّ نظام دون الخواء، ألاّ حياة إلا ومعها الموت،
الألم شرط وجود المتعة، الشرّ حتى يكون للخير معنى،
الكل آكل ومأكول، الكلّ فريسة وصياد،
البِناء والإعمار من الأزل، الهدم والدمار إلى الأزَل،
عالم على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بألم الخطأ والخطيئة،
على أحسن حال ودواليبه الخلاقة تعدّل كل عيب بذكاء عجيب،
على الدوام الجحيمُ وسطَ الجنّة، الجنّةُ وسطَ الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من الترديد والملل،
والآدمية الفاعلُ، المفعولُ بها والفِعل،
يتبلور "الشيءُ" في كلُّ ممثّل، في كلُّ مُخرج وفي كلُّ دَور،
يستكشف عبر رحلة الأفراد والشعوب والأمم،
مِن الأحاسيس، من المشاعر، مِن الأفكار، من الأعمال،
ما لم يَعِش في أيٍّ من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيّان عنده السعادةُ والشقاء، السلام والحرب، النجاح والفشل،
كلها تَجاربُ على ذاته، تمضي كالكابوس تأتي كالحُلُم،
وفيك كما لو كنتَ محاوَلَتَه الأولى،
كما لو كنتَ رهانَه الأخير،
يواصل سبر أغوار حُلوِ ومُرّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كَلَا شيء لأنه الجزء في الكلّ،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكلّ في الجزء،
لا سبب للوجود إلّا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو هدف،
الموتُ تفكيك القديمِ لتركيبِ الجديد بنفس اللبنات،
عند هذا المنعطف من طريقٍ لا تُعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضَى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه، تُوّجت بإكليل الغار أو الشوك،
كيف لا وقد أوجدت عالما طريفا بأسره،
ارتحلت بين أهواله وروائعه،
وأنت بعض من إبداع "الشيءِ" يمشي على قدمَين.

* *

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.

جزيل الشكر أيضا لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلمو ولد دلاهي ولد المعلوم.

أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر للقارئ الذي شرّفني بقراءة هذا العمل وكلّي أمل أن يكون قد وجد فيه بعضاً مما نفتح كلّنا من أجله الكتب.

المؤلف

طبيب، كاتب، حقوقي، رئيس تونس الأسبق

الكتاب

في المتغيرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات